السيرة النبوية

عرض وقائع وتحليل أحداث

(دروس وعبر)

تأليف

د. علي محمَّد محمَّد الصلابي

الجزء الثاني

السيرة النبوية

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م

الفصل الخامس

الطَّواف على القبائل ، وهجرة الصَّحابة إلى المدينة

المبحث الأوَّل

الطَّواف على القبائل طلباً للنُّصرة

بعد رجوعه (ص) من الطَّائف بدأ يعرض نفسه على القبائل في المواسم ، يشرح لهم الإسلام ، ويطلب منهم الإيواء ، والنُّصرة ، حتَّى يبلِّغ كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. وكان رسول الله (ص) يتحرَّك في المواسم التِّجارية ، ومواسم الحجِّ الَّتي تجتمع فيها القبائل وَفْق خطَّةٍ سياسيَّةٍ دعويَّةٍ واضحة المعالم ، ومحدَّدة الأهداف ، وكان يصاحبه أبو بكر الصِّدِّيق؛ الرَّجل الَّذي تخصَّص في معرفة أنساب العرب ، وتاريخها ، وكانا يقصدان «غُرَر النَّاس ، ووجوه القبائل ، وكان أبو بكر رضي الله عنه ، يسأل وجوه القبائل ، ويقول لهم: كيف العدد فيكم؟ وكيف المنعة فيكم؟ وكيف الحرب فيكم؟ وذلك قبل أن يتحدَّث رسولُ الله (ص) ، ويعرض دعوته»[(١)].

يقول المقريزي: «ثمَّ عرض (ص) نفسه على القبائل أيَّام المواسم ، ودعاهم إلى الإسلام ، وهم بنو عامر ، وغسَّان ، وبنو فَزَارة ، وبنو مرَّة ، وبنو حنيفة ، وبنو سليم ، وبنو عبس ، وبنو نصر ، وثعلبة بن عكابة ، وكندة وكلب ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو عذرة ، وقيس بن الخطيم ، وأبو اليسر أنس بن أبي رافع» وقد استقصى الواقديُّ أخبار هذه القبائل قبيلةً قبيلةً ، ويقال: إنَّه (ص) بدأ بكندة ، فدعاهم إلى الإسلام ، ثمَّ أتى كلباً ، ثمَّ بني حنيفة ، ثمَّ بني عامر ، وجعل يقول: «مَنْ رجلٌ يحملني إلى قومه ، فيمنعني؛ حتَّى أبلغ رسالة ربِّي؛ فإنَّ قريشاً قد منعوني أن أبلِّغ رسالة ربِّي؟» هذا وأبو لهب وراءه يقول للنَّاس: لا تسمعوا منه؛ فإنَّه كذاب» [أحمد (٣/٤٩٢ ، ٤٩٣) وابن هشام (٢/٦٤ ـ ٦٥)][(٢)] .

وقد تعرَّض (ص) للأذى العظيم ، فقد روى التِّرمذيُّ عن جابرٍ رضي الله عنه قال: كان النَّبيُّ (ص) يعرض نفسه بالموقف ، فيقول: «ألا رجلٌ يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلِّغ كلام ربِّي» [أبو داود (٤٧٣٤) والترمذي (٢٩٢٥) وابن ماجه (٢٠١) وأحمد (٣/٣٩٠)] وظلَّ النَّبيُّ (ص) في تردُّده على القبائل يدعوهم ، فيردُّون عليه أقبح الرَّدِّ ، ويؤذونه ، ويقولون: قومه أعلم به ، وكيف

يُصلحنا مَنْ أفسد قومه؟! فلفظوه[(٣)] وكانت الشَّائعات الَّتي تنشرها قريشٌ في أوساط الحجَّاج تجد رواجاً ، وقبولاً؛ مثل: الصابأى ، وغلام بني هاشم الَّذي يزعم: أنَّه رسول ، وغير ذلك ، ولا شكَّ: أن هذا كان ممَّا يحزُّ في نفس الرَّسول (ص) ، ويضاعف ألم التَّكذيب ، وعدم الاستجابة[(٤)].

ولم يقتصر الأذى على ذلك ، بل واجه الرَّسول (ص) ما هو أشدُّ ، وأقسى ، فقد روى البخاريُّ في تاريخه ، والطَّبرانيُّ في الكبير عن مدرك بن منيب أيضاً ، عن أبيه عن جدِّه رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله (ص) في الجاهليَّة ، وهو يقول: «يا أيها النَّاس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا» ، فمنهم من تفلَ في وجهه ، ومنهم من حثا عليه التُّراب ، ومنهم من سبَّه؛ حتَّى انتصف النَّهار ، فأقبلت جاريةٌ بِعُسٍّ من ماءٍ ، فغسل وجهه ، ويديه ، وقال: «يا بنية ! لا تَخْشَيْ على أبيك غلبةً ، ولا ذلَّةً !» فقلت: من هذه ؟ قالوا: زينب بنت رسول الله (ص) ، وهي جاريةٌ وضيئةٌ. [البخاري في التاريخ الكبير (١٤/٢/٤) والطبراني في المعجم الكبير (٣٤٢/٢٠) ومجمع الزوائد (٢١/٦)][(٥)] .

وقد كان أبو جهل ، وأبو لهب ـ لعنهما الله ـ يتناوبان على أذيَّة رسول الله (ص) عندما يدعو في الأسواق ، والمواسم ، وكان يجد منهما عنتاً كبيراً إضافةً إلى ما يلحقه من المدعوِّين أنفسهم[(٦)].

أولاً: من أساليب النَّبيِّ (ص) في الردِّ على مكائد أبي جهلٍ ، والمشركين في أثناء الطَّواف على القبائل:

١ ـ مقابلة القبائل في اللَّيل:

فكان (ص) من حكمته العالية يخرج لمقابلة القبائل في ظلام اللَّيل؛ حتَّى لا يحول بينه وبينهم

أحدٌ من المشركين[(٧)] ، وقد نجح هذا العمل في إبطال مفعول الدِّعاية المضادَّة؛ الَّتي كانت تتبعها قريشٌ ، كلَّما اتَّصل الرَّسول (ص) بقبيلةٍ من القبائل ، والدَّليل على نجاح هذا الأسلوب المضادِّ ، اتِّصال الرَّسول (ص) بالأوس ، والخزرج ليلاً ، وَمِنْ ثمَّ كانت العقبة الأولى ، والثَّانية ليلاً[(٨)].

٢ ـ ذهاب الرَّسول (ص) إلى القبائل في منازلهم:

فقد أتى كلباً ، وبني حنيفة ، وبني عامر في منازلهم[(٩)]؛ وبذلك يحاول أن يبتعد عن مطاردة قريش ، فيستطيع أن يتفاوض مع القبائل بالطَّريقة المناسبة ، دونما تشويشٍ ، أو تشويهٍ من قريش.

٣ ـ اصطحاب الأعوان:

كان أبو بكر ، وعليٌّ رضي الله عنهما يرافقان الرَّسول (ص) في بعض مفاوضاته ، مع بعض القبائل ، وربَّما كانت هذه الرُّفقة لأجل ألا يظنَّ المدعوُّون: أنَّه وحيدٌ ، ولا أعوان له من أشراف قومه، وأقاربه،

هذا إلى جانب معرفة أبي بكرٍ رضي الله عنه بأنساب العرب[(١٠)] ، الأمر الَّذي يساعد الرَّسول (ص) في التَّعرُّف على معادن القبائل ، فيقع الاختيار على أفضلها؛ لتحمل تَبِعَات الدَّعوة.

٤ . التأكُّد من حماية القبيلة:

ومن الجوانب الأمنيَّة المهمَّة ، سؤاله (ص) عن المنعة ، والقوَّة لدى القبائل ، قبل أن يوجِّه إليهم الدَّعوة ، ويطلب منهم الحماية ، فقوَّة ، ومنعةُ القبيلة الَّتي تحمي الدَّعوة شيءٌ ضروريٌّ ، ومهمٌّ لابدَّ منه؛ لأنَّ هذه القبيلة ستواجه كلَّ قوى الشَّرِّ ، والباطل ، فلابدَّ أن تكون أهلاً لهذا الدَّور ، من حيث الاستعداد المعنويِّ والمادِّيِّ؛ الَّذي يرهب الأعداء ، ويحمي حمى الدَّعوة ، ويتحمَّل تبعات نشرها ، مزيلاً لكلِّ العقبات؛ التي تقف في طريقها[(١١)].

ثانياً: المفاوضات مع بني عامر:

اختار الرَّسول (ص) أن يُجري مفاوضاتٍ مع بني عامرٍ ، وقامت تلك المفاوضات على

دراسةٍ ، وتخطيطٍ ، فالرَّسول (ص) ، وصاحبه أبو بكر ، كانا يعلمان: أنَّ بني عامر قبيلةٌ مقاتلةٌ كبيرةُ العدد ، وعزيزةُ الجانب؛ بل هي من القبائل الخمس الَّتي لم يمسَّها سِبَاءٌ[(١٢)] ، ولم تتبع لملكٍ ، ولم تؤدِّ إتاوة ، مثلها مثل قريش ، وخزاعة[(١٣)] ، كما أنَّ الرَّسول (ص) كان يعلم: أنَّ هنالك تضادّاً قديماً بين بني عامرٍ ، وثقيف ، فإذا كانت ثقيف امتنعت عليه من الدَّاخل ، فلماذا لا يحاول أيضاً تطويقها من الخارج ، والاستفادة في ذلك من بني عامر بن صعصعة ، فإذا استطاع النَّبيُّ (ص) أن يبرم حلفاً مع بني عامر؛ فإنَّ موقف ثقيفٍ سيكون على حافة الخطر[(١٤)].

يذكر أصحاب السِّيرة: أنَّ الرَّسول (ص) لما أتى بني عامر بن صعصعة ، فدعا إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، قال له رجلٌ منهم يقال له: بَيْحَرَة بن فِراس: والله! لو أني أخذت هذا الفتى من قريش ، لأكلت به العرب ، ثمَّ قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ، ثمَّ أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمرُ لله يضعه حيث يشاء ، فقال له: أَفَتُهْدَفُ نحورنا للعرب دونَك ، فإذا أظهرك الله: كان الأمر لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرك! فأبوا عليه. [ابن هشام (٢/٦٦) وأبو نعيم في الدلائل (٢١٥) والطبري في تاريخه (٢/٣٥٠ . ٣٥١) وابن سعد مختصراً (١/٢١٦)] .

ثالثاً: المفاوضات مع بني شيبان:

ففي رواية عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: لما أمر الله . عزَّ وجلَّ . نبيَّه (ص) أن يعرض نفسه على قبائل العرب؛ خرج ، وأنا معه... إلى أن قال: ثمَّ دفعنا إلى مجلس اخر ، عليه السَّكينة ، والوقار ،

فتقدَّم أبو بكر ، فسلَّم ، فقال: مَنِ القوم؟ قالوا: شيبان بن ثعلبة ، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله (ص) ، وقال: بأبي ، وأمي! هؤلاء غُرَر النَّاس ، وفيهم مفروقٌ قد غلبهم لساناً وجمالاً ، وكانت له غديرتان تسقطان على تَرِيبَتَيْه ، وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكرٍ ، فقال أبو بكر: كيف العَدَدُ فيكم؟ فقال مفروق: إنَّا لنزيد على الألف ، ولن تُغلب ألفٌ من قلَّة. فقال أبو بكر: وكيف المنعة فيكم؟ فقال مفروقٌ: إنا لأشدُّ ما نكون غضباً حين نلقى ، وأشدُّ ما نكون لقاءً حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسِّلاح على اللِّقاح ، والنَّصر من عند الله يديلنا مرَّةً ، ويديل علينا أخرى ، لعلَّك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: إن كان بلغكم: أنَّه رسول الله (ص) ، فها هو ذا. فقال مفروق: إلامَ تدعونا يا أخا قريش؟! فقال رسول الله (ص) : أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأنِّي عبد الله ورسوله ، وإلى أن تؤوُوني ، وتنصروني؛ فإنَّ قريشاً قد تظاهرت على الله ، وكذَّبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن

الحقِّ ، والله هو الغنيُّ الحميد ، فقال مفروق: وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش! فوالله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا؟ فتلا رسول الله (ص) : {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *} [الأنعام: ١٥١] .

قال مفروق: دعوت والله! إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولقد أفِك قومٌ كذَّبوك ، وظاهروا عليك ، ثمَّ ردَّ الأمر إلى هانأى بن قبيصة ، فقال: وهذا هانأى ، شيخنا ، وصاحب ديننا ، فقال هانأى: قد سمعتُ مقالتك يا أخا قريش! وإنِّي أرى تركنا ديننا ، واتِّباعنا دينك لمجلس جلست إلينا لا أوَّل له ، ولا اخر لذلٌّ في الرَّأي ، وقلَّةُ نظرٍ في العاقبة؛ إنَّ الزَّلَّة مع العجلة ، وإنَّا نكره أن نعقِد على مَنْ وراءنا عقداً ، ولكن نرجع ، وترجع ، وننظر ، ثمَّ كأنَّه أحبَّ أن يشركه المثنَّى بن حارثة ، فقال: وهذا المثنَّى ، شيخنا ، وصاحب حربنا ، فقال المثنَّى ـ وأسلم بعد ذلك ـ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش! والجواب فيه جواب هانأى بن قبيصة في تركنا ديننا ، ومتابعتنا دينك ، وإنَّا إنَّما نزلنا بين صريين؛ أحدهما: اليمامة ، والاخر: السَّمامة ، فقال له رسول الله (ص) : ما هذان الصَّريان؟ قال: أنهار كسرى ، ومياه العرب ، فأمَّا ما كان من أنهار كسرى ، فذنبٌ صاحبه غير مغفورٍ ، وعذره غير مقبولٍ ، وإنَّا إنما نزلنا على عهدٍ أخذه علينا كسرى ، ألا نحدث حدثاً ، ولا نُؤوي مُحدثاً ، وإنِّي أرى هذا الأمر الَّذي

تدعونا إليه يا أخا قريش! مما تكره الملوك ، فإن أحببت أن نُؤويك وننصرك ممَّا يلي مياه العرب فعلنا. فقال رسول الله (ص) : ما أسأتم في الردِّ إذ أفصحتم بالصِّدق ، وإنَّ دين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه ، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتَّى يورِّثكم الله تعالى أرضهم ، وديارهم ، ويفرشكم نساءهم ، أتسبِّحون الله وتقدِّسونه؟ فقال النُّعمان بن شريك: اللَّهمَّ فلك ذاك. [أبو نعيم في دلائل النبوة (٢١٤)][(١٥)] .

رابعاً: فوائد ، ودروس ، وعبر:

كانت النُّصرة الَّتي طلبها النَّبيُّ (ص) ذات صفةٍ مخصوصةٍ ، وذلك على النَّحو التالي:

١ ـ طلب الرَّسول (ص) للنُّصرة من خارج مكَّة إنَّما بدأ ينشط بشكلٍ ملحوظٍ بعد أن اشتدَّ الأذى عليه عَقِبَ وفاة عمِّه أبي طالب؛ الَّذي كان يحميه من قريش ، وذلك لأنَّ مَنْ يحمل الدَّعوة ، لن يستطيع أن يتحرَّك التَّحرُّك الفعَّال لأجلها ، وتوفير الاستجابة لها ، في جوٍّ من العنف ، والضَّغط ، والإرهاب.

٢ ـ كان عرض الرَّسول (ص) نفسه على القبائل يطلب منهم النُّصرة ، إنَّما هو بأمرٍ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له في ذلك ، وليس مجرَّد اجتهادٍ مِنْ قِبَلِ نفسه ، اقتضته الظُّروف؛ الَّتي وصلت إليها الدَّعوة في مكَّة.

٣ ـ حصر رسول الله (ص) طلب النُّصرة في زعماء القبائل ، وذوي الشَّرف ، والمكانة ممَّن لهم أتباعٌ يسمعون لهم ، ويُطيعون؛ لأنَّ هؤلاء هم القادرون على توفير الحماية للدَّعوة ، وصاحبها.

٤ ـ يلاحظ في سيرة النَّبيِّ (ص) ، بخصوص طلب النُّصرة: أنَّه كان يطلبها لأمرين اثنين:

أ ـ كان يطلبُ النُّصرة من أجل حماية تبليغ الدَّعوة؛ حتَّى تسير بين الناس محميَّة الجانب ، بعيدةً عن الإساءة إليها ، وإلى أتباعها.

ب ـ كان يطلب النُّصرة ، من أجل أن يتسلَّم النَّبيُّ (ص) مقاليد الحكم ، والسُّلطان على أساس تلك الدَّعوة ، وهذا ترتيبٌ طبيعيٌّ للأمور.

٥ ـ رفض النَّبيُّ (ص) أن يعطي القوى المستعدة لتقديم نُصرتها أيَّة ضماناتٍ ، بأن يكون لأشخاصهم شيءٌ من الحكم ، والسُّلطان على سبيل الثَّمن ، أو المكافأة لما يقدِّمونه من نُصرةٍ ، وتأييدٍ للدَّعوة الإسلاميَّة؛ وذلك لأنَّ الدَّعوة الإسلاميَّة إنَّما هي دعوةٌ إلى الله ، فالشَّرط الأساسيُّ فيمن يؤمن بها ، ويستعدُّ لنصرتها أن يكون الإخلاص لله ، ونشدان رضاه هما الغاية الَّتي يسعى إليها من النُّصرة والتَّضحية ، وليس طمعاً في نفوذٍ ، أو رغبةٍ في سلطانٍ ، وذلك لأنَّ الغاية التي يضعها الإنسان للشَّيء هي الَّتي تكيِّف نشاط الإنسان في السَّعي إليه ، فلابدَّ ـ إذاً ـ أن تتجرَّد الغاية المستهدفة من وراء نُصرة

الدَّعوة عن أيِّ مصلحةٍ مادِّيَّةٍ لضمان دوام التأييد لها ، وضمان المحافظة عليها من أيِّ انحرافٍ ، وضمان أقصى ما يمكن من بذل الدَّعم لها، وتقديم التَّضحيات في سبيلها[(١٦)] ، فيجب على كلِّ من يريد أن يلتزم بالجماعة؛ الَّتي تدعو إلى الله ألا يشترط عليها منصباً ، أو عرضاً من أعراض الدُّنيا؛ لأنَّ هذه الدَّعوة لله ، والأمر لله يضعه حيث يشاء ، والدَّاخل في أمر الدَّعوة إنَّما يريد ابتداءً وجه الله ، والعمل من أجل رفع رايته ، أمَّا إذا كان المنصب هو همَّه الشَّاغل؛ فهذه علامةٌ خطيرةٌ ، تنبأى عن دَخَنٍ في نيَّة صاحبها[(١٧)] ، لذا قال يحيى بن معاذ الرَّازي: «لا يفلح مَنْ شَمَمْتَ منه رائحة الرِّياسة»[(١٨)].

٦ . ومن صفة النُّصرة؛ الَّتي كان رسول الله (ص) يطلبها لدعوته من زعماء القبائل أن يكون أهل النُّصرة غير مرتبطين بمعاهداتٍ تتناقض مع الدَّعوة ، ولا يستطيعون التحرُّر منها؛ وذلك لأنَّ احتضانهم للدَّعوة . والحالة هذه . يُعرِّضها لخطر القضاء عليها ، مِنْ قِبَلِ الدُّول الَّتي بينهم وبينها تلك المعاهدات ، والَّتي تجد في الدَّعوة الإسلاميَّة خطراً عليها ، وتهديداً لمصالحها[(١٩)].

إنَّ الحماية المشروطة ، أو الجزئية لا تحقِّق الهدف المقصود ، فلن يخوض بنو شيبان حرباً ضدَّ كسرى؛ لو أراد القبض على رسول الله (ص) وتسليمه ، ولن يخوضوا حرباً ضدَّ كسرى؛ لو أراد مهاجمة محمَّد رسول الله (ص) ، وأتباعه ، وبذلك فشلت المباحثات[(٢٠)].

٧ . «إنَّ دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه» ، كان هذا الردُّ من النَّبيِّ (ص) على المثنَّى بن حارثة حين عرض على النَّبيِّ (ص) حمايته على مياه العرب دون مياه الفرس ، فمن يسبر أغوار السِّياسة البعيدة؛ يَرَ بُعْدَ النَّظر الإسلاميِّ النَّبويِّ الَّذي لا يُسامى[(٢١)].

٨ . كان موقف بني شيبان يتَّسم بالأَرْيَحِيَّةِ ، والخلق ، والرُّجولة ، وينمُّ عن تعظيم هذا النَّبيِّ (ص) ، وعن وضوح في العرض ، وتحديد مدى قدرة الحماية الَّتي يملكونها ، وقد بيَّنوا: أنَّ أمر الدَّعوة ممَّا تكرهه الملوك ، وقدَّر الله لشيبانَ بعد عشر سنين ، أو تزيد ، أن تحمل هي ابتداءً عبء مواجهة الملوك بعد أن أشرق قلبها بنور الإسلام، وكان المثنَّى بن حارثة الشَّيبانيُّ صاحب حربهم ، وبطلهم المغوار ، الَّذي قاد الفتوح في أرض العراق ، في خلافة الصِّدِّيق رضي الله عنه[(٢٢)] ، فكان وقومه من أجرأ المسلمين بعد إسلامهم على قتال الفرس ، بينما كانوا في جاهليتهم يرهبون الفرس ، ولا يفكِّرون في قتالهم؛ بل إنَّهم ردُّوا دعوة النَّبيِّ (ص) بعد اقتناعهم بها؛ لاحتمال أن تلجئهم إلى قتال الفرس ، الأمر الَّذي لم يكونوا

يفكِّرون فيه أبداً ، وبهذا نعلم عظمة هذا الدِّين؛ الَّذي رفع الله به المسلمين في الدُّنيا؛ حيث جعلهم سادة الأرض ، مع ما ينتظرون في أخراهم من النَّعيم الدَّائم ، في جنَّات النَّعيم[(٢٣)].

* * *

المبحث الثَّاني

مواكب الخير وطلائع النُّور

قال جابر بن عبد الله الأنصاريُّ:

«مكث رسول الله (ص) بمكَّة عشر سنين ، يَتَّبَّعُ النَّاس في منازلهم ، بعُكاظ ، ومجَنَّة ، وفي المواسم بمنى ، يقول: من يؤويني؟ من ينصرني حتَّى أبلِّغ رسالة ربي وله الجنة؟ حتَّى إنَّ الرجل ليخرج من اليمن، أو مُضَر، فيأتيه قومه ، فيقولون: احذر غلام قريش؛ لا يفتننَّك! ويمشي بين رجالهم؛ وهم يشيرون إليه بالأصابع ، حتَّى بعَثَنا اللهُ إليه من يثرب ، فاويناه ، وصدَّقناه ، فيخرج الرَّجل منا ، فيؤمن به ، ويقرئه القران ، فينقلب إلى أهله ، فيسلمون بإسلامه ، حتَّى لم يبقَ دارٌ من دور الأنصار ، إلا وفيها رهطٌ من المسلمين، يُظهرون الإسلام» [أحمد (٣/٣٢٢ ـ ٣٢٣، ٣٣٩ ـ ٣٤٠)] .

أوَّلاً: الاتِّصالات الأولى بالأنصار في مواسم الحجِّ ، والعمرة:

١ ـ إسلام سُوَيد بن الصَّامت:

كان رسولُ الله (ص) ، لا يسمع بقادمٍ يقدم مكَّة من العرب ، له اسمٌ ، وشرفٌ ، إلا تصدَّى له ، ودعاه إلى الله ، وعرض عليه ما جاء به من الهدى ، والحقِّ ، فقدم سُوَيد بن الصَّامت ـ أخو بني عمرو بن عوف ـ مكَّة حاجّاً ، أو معتمراً ، وكان سُوَيد يسمِّيه قومُه فيهم الكامل ، لجَلَده ، وشِعْره ، وشرفه ، ونسبه ، فتصدَّى له رسولُ الله (ص) حين سمع به ، فدعاه إلى الله ، وإلى الإسلام ، فقال له سُوَيد: فلعلَّ الذي معك مثلُ الَّذي معي؟ فقال له رسول الله (ص) : «وما الَّذي معك؟» قال:مجلَّة[(٢٤)]

لقمان ، فقال له رسول الله: «اعرضها عليَّ» فعرضها عليه ، فقال: «إنَّ هذا الكلام حسن ، والَّذي معي أفضل من هذا؟ قرانٌ أنزله الله عليَّ ، وهو هدًى ونورٌ» ، فتلا عليه رسول الله (ص) القران ، ودعاه إلى الإسلام ، فلم يَبْعُد منه ، وقال: إنَّ هذا القول حسنٌ ، ثمَّ انصرف عنه ، فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتله الخزرج ، وقد كان

رجالٌ من قومه يقولون: إنَّا لنراه قُتل؛ وهو مسلمٌ ، وكان قَتْلُه يوم بُعاث. [ابن هشام (٢/٦٧ ـ ٦٩) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٤١٨) والطبري في تاريخه (٢/٣٥١ ـ ٣٥٢)] .

وعلى أيَّة حالٍ ، لا توجد دلائل على قيام سُوَيد بن الصامت بالدَّعوة إلى الإسلام وسط قومه[(٢٥)].

٢ ـ إسلام إياس بن معاذ:

لما قدم أبو الحَيْسَر بن رافع مكَّة ، ومعه فتيانٌ من بني عبد الأشْهَل ، فيهم إياس بن معاذ ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج؛ سمع بهم رسول الله (ص) ، فأتاهم ، فجلس إليهم ، فقال: «هل لكم في خير ممَّا جئتم له؟» قالوا له: وما ذاك؟ قال: «أنا رسولُ الله ، بعثني إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ، ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل عليَّ الكتاب» ، ثمَّ ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القران ، فقال إياس بن معاذ ـ وكان غلاماً حدثاً ـ: هذا واللهِ خيرٌ ممَّا جئتم له ، فأخذ أبو الحيسر حَفْنَةً من ترابٍ ، وضرب بها وجهه ، وقال: دعنا منك ، فلَعَمرِي لقد جئنا لغير هذا! فصمت إياس ، وقام رسول الله (ص) عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة ، وكانت وقعة بُعاث بين الأوس ، والخزرج ، ثمَّ لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك ، وقد روى من حضره من قومه ، أنَّه ما زال يهلِّل الله ، ويكبِّره ، ويحمده ، ويسبحه حتَّى مات ، فما كانوا يشكُّون: أنَّه مات مسلماً ، لقد استشعر الإسلام في ذلك المجلس ، حين سمع من رسول الله (ص) ما سمع. [ابن هشام (٢/٦٩ ـ ٧٠) وأحمد (٥/٤٢٧) والطبراني في المعجم الكبير (٨٠٥) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٤٢٠ ـ ٤٢١) والطبري في تاريخه (٢/٣٥٢ ـ ٣٥٣) ومجمع الزوائد (٦/٣٦) والإصابة (١/١٠٢)] .

ثانياً: بدء إسلام الأنصار:

كانت البداية المثمرة مع وفدٍ من الخزرج في موسم الحجِّ عند عقبة منى ، قال لهم رسول الله (ص) : من أنتم؟ قالوا: نفرٌ من الخزرج ، قال: أَمِنْ موالي يهود؟ قالوا: نعم ، قال: أفلا تجلسون أكلِّمكم؟ قالوا: بلى ، فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القران. [ابن

هشام (٢/٧٠ ـ ٧١) ، وابن سعد (١/٢١٨ ـ ٢١٩) ، والبيهقي في الدلائل (٢/٤٣٣ ـ ٤٣٥) ، والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/٣٦٢) ، ومجمع الزوائد (٦/٤٠ ـ ٤٢)] .

فلمَّا كلَّم رسولُ الله (ص) أولئك النَّفر ، ودعاهم إلى الله؛ قال بعضهم لبعض: يا قوم! تعلمون والله: أنَّه للنَّبيُّ الَّذي توعَّدكم به يهود ، فلا تسبقنَّكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدَّقوه ، وقَبِلُوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا: إنَّا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشرِّ ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ،

ونعرض عليهم الَّذي أجبناك إليه من هذا الدِّين ، فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعزُّ منك. ثمَّ انصرفوا عن رسول الله (ص) راجعين إلى بلادهم ، وقد امنوا ، وصدَّقوا[(٢٦)] ، وكانوا ستَّة نفرٍ ، وهم: أبو أمامة أسعد بن زُرارةَ ، وعوف بن الحارث من بني النَّجار ، ورافع بن مالك ، وقُطْبة بن عامرٍ ، وعُقْبة بن عامرٍ ، وجابر بن عبد الله بن رئاب[(٢٧)]. فلمَّا قدموا المدينة إلى قومهم ؛ ذكروا لهم رسولَ الله (ص) ، ودعَوهم إلى الإسلام ، حتَّى فشا بينهم ، فلم تبقَ دارٌ من دُور الأنصار إلا وفيها ذِكْرٌ لرسول الله (ص)[(٢٨)] .

فهذا أوَّل موكبٍ من مواكب الخير ، لم يكتفِ بالإيمان؛ وإنَّما أخذ العهد على نفسه أن يدعوَ إليه قومه ، وقد وفَّى كلٌّ منهم لدينه ، ورسوله ، فإنَّهم حين رجعوا؛ نشطوا في الدَّعوة إلى الله ، وعرضوا كلمة الهدى على أهلهم، وذويهم ، فلم تبقَ دارٌ من دور المدينة إلا وفيها ذكرٌ لمحمَّد (ص) ، وهكذا عندما يأذن الله تأتي ساعة الحسم الفاصلة ، فقد كان لقاء هؤلاء مع الرَّسول (ص) على غير موعدٍ ، لكنَّه لقاء هيَّأه الله؛ ليكون نبع الخير المتجدِّد الموصول ، ونقطة التَّحوُّل الحاسم في التَّاريخ ، وساعة الخلاص المحقَّق من عبادة الأحجار؛ بل إنَّها على التَّحقيق ساعة الحسم في مصير العالم كلِّه ، ونقل الحياة من الظُّلمات إلى النُّور ، أكان معقولاً في لحظةٍ يسيرةٍ أن يتحوَّل هؤلاء من وثنيِّين متعصِّبين ، إلى أنصارٍ للدَّعوة متفتِّحين ، وجنودٍ للحقِّ مخلصين ، ودعاةٍ إلى الله متجرِّدين ، يذهبون إلى أقوامهم ، وبين جوانحهم نورٌ وعلى وجوههم نورٌ ، وإنَّهم لعلى نورٍ؟! تلك مشيئة القدر العالي ، هيَّأت للدَّعوة مجالها الخصب ، وحماها الأمين ، والسَّنوات العِجاف الَّتي قضاها الرَّسول (ص) نضالاً مستمرّاً ، وكفاحاً دائماً ، وتطوافاً على القبائل ، والتماساً للحليف ، قد ولَّت إلى غير رجعةٍ؛ سيكون بعد اليوم للإسلام قوَّته الرَّادعة ، وجيشه الباسل ، وسيلتقي الحقُّ بالباطل؛ ليصفِّي معه حساب الأيام الخوالي ، والعاقبة للمتقين ، وستتوالى على مكَّة منذ اليوم مواكب الخير ، وطلائع النُّور ، الَّتي هيَّأها الله للخير؛ لتتصل

بالهداية ، وتسبح في النُّور ، وتغترف من الخير ، وترجع إلى يثرب بما وَعَتْ من خير ، وبما حملت من نورٍ[(٢٩)].

ومن الجدير بالتَّنبيه: أنَّ هذه المقابلة الَّتي حدثت عند العقبة ، وتلاقى فيها فريقٌ من الخزرج بالنَّبيِّ (ص) ، وأسلموا على يديه ، لم تكن فيها بيعةٌ[(٣٠)]؛ لأنَّها كانت من نفر صغيرٍ ، لم يروا

لأنفسهم الحقَّ في أن يلتزموا بمعاهدة دون الرُّجوع إلى قبائلهم في المدينة ، ولكنَّهم أخلصوا في تبليغ رسالة الإسلام(٢).

ثالثاً: بيعة العقبة الأولى:

بعد عامٍ من المقابلة الأولى؛ الَّتي تمَّت بين الرَّسول (ص) وأهل يثرب عند العقبة ، وَافَى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً ، فلقوه (ص) بالعقبة ، وبايعوه العقبة الأولى ، عشرةٌ من الخزرج ، واثنان من الأوس ، ممَّا يشير إلى أنَّ نشاط وفد الخزرج الَّذين أسلموا في العام الماضي ، تركَّز على وسطهم القبلي بالدَّرجة الأولى؛ لكنَّهم تمكنوا في الوقت نفسه من اجتذاب رجال الأوس ، وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام[(٣١)].

وقد تحدَّث عبادةُ بن الصَّامت الخزرجيُّ عن البيعة ، في العقبة الأولى ، فقال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنيْ عَشَرَ رجلاً ، فبايعْنا رسولَ الله (ص) على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفترض علينا الحرب ، على ألاَّ نشرك بالله ، ولا نسرق ، ولا نزني ، لا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا ، وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف ، فإن وفَّيتم فلكم الجنَّة ، وإن غَشِيتم من ذلك شيئاً ، فأمركم إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إن شاء؛ غفر ، وإن شاء؛ عذَّب» [البخاري (١٨ و٩٢ و٣٨ و٣٩٩٩) ومسلم (١٧٠٩)] .

وبنود هذه البيعة ، هي الَّتي بايع الرَّسول (ص) عليها النِّساء فيما بعد ، ولذلك عرفت باسم بيعة النِّساء[(٣٢)] ، وقد بعث الرَّسول (ص) مع المبايعين مصعب بن عمير ، يعلِّمهم الدِّين ، ويقرئهم القران ، فكان يُسمَّى بالمدينة (المقرأى) ، وكان يؤمُّهم في الصَّلاة ، وقد اختاره رسول الله (ص) عن علمٍ بشخصيَّته من جهةٍ ، وعلمٍ بالوضع القائم في المدينة من جهةٍ أخرى ، حيث كان بجانب حفظه لما نزل من القران يملك من اللَّباقة ، والهدوء ، وحسن الخُلُق ، والحكمة قدراً كبيراً ، فضلاً عن قوَّة إيمانه ، وشدَّة حماسه للدِّين ، ولذلك تمكَّن خلال أشهرٍ أن ينشر الإسلام في معظم بيوتات المدينة ، وأن

يكسب للإسلام أنصاراً من كبار زعمائها ، كسعد بن معاذ ، وأُسَيْد بن حُضَيْر ، وقد أسلم بإسلامهما خلقٌ كثير من قومهم[(٣٣)].

لقد نجحت سفارة مصعب بن عمير رضي الله عنه في شرح تعاليم الدِّين الجديد ، وتعليم القران الكريم ، وتفسيره ، وتقوية الرَّوابط الأخويَّة بين أفراد القبائل المؤمنة من ناحيةٍ ، وبين النَّبيِّ (ص) وصحبه بمكَّة المكرمة ، لإيجاد القاعدة الأمينة لانطلاق الدَّعوة.

وقد نزل مصعب بن عمير رضي الله عنه في يثرب على أسعد بن زُرارة رضي الله عنه[(٣٤)] ، ونشط المسلمون في الدَّعوة إلى الله ، يقود تلك الحركة الدَّعوية الرَّائدة مصعب رضي الله عنه ، وقد انتهج منهج القران الكريم في دعوته ، وهذا هو الذي تعلَّمه من أستاذه (ص) ، وقد شرح لنا بعض الايات القرانيَّة المكِّيَّة بصورةٍ عمليَّةٍ حيَّةٍ ، مثل قوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ *} [النحل: ١٢٥] .

رابعاً: قصَّة إسلام أُسَيْد بن حُضير ، وسعد بن معاذ رضي الله عنهما:

كان سعد بن معاذ ، وأُسَيْد بن حضير ، سيِّديْ قومهما من بني عبد الأشهل ، وكانا مشركَيْن على دين قومهما ، فلمَّا سَمِعَا بمصعب بن عمير ، ونشاطه في الدَّعوة إلى الإسلام؛ قال سعد لأُسَيْدٍ: لا أبا لك! انطلق إلى هذين الرَّجلين ، اللَّذين أتيا دارينا؛ ليُسَفِّها ضعفاءنا ، فازجرهما ، وانههما أن يأتيا دارَينا؛ فإنَّه لولا أسعد بن زُرارةَ منِّي حيث قد علمت؛ كفيتُك ذلك ، هو ابن خالتي ، ولا أجد عليه مقدماً ، فأخذ أُسَيْد حربته ، ثمَّ أقبل عليهما ، فلمَّا راه أسعد بن زرارة؛ قال: هذا سيِّد قومه ، وقد جاءك؛ فاصدق الله فيه ، قال مصعب: إن يجلسْ أكلِّمْه ، فوقف عليهما مُتشتِّماً ، فقال: ما جاء بكما تسفِّهان ضعفاءنا؟! اعتزلانا؛ إن كانت لكما بأنفسكما حاجةٌ ، فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادأى الواثق من سماحة دعوته: أو تجلسُ ، فتسمع ، فإن رضيت أمراً؛ قبلته ، وإنْ كرهته؛ نكفُّ عنك ما تكره؟

قال أُسَيْد: أنصفتَ ، ثمَّ ركَّز حربته ، وجلس إليهما، فكلَّمه مصعب بالإسلام ، وقرأ عليه القران ، فقالا ـ فيما يُذكر عنهما ـ: والله! لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم في إشراقه ، وتسهُّله ، ثمَّ قال: ما أحسنَ هذا الكلامَ ، وأجْمَلَه! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدِّين؟ قالا له: تغتسل ، فتتطهَّر ، وتطهِّر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحقِّ ، ثمَّ تصلِّي ، فقام ، فاغتسل ، وطهَّر ثوبيه ، وتشهَّد

شهادة الحقِّ ، ثمَّ قام فركع ركعتين ، ثمَّ قال لهما: إنَّ ورائي رجلاً ، إن اتَّبعْكما؛ لم يتخلَّفْ عنه أحدٌ من قومه ، وسأرسله إليكم الان: سعد بن معاذ.

ثمَّ أخذ حربته ، وانصرف إلى سعدٍ ، وقومه؛ وهم جلوسٌ في ناديهم ، فلمَّا نظر إليه سعد مقبلاً ، قال: أحلف بالله! لقد جاءكم أُسَيْد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم!!

فلمَّا وقف على النَّادي؛ قال له سعدٌ: ما فعلتَ؟ قال: كلَّمتُ الرَّجلين ، فوالله! ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما ، فقالا: نفعل ما أحببتَ ، وقد حُدِّثت أنَّ بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زُرارةَ؛ ليقتلوه؛ وذلك أنَّهم عرفوا: أنه ابن خالتك لِيُخْفِرُوكَ[(٣٥)].

فقام سعد مُغْضَباً مبادراً تخوُّفاً لِلَّذي ذكر له من أمر بني حارثة ، وأخذ الحربة في يده ، ثمَّ قال: والله! ما أراك أغنيتَ شيئاً ، ثمَّ خرج إليهما سعد ، فوجدهما مطمئنَّيْن ، فعرف: أنَّ أسَيْداً إنَّما أراد أن يسمع منهما ، فوقف متشتِّماً ، ثمَّ قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة! لولا ما بيني وبينك من القرابة؛ ما رُمْتَ هذا منِّي ، أتغشانا في دارنا بما نكره؟! وكان أسعد قد قال لمصعب: لقد جاء ـ والله! ـ سيِّدُ مَنْ وراءَه مِنْ قومه ، إن يتبعك؛ لا يتخلَّف منهم اثنان ، فقال له مصعب: أوَ تقعد فتسمع؟ فإن رضيتَ أمراً ، ورغبتَ فيه قبلتَه ، وإن كرهتَه عزلنا عنك ما تكره. فقال سعد: أنصفت ، ثمَّ ركَّز الحربة ، وجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ القران. وذكر موسى بن عقبة: أنَّه قرأ عليه أوَّل سورة الزُّخرف ، قالا: فعرفنا ـ والله! ـ في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم في إشراقه ، وتسهُّله.

ثمَّ قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ، ودخلتم في هذا الدِّين؟ قالا: تغتسل ، فتتطَّهر ، وتطهِّر ثوبيك ، ثمَّ تشهد شهادة الحقِّ ، ثمَّ تصلي ركعتين ، فقام فاغتسل ، وطهَّر ثوبيه ، ثمَّ تشهَّد شهادة الحقِّ ، ثمَّ ركع ركعتين ، ثمَّ أخذ حربته ، فأقبل عائداً إلى نادي قومه ، ومعه أُسَيْد بن حُضَيْر ، فلمَّا راه قومه مقبلاً؛ قالوا: نحلف بالله ، لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلمَّا وقف عليهم؛ قال: يا بني عبد الأشهل! كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيِّدنا ، وأفضلنا رأياً ، وأيمُننا نقيبةً! قال: فإنَّ كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام؛ حتَّى تؤمنوا بالله ، ورسوله! قال: فوالله ، ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلٌ ، ولا امرأة إلا مسلماً ، أو مسلمةً.

ورجع أسعد ، ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة ، فأقام عنده يدعو النَّاس إلى الإسلام؛ حتَّى لم تبقَ دار من دُور الأنصار إلا وفيها رجالٌ مسلمون ، ونساءٌ مسلماتٌ [قصة إسلام سعد بن معاذ رواها الطبري في تاريخه (٣٥٧/٢ ـ ٣٥٩) وابن سعد (٤٢٠/٣ ـ ٤٢١) والبيهقي في الدلائل (٤٣١/٢ ـ

٤٣٢) والطبراني في الكبير (٣٦٢/٢٠)] إلا ما كان من الأُصَيْرِم ، وهو عمرو بن ثابت بن وقش؛ فإنَّه تأخَّر إسلامه إلى يوم أُحدٍ ، فأسلم؛ واستُشهِد بأحدٍ ، ولم يصلِّ لله سجدةً قطُّ ، وأخبر رسول الله (ص) : أنَّه من أهل الجنَّة.

وقد روى ابن إسحاق بإسنادٍ حسنٍ عن أبي هريرة: أنَّه كان يقول: «حدِّثوني عن رجلٍ دخل الجنَّة لم يصلِّ صلاةً قطُّ ، فإذا لم يعرفه النَّاس ، قال: هو أُصَيْرِم بني عبد الأشهل» [أحمد (٤٢٨/٥ ـ ٤٢٩) ومجمع الزوائد (٣٦٤/٩)][(٣٦)] .

خامساً: فوائد ، ودروسٌ ، وعبرٌ:

١ ـ اتَّجه التَّخطيط النَّبويُّ للتَّركيز على يثرب بالذَّات ، وكان للنَّفر السِّتَّة الذين أسلموا ، دورٌ كبيرٌ في بث الدَّعوة إلى الإسلام ، خلال ذلك العام.

٢ ـ كانت هناك عدَّة عوامل ساعدت على انتشار الإسلام في المدينة؛ منها:

(أ) ما طبع الله عليه قبائل الخزرج ، والأوس من الرِّقَّة ، واللِّين ، وعدم المغالاة في الكبرياء ، وجحود الحقِّ ، وذلك يرجع إلى الخصائص الدَّمويَّة والسُّلاليَّة؛ الَّتي أشار إليها رسول الله (ص) حين وَفَد وَفْدٌ من اليمن ، بقوله: «أتاكم أهل اليمن ، هم أرقُّ أفئدةً ، وألين قلوباً» [البخاري (٤٣٨٨) ومسلم (٥٢)] وهما ترجعان في أصليهما إلى اليمن ، نزح أجدادهم منها في الزَّمن القديم[(٣٧)] ، فيقول القران الكريم مادحاً لهم: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [الحشر: ٩] .

(ب) التَّشاحن ، والتَّطاحن الموجود بين قبيلتي المدينة ، الأوس والخزرج ، وقد قامت بينهما الحروب الطَّاحنة كيوم بُعاث ، وغيره ، وقد أفنت هذه الحرب كبار زعمائهم ، ممَّن كان نظراؤهم في مكَّة ، والطائف ، وغيرها ، حجر عثرة في سبيل الدَّعوة ، ولم يبقَ إلا القيادات الشَّابَّة الجديدة ، المستعدَّة لقبول الحقِّ؛ إضافةً إلى عدم وجود قيادةٍ بارزةٍ معروفةٍ ، يتواضع الجميع على التَّسليم لها ، وكانوا بحاجةٍ إلى من يأتلفون عليه ، ويلتئم شملهم تحت ظلِّه. قالت عائشة رضي الله عنها: «كان يومُ بُعاثَ أمراً قدَّمه الله تعالى لنبيِّه (ص) ، فَقَدِمَ رسولُ الله (ص) وقد افترق مَلَؤهم ، وقُتِلت سَرَوَاتهم[(٣٨)] وجُرِّحوا ، فقدَّمه الله لرسوله (ص) في دخولهم الإسلام». [البخاري (٣٧٧٧ و٣٨٤٦ و٣٩٣٠) وأحمد (٦١/٦) والبيهقي في دلائل النبوة (٤٢١/٢)] .

(ج) مجاورتهم لليهود ، ممَّا جعلهم على علمٍ ـ ولو يسيرٍ ـ بأمر الرِّسالات السَّماويَّة ، وخبر المرسلين السَّابقين ، وهم ـ في مجتمعهم ـ يعايشون هذه القضيَّة في حياتهم اليوميَّة ، وليسوا مثل قريشٍ؛ التي لا يساكنها أهل كتاب ، وإنَّما غاية أمرها أن تسمع أخباراً متفرِّقةً عن الرِّسالات ، والوحي الإلهيِّ ، دون أن تلحَّ عليها هذه المسألةُ ، أو تشغل تفكيرها باستمرارٍ ، وكان اليهود يهدِّدون الأوس ، والخزرج بنبيٍّ قد أظلَّ زمانه ، ويزعمون: أنَّهم سيتَّبعونه ، ويقتلونهم به قتَل عادٍ ، وإرم! مع أنَّ الأوس ، والخزرج كانوا أكثر من اليهود[(٣٩)] ، وقد حكى الله

عنهم ذلك في كتابه العزيز. قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ *} [البقرة: ٨٩] .

وكان الأوس ، والخزرج قد علوا اليهود دهراً في الجاهليَّة ، وهم أهل شرك وهؤلاء أهل كتاب ، فكانوا يقولون: إنَّ نبيّاً قد أظلَّ زمانه ، نقتلكم به قتلَ عادٍ وإرم[(٤٠)].

فلمَّا أراد الله إتمام أمره بنصر دينه؛ قيَّض ستَّة نفرٍ من أهل المدينة للنَّبيِّ (ص) ، فالتقى بهم عند العقبة ـ عقبة منى ـ فعرض عليهم الإسلام ، فاستبشروا ، وأسلموا ، وعرفوا: أنَّه النَّبيُّ الَّذي توعَّدَهم به اليهود ، ورجعوا إلى المدينة ، فأفشوا ذكر النَّبيِّ (ص) في بيوتها[(٤١)] ، وكان هذا هو «بدء إسلام الأنصار» كما يسمِّيه أهل السِّير[(٤٢)].

٣ ـ حضر بيعة العقبة الأولى اثنان من الأوس ، وهذا تطوُّر مهمٌّ لمصلحة الإسلام ، فبعد الحرب العنيفة في بُعَاث استطاع النَّفر السِّتَّة من الخزرج ، أن يتجاوزوا قصَّة الصِّراعات الدَّاخلية ، ويُحضروا معهم سبعةً جدداً ، فيهم اثنان من الأوس ، وهذا يعني أنَّهم وفوا بالتزاماتهم؛ الَّتي قطعوها على أنفسهم في محاولة رأب الصَّدع ، وتوجيه التَّيَّار لدخول الإسلام في المدينة؛ أوسها ، وخزرجها ، وتجاوز الصِّراعات القبليَّة القائمة.

٤ ـ كان التَّطُّور الجديد الَّذي أثمرته بيعة العقبة قد بعث مصعب بن عمير ممثلاً شخصيّاً للرَّسول (ص) إلى المدينة؛ يعلِّم النَّاس القران الكريم ، ومبادأى الإسلام ، واستطاع مصعب بحكمته ، وحصافته ، وذكائه السِّياسيِّ أن يحقِّق انتصاراتٍ كبيرةً للإسلام[(٤٣)].

٥ ـ استطاع سفير رسول الله (ص) أن يفعل في عامٍ واحدٍ الكثير ، وما ذلك إلا بتوفيق الله تعالى ، ثمَّ بصدق ذلك الدَّاعية وإخلاصه ، فأين سفراء دول المسلمين اليوم من سفير رسول الله (ص) ، فعلى

ولاة الأمر أن يختاروا السَّفير المؤمن الملتزم الموهوب؛ الَّذي يستطيع أن يمثِّل بلاده ، ودينه قولاً وعملاً ، وخُلُقاً وسلوكاً ، فيرى النَّاسُ ، ويسمعون من خلاله.

٦ . استطاع السَّفير مصعب رضي الله عنه أن يهيِّأى البيئة الصَّالحة ، لانتقال الدَّعوة والدَّولة إلى مقرِّها الجديد؛ حيث استطاع ترجمة روح بيعة العقبة الأولى عمليّاً وسلوكيّاً ، والَّتي تعني الالتزام التَّامَّ بنظام الإسلام[(٤٤)].

٧ . بذل الرَّسول (ص) كلَّ ما يملك من جهدٍ لتعبئة الطَّاقات الإسلاميَّة في المدينة ، ولم يكن هناك أدنى تقصيرٍ للجهد البشريِّ الممكن في بناء القاعدة الصُّلبة ، الَّتي تقوم على أكتافها الدَّولة الجديدة ، واحتلَّ هذا الجهد سنتين كاملتين من الدَّعوة ، والتَّنظيم[(٤٥)].

٨ . نجحت التعبئة الإيمانيَّة في نفوس مَنْ أسلم من الأنصار ، وشعرت الأنصار بأنَّه قد ان الأوان لقيام الدَّولة الجديدة ، وكما يقول جابرٌ رضي الله عنه ، وهو يمثِّل هذه الصُّورة الرَّفيعة الرَّائعة: «حتَّى متى نترك رسولَ الله (ص) يطوف ، ويُطرَد في جبال مكَّة ، ويُخاف؟!»(٢).

٩ . وصل مصعب رضي الله عنه إلى مكَّة قبيل موسم الحجِّ ، من العام الثَّالث عشر للبعثة ، ونقل الصُّورة الكاملة الَّتي انتهت إليها أوضاع المسلمين هناك ، والقدرات ، والإمكانات المتاحة ، وكيف تغلغل الإسلام في جميع قطاعات الأوس ، والخزرج ، وأنَّ القوم جاهزون لبيعةٍ جديدة ، قادرةٍ على حماية رسول الله (ص) ، ومنعته[(٤٦)].

١٠ . كان اللِّقاء الَّذي غيَّر مجرى التَّاريخ ، في موسم الحجِّ في السَّنة الثَّالثة عشرة من البعثة؛ حيث حضر لأداء مناسك الحجِّ بضعٌ وسبعون نفساً من المسلمين ، من أهل يثرب ، فلمَّا قدموا مكَّة؛ جرت بينهم وبين النَّبيِّ (ص) اتصالاتٌ سرِّيَّة ، أدَّت إلى اتِّفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيَّام التَّشريق في الشِّعْب الَّذي عند العقبة ، حيث الجمرة الأولى من مِنًى ، وأن يتمَّ هذا الاجتماع في سرِّيَّةٍ تامَّةٍ في ظلام اللَّيل[(٤٧)].

* * *

المبحث الثَّالث

بيعة العقبة الثَّانية

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «... فقلنا: حتَّى متى نترك رسول الله (ص) ؛ يُطْرَد في جبال مكَّة ، ويُخاف ، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتَّى قدموا عليه في الموسم ، فواعدناه شِعْب العقبة ، فاجتمعنا عليه من رجلٍ ، ورجلين؛ حتَّى توافينا فقلنا: يا رسول الله! علام نُبايعك؟

قال: «تبايعوني على السَّمع ، والطَّاعة في النَّشاط ، والكسل ، والنَّفقة في العسر ، واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله ، لا تخافون في الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني ، فتمنعوني إذا قدمت عليكم ممَّا تمنعون منه أنفسكم ، وأزواجكم ، وأبناءكم ، ولكم الجنَّة».

قال: فقمنا إليه ، فبايعناه ، وأخذ بيده أسعد بن زرارة ـ وهو من أصغرهم ـ فقال: رويداً يا أهل يثرب! فإنَّا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم: أنَّه رسول الله (ص) ، وأنَّ إخراجه اليوم مفارقةُ العرب كافَّةً ، وقتلُ خياركم ، وأن تعضَّكم السُّيوف ، فإمَّا أنتم قومٌ تصبرون على ذلك ، وأجركم على الله ، وإمَّا أنتم تخافون من أنفسكم جُبَيْنَةً؛ فبينوا ذلك ، فهو أعذر لكم عند الله! قالوا: أمط عنَّا يا أسعد! فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً! ولا نَسْلِبها (أي: نتركها)! قال: فقمنا إليه ، فبايعناه ، فأخذ علينا ، وشَرَطَ ، ويعطينا على ذلك الجنَّة»[(٤٨)].

وهكذا بايع الأنصار رسول الله (ص) على الطَّاعة ، والنُّصرة ، والحرب؛ لذلك سمَّاها عبادة بن الصَّامت بيعة الحرب[(٤٩)] ، أمَّا رواية الصَّحابي كعب بن مالك الأنصاريِّ ـ وهو أحد المبايعين في العقبة الثَّانية ـ ففيها تفصيلاتٌ مهمَّةٌ ، قال: «خرجنا في حجَّاج قومنا من المشركين ، وقد صلَّينا ، وفقهنا ، ثمَّ خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله (ص) بالعقبة ، من أوسط أيام التَّشريق ، وكنَّا نكتم مَنْ معنا من المشركين أمرنا ، فَنِمْنَا تلك اللَّيلة مع قومنا في رحالنا ، حتَّى إذا مضى ثلثُ اللَّيل؛ خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله (ص) ، نتسَّلل تسلُّلَ القَطَا

(الحمام) مستخفين ، حتَّى اجتمعنا في الشِّعْب عند العقبة ، ونحن ثلاثةٌ وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من نسائنا: نُسَيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرٍو ، فاجتمعنا في الشِّعب ننتظر رسول الله (ص) ، حتَّى جاءنا ، ومعه العبَّاس بن عبد المطلب ، وهو يومئذٍ على دين قومه ، إلا أنَّه أحبَّ أن يحضر أمر ابن أخيه ، ويتوثَّق له، فلمَّا جلس؛ كان أول متكلِّم العبَّاس بن عبد المطلب؛ فبيَّن أنَّ الرَّسول (ص) في منعةٍ

من قومه بني هاشم ، ولكنَّه يريد الهجرة إلى المدينة ، ولذلك فإنَّ العباس يريد التأكُّد من حماية الأنصار له ، وإلا؛ فَلْيَدَعُوه ، فطلب الأنصار أن يتكلَّم رسولُ الله (ص) ، فيأخذ لنفسه ، ولربِّه ما يحبُّ من الشُّروط.

قال: «أبايعكم على أن تمنعوني ممَّا تمنعون منه نساءكم ، وأبناءكم» فأخذ البراء بن مَعْرور بيده ، ثمَّ قال: نعم والَّذي بعثك بالحق! لنمنعنَّك ممَّا نمنع منه أُزُرَنا[(٥٠)] ، فبايِعْنا يا رسولَ الله! فنحن والله أهل الحرب ، وأهل الحَلقة (السِّلاح) ، ورثناها كابراً عن كابر. فقاطعه أبو الهيثم بن التَّيِّهان متسائلاً: يا رسول الله! إنَّ بيننا وبين القوم حبالاً ، وإنَّا قاطعوها (يعني: اليهود) ، فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك ، ثمَّ أظهرك الله أن ترجع إلى قومك ، وتَدَعَنا؟ فتبسَّم رسولُ الله (ص) ، ثمَّ قال: «بل الدَّمُ الدَّمُ ، والهَدْمُ الهَدْمُ ، أنا منكم ، وأنتم منِّي ، أحارب مَنْ حاربتم ، وأسالم مَنْ سالمتم».

ثمَّ قال: «أخْرِجُوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً؛ ليكونوا على قومهم بما فيهم». فأخْرَجوا منهم اثني عشر نقيباً: تسعةً من الخزرج ، وثلاثةً من الأوس.

وقد طلب الرَّسول (ص) منهم الانصراف إلى رحالهم ، وقد سمعوا الشَّيطان يصرخ منذراً قريشاً ، فقال العبَّاس بن عُبادة بن نَضْلة: والله الَّذي بعثك بالحق! إن شئتَ؛ لنميلنَّ على أهل مِنًى غداً بأسيافنا.

فقال رسول الله (ص) : «لم نُؤْمَر بذلك؛ ولكن ارجعوا إلى رحالكم». فرجعوا إلى رحالهم ، وفي الصَّباح جاءهم جمعٌ من كبار قريش ، يسألونهم عمَّا بلغهم من بيعتهم للنَّبيِّ (ص) ، ودعوتهم له للهجرة ، فحلف المشركون من الخزرج ، والأوس ، بأنَّهم لم يفعلوا ، والمسلمون ينظرون إلى بعضهم[(٥١)] ، قال: ثمَّ قام القوم؛ وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزوميُّ ، وعليه نعلانِ جديدانِ ، قال: فقلت له كلمةً ـ كأنِّي أريد أن أشرك بها القومَ فيما قالوا ـ يا أبا جابر! أما تستطيع أن تتَّخذ ، وأنت سيِّدٌ من ساداتنا ، مثل نَعْلَي هذا الفتى من قريشٍ؟ قال: فسمعهما الحارث ، فخلعهما من رجليه ، ثمَّ رمى بها إليَّ، وقال: والله لتَنْتَعِلَنَّهما ، قال: يقول

أبو جابر: مَهْ! أَحْفَظْتَ (أي: أغضبت) والله الفتى ، فارددْ إليه نعليه. قال: قلت: لا والله! لا أردُّهما ، فأْلٌ والله صالح! لئن صدق الفأل لأسْلُبَنَّه. [أحمد (٣/٤٦٠ ـ ٤٦٢) والحاكم (٢/٦٢٤ ـ ٦٢٥) والطبري في تاريخه (٢/٣٦٠ ـ ٣٦٢) والبيهقي في سننه الكبرى (٩/٩)] .

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد:

١ ـ «كانت هذه البيعة العظمى بملابساتها ، وبواعثها ، واثارها ، وواقعها التَّاريخي ، (فتحَ الفتوح)؛ لأنَّها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإسلاميَّة ، الَّتي تتابعت حلقاتها في صورٍ متدرِّجة ، مشدودةٍ بهذه البيعة؛ منذ اكتمل عقدها ، بما أخذ فيها رسول الله (ص) من عهودٍ ومواثيق على أقوى طليعةٍ من طلائع أنصار الله؛ الَّذين كانوا أعرف النَّاس بقدر مواثيقهم ، وعهودهم ، وكانوا أسمح النَّاس بالوفاء بما عاهدوا الله ، ورسوله (ص) عليه؛ من التَّضحية ، مهما بلغت متطلبَّاتها من الأرواح ، والدِّماء ، والأموال ، فهذه البيعة في بواعثها هي بيعة الإيمان بالحقِّ، ونصرته، وهي في ملابساتها قوَّةٌ تناضل قوًى هائلةً تقف متألِّبةً عليها، ولم يَغِبْ عن أنصار الله قدرها ، ووزنها ، في ميادين الحروب ، والقتال ، وهي في اثارها تشميرٌ ناهضٌ بكلِّ ما يملك أصحابها من وسائل الجهاد القتاليِّ في سبيل إعلاء كلمة الله ، على كلِّ عالٍ مستكبرٍ في الأرض؛ حتَّى يكون الدِّين كلُّه لله ، وهي في واقعها التَّاريخيِّ صدقٌ ، وعدلٌ ، ونصرٌ ، واستشهاد ، وتبليغٌ لرسالة الإسلام»[(٥٢)].

٢ ـ إنَّ حقيقة الإيمان ، وأثره في تربية النفوس ، تظهر اثارها في استعداد هذه القيادات الكبرى لأن تبذل أرواحها ، ودماءها في سبيل الله ، ورسوله (ص) ، ولا يكون لها الجزاء في هذه الأرض كسباً ، ولا منصباً ، ولا قيادةً ، ولا زعامةً ، وهم الَّذين أفنوا عشرات السِّنين من أعمارهم ، يتصارعون على الزَّعامة ، والقيادة ، إنَّه أثر الإيمان بالله ، وبحقيقة هذا الدِّين ، عندما يتغلغل في النُّفوس[(٥٣)].

٣ ـ يظهر التَّخطيط العظيم في بيعة العقبة؛ حيث تمَّت في ظروفٍ غايةٍ في الصُّعوبة ، وكانت تمثِّل تحدِّياً خطيراً ، وجريئاً لقوى الشِّرك في ذلك الوقت ، ولذلك كان التَّخطيط النَّبويُّ لنجاحها في غاية الإحكام والدِّقَّة على النَّحو التَّالي[(٥٤)]:

أ ـ سِرِّيَّة الحركة ، والانتقال لجماعة المبايعين؛ حتَّى لا ينكشفَ الأمر ، فقد كان وفد المبايعة المسلم سبعين رجلاً وامرأتين من بين وفدٍ يثربيٍّ قوامه نحو خمسمئة ممَّا يجعل حركة

هؤلاء السَّبعين صعبةً ، وانتقالهم أمراً غير ميسورٍ ، وقد تحدَّد موعد اللِّقاء في ثاني أيام التَّشريق ، بعد ثلث اللَّيل ، حيث النَّوم قد ضرب أعين القوم ، وحيث قد هدأت الرِّجْل ، كما تمَّ تحديد المكان في الشِّعْب الأيمن ، بعيداً عن عين مَنْ قد يستيقظ من النَّومِ لحاجةٍ[(٥٥)].

ب ـ الخروج المنظَّم لجماعة المبايعين ، إلى موعد ، ومكان الاجتماع ، فقد خرجوا يتسلَّلون مستخفين ، رجلاً رجلاً ، أو رجلين رجلين.

ج ـ ضرب السِرّيَّة التَّامة على موعد ، ومكان الاجتماع ، بحيث لم يعلم به سوى العبَّاس بن عبد المطلب ، الَّذي جاء مع النَّبيّ (ص) ليتوثَّق له[(٥٦)] ، وعليٌّ بن أبي طالبٍ ، الَّذي كان عيناً للمسلمين على فم الشِّعب ، وأبو بكر الَّذي كان على فم الطَّريق ـ وهو الاخر ـ عيناً للمسلمين[(٥٧)] ، أمَّا مَنْ عداهم من المسلمين ، وغيرهم فلم يكونوا يعلمون عن الأمر شيئاً ، وقد أمر جماعة المبايعين ألا يرفعوا الصَّوت ، وألا يطيلوا في الكلام؛ حذراً من وجود عينٍ تسمع صوتهم ، أو تحسُّ حركتهم[(٥٨)].

د ـ متابعة الإخفاء والسِرّيَّة حين كشف الشَّيطان أمر البيعة ، فأمرهم النَّبيُّ (ص) أن يرجعوا إلى رحالهم ، ولا يحدثوا شيئاً؛ رافضاً الاستعجال في المواجهة المسلَّحة؛ التي لم تتهيَّأ لها الظُّروف بعد ، وعندما جاءت قريش تستبرأى الخبر؛ موَّه المسلمون عليهم بالسُّكوت ، أو المشاركة بالكلام الَّذي يشغل عن الموضوع[(٥٩)].

هـ اختيار اللَّيلة الأخيرة من ليالي الحجِّ ، وهي الليلة الثالثة عَشْرة من ذي الحجَّة؛ حيث سينفر الحجاج إلى بلادهم ظهر اليوم التَّالي ، وهو يوم الثالث عشر ، ومن ثَمَّ تضيق الفرصة أمام قريش في اعتراضهم ، أو تعويقهم؛ إذا انكشف أمر البيعة ، وهو أمرٌ متوقَّع ، وهذا ما حدث[(٦٠)].

٤ ـ كانت البنود الخمسة للبيعة من الوضوح ، والقوَّة بحيث لا تقبل التَّمييع والتَّراخي، إنَّه السَّمع ، والطَّاعة في النَّشاط والكسل ، والنَّفقة في اليسر ، والعسر ، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ، والقيام في الله لا تأخذهم فيه لومة لائم ، ونصرٌ لرسول الله (ص) وحمايته؛ إذا قدم المدينة[(٦١)].

٥ ـ سرعان ما استجاب قائد الأنصار ـ دون تردُّدٍ ـ البراء بن مَعْرور ، قائلاً: والذي بعثك بالحق! لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرَنا ، فبايعنا يا رسول الله! فنحن والله أبناء الحرب! وأهل الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابرٍ ، فهذا زعيم الوفد يعرض إمكانيات قومه على رسول الله (ص) ، فقومه أبناء الحرب ، والسِّلاح(٥). وممَّا يجدر الإشارة إليه في أمر البراء: أنَّه عندما جاء مع قومه من يثرب قال لهم: إني قد رأيت رأياً ، فوالله ما أدري: أتوافقونني عليه ، أم لا؟

فقالوا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت ألاَّ أدع هذه البَنيَّة ـ يعني: الكعبة ـ منِّي بِظَهْر ، وأن أصلِّي إليها ، فقالوا له: والله ما بلغنا أنَّ النَّبيَّ (ص) يصلِّي إلاَّ إلى الشَّام ـ ببيت المقدس ـ وما نريد أن نخالفه ، فكانوا إذا حضرت الصَّلاة صلُّوا إلى بيت المقدس ، وصلَّى هو إلى الكعبة ، واستمرُّوا كذلك؛ حتى قدموا مكَّة ، وتعرَّفوا إلى رسول الله (ص) وهو جالسٌ مع عمِّه العباس رضي الله عنه بالمسجد الحرام ، فسأل النَّبيَّ

(ص) العباسَ رضي الله عنه: «هل تعرف هذين الرَّجلين يا أبا الفضل؟» قال: نعم، هذا البراء بن مَعْرور سيِّد قومه ، وهذا كعب بن مالكٍ ، فقال النَّبيُّ (ص) : «الشَّاعر؟» قال: نعم. فقصَّ عليه البراء ما صنع في سفره من صلاته إلى الكعبة. قال: فماذا ترى يا رسول الله؟! قال: «قد كنت على قِبْلةٍ لو صبرتَ عليها»[(٦٢)] قال كعب: فرجع البراء إلى قِبْلةِ رسول الله (ص) ، وصلَّى معنا إلى الشَّام ، فلمَّا حضرته الوفاة أمر أهله أن يوجِّهوه قبَلَ الكعبة ، ومات في صفر قبل قدومه (ص) بشهرٍ ، وأوصى بثلث ماله إلى النَّبيِّ (ص) ، فقبله ، وردَّه على ولده ، وهو أوَّل من أوصى بثلث ماله[(٦٣)].

ويستوقفنا في هذا الخبر:

أ ـ الانضباط ، والالتزام من المسلمين بسلوك رسولهم (ص) ، وأوامره ، وإنَّ أيَّ اقتراحٍ مهما كان مصدره ، يتعارض مع ذلك يُعَدُّ مرفوضاً ، وهذه الأمور من أولويات الفقه في دين الله ، تأخذ حيِّزها في حياتهم ، وهم ـ بعد ـ ما زالوا في بداية الطَّريق.

ب ـ إنَّ السِّيادة لم تعد لأحدٍ غير رسول الله (ص) ، وإنَّ توقير أيِّ إنسانٍ ، واحترامه إنَّما هو انعكاسٌ لسلوكه ، والتزامه بأوامر الرَّسول (ص) ، وهكذا بدأت تنزاح تقاليد جاهليَّةٌ؛ لتحلَّ محلَّها قيمٌ إيمانيَّة ، فهي المقاييس الحقَّة؛ الَّتي بها يمكن الحكم على النَّاس تصنيفاً وترتيباً[(٦٤)].

٦ ـ كان أبو الهيثم بن التَّيِّهان صريحاً عندما قال للرَّسول (ص) : إنَّ بيننا وبين الرِّجال حبالاً ، وإنَّا قاطعوها ـ يعني: اليهود ـ فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله؛ أن ترجع

إلى قومك ، وتدعنا؟ فتبسَّم رسولُ الله (ص) وقال: «بل الدَّمُ الدَّمُ ، والهدمُ الهدمُ ، أنا منكم ، وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم».

وهذا الاعتراض يدلُّنا على الحرِّيَّة العالية؛ الَّتي رفع الله تعالى المسلمين إليها بالإسلام ، حيث عبَّر عمَّا في نفسه بكامل حرِّيَّته[(٦٥)] ، وكان جواب سيِّد الخلق (ص) عظيماً ، فقد جعل نفسه جزءاً من الأنصار ، والأنصار جزءاً منه[(٦٦)].

٧ ـ يؤخذ من اختيار النُّقباء دروسٌ مهمَّةٌ؛ منها:

أ ـ أنَّ الرَّسول (ص) لم يعيِّن النُّقباء؛ إنَّما ترك طريق اختيارهم إلى الَّذين بايعوا ، فإنَّهم سيكونون عليهم مسؤولين وكفلاء ، والأولى أن يختار الإنسان من يكفله ، ويقوم بأمره ، وهذا أمرٌ شوريٌّ ، وأراد الرسول (ص) أن يمارسوا الشُّورى عمليّاً من خلال اختيار نقبائهم.

ب ـ التَّمثيل النِّسبي في الاختيار ، فمن المعلوم أنَّ الذين حضروا البيعة من الخزرج ، أكثر من الذين حضروا البيعة من الأوس ، ثلاثة أضعاف من الأوس؛ بل يزيدون ، ولذلك كان النقباء ثلاثة من الأوس ، وتسعة من الخزرج[(٦٧)].

ج ـ جعل رسول الله (ص) النقباء مشرفين على سير الدَّعوة في يثرب ، حيث استقام عود الإسلام هناك ، وكثر مثقَّفوه ، ومعتنقوه ، فأراد الرَّسول (ص) أن يشعرهم أنَّهم لم يعودوا غرباء؛ لكي يبعث إليهم أحداً من غيرهم ، وأنَّهم غدوا أهل الإسلام ، وحماته ، وأنصاره[(٦٨)].

٨ ـ تأكَّد زعماء مكَّة من حقيقة الصَّفقة ، الَّتي تمَّت بين رسول الله (ص) والأنصار ، فخرجوا في طلب القوم ، فأدركوا سعد بن عبادة بأذَاخر[(٦٩)] ، والمنذر بن عمرو ، وكلاهما كان نقيباً ، فأمَّا المنذر ، فأعجز القومَ ، وأمَّا سعدٌ ، فأخذوه ، فربطوا يديه إلى عنقه بنِسْع[(٧٠)] رَحْله ، ثمَّ أقبلوا به حتَّى أدخلوه مكَّة ، يضربونه ، ويجذبونه بجُمَّته[(٧١)] . وكان ذا شعرٍ كثيرٍ .[(٧٢)] ، واستطاع أن يتخلَّص من قريش ، بواسطة الحارث بن حرب بن أميَّة ، وجبير بن مُطْعِم؛ لأنَّه كان يجير تجارتهم ببلده؛ فقد أنقذته أعراف الجاهليَّة ، ولم تنقذه سيوف المسلمين ، ولم يجد في نفسه

غضاضةً من ذلك ، فهو يعرف: أنَّ المسلمين مطاردون في مكَّة ، وعاجزون عن حماية أنفسهم[(٧٣)] ، وقد قيل في هذه الحادثة أوَّل شعرٍ في الهجرة ، بيتان قالهما ضرار بن الخطَّاب بن مرداس؛ حيث قال:

تَدارَكْتُ سَعْداً عَنْوةً فأخَذْتُهُوكانَ شِفاءً لَو تَدارَكْتُ مُنْذِرا

ولو نِلْتهُ طُلَّتْ[(٧٤)] هُنَاكَ جِراحُهُوكانَ حرِيَّاً أَنْ يُهَانَ ويُهْدَرا

وكان حسَّان بن ثابت بالمرصاد ، وردَّ عليه بأبيات من الشِّعر ، تناقلتها الرُّكبان:

وَلَسْتُ إِلَى سَعْدٍ ولاَ المرْءُ مِنْذِرٌإِذَا مَا مَطَايا القَوْمِ أَصْبَحْنَ ضُمَّرا[(٧٥)]

فَلاَ تَكُ كالوَسْنَانِ يَحْلُمُ أَنَّهُبِقَرْيَةِ كِسْرَى أَوْ بِقَرْيَةِ قَيْصَرَا

فإنَّا وَمَنْ يَهْدِي القَصَائِدَ نَحْوَنَاكَمُسْتَبْضِعٍ تَمْراً إِلَى أَرْضِ خَيْبَرا[(٧٦)]

٩ ـ في قول العبَّاس بن عبادة بن نضلة: «والله الذي بعثك بالحق! إن شئت لَنمِيلنَّ على أهل مِنَى غداً بأسيافنا» ، وقول رسول الله (ص) : «لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» [سبق تخريجه] درسٌ تربويٌّ بليغٌ ، وهو: أنَّ الدِّفاع عن الإسلام ، والتَّعامل مع أعداء هذا الدِّين ، ليس متروكاً لاجتهاد أتباعه؛ وإنَّما هو خضوعٌ لأوامر الله تعالى ، وتشريعاته الحكيمة ، فإذا شُرع الجهاد؛ فإنَّ أمر الإقدام ، أو الإحجام متروكٌ لنظر المجتهدين ، بعد التَّشاور ، ودراسة الأمر من جميع جوانبه[(٧٧)] ، وكلَّما كانت

عبقريَّة التَّخطيط السِّياسيِّ أقوى؛ أدَّت إلى نجاح المهمَّات أكثر ، وإخفاء المخطَّطات ، وتنفيذها عن العدوِّ ، هو الكفيل ـ بإذن الله ـ بنجاحها: «ولكن ارجعوا إلى رحالكم» [سبق تخريجه][(٧٨)].

١٠ ـ كانت البيعة بالنِّسبة للرِّجال ببسط رسول الله (ص) يده ، وقولهم له: ابسط يدك ، فبسط يده ، فبايعوه ، وأمَّا بيعة المرأتين اللَّتين شهدتا الوقعة ، فكانت قولاً؛ ما صافح رسول الله (ص) امرأةً أجنبيةً قطُّ ، فلم يتخلَّف أحدٌ عن بيعته (ص) ، حتَّى المرأتان بايعتا بيعة الحرب ، وصدقتا عهدهما ، فأمَّا نُسَيبة بنت كعب (أمُّ عمارة) ، فقد سقطت في أُحدٍ ، وقد أصابها اثنا عشر جرحاً ، وقد خرجت يوم أحدٍ مع زوجها زيد بن عاصم بن كعب، ومعها سقاءٌ تسقي به المسلمين ، فلمَّا انهزم المسلمون؛ انحازت إلى رسول الله (ص) ، فكانت تباشر القتال ، وتذبُّ

عنه بالسَّيف ، وقد أصيبت بجراحٍ عميقةٍ ، وشهدت بيعة الرِّضوان[(٧٩)] ، وقطَّع مسيلمة الكذَّاب ابنها إرباً إرباً ، فما وهنت ، وما استكانت[(٨٠)] ، وشهدت معركة اليمامة ، في حروب الرَّدة مع خالد بن الوليد ، فقاتلت حتَّى قطعت يدُها ، وجُرحت اثني عَشَرَ جُرحاً[(٨١)] ، وأمَّا أسماء بنت عمرو من بني سلمة ، قيل: هي والدة معاذ بن جبل ، وقيل: ابنة عمَّة معاذ بن جبل رضي الله عنهم جميعاً[(٨٢)].

١١ ـ عندما نراجع تراجم أصحاب العقبة الثانية من الأنصار في كتب السِّير والتَّراجم ، نجد: أنَّ هؤلاء الثلاثة والسَّبعين ، قد استشهد قرابة ثلثهم على عهد النَّبيِّ (ص) وبعده ، ونلاحظ: أنَّه قد حضر المشاهد كلَّها مع رسول الله (ص) قرابة النِّصف ، فثلاثة وثلاثون منهم كانوا بجوار الرَّسول (ص) في جميع غزواته ، وأمَّا الَّذين حضروا غزوة بدر ، فكانوا قرابة السَّبعين.

لقد صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع الله ، ورسوله (ص) ؛ فمنهم من قضى نحبه ، ولقي ربَّه شهيداً ، ومنهم من بقي حتَّى ساهم في قيادة الدَّولة المسلمة ، وشارك في أحداثها الجِسَام ، بعد وفاة رسول الله (ص) ، وبمثل هذه النماذج قامت دولة الإسلام ، النَّماذج الَّتي تعطي ، ولا تأخذ ، والَّتي تقدِّم كلَّ شيءٍ ، ولا تطلب شيئاً إلا الجنَّة ، ويتصاغر التَّاريخ في جميع عصوره ، ودهوره ، أن يحوي في صفحاته أمثال هؤلاء الرِّجال والنِّساء[(٨٣)].

* * *

المبحث الرَّابع

الهجرة إلى المدينة

أولاً: التَّمهيد ، والإعداد لها:

إنَّ الهجرة إلى المدينة سبقها تمهيدٌ ، وإعدادٌ ، وتخطيط من النَّبيِّ (ص) ، وكان ذلك بتقدير الله تعالى ، وتدبيره ، وكان هذا الإعداد في اتِّجاهين: إعداد في شخصية المهاجرين ، وإعداد في المكان المهاجَرِ إليه.

١ ـ إعداد المهاجرين:

لم تكن الهجرة نزهةً ، أو رحلةً يروِّح فيها الإنسان عن نفسه؛ ولكنَّها مغادرةُ الأرض، والأهل ، ووشائج القربى ، وصلات الصَّداقة والمودَّة ، وأسباب الرِّزق ، والتَّخلِّي عن كلِّ ذلك من أجل العقيدة ، ولهذا احتاجت إلى جهدٍ كبيرٍ ، حتَّى وصل المهاجرون إلى قناعةٍ كاملةٍ بهذه الهجرة ، ومن تلك الوسائل:

ـ التَّربية الإيمانيَّة العميقة الَّتي تحدَّثنا عنها في الصَّفحات الماضية.

ـ الاضطهاد الَّذي أصاب المؤمنين ، حتَّى وصلوا إلى قناعةٍ كاملةٍ بعدم إمكانية المعايشة مع الكفر.

ـ تناول القران المكِّيِّ التَّنويه بالهجرة ، ولفت النَّظر إلى أنَّ أرض الله واسعةٌ. قال تعالى: {قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ *} [الزمر: ١٠] .

ثمَّ تلا ذلك نزولُ سورة الكهف ، والَّتي تحدَّثت عن الفتية الذين امنوا بربهم ، وعن هجرتهم من بلدهم إلى الكهف ، وهكذا استقرَّت صورةٌ من صور الإيمان في نفوس الصَّحابة ، وهي ترك الأهل ، والوطن من أجل العقيدة.

ثم تلا ذلك اياتٌ صريحةٌ تتحدَّث عن الهجرة في سورة النَّحل ، قال تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *} [النحل: ٤١ ـ ٤٢] .

وفي أواخر السُّورة يؤكِّد المعنى مرَّةً أخرى بقوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ *} [النحل: ١١٠] .

وكانت الهجرة إلى الحبشة تدريباً عمليّاً على ترك الأهل ، والوطن[(٨٤)].

٢ ـ الإعداد في يثرب:

نلاحظ: أنَّ الرَّسول (ص) ، لم يسارع بالانتقال إلى الأنصار من الأيام الأولى؛ وإنَّما أخَّر ذلك لأكثر من عامين؛ حتَّى تأكَّد من وجود القاعدة الواسعة نسبيّاً ، كما كان في الوقت نفسه يتمُّ إعدادها في أجواء القران الكريم ، وخاصَّةً بعد انتقال مصعب رضي الله عنه إلى المدينة.

وقد تأكَّد: أنَّ الاستعداد لدى الأنصار قد بلغ كماله ، وذلك بطلبهم هجرة الرَّسول الكريم (ص) إليهم ، كما كانت المناقشات الَّتي جرت في بيعة العقبة الثَّانية ، تؤكِّد الحرص الشَّديد من الأنصار على تأكيد البيعة ، والاستيثاق للنَّبي (ص) بأقوى المواثيق على أنفسهم ، وكان في رغبتهم أن يميلوا على أهل مِنًى ممَّن اذى رسول الله (ص) بأسيافهم؛ لو أذن الرَّسول الكريم بذلك ، ولكنَّه قال لهم: «لم نؤمر بذلك».

وهكذا تمَّ الإعداد لأهل يثرب؛ ليكونوا قادرين على استقبال المهاجرين ، وما يترتَّب على ذلك من تَبِعَات[(٨٥)].

ثانياً: تأمُّلاتٍ في بعض ايات سورة العنكبوت:

تعتبر سورة العنكبوت من أواخر ما نزل في المرحلة المكِّيَّة ، وتحدَّثت السُّورة عن سنَّة الله في الدَّعوات ، وهي سنُّة الابتلاء ، قال تعالى: {الم *أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ *أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ *} [العنكبوت: ١ ـ ٤] .

وفي سورة العنكبوت ثلاثةُ أمورٍ تلفت النَّظر ، وهي:

١ ـ ذِكْرُ كلمة المنافقين ، ومن المعلوم: أنَّ النِّفاق لا يكون إلا عندما تكون الغلبة للمسلمين؛ حيث يخشى بعضُ النَّاس على مصالحهم ، فيظهرون الإسلام ، ويبطنون الكفر ، ومن المعلوم: أنَّ المجتمع في مكَّةَ كان جاهليّاً ، وكانت القوَّة والغلبة لأهل الشِّرك ، فما مناسبة مجيء المنافقين في هذه السُّورة ، في قوله تعالى: {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ *} [العنكبوت: ١١] ، وهي سورةٌ مكِّيَّةٌ كما قلنا: فهل كانت الامال قد قويت عند الفئة

المؤمنة بحيث تراءى لهم الفرج ، والنَّصر قاب قوسين أو أدنى؟ أم أنَّ هذه الاية مدنيَّةٌ وضعت في سورةٍ مكِّيَّةٍ؛ لأنَّ النِّفاق لم يحِنْ وقتُه بعدُ ، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسِّرين؟[(٨٦)].

٢ ـ ورد الأمر بمجادلة أهل الكتاب بالَّتي هي أحسن ، وكأنَّه تهيئةٌ للنُّفوس للمرحلة القادمة؛ الَّتي سيكون بين المسلمين وبين أهل الكتاب فيها احتكاكٌ ، فلا يكونون البادئين بالشدَّة ، فيأتي التَّنبيه على هذا الأمر في قوله تعالى: {وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاَءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ *} [العنكبوت: ٤٦ ـ ٤٧] .

٣ ـ تهيئة النُّفوس للهجرة في أرض الله الواسعة ، وربما كانت المدينة قد بدأت تستقبل المهاجرين من المؤمنين بعد بيعة العقبة الأولى ، ومهما كان الأمر ، وأنَّى كان وقت نزول سورة العنكبوت؛ فإنَّ الإشارة واضحةٌ ، والحثَّ على الهجرة ـ أيضاً ـ واضحٌ ببيان تكفُّل اللهِ الرِّزق للعباد؛ في أيِّ أرضٍ ، وفي أيِّ زمانٍ[(٨٧)]. قال تعالى: {يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ *} [العنكبوت: ٥٦] .

هذه الاية الكريمة نزلت في تحريض المؤمنين الَّذين كانوا بمكَّة على الهجرة؛ فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه ، وأنَّ البقاء في بقعةٍ على أذى الكفار ليس بصوابٍ؛ بل الصَّواب أن يُتلمَّس عبادةُ الله في أرضه مع صالحي عباده؛ أي: إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها ، فهاجروا إلى المدينة؛ فإنَّها واسعةٌ لإظهار التَّوحيد بها[(٨٨)] ، ثمَّ أخبرهم تعالى: أنَّ الرِّزق لا يختصُّ ببقعةٍ معيَّنةٍ؛ بل رزقه تعالى عامٌّ لخلقه حيث كانوا ، وأين كانوا ، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر ، وأوسع ، وأطيب ، فإنَّهم بعد قليل صاروا حكَّام البلاد في سائر الأقطار ، والأمصار[(٨٩)] ، ولهذا قال تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ دَآبَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *} [العنكبوت: ٦٠] .

كما ذكَّرهم تعالى: أنَّ كلَّ نفسٍ واجدةٌ مرارة الموت ، فقال جلَّ شأنه: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ *} [العنكبوت: ٥٧] .

أي: واجدةٌ مرارته ، وكربه ، كما يجد الذَّائق طعم المذوق ، ومعناه: إنَّكم ميّتون ،

فواصلون إلى الجزاء ، ومن كانت هذه عاقبته؛ لم يكن له بُدٌّ من التزوُّد لها ، والاستعداد بجهده[(٩٠)] ، وهذا تشجيعٌ للنَّفس على الهجرة؛ لأنَّ النَّفس إذا تيقَّنت بالموت؛ سهُلَ عليها مفارقةُ وطنها[(٩١)].

قال ابن كثير في الاية: أي: أينما كنتم يدرككم الموت ، فكونوا في طاعة الله ، وحيث أمركم الله؛ فهو خيرٌ لكم ، فإنَّ الموت لابدَّ منه ، ولا محيد عنه ، ثمَّ إلى الله المرجع والماب ، فمن كان مطيعاً له؛ جازاه

أفضل الجزاء ، ووافاه أتمَّ الثَّواب[(٩٢)] ، ولهذا قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *} [العنكبوت: ٥٨ . ٥٩]، أي: صبروا على دينهم ، وهاجروا إلى الله ، ونابزوا الأعداء ، وفارقوا الأهل ، والأقرباء؛ ابتغاء وجه الله ، ورجاء ما عنده ، وتصديق موعوده ، ولم يتوكَّلوا في جميع ذلك إلا على الله[(٩٣)].

ثالثاً: طلائع المهاجرين:

لما بايعتْ طلائعُ الخير ، ومواكبُ النُّور من أهل يثرب النَّبيَّ (ص) على الإسلام ، والدِّفاع عنه؛ ثارت ثائرة المشركين ، فازدادوا إيذاءً للمسلمين ، فأذن النَّبيُّ (ص) للمسلمين بالهجرة إلى المدينة ، وكان المقصود من الهجرة إلى المدينة ، إقامة الدَّولة الإسلاميَّة؛ الَّتي تحمل الدَّعوة ، وتجاهد في سبيلها؛ حتَّى لا تكون فتنةٌ ، ويكون الدِّين كلُّه لله[(٩٤)] ، وكان التَّوجيه إلى المدينة من الله تعالى ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما صدر السَّبعون من عند رسول الله (ص) ؛ طابت نفسه ، وقد جعل الله له منعةً ، وقوماً أهل حربٍ ، وعدَّةٍ ، ونجدةٍ ، وجعل البلاء يشتدُّ على المسلمين من المشركين؛ لما يعلمون من الخروج ، فضيَّقوا على أصحابه ، وتعبَّثوا[(٩٥)] بهم ، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشَّتم ، والأذى ، فشكا ذلك أصحابُ رسول الله (ص) واستأذنوه في الهجرة ، فقال: « قد أُريت دار هجرتكم ، أريت سبخةً ذات نخلٍ بين لابتين . وهما الحرَّتان . ولو كانت السَّراة أرض نخلٍ ، وسباخٍ؛ لقلت: هي ، هي» [البخاري (٢٢٩٧) والبيهقي في الدلائل (٢/٤٥٩)] ..

ثمَّ مكث أياماً ، ثمَّ خرج إلى أصحابه مسروراً فقال: «قد أخبرت بدار هجرتكم ، وهي يثرب ، فمن أراد الخروج فليخرج إليها» فجعل القوم يتَّجهون ، ويتوافقون ، ويتواسون ، ويخرجون ، ويخفون ذلك ، فكان أوَّلَ من قدم المدينة من أصحاب رسول الله (ص) ، أبو سلمة بن عبد الأسد ، ثمَّ قدم بعده عامر بن ربيعة ، معه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمَة ، فهي أوَّل ظعينةٍ قدمت المدينة ، ثمَّ قدم أصحاب رسول الله (ص) أرسالاً ، فنزلوا على الأنصار في دورهم ، فاووهم ، ونصروهم ، واسوهم ، وكان سالم مولى أبي حُذيفة ، يؤمُّ المهاجرين بقباء ، قبل أن يقدم النَّبيُّ (ص) ، فلمَّا خرج المسلمون في هجرتهم إلى المدينة ، كَلِبَتْ[(٩٦)] قريشٌ عليهم ، وحربوا ، واغتاظوا على مَنْ خرج من فتيانهم ، وكان نفرٌ من الأنصار بايعوا رسول الله (ص) في البيعة الاخرة ، ثمَّ رجعوا إلى المدينة ، فلمَّا قدم أوَّل مَنْ هاجر إلى قُباء؛ خرجوا إلى رسول الله (ص) بمكَّة ، حتَّى قدموا مع أصحابه في الهجرة ، فهم مهاجرون

أنصاريُّون ، وهم: ذكوان بن عبد قيس ، وعقبة بن وهب بن كلدة ، والعباس بن عبادة بن نضلة ، وزياد بن لبيد ، وخرج المسلمون جميعاً إلى المدينة ، فلم يبقَ بمكَّة فيهم إلا رسول الله (ص) ، وأبو بكر ، وعليٌّ ، أو مفتونٌ ، أو مريضٌ ، أو ضعيفٌ عن الخروج. [ابن سعد (١/٣٢٥)] .

رابعاً: من أساليب قريش في محاربة المهاجرين ، ومن مشاهد العظمة في الهجرة:

عملت قيادة قريش مافي وسعها للحيلولة دون خروج من بقي من المسلمين إلى المدينة ، واتَّبعت في ذلك عدَّة أساليب؛ منها:

١ ـ أسلوب التَّفريق بين الرَّجل ، وزوجه ، وولده:

ونترك أمَّ المؤمنين أمَّ سلمة ، هند بنت أبي أميَّة تحدِّثنا عن روائع الإيمان ، وقوَّة اليقين في هجرتها ، وهجرة زوجها أبي سلمة. قالت رضي الله عنها: «لما أَجْمَعَ أبو سلمة الخروجَ إلى المدينة ، رَحَل لي بعيرَهُ ، ثمَّ حملني عليه ، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري ، ثمَّ خرج بي يقود بعيرَه ، فلمَّا رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم؛ قاموا إليه ، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علامَ نتركك تسير بها في البلاد؟

قالت: فنزعوا خطام البعير من يده ، فأخذوني منه.

قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد ، رهط أبي سلمة ، فقالوا: لا والله ، لا نترك ابننا عندها؛ إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا بُنيَّ سلمة بينهم ، حتَّى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة.

قالت: ففُرِّق بيني ، وبين زوجي ، وبين ابني.

قالت: فكنت أخرج كلَّ غداةٍ ، فأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكي حتَّى أُمسي ، سنةً ، أو قريباً منها؛ حتَّى مرَّ بي رجلٌ من بني عمِّي ـ أحدُ بني المغيرة ـ فرأى ما بي ، فرحمني ، فقال لبني المغيرة: ألا تُخرْجون هذه المسكينة؛ فرَّقتم بينها وبين زوجها ، وبين ولدها؟!

قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئتِ.

قالت: وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني.

قالت: فارتحلتُ بعيري ، ثمَّ أخذت ابني ، فوضعته في حِجري ، ثمَّ خرجت أريد زوجي بالمدينة ، وما معي أحدٌ من خَلْق الله.

قالت: فقلت: أتبلَّغ بمن لقيت حتَّى أقدم على زوجي ، حتَّى إذا كنت بالتَّنْعيم ، لقيتُ عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، أخا بني عبد الدَّار.

فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أميَّة؟!

قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة.

قال: أو ما معك أحد؟

قالت: فقلت: لا والله! إلا الله ، وبُنَيَّ هذا.

قال: والله ما لكِ من مَتْرك.

فأخذ بخطام البعير ، فانطلق معي يَهْوِي بي ، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قطُّ أرى أنَّه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل؛ أناخ بي ، ثمَّ استأخر عنِّي ، حتَّى إذا نزلت استأخر ببعيري ، فحطَّ عنه ، ثمَّ قيَّده في الشَّجرة ، ثمَّ تنحَّى عنِّي إلى شجرة ، فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرَّواح؛ قام إلى بعيري ، فقدَّمه ، فرحَّله ، ثمَّ استأخر عنِّي ، وقال: اركبي ، فإذا ركبتُ ، واستويت على بعيري؛ أتى فأخذ بخطامه ، فقاده حتَّى ينزل بي ، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقْدَمني المدينة فلمَّا نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقُباء ، قال: زوجك في هذه القرية ـ وكان أبو سلمة بها نازلاً ـ فادْخُليها على بركة الله ، ثمَّ انصرف راجعاً إلى مكَّة.

قال: فكانت تقول: والله! ما أعلم أهل بيتٍ في الإسلام أصابهم ما أصاب ال أبي سلمة ، وما رأيت صاحباً قطُّ كان أكرم من عثمان بن طلحة». [ابن هشام (١١٢/٢ ـ ١١٣)][(٩٧)] .

فهذا مثل على الطُّرق القاسية ، الَّتي سلكتها قريشٌ؛ لتحول بين أبي سلمة والهجرة ، فرجلٌ يفرَّق بينه وبين زوجه عَنْوَةً ، وبينه وبين فلذة كبده على مرأىً منه ، كلُّ ذلك من أجل أن يثنوه عن الهجرة ، ولكنْ متى تمكَّن الإيمان من القلب؛ استحال أن يقدِّم صاحبه على الإسلام والإيمان شيئاً ، حتَّى لو كان ذلك الشَّيء ، فلذة كبده ، أو شريكة حياته ، لذا انطلق أبو سلمة رضي الله عنه إلى المدينة ، لا يلوي على أحدٍ ، وفشل معه هذا الأسلوب ، وللدُّعاة إلى الله فيه أسوةٌ[(٩٨)].

وهكذا أثَرُ الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب ، فهذه أسرةٌ فُرِّق شملُها ، وامرأةٌ تبكي شدَّة مصابها ، وطفلٌ خُلعت يده ، وحُرِم من أبويه ، وزوج ، وأبٌ يسجِّل أروع صور التَّضحية ، والتَّجرد؛ ليكون أوَّل مهاجرٍ يصل أرض الهجرة ، محتسبين في سبيل الله ما يلقون ، مصمِّمين على المضيِّ في طريق الإيمان ، والانحياز إلى كتيبة الهدى ، فماذا عسى أن ينال الكفر ، وصناديده من أمثال هؤلاء؟!

وأمَّا صنيع عثمان بن طلحة رضي الله عنه ، فقد كان يومئذ كافراً «وأسلم قبل الفتح» ، ومع ذلك تشهَدُ له أمُّ سلمة رضي الله عنها بكرم الصُّحْبةِ ، وذلك شاهد صدقٍ على نفاسة هذا المعدن ، وكمال مروءته ، وحمايته للضَّعيف[(٩٩)] ، فقد أبت عليه مروءته ، وخلقه العربيُّ الأصيل ، أن يَدَع امرأةً شريفةً ، تسير وحدها في هذهِ الصَّحراء الموحشة ، وإن كانت على غير دينه ، وهو يعلم أنَّها بهجرتها تراغمه ، وأمثاله من كفَّار قريش.

فأين من هذه الأخلاق ـ يا قومي المسلمين! ـ أخلاق الحضارة في القرن العشرين؛ من سطوٍ على الحرّيات ، واغتصابٍ للأعراض؛ بل وعلى قارعة الطَّريق ، وما تطالعنا به الصَّحافة كلَّ يومٍ من أحداثٍ يندى لها جبين الإنسانيَّة؛ مِن تَفَنُّنٍ في وسائل الاغتصاب ، وانتهاك الأعراض ، والسَّطو على الأموال!.

إنَّ هذه القصة ـ ولها مُثُلٌ ونظائر ـ لتشهدُ أنَّ ما كان للعرب من رصيدٍ من الفضائل كان أكثر من مثالبهم ، ورذائلهم ، فَمِنْ ثمَّ اختار الله منهم خاتم أنبيائه ورسله (ص) ، وكانوا أهلاً لحمل الرِّسالة ، وتبليغها للنَّاس كافَّةً[(١٠٠)].

وتظهر عناية الله تعالى بأوليائه ، وتسخيره لهم ، فهو ـ جلَّ وعلا ـ الَّذي سخَّر قلب عثمان بن طلحة للعناية بأمِّ سلمة، ولذلك بذل الجهد ، والوقت من أجلها[(١٠١)] ، كما تظهر سلامة فطرة عثمان بن طلحة؛ الَّتي قادته أخيراً إلى الإسلام بعد صلح الحديبية ، ولعلَّ إضاءة قلبه بدأت
منذ تلك الرِّحلة في مصاحبته لأمِّ سلمة رضي الله عنها[(١٠٢)].

٢ ـ أسلوب الاختطاف:

لم تكتفِ قيادة قريش بالمسلمين داخل مكَّة بمنعهم من الهجرة ، بل تعدَّت ذلك إلى محاولة إرجاع من دخل المدينة مهاجراً ، فقامت بتنفيذ عملية اختطاف أحد المهاجرين ، ولقد نجحت هذه المحاولة ، وتمَّ اختطاف أحد المهاجرين من المدينة ، وأعيد إلى مكَّة[(١٠٣)] ، وهذه الصُّورة التَّاريخيَّة للاختطاف يحدِّثنا بها عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، حيث قال: اتَّعدتُّ لما أردنا الهجرة إلى المدينة ، أنا ، وعيَّاش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص بن وائل السَّهمي التَّناضِبَ[(١٠٤)] من أضَاة[(١٠٥)] بني غفارٍ ، فوق سَرِف[(١٠٦)] ، وقلنا: أيُّنا لم يُصْبِحْ عندها فقد حُبس ، فليمضِ صاحباه.

قال: فأصبحت أنا ، وعياش بن أبي ربيعة عند التَّناضِب ، وحُبِس عنَّا هشام ، وفُتن ، فافتتن[(١٠٧)].

فلمَّا قدمنا المدينة؛ نزلنا في بني عمرو بن عوف بقُباء ، وخرج أبو جهل بن هشام ، والحارث بن هشام ، إلى عيَّاش بن أبي ربيعة ، وكان ابن عمِّهما ، وأخاهما لأمِّهما ، حتَّى قدما علينا المدينة ، ورسول الله (ص) بمكَّة ، فكلَّماه ، وقالا: إنَّ أمَّك قد نذرت ألا يمسَّ رأسها مشطٌ حتَّى تراك ، ولا تستظلَّ من شمسٍ حتَّى تراك ، فرقَّ لها ، فقلت له: عيَّاش ، إنَّه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك ، فاحذرهم ، فوالله لو قد اذى أمَّك القملُ ، لامتشطت ، ولو قد اشتدَّ عليها حرُّ مكة لاستظلَّت.

قال: أبرُّ قسم أمِّي ، ولي هناك مالٌ ، فاخذه.

قال: فقلت: والله إنك لتعلم أنِّي لَمِنْ أكثر قريشٍ مالاً ، فلك نصفُ مالي ، ولا تذهب معهما ، قال: فأبى عليَّ إلا أن يخرج معهما ، فلمَّا أبى إلا ذلك ، قلت له: أما إذ قد فعلت ما فعلت؛ فخذ ناقتي هذه ، فإنها ناقةٌ نجيبةٌ ذلول[(١٠٨)] ، فالزمْ ظهرها ، فإن رابك من القوم ريبٌ؛ فانجُ عليها ، فخرج عليها معهما ، حتَّى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال له أبو جهل: يا أخي ،

والله! لقد استغلظتُ بعيري هذا ، أفلا تُعْقِبني[(١٠٩)] على ناقتك هذه؟ قال: بلى ، قال: فأناخ ، وأناخ ، ليتحوَّل عليها ، فلما استَوَوْا بالأرض ، عدوا عليه ، فأوثقاه ، ثمَّ دخلا به مكَّة ، وفتناه ، فافتتن[(١١٠)].

قال: فكنَّا نقول: ما الله بقابل ممَّن افتتن صَرفاً ، ولا عدلاً ، ولا توبةً ، قوم عرفوا الله ، ثمَّ رجعوا إلى الكفر لبلاءٍ أصابهم! قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم ، فلمَّا قدم رسول الله (ص) المدينة؛ أنزل الله تعالى فيهم ، وفي قولنا ، وقولهم لأنفسهم: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ *وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ *} [الزمر: ٥٣ ـ ٥٥] .

قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: فكتبتها بيدي في صحيفةٍ ، وبعثت بها إلى هشام بن العاص ، قال: فقال هشام: فلمَّا أتتني؛ جعلت أقرؤها بذي طَوَى[(١١١)] أُصَعِّد بها فيه ، وأصَوِّبُ ، ولا أفهمها ، حتَّى قلت: اللهمَّ فهِّمنيها ، قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنَّها إنَّما أنزلت فينا ، وفيما كنا نقول في أنفسنا ، ويُقال: فينا ، قال: فرجعت إلى بعيري ، فجلست عليه ، فلحقت برسول الله (ص) ، وهو بالمدينة. [البزار (١٧٤٦) والبيهقي في الدلائل (٢/٤٦١ ـ ٤٦٢) ومجمع الزوائد (٦/٦١)][(١١٢)] .

هذه الحادثة تظهر لنا كيف أعدَّ عمر رضي الله عنه خطَّة الهجرة له ، ولصاحبيه عيَّاش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص بن وائل السَّهميّ ، وكان ثلاثتهم كلُّ واحدٍ من قبيلةٍ ، وكان مكان اللِّقاء الَّذي اتَّعَدوا فيه بعيداً عن مكَّة ، وخارج الحرم ، على طريق المدينة ، ولقد تحدَّد الزمان ، والمكان بالضَّبط؛ بحيث إنَّه إذا تخلف أحدهم؛ فليمضِ صاحباه ، ولا ينتظرانه؛ لأنَّه قد حُبس ، وكما توقعوا ، فقد حبس هشام بن العاص رضي الله عنه ، بينما مضى عمر ، وعيَّاش بهجرتهما ، ونجحت الخطَّة كاملة ، ووصلا المدينة سَالِمَيْنِ[(١١٣)].

إلا أنَّ قريشاً صمَّمت على متابعة المهاجرين ، ولذلك أعدَّت خطَّةً محكمةً ، قام بتنفيذها أبو جهل ، والحارث ، وهما أَخَوَا عياش من أمِّه ، الأمر الذي جعل عياشاً يطمئنُّ لهما ، وبخاصَّةٍ إذا كان الأمر يتعلَّق بأمِّه ، فاختلق أبو جهل هذه الحيلة؛ لعلمه بمدى شفقة ورحمة

عيَّاش بأمِّه ، والَّذي ظهر جليّاً عندما أظهر موافقته على العودة معهما ، كما تُظهر الحادثة الحسَّ الأمني الرَّفيع؛ الَّذي كان يتمتَّع به عمر رضي الله عنه؛ حيث صدقت فراسته في أمر الاختطاف[(١١٤)].

كما يظهر المستوى العظيم من الأخوَّة التي بناها الإسلام في هذه النُّفوس؛ فعمر يضحِّي بنصف ماله حرصاً على سلامة أخيه ، وخوفاً عليه من أن يفتنه المشركون بعد عودته ، ولكن غلبت عياشاً عاطفتُه نحو أمِّه ، وبرِّه بها؛ ولذلك قرَّر أن يمضي لمكَّة فيبرَّ قسم أمِّه ، ويأتي بماله من هناك ، وتأبى عليه عفَّته أن يأخذ نصف مال أخيه عمر رضي الله عنه ، وماله قائم في مكَّة لم يُمسَّ ، غير أنَّ أفق عمر رضي الله عنه كان أبعد ، فكأنه يرى رأي العين ، المصير المشؤوم ، الَّذي سينزل بعياشٍ لو عاد إلى مكَّة ، وحين عجز عن إقناعه؛ أعطاه ناقته الذَّلول النَّجيبة ، وحدث لعياش ما توقَّعه عمر من غدر المشركين به[(١١٥)].

وساد في الصفِّ المسلم: أنَّ الله تعالى لا يقبل صرفاً ، ولا عدلاً ، من هؤلاء الذين فُتِنوا ، فافتتنوا ، وتعايشوا مع المجتمع الجاهليّ ، فنزل قول الله تعالى: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ} ، وما إن نزلت هذه الايات ، حتَّى سارع الفاروق رضي الله عنه ، فبعث بهذه الاية إلى أخَوَيه الحميمين عيَّاش ، وهشام؛ ليجدِّدوا محاولاتهما في مغادرة معسكر الكفر .. أيُّ سموٍّ عظيمٍ عند ابن الخطَّاب رضي الله عنه؟! لقد حاول مع أخيه عياش ، أعطاه نصف ماله على ألاَّ يغادر المدينة ، وأعطاه ناقته ليفرَّ عليها ، ومع هذا كلِّه ، فلم يشمت بأخيه ، ولم يَتَشَفَّ منه لأنَّه خالفه ، ورفض

نصيحته ، وألقى برأيه خلف ظهره؛ إنَّما كان شعور الحبِّ ، والوفاء لأخيه هو الَّذي يسيطر عليه ، فما إن نزلت الاية ، حتَّى سارع ببعثها إلى أخويه في مكَّة ، ولكلِّ المستضعفين هناك؛ ليقوموا بمحاولاتٍ جديدةٍ للانضمام إلى المعسكر الإسلاميِّ[(١١٦)].

٣ ـ أسلوب الحبس:

لجأت قريش إلى الحبس كأسلوبٍ لمنع الهجرة ، فكلٌّ من تقبض عليه ، وهو يحاول الهجرة كانت تقوم بحبسه داخل أحد البيوت مع وضع يديه ، ورجليه في القيد ، وتفرض عليه رقابةً ، وحراسةً مشدَّدةً حتَّى لا يتمكَّن من الهرب ، وأحياناً يكون الحبس داخل حائطٍ بدون سقف ، كما فُعل مع عيَّاش ، وهشام بن العاص رضي الله عنهما ، حيث كانا محبوسَيْن في بيتٍ لا سَقف

له[(١١٧)] ، وذلك زيادة في التَّعذيب؛ إذ يضاف إلى وحشة الحبس ، حرارة الشَّمس ، وسط بيئةٍ جبليَّةٍ شديدة الحرارة مثل مكَّة.

فقيادة قريش تريد بذلك تحقيق هدفين؛ أوَّلهما: منع المحبوسين من الهجرة ، والاخر: أن يكون هذا الحبس درساً وعِظَةً ، لكلِّ مَنْ يحاول الهجرة من أولئك الَّذين يفكِّرون بها ممَّن بقي من المسلمين بمكَّة ، ولكن لم يمنع هذا الأسلوب المسلمين من الخروج إلى المدينة المنَّورة ، فقد كان بعض المسلمين محبوسين في مكَّة؛ مثل عيَّاش ، وهشام رضي الله عنهما، ولكنَّهما تمكَّنا من الخروج، واستقرّا بالمدينة[(١١٨)].

كان النَّبيُّ (ص) بعد هجرته يقْنُتُ ، ويدعو للمستضعفين في مكَّة عامَّةً ، ولبعضهم بأسمائهم خاصَّةً ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ (ص) كان إذا رفع رأسه من الرَّكعة الأخيرة؛ يقول: «اللَّهم أَنْجِ عيَّاش بن أبي ربيعة ، اللَّهمَّ أنج سَلَمَةَ بن هشام ، اللَّهم أنج الوليدَ بن الوليد ، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين ، اللَّهم اشْدُدْ وطأتك على مُضَر ، اللهم اجعلها سنينَ كسِنِي يوسفَ» [البخاري (١٠٠٦) وأحمد (٢/٤١٨)] .

ولم يترك المسلمون أمر اختطاف عيَّاش؛ فقد ندب الرَّسول (ص) أحد أصحابه ، وفعلاً استعدَّ للمهمَّة ، ورتَّب لها ما يحقِّق نجاحها ، وذهب إلى مكَّة ، واستطاع بكلِّ اقتدارٍ ، وذكاءٍ ، أن يصل إلى البيت الَّذي حُبسا فيه ، وفكَّ قيدهما ، ورجع بهما إلى المدينة المنوَّرة[(١١٩)].

٤ ـ أسلوب التَّجريد من المال:

كان صهيب بن سنان النَّمَري من النَّمر بن قاسط ، أغارت عليهم الرُّوم ، فسُبي وهو صغيرٌ ، وأخذ لسان أولئك الَّذين سَبَوْه ، ثمَّ تقلَّب في الرِّق ، حتَّى ابتاعه عبد الله بن جُدعان ثمَّ أعتقه ، ودخل الإسلام هو ، وعمَّار بن ياسر رضي الله عنهما في يومٍ واحدٍ[(١٢٠)].

وكانت هجرة صهيب رضي الله عنه ، عملاً تتجلَّى فيه روعة الإيمان ، وعظمة التَّجرُّد لله؛ حيث ضحَّى بكلِّ ما يملك في سبيل الله ، ورسوله (ص) ، واللُّحوق بكتيبة التَّوحيد ، والإيمان[(١٢١)] ، فعن أبي عثمان النَّهْديِّ ـ رحمه الله ـ قال: بلغني: أنَّ صهيباً حين أراد الهجرة إلى المدينة ، قال له أهل مكَّة: أتيتنا هاهنا صُعْلُوكاً[(١٢٢)] ، حقيراً ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت

ما بلغتَ ، ثمَّ تنطلق بنفسك ومالك؟ والله لا يكون ذلك. فقال: أرأيتم إن تركت مالي؛ تخلون أنتم سبيلي؟ قالوا: نعم ، فجعل لهم ماله أجمع ، فبلغ ذلك النبيَّ (ص) فقال: «ربح صهيبٌ! ربح صهيبٌ!» [المطالب العالية (٤٠٦٣) وابن هشام (١٢١/٢)] .

وعن عكرمة ـ رحمه الله ـ قال: لما خرج صهيب مهاجراً؛ تبعه أهل مكَّة ، فنثل[(١٢٣)] كنانته ، فأخرج منها أربعين سهماً ، فقال: لا تَصِلُون إليَّ حتى أضع في كلِّ رجلٍ منكم سهماً ، ثمَّ أصيرُ بعد إلى السَّيف ، فتعلمون أنِّي رجلٌ ، وقد خلَّفت بمكَّة قينتين، فهما لكم» [الحاكم (٣٩٨/٣)] ، وقال عكرمة: ونزلت على النَّبيِّ (ص) : {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ *} [البقرة: ٢٠٧].

فلمَّا راه النَّبيُّ (ص) قال: «أبا يحيى! ربح البيع!» قال: وتلا عليه الآية [الحاكم (٣٩٨/٣)] لكأنِّي[(١٢٤)] بصهيبٍ رضي الله عنه يقدِّم الدَّليل القاطع على فساد عقل أولئك الماديين؛ الَّذين يَزِنُون حركات التَّاريخ ، وأحداثَه كلَّها بميزان المادَّة ، فأين هي المادَّة الَّتي سوف يكسبها صهيبٌ في هجرته، والَّتي ضحَّى من أجلها بكلِّ ما يملك؟!

هل تراه ينتظر أن يعطيه محمَّدٌ (ص) منصباً يعوِّضه عمَّا فقده ؟! أو هل ترى محمَّداً (ص) يُمَنِّيه بالعيش الفاخر في جوار أهل يثرب؟

إنَّ صهيباً ما فعل ذلك ، وما انحاز إلى الفئة المؤمنة ، إلا ابتغاء مرضاة الله ، بالغاً ما بلغ الثَّمن؛ ليضرب لشباب الإسلام مثلاً في التَّضحية عزيزة المنال ، عساهم يسيرون على الدَّرب ، ويقتفون الأثر[(١٢٥)].

إنَّ هذه المواقف الرائعة ، لم تكن هي كلَّ مواقف العظمة والشُّموخ في الهجرة المباركة ، بل امتلأ هذا الحدث العظيم ، بكثيرٍ من مشاهد العظمة والتَّجرُّد والتَّضحية ، الَّتي تعطي الأمَّة دروساً بليغةً في بناء المجد ، وتحصيل العزَّة[(١٢٦)].

خامساً: البيوتات الحاضنة ، وأثرها في النُّفوس:

لقد كان من نتائج إيمان الأنصار ، ومبايعتهم ، وتعهُّدهم بالنُّصرة أن دعا رسولُ الله (ص) المسلمين إلى الهجرة إلى المدينة ، كما كان من نتائج ذلك أن ظهرت ظاهرةٌ عظيمةٌ من التَّكافل بين المسلمين ، ففتحت بيوت الأنصار أبوابها ، وقلوب أصحابها لوفود المهاجرين ،

واستعدَّت لاحتضانهم رجالاً ، ونساءً؛ إذ أصبح المسكن الواحد يضمُّ المهاجر، والأنصاريَّ ، والمهاجرة ، والأنصاريَّة ، يتقاسمون المال ، والمكان ، والطَّعام والمسؤوليَّة الإسلاميَّة؛ فمن هذه البيوتات الحاضنة:

١ ـ دار مبشِّر بن عبد المنذر بن زَنْبَر بقُباء: ونزل بها مجموعةٌ من المهاجرين ، نساءً ، ورجالاً ، وقد ضمَّت هذه الدُّور ، عمر بن الخطاب ، ومن لحق به من أهله وقومه ، وابنته حفصة ، وزوجها ، وعيَّاش بن أبي ربيعة.

٢ ـ دار خُبَيب بن إساف أخي بَلْحارث بن الخزرج بالسُّنْح[(١٢٧)]: نزل بها طلحة بن عبيد الله بن عثمان ، وأمُّه ، وصهيب بن سنان.

٣ ـ دار أسعد بن زُرارةَ من بني النَّجار ، قيل: نزل بها حمزة بن عبد المطَّلب.

٤ ـ دار سعد بن خيثمة أخي بني النَّجار ، وكان يسمَّى: بيت العزاب ، ونزل بها العُزَّاب من المهاجرين.

٥ ـ دار عبد الله بن سلمة أخي بَلْعجلان بقُباء ، ونزل بها عُبيدة بن الحارث ، وأمُّه سُخيلة ، ومِسْطَح بن أُثاثة بن عبَّاد بن المطلب ، والطُّفيل بن الحارث ، وطُليب بن عُمير ، والحُصَيْن بن الحارث؛ نزلوا جميعاً على عبد الله بن سلمة بقُباء.

٦ ـ دار بني جَحْجَبَى ، والْمُحتَضِن هو منذر بن محمَّد بن عُقبة ، نزل عنده الزُّبير بن العوَّام ، وزوجه أسماء بنت أبي بكر ، وأبو سَبْرة بن أبي رُهْم ، وزوجته أمُّ كلثوم بنت سُهيل[(١٢٨)].

٧ ـ دار بني عبد الأشهل ، والمحْتَضِن هو سعد بن معاذ بن النُّعمان من بني عبد الأشهل ، نزل بها مصعب بن عمير ، وزوجته حَمْنة بنت جحش.

٨ ـ دار بني النَّجار ، والمحتضن هو أوس بن ثابت بن المنذر ، نزل بها عثمان بن عفان ، وزوجته رقيَّة بنت رسول الله (ص)[(١٢٩)] .

فهذه المقاسمة ، وهذا التَّكافل الاجتماعيُّ كان من أهمِّ العناصر الَّتي مهَّدت لإقامة رسول الله (ص) وصحابته المهاجرين معه ، وبعده ، إقامةً طيِّبةً ، تنبض بالإيثار على النَّفس ، وبودِّ الأخوَّة الصَّادقة المؤمنة[(١٣٠)].

بهذه الروح العالية ، والإيمان الوثيق ، والصِّدق في المعاملة تمَّت المؤاخاة ، وتمَّ الوفاق بين المهاجرين ، والأنصار ، وقد يحدث تساؤلٌ ، فيقال: لماذا لم نسمع ، ولم تسجِّل المصادر ، ولم تكتب المراجع: أنَّ خلافاتٍ وقعت في هذه البيوت؟ وأين النِّساءُ وما اشتهرن به من مشاكسات؟

إنَّه الدِّين الحقُّ؛ الَّذي جعل تقوى الله أساساً لتصرُّف كلِّ نفسٍ ، والأخلاق السَّامية الَّتي فرضت الأخوة بين المسلمين ، ونصرة الدَّعوة ، إنَّها المبايعة ، وأثرها في النُّفوس ، إنَّه الصِّدق ، والعمل من أجل الجماعة ، خوفاً من العقاب ، ورهبةً من اليوم الاخر ، ورغبةً في الثواب ، وطمعاً في الجنة ، إنَّه دفء حضانة الإيمان ، واستقامة النَّفس والسُّلوك ، وصدق الطَّويَّة ، فكلُّ مَنْ أسلم ، وكلُّ من بايع ، وكلُّ من أسلمت ، وبايعت ، يعملون جميعهم ما يؤمرون به ، ويخلصون فيما يقولون ، يخافون الله في السِّر ، والعلن ، امنت نفوسهم فاحتضنت المناصرةُ المهاجرةَ ، فالكلُّ يعمل من أجل مصلحة الكلِّ ، فهذا هو التَّكافل الاجتماعيُّ في أجلى صورةٍ ، وأقدس واقعةٍ ، رغب الكلُّ في الثَّواب؛ حتَّى إنَّ الواحد منهم يخاف ذهاب المناصر بالأجر كلِّه[(١٣١)].

إنَّ جانب البذل ، والعطاء ظاهرةٌ ، نحن بحاجة إلى الإشارة إليها في كلِّ وقتٍ؛ إنَّنا في عالمنا المعاصر ، وفي الصَّفِّ الإسلاميِّ ، وفي رحلةٍ لبضعة أيام تتكشَّف النُّفوس والعيوب ، والحزازات والظُّنون ، وهذا مجتمعٌ يبنى؛ ولما يصلْ رسول الله (ص) بعد ، ومع ذلك تفتح البيوت للوافدين الجُدُد ، ليس على مستوى فردٍ فقط؛ بل على مستوى جماعيٍّ كذلك ، ويقيم المهاجرون في بيوت الأنصار شهوراً عدَّةً ، والمعايشة اليوميَّة مستمرةٌ ، والأنصار يبذلون المال ، والحبَّ ، والخدمات لإخوانهم القادمين إليهم ، نحن أمام مجتمعٍ إسلاميٍّ ، بلغ الذِّروة في لُحْمَتِهِ ، وانصهاره ، ولم يكن المهاجرون إلا القدوة للأنصار بالبذل ، والعطاء ، فلم يكونوا أصلاً فقراء؛ بل كانوا يملكون المال ، ويملكون الدَّار ، وتركوا ذلك كلَّه ابتغاء مرضاة الله ، وبذلوه كلَّه لطاعته جلَّ وعلا ، فكانوا كما وصفهم القران الكريم: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً

مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [الحشر: ٨ ـ ٩] .

كان هذا المجتمع المدنيُّ الجديد يتربَّى على معاني الإيمان ، والتَّقوى ، ولم يصل النَّبيُّ (ص) بعد ، ولكن تحت إشراف النُّقباء الاثنى عشر ، الَّذين كانوا في كفالتهم لقومهم، ككفالة الحوارِيّين لعيسى ابن مريم، وبإشراف قيادات المهاجرين الكبرى ، الَّتي وصلت المدينة، والذين استقوا جميعاً من النَّبع النَّبويِّ الثَّرِّ[(١٣٢)]، واقتبسوا من هديه[(١٣٣)].

ومن معالم هذا المجتمع الجديد ذوبان العصبية؛ فقد كان إمامُ المسلمين ، سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه؛ لأنه كان أكثرهم قراناً ، فهذا المجتمع الَّذي يوجد فيه عِلْيَةُ أصحاب محمَّد (ص) ؛ من المهاجرين، والأنصار، وسادة العرب من قريش ، والأوس والخزرج ، يقوده ويؤمُّه حامل القران ، فالكرامة العليا فيه لقارأى كتاب الله وحامله ، وحامل القران في المجتمع الإسلاميِّ هو نفسه حامل اللِّواء في الحرب ، فليس بينهما ذلك الانفصام الَّذي نشهده اليوم ، بين حملة القران من الحفَّاظ ، وبين المجاهدين في سبيل الله ، فقد كان حامل لواء المهاجرين في معركة اليمامة سالم مولى أبي حذيفة، وكان شعاره: (بئس حامل القران) ـ يعني: إن فررت ـ ، فقطعت يمينه ، فأخذ اللواء بيساره ، فقطعت ، فاعتنقه إلى أن صُرِع ، واستُشهد في سبيل الله[(١٣٤)].

ومن معالم المجتمع الإسلاميِّ الجديد حرِّيَّة الدَّعوة إلى الله علانيةً ، فقد أصبح واضحاً عند الجميع: أنَّ معظم قيادات يثرب دخلت في هذا الدِّين ، ونشط الشَّباب، والنِّساء ، والرِّجال في الدَّعوة إلى الله ، والتبشير بقدوم رسول الله (ص) على قدمٍ وساقٍ. ولابدَّ من المقارنة بين المجتمع الَّذي قام بالحبشة من المسلمين ، وبين المجتمع الإسلاميِّ في يثرب؛ فلقد كانت الحبشة تحمل طابع اللُّجوء السِّياسيِّ ، والجالية الأجنبيَّة أكثر ممَّا كانت تحمل طابع المجتمع الإسلاميِّ الكامل؛ صحيحٌ: أن المسلمين ملكوا حرِّيَّة العبادة هناك؛ لكنَّهم معزولون عن المجتمع النَّصرانيِّ ، لم يستطيعوا أن يؤثِّروا فيه التَّأثير المنشود ، وإن كانت هجرة الحبشة خطوةً متقدِّمةً على جو مكَّة؛ حيث لا تتوفر حرِّيَّة الدَّعوة ، وحرِّيَّة العبادة ، ولكنَّه دون المجتمع الإسلاميِّ في المدينة بكثير ، ولذلك شرع مهاجرو الحبشة بمجرَّد سماع خبر هجرة المدينة ، بالتوجُّه نحوها مباشرة ، أو عن طريق مكَّة؛ إلا من طلبت منه القيادة العليا البقاء هناك ، لقد أصبحت المدينة مسلمةً بعد أن عاشت قروناً وثنيَّةً مشركةً.

لقد أصبح المجتمع المدنيُّ مسلماً ، وبدأ نموُّه ، وتكوينه الفعليُّ بعد عودة الاثني عشر صحابيّاً من البيعة الأولى ، والَّتي كان على رأسها ، الصحابيُّ الجليل أسعد بن زُرَارةَ والَّتي حملت المسؤوليَّة الدَّعويَّة فقط ، دون الوجود السِّياسيِّ ، وبلغ أوج توسُّعه ، وبنائه بعد عودة

السَّبعين ، الَّذين ملكوا الشَّارع السِّياسيَّ والاجتماعيَّ ، وقرَّروا أن تكون بلدهم عاصمة المسلمين الأولى في الأرض ، وهم على استعدادٍ أن يواجهوا كلَّ عدوٍّ خارجيٍّ ، يمكن أن ينال من هذه السِّيادة ، حتَّى قبل قدوم رسول الله (ص) إليهم في المدينة.

إنَّ القاعدة الصُّلبة ، الَّتي بذل رسول الله (ص) وقتاً وجهداً في تربيتها ، بدأت تعطي ثمارها أكثر ، بعد أن التحمت بالمجتمع المدنيِّ الجديد ، وانصهر كلاهما في معاني العقيدة ، وأخوَّة الدين.

لقد أعدَّ رسول الله (ص) الأفراد ، وصقلهم في بوتقة الجماعة ، وكوَّن بهم القاعدة الصُّلبة ، ولم يقم المجتمع الإسلاميُّ الَّذي تقوم عليه الدَّولة إلا بعد بيعة الحرب وبذلك نقول: إنَّ المجتمع الإسلاميَّ قام بعدما تهيَّأت القوَّة المناسبة لحمايته في الأرض[(١٣٥)].

وهكذا انتقلت الجماعة المسلمة المنظَّمة القويَّة إلى المدينة ، والتحمت مع إخوانها الأنصار ، وتشكَّل المجتمع المسلم؛ الَّذي أصبح ينتظر قائده الأعلى (ص) ؛ ليعلن ولادة دولة الإسلام ، الَّتي صنعت ـ فيما بعد ـ حضارةً؛ لم يعرفِ التَّاريخ مثلها حتَّى يومنا هذا.

سادساً: لماذا اختيرت المدينة كعاصمةٍ للدَّولة الإسلاميَّة؟

كان من حكمة الله تعالى في اختيار المدينة داراً للهجرة ، ومركزاً للدَّعوة ـ عدا ما أراده الله من إكرام أهلها ـ أسرارٌ لا يعلمها إلا الله؛ إنَّها امتازت بتحصُّن طبيعيٍّ حربيٍّ ، لا تزاحمها في ذلك مدينةٌ قريبةٌ في الجزيرة ، فكانت حَرَّة الوَبْرَة ، مُطبقةً على المدينة من النَّاحية الغربية ، وحَرَّة واقِم مطبقةً على المدينة من النَّاحية الشَّرقيَّة ، وكانت المنطقة الشَّمالية من المدينة هي الناحية الوحيدة المكشوفة ـ وهي الَّتي حصَّنها رسول الله (ص) بالخندق سنة خمس في غزوة الأحزاب ـ وكانت الجهة الأخرى من أطراف المدينة ، محاطة بأشجار النَّخيل والزُّروع الكثيفة ، لا يمرُّ منها الجيش إلا في طرقٍ ضيِّقةٍ ، لا يتَّفق فيها النِّظام العسكريُّ ، وترتيب الصُّفوف.

وكانت خفاراتٌ عسكريَّةٌ صغيرةٌ ، كافيةٌ لإفساد النِّظام العسكريِّ ، ومنعه من التقدُّم ، يقول ابن إسحاق: «كان أحد جانبي المدينة عورةً ، وسائر جوانبها مشكَّكةً بالبنيان ، والنَّخيل ، لا يتمكَّن العدوُّ منها»[(١٣٦)].

ولعلَّ النَّبيَّ (ص) ، قد أشار إلى هذه الحكمة الإلهيَّة في اختيار المدينة بقوله لأصحابه قبل الهجرة: «إنِي أُرِيتُ دار هجرتكم ، ذات نخيلٍ بين لابتين ، وهما الحرَّتان» [سبق تخريجه] ، فهاجر مَنْ هاجر قِبَلَ المدينة ، ورجع عامَّةُ من كان هاجرَ بأرض الحبشة إلى المدينة.

وكان أهل المدينة من الأوس ، والخزرج أصحاب نخوةٍ ، وإباءٍ ، وفروسيَّةٍ ، وقوَّةٍ ، وشكيمةٍ ، ألفوا الحرِّيَّة ، ولم يخضعوا لأحدٍ ، ولم يدفعوا إلى قبيلةٍ ، أو حكومةٍ إتاوةً ، أو جبايةً. يقول ابن خلدون: ولم يزل هذان الحيَّان قد غلبوا على يثرب ، وكان الاعتزاز والمنعة تعرف لهم في ذلك ، ويدخل في ملَّتهم مَنْ جاورهم من قبائل مُضَر.

وكان بنو عديِّ بن النَّجار أخواله (ص) ، فأمُّ عبد المطلب بن هاشم بن عديِّ بن النَّجار إحدى نسائهم ، فقد تزوَّج هاشم بسلمى بنت عمرو أحد بني عديِّ بن النَّجار ، وولدت لهاشم عبد المطلب ، وتركه هاشم عندها ، حتَّى صار غلاماً دون المراهقة ، ثمَّ احتمله عمُّه المطَّلب ، فجاء به إلى مكَّة ، وكانت الأرحام يحسب لها حسابٌ كبيرٌ ، في حياة العرب الاجتماعيَّة ، ومنهم أبو أيوبٍ الأنصاريُّ؛ الَّذي نزل رسول الله (ص) في داره في المدينة.

وكان الأوس ، والخزرج من قحطان ، والمهاجرون وَمَنْ سبق إلى الإسلام في مكَّة ، وما حولها من عدنان ، ولما هاجر رسول الله (ص) إلى المدينة ، وقام الأنصار بنصره؛ اجتمعت بذلك عدنان ، وقحطان تحت لواء الإسلام ، وكانوا كجسدٍ واحدٍ ، وكانت بينهما مفاضلةٌ ، ومسابقةٌ في الجاهليَّة ، وبذلك لم يجد الشَّيطان سبيلاً إلى قلوبهم؛ لإثارة الفتنة ، والتَّعزِّي بعزاء الجاهليَّة ، باسم الحميَّة القحطانيَّة ، أو العدنانيَّة ، فكانت لكلِّ ذلك مدينة يثرب أصلحَ مكانٍ لهجرة الرَّسول (ص) وأصحابه ، واتِّخاذهم لها داراً ، وقراراً ، حتَّى يقوى الإسلام ، ويشقَّ طريقه إلى الأمام ، ويفتح الجزيرة ، ثمَّ يفتح العالم المتمدِّن[(١٣٧)].

سابعاً: من فضائل المدينة:

لقد عظم شرف المدينة المنوَّرة المباركة ، بهجرة النَّبيِّ (ص) إليها ، حتَّى فضلت على سائر بقاع الأرض ـ حاشا مكَّة المكرَّمة ـ وفضائلها كثيرةٌ منها:

١ ـ كثرة أسمائها:

إنَّ كثرة الأسماء تدلُّ على شرف المسمَّى ، ولا توجد بلدةٌ في الدُّنيا لها من الأسماء ، مثل ما للمدينة المنوَّرة ، أو نصفه ، أو حتَّى ربعه ، وقد بلغ العلماء بأسمائها حوالي مئة اسمٍ(١) ، وقد ذكر هذه الأسماء

الزَّركشي في (إعلام السَّاجد بأحكام المساجد)[(١٣٨)] ، والمجد الفيروز ابادي صاحب (القاموس المحيط)[(١٣٩)] ، ونور الدِّين السَّمهودي في (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) ، ومحمَّد بن يوسف الصَّالحي في (سبل الهدى والرَّشاد في سيرة خير العباد).

وأشهر هذه الأسماء:
(أ) يثرب: قال تعالى: {وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا *} [الأحزاب: ١٣] .
وقد ورد النَّهي عن تسميتها بهذا الاسم ، وأمَّا تسميتها في القران «يثرب» فذلك حكاية عن قول المنافقين.
(ب) طابة: فعن البراء بن عازبٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «من سمَّى المدينة يثرب؛ فليستغفر الله؛ فإنَّما هي طابة» وفي روايةٍ: «هي طابة ، هي طابة ، هي طابة»[(١٤٠)].
(ج) المدينة: وهذا أشهر أسمائها ، وهذا الاسم إذا أطلق؛ أريدت به المدينة المنوَّرة دون غيرها من مدن الدُّنيا ، وقد جاءت الايات الكثيرة بهذا الاسم ، كقوله تعالى: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ *} [التوبة: ١٠١] ، وقوله تعالى: {مَا كَانَ لأَِهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلاَ يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ *} [التوبة: ١٢٠] وقد وصفت المدينة بالمباركة ، والمنوَّرة ، والمشرَّفة ، وغير ذلك من الأوصاف الفاضلة[(١٤١)].
٢ ـ محبته (ص) لها ، ودعاؤه برفع الوباء عنها:
دعا النَّبي (ص) ربَّه قائلاً: «اللَّهمَّ حبِّب إلينا المدينة كحبِّنا مكَّة ، أو أشدَّ![(١٤٢)]» وعن أنسٍ رضي الله عنه: «أنَّ النَّبيَّ (ص) إذا قدم من سفرٍ ، فنظر إلى جُدُرات المدينة[(١٤٣)]؛ أَوْضَعَ راحلته[(١٤٤)] ، وإن كان على دابةٍ حرَّكها؛ من حُبِّها» [البخاري (١٨٠٢ ، ١٨٨٦)] .
وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قدم رسولُ الله (ص) المدينة؛ وُعِكَ أبو بكر ، وبلالٌ ، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمَّى يقول:
كُلُّ امْرِأَى مُصَبَّحٌ في أَهْلِهِوالمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمَّى يرفع عقيرته ، يقول: .... وقال: «اللَّهمَّ العن شيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، وأميَّة بن خلف ، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء!» ثمَّ قال رسول الله (ص) : «اللَّهمَّ حبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكَّة ، أو أشدَّ! اللَّهمَّ بارك لنا في صاعنا ، وفي مُدِّنا ، وصحِّحْها لنا ، وانقُلْ حُمَّاها إلى الجُحْفَةِ!» [البخاري (١٨٨٩) ومسلم (١٣٧٦)] .

٣ ـ دعاء النَّبيّ (ص) لها بضعفي مافي مكَّة من البركة:

فعن أنس رضي الله عنه عن النَّبيّ (ص) قال: «اللَّهمَّ اجعل بالمدينة ضِعْفي ما جعلت بمكَّة من البركة!» [البخاري (١٨٨٥) ومسلم (١٣٦٩)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان النَّاس إذا رأوا أوَّل الثَّمر؛ جاؤوا به إلى النبيّ (ص) ، فإذا أخذه رسول الله (ص) ؛ قال: «اللَّهمَّ بارك لنا في ثمرنا! ، وبارك لنا في مدينتنا! وبارك لنا في صاعنا! وبارك لنا في مُدِّنا! اللَّهمَ إنَّ إبراهيم عبدُك ، وخليُلك ونبيُّك وإنِّي عبدك ، ونبيُّك ، وإنَّه دعاك لمكَّة ، وإنِّي أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكَّة ، ومثلهِ معه» قال: ثمَّ يدعو أصْغَرَ وليدٍ له ، فيعطيه ذلك الثَّمر. [مسلم (١٣٧٣) والترمذي (٣٤٥٤) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٣٠٢) وابن ماجه (٣٣٢٩) وابن السني (٢٧٩)] .

٤ ـ عصمتها من الدَّجال والطَّاعون ببركته (ص):

إنَّ الله تعالى قيَّض لها ملائكةً يحرسونها ، فلا يستطيع الدَّجال إليها سبيلاً؛ بل يلقي إليها بإخوانه من الكفَّار ، والمنافقين ، كما أنَّ من لوازم دعاء النَّبيّ (ص) بالصِّحَّة ورفع الوباء ألاَّ ينزل بها الطَّاعون ، كما أخبر بذلك المعصوم (ص) . [البخاري (١٨٨٠) ومسلم (١٣٧٩)][(١٤٥)] .

٥ ـ فضيلة الصَّبر على شدَّتها:

فقد وعد النَّبيُّ (ص) من صبر على شدَّة المدينة ، وضيق عيشها ، بالشَّفاعة يوم القيامة[(١٤٦)] ، فعن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، لا يدعها أحدٌ رغبةً عنها إلا أبدل الله فيها مَنْ هو خيرٌ منه ، ولا يثبت أحدٌ على لأْوَائِهَا[(١٤٧)] وجَهْدِها ، إلا كنتُ له شفيعاً ـ أو شهيداً ـ يوم القيامة» [مسلم (١٣٦١)] .

٦ ـ فضيلة الموت فيها:

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «من استطاع أن يموت بالمدينة؛ فليَمت بها، فإِنِّي أشفع لمن يموت بها» [الترمذي (٣٩١٧) وابن ماجه (٣١١٢) وابن حبان (٣٧٣٣) والبيهقي في الشعب (٤١٨٤)] ، وكان عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يدعو بهذا الدُّعاء: «اللَّهم ارزقني شهادةً في سبيلك ، واجعل موتي في بلد رسولك (ص) » [البخاري (١٨٩٠)] .

وقد استجاب الله للفاروق رضي الله عنه ، فاستُشهد في محراب رسول الله (ص) ، وهو يؤمُّ المسلمين في صلاة الفجر.

٧ ـ هي كهف الإيمان ، وتنفي الخبث عنها:

الإيمان يلجأ إليها مهما ضاقت به البلاد ، والأخباث ، والأشرار لا مقام لهم فيها ، ولا استقرار ، ولا يخرج منها أحدٌ رغبةً عنها إلا أبدلها الله خيراً منه من المؤمنين الصادقين[(١٤٨)].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «إنَّ الإيمان ليأْرِزُ[(١٤٩)] إلى المدينة كما تأْرِزُ الحيةُ إلى جُحرها» [البخاري (١٨٧٦) ومسلم (١٤٧)] ، وقال (ص) : «... والَّذي نفسي بيده! لا يخرج منها أحدٌ رغبةً عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه ، ألا إنَّ المدينة كالكير ، تُخرِج الخبث ، لا تقوم السَّاعة حتى تنفي المدينة شرارها ، كما ينفي الكيرُ خبَثَ الحديد» [مسلم (١٣٨١) وأحمد (٢/٤٣٩)] .

٨ ـ تنفي الذُّنوب والأوزار:

عن زيد بن ثابت رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (ص) : «إنَّها ـ أي: المدينة ـ طَيْبَةُ تنفي الذُّنوب[(١٥٠)] ، كما تنفي النَّار خبث الفضَّة» [البخاري (٤٥٨٩) ومسلم (١٣٨٤)] .

٩ ـ حفظ الله إيَّاها ممَّن يريدها بسوء:

قد تكفَّل الله بحفظها من كلِّ قاصدٍ إيَّاها بسوءٍ ، وتوعَّد النَّبيُّ (ص) مَنْ أحدث فيها حدثاً ، أو اوى فيها مُحدِثاً ، أو أخاف أهلها ، بلعنة الله ، وعذابه ، وبالهلاك العاجل[(١٥١)] ، فعن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «لا يكيد أهلَ المدينة أحدٌ إلا انماع[(١٥٢)] ، كما ينماع الملحُ في الماء» [البخاري (١٨٢٢) ومسلم (١٣٨٧)] ، وقال (ص) : «المدينة حَرَمٌ، فمن أحدث فيها حَدَثاً[(١٥٣)] أو اوى مُحدثاً[(١٥٤)]؛ فعليه لعنةُ اللهِ ، والملائكة ، والنَّاس أجمعين ، لا يُقْبَلُ منه يومَ القيامة عَدْلٌ ، ولا صَرْفٌ» [مسلم (١٣٧١)].

١٠ ـ تحريمها:

قد حرَّمها النَّبيُّ (ص) بوحيٍ من الله ، فلا يُراق فيها دمٌ ، ولا يُحْمل فيها سلاحٌ ، ولا يروَّع فيها أحدٌ ، ولا يقطع فيها شجرٌ ، ولا تَحِلُّ لُقطتُها إلا لمنشدٍ ، وغير ذلك ممَّا يدخل في تحريمها ، قال (ص) : «إنَّ إبراهيم حرَّم مكَّةَ ودعا لها ، وحرَّمتُ المدينة كما حرَّم إبراهيم مكَّةَ ، ودعوتُ لها في مُدِّها ، وصَاعها مِثْلَ ما دَعا إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ لمكَّة» [البخاري (٢١٢٩) ومسلم (١٣٦٠)].

وقال (ص) : «هذا جبلٌ يحبُّنا ونحبُّه ، اللَّهمَّ! إنَّ إبراهيم حرَّم مكة ، وإني حرَّمت ما بين لابتيها» [البخاري (٤٠٨٤) ومسلم (١٣٦٢)] يعني: المدينة ، وقال (ص) : «لا يُخْتلى خلاها[(١٥٥)] ، ولا ينفَّر صيدها[(١٥٦)] ، ولا تحلُّ لُقَطَتُها إلا لمن أشادها[(١٥٧)] ، ولا يصلح لرجلٍ أن يحمل فيها السِّلاح لقتالٍ ، ولا يصلح أن يقطع منها شجرٌ ، إلا أن يعلف رجلٌ بعيرَه» [أحمد (١/١١٩)] .

إن هذه الفضائل العظيمة جعلت الصَّحابة يتعلَّقُون بها ، ويحرصون على الهجرة إليها ، والمقام فيها ، وبذلك تجمَّعت طاقات الأمَّة فيها ، ثمَّ توجَّهت نحو القضاء على الشِّرك بأنواعه ، والكفر بأشكاله ، وفتحوا مشارق الأرض ، ومغاربَها.

* * *

الفصل السَّادس

هجرة النَّبيِّ (ص) وصاحبه الصِّدِّيق رضي الله عنه[(١٥٨)]

المبحث الأوَّل

فشل خطَّة المشركين ، والتَّرتيب النَّبويُّ الرَّفيع للهجرة

أولاً: فشل خطَّة المشركين لاغتيال النَّبيِّ (ص):

بعد أن مُنيت قريش بالفشل في منع الصَّحابة رضي الله عنهم من الهجرة إلى المدينة على الرَّغم من أساليبها الشَّنيعة ، والقبيحة ، فقد أدركت قريش خطورة الموقف ، وخافوا على مصالحهم الاقتصاديَّة ، وكيانهم الاجتماعيِّ القائم بين قبائل العرب؛ لذلك اجتمعت قيادة قريش في دار النَّدوة للتشاور في أمر القضاء على قائد الدَّعوة ، وقد تحدَّث ابن عباس في تفسيره لقول الله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ *} [الأنفال: ٣٠] .

فقال: تشاورت قريش ليلةً بمكَّة ، فقال بعضهم: إذا أصبح؛ فأثبتوه بالوُثُق [خبر اجتماع قريش: ذكره ابن هشام (٢/١٢٤ ـ ١٢٦) وابن سعد (١/٢٢٧ ـ ٢٢٨) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٤٦٦ ـ ٤٦٨) وأبو نعيم في دلائله (٦٣ ـ ٦٤) والطبري في تاريخه (٢/٣٧٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٥٢ ـ ٥٣)][(١٥٩)] ، يريدون النَّبيَّ (ص) ، وقال بعضهم: بل اقتلوه ، وقال بعضهم: بل أخرجوه ، فأطلع اللهُ نبيَّه على ذلك ، فبات عليٌّ على فراش النَّبيِّ (ص) . تلك اللَّيلة [أحمد (١/٣٤٨) وعبد الرزاق في المصنف (٥/٣٨٩) والطبري في تاريخه (٢/٣٧٢) ومجمع الزوائد (٦/٥٢ ـ ٥٣)][(١٦٠)]. وخرج النَّبيُّ (ص) ، فلمَّا أصبحوا؛ ثاروا إليه ، فلمَّا رأوا عليّاً؛ ردَّ الله مكرهم ، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري! فاقتصُّوا أثره ، فلمَّا بلغوا الجبل؛ اختلط عليهم الأمر ، فصعدوا الجبل ، فمرُّوا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن ينسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاثاً[(١٦١)].

قال سيِّد قطب ـ رحمه الله ـ في تفسيره للايات الَّتي تتحدَّث عن مكر المشركين بالنَّبيِّ (ص) : «إنَّه التَّذكير بما كان في مكَّة قبل تغيُّر الحال ، وتبدلُّ الموقف ، وإنَّه ليوحي بالثِّقة واليقين في المستقبل ، كما ينبِّه إلى تدبير قدر الله ، وحكمته فيما يقضي به ويأمر. ولقد كان المسلمون الَّذين يخاطَبون بهذا القران أوَّل مرَّةٍ يعرفون الحالين معرفة الَّذي عاش ، ورأى ، وذاق ، وكان يكفي أن يذكَّروا بهذا الماضي القريب ، وما كان فيه من خوفٍ ، وقلقٍ في مواجهة الحاضر الواقع ، وما فيه من أمنٍ ، وطمأنينة ، وما كان من تدبير المشركين ، ومكرهم برسول الله (ص) في مواجهة ما صار إليه من غلبةٍ عليهم ، لا مجرَّد النَّجاة منهم.

لقد كانوا يمكرون؛ ليوثقوا رسول الله (ص) ، ويحبسوه حتَّى يموت؛ أو ليقتلوه ، ويتخلَّصوا منه ، أو ليخرجوه من مكَّة منفيّاً مطروداً ، ولقد ائتمروا بهذا كلِّه ، ثمَّ اختاروا قتله ، على أنَّ يتولَّى ذلك المنكر فتيةٌ من القبائل جميعاً؛ ليتفرَّق دمه في القبائل ، ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب جميعاً ، فيرضوا بالدِّية ، وينتهي الأمر.

إنَّها صورةٌ {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ *} ، وهي في الوقت ذاته صورةٌ مفزعةٌ؛ فأين هؤلاء البشر الضِّعاف المهازيل ، من تلك القدرة القادرة ، قدرة الله الجبَّار ، القاهر فوق عباده ، الغالب على أمره ، وهو بكلِّ شيءٍ محيط؟![(١٦٢)].

ثانياً: التَّرتيب النَّبويُّ للهجرة:

عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان لا يخطأى رسول الله (ص) أن يأتي بيت أبي بكرٍ أحد طرفي النَّهار ، إمَّا بُكرةً ، وإمَّا عشيَّةً ، حتَّى إذا كان اليوم الَّذي أُذِن فيه لرسول الله (ص) في الهجرة ، والخروج من مكَّة من بين ظهري قومه؛ أتانا رسولُ الله (ص) بالهاجرة[(١٦٣)] ، في ساعةٍ كان لا يأتي فيها ، قالت: فلمَّا راه أبو بكر ، قال: ما جاء رسول الله (ص) هذه السَّاعة إلا لأمرٍ حَدَث.

قالت: فلمَّا دخل؛ تأخَّر له أبو بكر عن سريره ، فجلس رسولُ الله (ص) ، وليس عند أبي بكر إلا أنا ، وأختي أسماء بنت أبي بكر ، فقال رسول الله (ص) : «أخْرِجْ عنّي مَنْ عندك»؛ فقال: يا رسول الله! إنَّما هما ابنتاي ، وما ذاك؟ فداك أبي ، وأمِّي! فقال: «إنَّه قد أُذن لي في الخروج والهجرة». قالت: فقال أبو بكر رضي الله عنه: الصُّحبة يا رسول الله! قال: «الصُّحبة». قالت: فوالله ما شعرت قطُّ قبل ذلك اليوم: أنَّ أحداً يبكي من الفرح ، حتَّى رأيت أبا بكر يبكي يومئذٍ ، ثمَّ قال: يا نبيَّ الله! إنَّ هاتين راحلتان ، قد كنت أعددتهما لهذا. فاستأْجَرَا عبد الله بن أريقط .

رجلاً من بني الدَّيْل بن بكر ، وكانت أمُّه امرأةً من بني سهم بن عمرو ، وكان مشركاً . يدلُّهما على الطَّريق ، فدفعا إليه راحلتيهما ، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما. [ابن هشام (١٢٨/٢ ـ ١٢٩)][(١٦٤)] .

وروى البخاريُّ عن عائشة رضي الله عنها في حديثٍ طويل ، وفيه: «... قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوسٌ في بيت أبي بكر ، في نحر الظَّهيرة؛ قال قائلٌ لأبي بكر: هذا رسول الله (ص) متقنِّعاً[(١٦٥)]؛ في ساعةٍ لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر: فداءً له أبي وأمِّي! والله ما جاء به في هذه السَّاعة إلا أمرٌ! قالت: فقال رسول الله (ص) لأبي بكرٍ رضي الله عنه: «أخْرِجْ من عندك» ، فقال أبو بكر: إنَّما هم أهلك. قال: «فإنِّي قد أُذِنَ لي في الخروج» ، فقال أبو بكر: الصُّحبةَ بأبي أنت يا رسول الله! قال رسول الله (ص) : «نعم» ، قال أبو بكر رضي الله عنه: فخذ بأبي أنت يا رسول الله! إحدى راحلتيَّ هاتين ، قال رسول الله (ص) : «بالثَّمن» ، قالت عائشة رضي الله عنها: فجهَّزناهما أحثَّ الجهاز (من الحثِّ وهو الإسراع) ، وصنعنا لهم سُفرةً في جِرابٍ ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قطعةً من نطاقها ، فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سمِّيت ذات النطاقين ، ثمَّ لحق رسولُ الله (ص) ، وأبو بكر بغارٍ في جبل ثور ، فكمنا[(١٦٦)] فيه ثلاث ليالٍ ، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكرٍ رضي الله عنهما ، وهو غلامٌ ، شابٌّ ، ثَقِفٌ[(١٦٧)] ، لَقِنٌ[(١٦٨)] ، فيُدلجُ[(١٦٩)] من عندهما

بسَحَرٍ ، فيصبح مع قريشٍ بمكَّة كبائتٍ ، فلا يسمع أمراً يُكتادانِ[(١٧٠)] به إلا وَعَاهُ ، حتَّى يأتيهما بخبر ذلك ، حين يختلط الظَّلام ، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه منحةً من غَنَم ، فيريحها عليهما حين تذهبُ ساعةٌ من العِشاء ، فيبتان في رسْلٍ ـ وهو لَبَنُ مِنْحتِهِما ورَضِيفهما[(١٧١)] ـ حتى ينعق[(١٧٢)] بها عامر بن فهيرة بَغَلسٍ[(١٧٣)] يفعل ذلك في كلِّ ليلةٍ من تلك اللَّيالي الثَّلاث ، واستأجر رسول الله (ص) ، وأبو بكر رجلاً من بني الدَّيْل ، وهو من بني عبد بن عديّ ـ هادياً خِرّيتاً ـ والخرِّيت: الماهر بالهداية ، قد
غمس حلفاً[(١٧٤)] في ال العاص بن وائل السَّهمي ، وهو على دين كفار قريش ، فأمِناهُ ، فدفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثورٍ بعد ثلاث ليالٍ براحلتيهما صُبْحَ ثلاثٍ ، وانطلق معهما عامر بن فهيرة ، والدَّليل ، فأخذ بهم طريق السَّواحل» [البخاري (٣٩٠٥) ، وأحمد (٦/١٩٨ ـ ١٩٩) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٤٧٣ ـ ٤٧٥) ، وعبد الرزاق في المصنف (٥/٣٨٨) ، والطبري في تاريخه (٢/٣٧٥ ـ ٣٧٨)] .

ثالثاً: خروج الرَّسول (ص) ووصوله إلى الغار:

لم يعلم بخروج رسول الله (ص) أحدٌ حين خرج إلا عليُّ بن أبي طالبٍ ، وأبو بكر الصِّدِّيق ، وال أبي بكرٍ.

أمَّا عليٌّ رضي الله عنه ، فإنَّ رسول الله (ص) أمره أن يتخلَّف؛ حتَّى يؤدي عن رسول الله (ص) الودائع؛ الَّتي كانت عنده للنَّاس ، وكان رسول الله (ص) ، وليس بمكَّة أحدٌ عنده شيءٌ يُخشى عليه إلا وضعه عنده؛ لما يعلم من صدقه ، وأمانته[(١٧٥)] ، وكان الميعاد بين الرَّسول (ص) ، وأبي بكرٍ رضي الله عنه ، فخرجا من خوخة[(١٧٦)] ، لأبي بكر في ظَهْرِ بيته ، وذلك للإمعان في الاستخفاء؛ حتَّى لا تتبعهما قريشٌ ، وتمنعهما من تلك الرِّحلة المباركة ، وقد اتَّعَدا مع اللَّيل على أن يلقاهما عبد الله بن أريقط ، في غار ثور ، بعد ثلاث ليالٍ[(١٧٧)].

رابعاً: دعاء النَّبيِّ (ص) عند خروجه من مكَّة:

وقد دعا النَّبي (ص) عند خروجه من مكَّة إلى المدينة قائلاً:

«الحمد لله الَّذي خلقني ولم أَكُ شيئاً! اللَّهمَّ أعنِّي على هول الدُّنيا ، وبوائق الدَّهر ، ومصائب اللَّيالي والأيام! اللَّهمَّ اصحبني في سفري ، واخلفني في أهلي ، وبارك لي فيما رزقتني ، ولك فذَلِّلني ، وعلى خلقي فقوِّمني ، وإليك رب فحبِّبني ، وإلى النَّاس فلا تكلْني! ربَّ المستضعفين! وأنت ربي ، أعوذ

بوجهك الكريم الَّذي أشرقت له السَّموات ، والأرض ، وكُشِفت به الظُّلمات ، وصلُح عليه أمر الأوَّلين ، والاخرين أن تحلَّ عليَّ غضبك ، أو تُنزل بي سخطك! أعوذ بك من زوال نعمتك ، وَفُجَاءَة نقمتك ، وتحوُّل عافيتك ، وجميع سخطك ،

لك العُتْبَى عندي خير ما استطعت ، لا حول ، ولا قوَّة إلا بك» [عبد الرزاق في المصنف (٩٢٣٤)][(١٧٨)] .

ووقف الرَّسول (ص) عند خروجه بالحَزْوَرَة في سوق مكَّة ، وقال: «والله إنَّكِ لخيرُ أرض الله ، وأحبُّ أرض الله إلى الله ، ولولا أنِّي أُخْرِجتُ منكِ ما خَرَجْتُ» [الترمذي (٣٩٢٥) وأحمد (٣٠٥/٤) وابن ماجه (٣١٠٨)] .

ثمَّ انطلق رسول الله (ص) ، وصاحبه ، وقد حفظهما الله من بطش المشركين ، وصرفهم عنهما.

روى الإمام أحمد عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «أنَّ المشركين اقتصُّوا أثر رسول الله (ص) ، فلمَّا بلغوا الجبل ـ جبل ثور ـ اختلط عليهم ، فصعدوا الجبل ، فمرُّوا بالغار ، فرأوا على بابه نسيج العنكبوت؛ فقالوا: لو دخل هاهنا ، لم يكن نسج العنكبوت على بابه» [أحمد (٣٤٨/١)] ، وهذه من جنود الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الَّتي يخذل بها الباطل ، وينصر بها الحق؛ لأنَّ جنود الله ـ جلَّت قدرته ـ أعمُّ من أن تكون مادِّيَّةً ، أو معنويةً ، وإذا كانت مادِّيَّة؛ فإنَّ خطرها لا يتمثَّل في ضخامتها ، فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيشٍ ذي لَجَبٍ[(١٧٩)]. قال الله تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ *} [المدثر: ٣١] . أي: وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فجنود الله غير متناهيةٍ ، لأنَّ مقدوراته غير متناهيةٍ[(١٨٠)] ، كما أنَّه لا سبيل لأحدٍ إلى حصر الممكنات ، والوقوف على حقائقها ، وصفاتها ، ولو إجمالاً ، فضلاً عن الاطِّلاع على تفاصيل أحوالها من كمٍّ ، وكَيْفٍ ، ونسبةٍ[(١٨١)].

خامساً: عناية الله سبحانه وتعالى ورعايته لرسوله (ص):

بالرَّغم من كلِّ الأسباب الَّتي اتخذها رسول الله (ص) ، فإنَّه لم يركن إليها مطلقاً؛ وإنَّما كان كاملَ الثِّقة في الله ، عظيم الرَّجاء في نصره ، وتأييده ، دائم الدُّعاء بالصِّيغة الَّتي علَّمه الله إيَّاها[(١٨٢)]. قال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيرًا *} [الإسراء: ٨٠] .

وفي هذه الاية الكريمة ، «دعاء يعلِّمه الله لنبيِّه ليدعوه به ، ولتتعلَّم أمَّته كيف تدعو الله ، وكيف تتَّجه إليه؟ دعاء بصدق المدْخَل ، وصدق المخْرَج ، كنايةً عن صدق الرِّحلة كلِّها؛

بدئها ، وختامها ، أوَّلها ، واخرها ، وما بين الأوَّل والاخر ، وللصِّدق هنا قيمته بمناسبة ما حاوله المشركون من فتنته عما أنزله الله عليه؛ ليفتري على الله غيره ، وللصدق كذلك ظلاله: ظلال الثَّبات ، والاطمئنان والنَّظافة ، والإخلاص.

{وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيرًا *} ، وهيبةً أستعلي بهما على سلطان الأرض ، وقوَّة المشركين ، وكلمة تصوّر {مِنْ لَدُنْكَ} ، والاتِّصال بالله ، والاستمداد من عونه مباشرةً ، واللُّجوء إلى حماه.

وصاحب الدَّعوة لا يمكن أن يستمدَّ السُّلطان إلا من الله ، ولا يمكن أن يُهاب إلا بسلطان الله ، ولا يمكن أن يستظلَّ بحاكمٍ ، أو ذي جاهٍ ، فينصره ، ويمنعه ما لم يكن اتجاهه قبل ذلك إلى الله ، والدَّعوة قد تغزو قلوب ذوي السُّلطان ، والجاه ، فيصبحون لها جنداً ، وخدماً ، فيفلحون ، ولكنَّها هي لا تفلح إن كانت من جند السُّلطان ، وخدمه ، فهي من أمر الله ، وهي أعلى من ذوي السُّلطان ، والجاه»[(١٨٣)].

وعندما أحاط المشركون بالغار ، وأصبح منهم رأيَ العين؛ طمأن الرَّسول (ص) الصِّدِّيق بمعيَّة الله لهما ، فعن أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه قال: قلت للنَّبيِّ (ص) وأنا في الغار: لو أنَّ أحدهم نظر تحت قدميه؛ لأبصرنا ، فقال (ص) : «ما ظنُّك يا أبا بكر! باثنين الله ثالثُهما؟» [البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١)]. وفي روايةٍ: «اسكت يا أبا بكر! اثنان الله ثالثهما» [البخاري (٣٩٢٢)] .

وسجّل الحقُّ ـ عزَّ وجلَّ ـ ذلك في قوله تعالى: {إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *} [التوبة: ٤٠] .

وقد تحدَّث الطَّبريُّ في تفسيره عن هذه الاية الكريمة ، فقال: هذا إعلامٌ من الله لأصحاب رسوله (ص) : أنَّه المتكفِّل بنصر رسوله على أعداء دينه ، وإظهاره عليهم دونهم؛ أعانوه ، أو لم يعينوه ، وتذكيرٌ منه لهم بفعل ذلك به ، وهو من العدد في قلَّةٍ ، والعدوُّ في كثرةٍ ، فكيف به؛ وهو من العدد في كثرةٍ؛ والعدوُّ في قلَّة؟! يقول لهم جلَّ ثناؤه: إلا تنفروا ـ أيُّها المؤمنون ـ مع رسولي؛ إذا استنصركم فتنصروه؛ فالله ناصره ، بالله من قريش، من وطنه، وداره يقول: أخرجوه وهو أحد {إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ} ، وإنَّما عنى جلَّ ثناؤه بقوله: {ثَانِيَ اثْنَيْنِ} الله (ص) ، وأبا بكرٍ رضي الله عنه؛ لأنَّهما كانا اللَّذين خرجا هاربين من قريش؛ إذ همُّوا بقتل رسول الله (ص) ، واختفيا في الغار ، وقوله:

يقول: إذ رسول الله (ص) وأبو بكر رضي الله عنه في الغار[(١٨٤)] يقول: إذ يقول الرَّسول {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ} لصاحبه أبي بكر: لا تحزن؛ وذلك: أنَّه خاف من الطَّلب أن يعلموا بمكانهما ، فجزع من ذلك ، فقال له رسول الله (ص) : لا تحزن؛ لأنَّ الله معنا ، والله ناصرنا ، فلن يعلم المشركون بنا ، ولن يصلوا إلينا ، يقول جلَّ ثناؤه: فقد نصره على عدوِّه وهو بهذه الحال من الخوف ، وقلَّة العدد ، فكيف يخذله ، ويحوجه إليكم وقد كثَّر الله من أنصاره وعدد جنوده. [الطبري في تفسيره (١٠/١٣٥ ـ ١٣٦)]
.

وقد تحدَّث الدكتور عبد الكريم زيدان ، عن المعيَّة في هذه الاية الكريمة ، فقال: «وهذه المعيَّة الرَّبانية المستفادة من قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} ، أعلى من معيَّته للمتَّقين ، والمحسنين في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ *} [النحل: ١٢٨] ؛ لأنَّ المعيَّة هنا هي لذات الرَّسول ، وذات صاحبه ، غير مقيَّدةٍ بوصفٍ هو عملٌ لهما ، كوصف التَّقوى ، والإحسان؛ بل هي خاصَّةٌ برسوله ، وصاحبه ، مكفولةٌ هذه المعيَّة بالتأييد بالايات ، وخوارق العادات»[(١٨٥)].

وتحدَّث صاحب الظِّلال عن هذه الايات ، فقال: «ذلك حين ضاقت قريش بمحمدٍ ذرعاً ، كما تضيق القوَّة الغاشمة دائماً بكلمة الحقِّ ، لا تملك لها دفعاً ، ولا تطيق عليها صبراً ، فائتمرت به ، وقرَّرت أن تتخلَّص منه ، فأطلعه الله على ما ائتمرت به ، وأوحى إليه بالخروج وحيداً ، إلا من صاحبه الصِّدِّيق ، لا جيش ، ولا عدَّة ، وأعداؤه كُثُرٌ ، وقوَّتهم إلى قوته ظاهرةٌ ، ثمَّ ماذا كانت العاقبة ، والقوة المادية كلُّها من جانبٍ ، والرَّسول (ص) مع صاحبه منها مجرَّد؟ كان النَّصر المؤزَّر من عند الله بجنود لم يرها النَّاس ، وكانت الهزيمة لِلَّذين كفروا والذُّلُّ والصَّغار ، {وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى} ، وظلَّت كلمة الله في مكانها العالي منتصرةً قويَّةً نافذةً.

ذلك مثلٌ على نصرة الله لرسوله ، ولكلمته ، والله قادرٌ على أن يعيده على أيدي قومٍ اخرين؛ غير الَّذين يتثاقلون ويتباطؤون وهو مثل من الواقع إن كانوا في حاجةٍ بعد قول الله إلى دليلٍ!»[(١٨٦)].

سادساً: خيمة أم معبد في طريق الهجرة:

وبعد ثلاث ليالٍ من دخول النَّبيِّ (ص) في الغار خرج رسول الله (ص) وصاحبه من الغار ، وقد هدأ الطَّلب ، ويئس المشركون من الوصول إلى رسول الله (ص) ، وقد قلنا: إنَّ رسول الله (ص)

وأبا بكر ، قد استأجرا رجلاً من بني الدَّيْل ، يُسمَّى عبد الله ابن أريقط ، وكان مشركاً ، وقد أمِنَاهُ ، فدَفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ براحلتيهما ، وقد جاءهما فعلاً في الموعد المحدَّد ، وسلك بهما طريقاً غير معهودةٍ؛ ليخفي أمرهما عمَّن يلحق بهم من كفار قريش[(١٨٧)].

وفي الطريق إلى المدينة ، مرَّ النَّبيُّ (ص) بأمِّ مَعْبَد[(١٨٨)] في قُدَيْد[(١٨٩)] حيث مساكن خزاعة ، وهي أخت خُنَيْس بن خالدٍ الخزاعيّ؛ الَّذي روى قصَّتها ، وهي قصَّةٌ تناقلها الرُّواة ، وأصحاب السِّير ، وقال عنها ابن كثير: «وقصَّتها مشهورةٌ مرويَّةٌ من طرقٍ يشدُّ بعضها بعضاً»[(١٩٠)] ، فعن خالد بن خُنَيْس الخزاعيِّ رضي الله عنه ، صاحب رسول الله (ص) : أنَّ رسول الله (ص) حين خرج من مكَّة ، وخرج منها مهاجراً إلى المدينة ، هو وأبو بكر رضي الله عنه ، ومولى أبي بكرٍ عامر بن فهيرة رضي الله عنه ، ودليلهما اللَّيثي عبد الله بن أريقط ، مرُّوا على خيمة أمِّ معبد الخزاعيَّة ، وكانت بَرْزَة[(١٩١)] ، جَلْدَة[(١٩٢)] ، تحتبي[(١٩٣)] بفناء القبَّة ، ثمَّ تسقي وتطعم ، فسألوها لحماً ، وتمراً؛ ليشتروه منها ، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك ، وكان القوم مُرْملين[(١٩٤)] مُسْنِتين[(١٩٥)] ، فنظر رسول الله (ص) إلى شاةٍ في كَسْر الخيمة[(١٩٦)] ، فقال: «ما هذه الشَّاة يا أمَّ معبد؟!» قالت: خلَّفها الجَهْد عن الغنم ، قال: «فهل بها من لبنٍ؟» قالت: هي أجهد من ذلك. قال: «أتأذنين أن أحلبها؟» قالت: بلى بأبي أنت وأمِّي! نعم إن رأيت بها حَلْباً؛ فاحلبها!

فدعا بها رسول الله (ص) فمسح بيده ضرعها ، وسمَّى الله عزَّ وجلَّ ، ودعا لها في شاتها ، فتفاجَّت[(١٩٧)] عليه ، ودَرَّت[(١٩٨)] ، واجترَّت[(١٩٩)] ودعا بإناءٍ يُرْبِضُ[(٢٠٠)] الرَّهط ، فحلب فيها

ثجّاً[(٢٠١)]؛ حتَّى علاه البهاء[(٢٠٢)] ، ثمَّ سقاها حتَّى رَوِيت ، وسقى أصحابه؛ حتَّى رَوَوْا ، وشرب اخرهم (ص) ، ثمَّ أراضوا[(٢٠٣)] ، ثمَّ حلب فيها ثانياً بعد بدءٍ؛ حتَّى ملأ الإناء ، ثمَّ غادره عندها ، ثمَّ بايعها ، وارتحلوا عنها.

فقلَّما لبثت حتَّى جاء زوجها أبو معبد ، يسوق أعنزاً عجافاً[(٢٠٤)] ، يتساوَكن هُزلاً[(٢٠٥)] ضحىً ، مخُّهنَّ قليلٌ ، فلمَّا رأى أبو معبد اللبن؛ عجب ، وقال: من أين لك هذا اللَّبن يا أمَّ معبد! والشَّاة عازبٌ حِيال[(٢٠٦)] ، ولا حَلُوبة في البيت؟ قالت: لا والله! إلا أنَّه مرَّ بنا رجلٌ مبارك ، من حاله كذا ، وكذا. قال: صفيه لي يا أم معبد! قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة[(٢٠٧)] ، أَبْلَج الوجه[(٢٠٨)] ، حسنُ الخَلْقِ ، لم تَعِبْه ثُجْلَة[(٢٠٩)] ، ولم تُزْر به صَعْلَةٌ[(٢١٠)] ، وسيمٌ[(٢١١)]

، في عينيه دَعَجٌ[(٢١٢)] ، وفي أشفاره وَطَفٌ[(٢١٣)] ، وفي صوته صَهَلٌ[(٢١٤)] ، وفي عنقه سَطَع[(٢١٥)] ، وفي لحيته كثاثةٌ ، أزجُّ[(٢١٦)] ، أقرن[(٢١٧)] ، إن صمت؛ فعليه الوقار ، وإن تكلَّم سما[(٢١٨)] وعلاه البهاء ، أجمل النَّاس ، وأبهاهم من بعيدٍ ، وأحلاهم وأحسنهم من قريبٍ ، حُلْوُ المنطق ، فَصْلٌ ، لا هذر ، ولا نزر[(٢١٩)] كأنَّ

منطقه خرزات نظمٍ يتحدَّرن ، رَبْعٌ[(٢٢٠)] ، لابأس من طولٍ[(٢٢١)] ، ولا تقتحمه العين من قصرٍ[(٢٢٢)] ، غُصْنٌ بين غصنين ، فهو أنضر الثَّلاثة منظراً ، وأحسنهم قدراً ، له رفقاء يحفُّون به؛ إن قال؛ استمعوا لقوله، وإن أمر؛ تبادروا إلى أمره، مَحْفُودٌ[(٢٢٣)]، محشودٌ[(٢٢٤)]، لا عابسٌ، ولا مُفنَّدٌ[(٢٢٥)].

قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش؛ الَّذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكَّة ، ولقد هممت أن أصحبه ، ولأفعلنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً.

فأصبح صوتٌ بمكَّة عالياً ، يسمعون الصوت ، ولا يدرون مَنْ صاحبه ، وهو يقول:

جَزَى اللهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جزائهِرَفِيْقَيْنِ قالا[(٢٢٦)] خَيْمَتَيْ أِمّ مَعْبَدِ

هُمَا نَزَلا بالبِرّ ثُمَّ تروَّحافَقَدْ فازَ مَنْ أَمْسَى رَفِيْقَ مُحَمَّدِ

فيا لَقُصَيٍّ ما زَوَى الله عَنْكُمُبهِ مِنْ فِعَالٍ لا تُجَارَى وسُؤدُدِ[(٢٢٧)]

لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَكَان فَتَاتِهِمْومَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنينِ بِمَرْصَدِ

سَلُوا أختَكمْ عنْ شاتِهَا وإنائِهَافإنَّكُمْ إنْ تَسْأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَد

دَهَاهَا بِشَاةٍ حَائِلٍ[(٢٢٨)] فَتَحَلَّبْتعَلَيْهِ صَرِيْحاً ضَرَّةُ الشَّاةِ مُزْبِدِ[(٢٢٩)]

فغَادَرَهَا رَهْناً لَدَيْهَا لِحَالبِيُرَدِّدُهَا في مَصْدِرٍ ثُمَّ مَوْرِدِ

[حديث أم معبد: رواه الطبراني في الكبير (٣٦٠٥) وفي الأحاديث الطوال (٣٠) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٥٦ ـ ٥٧) عن حبيش بن خالد][(٢٣٠)].

سابعاً: سراقة بن مالك يلاحق رسول الله (ص):

أعلنت قريش في نوادي مكَّة: أنَّه من يأتِ بالنَّبيّ (ص) ، حيَّاً ، أو ميتاً ، فله مئة ناقةٍ ، وانتشر هذا الخبر عند قبائل الأعراب ، الَّذين في ضواحي مكَّة ، وطمع سراقة بن مالك بن جُعْشُم في نيل الكسب ، الَّذي أعدَّته قريش لمن يأتي برسول الله (ص) ، فأجهد نفسه لينال ذلك ، ولكن الله

بقدرته الَّتي لا يغلبها غالب جعله يرجع مدافعاً عن رسول الله (ص) بعدما كان جاهداً عليه.

قال ابن شهاب: وأخبرني عبد الرَّحمن بن مالك المدْلجيُّ ـ وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جُعْشُمٍ ـ: أنَّ أباه أخبره ، أنَّه سمع سراقة بن جُعْشُم يقول: جاءنا رُسُلُ كفَّار قريش ، يجعلون في رسول الله (ص) ، وأبي بكرٍ ديةَ كلِّ واحدٍ منهما ، لمن قتله أو أسره ، فبينما أنا جالس في مجلسٍ من مجالس قومي بني مُدْلِج؛ إذ أقبل رجلٌ منهم حتَّى قام علينا ونحن جلوس ، فقال: يا سراقة! إِنِّي قد رأيت انفاً أَسْوِدةً[(٢٣١)] بالسَّاحل ، أراها محمَّداً وأصحابه ، قال سراقة: فعرفتُ: أنَّهم هم ، فقلت له: إنَّهم ليسوا بهم ، ولكنَّك رأيتَ فلاناً ، وفلاناً ، انطلَقوا بأعيننا ، ثمَّ لبثتُ في المجلس ساعةً ، ثمَّ قمتُ ، فدخلتُ ، فأمرتُ جاريتي أن تَخْرُجَ بفرسي ـ وهو من وراء أكمةٍ[(٢٣٢)] ـ فتَحْبِسَهَا عليَّ ، وأخذت رُمْحي ، فخرجت به من ظَهْر البيت ، فخططت بِزُجِّهِ[(٢٣٣)] الأرضَ ، وخَفَضْت عاليه ، حتَّى أتيتُ فرسي فركبتُها ، فرفعتُها (أي: أسرعت بها السَّير) تُقَرِّب بي ، حتَّى دنوت منهم ، فَعَثَرت بي فرسي ، فخررتُ عنها ، فقمت ، فأهويت يدي إلى كنانتي ، فاستخرجت منها الأزلام[(٢٣٤)] ، فاستقسمت بها: أضُرُّهم ، أم لا؟ فخرج الَّذي أكره ، فركبت فرسي ، وعصيت الأزلام ، تُقرِّب بي ، حتَّى إذا سمعت قراءة رسول الله (ص) ، وهو لا يلتفتُ ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، سَاخَتْ[(٢٣٥)] يدا فرسي في الأرض؛ حتَّى بلغتا الرُّكبتين ، فخررتُ عنها ، ثُمَّ زجرتها ، فنهضتْ ، فلم تكد تُخْرِجُ يديها ، فلمَّا استوت قائمةً؛ إذا لأثر يديها عُثان[(٢٣٦)] ساطعٌ في السَّماء مثلُ الدخان ، فاستقسمت بالأزلام ، فخرج الَّذي أكره ، فناديتهم بالأمان ، فوقفوا ، فركبت فرسي؛ حتَّى جئتُهم ، ووقع في نفسي حين لَقِيتُ ما لَقِيتُ من الحبس عنهم ، أن سَيظهرُ أمرُ رسول الله (ص) ، فقلت له: إنَّ قومك قد جعلوا فيك الدِّية ، وأخبرتهم أخبار ما يريد النَّاس بهم ، وعرضت عليهم الزَّاد والمتاع ، فلم يَرْزاني[(٢٣٧)] ، ولم يسألاني ، إلا أن قال: أخْفِ عنا ، فسألته أن يكتب لي كتابَ أمنٍ ، فأمرَ عامرَ بن فهيرة ، فكتب في رقعةٍ من أدَمٍ[(٢٣٨)] ، ثُمَّ مضى رسول الله (ص) . [البخاري (٣٩٠٦) ومسلم (٢٠٠٩/٩١)] .

وكان ممَّا اشتهر عند النَّاس من أمر سراقة ، ما ذكره ابن عبد البرِّ ، وابن حجر ، وغيرهما.

قال ابن عبد البرِّ: روى سفيان بن عيينة عن أبي موسى ، عن الحسن: أنَّ رسول الله (ص) قال لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبستَ سواري كسرى؟!» قال: فلمَّا أُتِيَ عمرُ بسواري كسرى ، ومِنْطَقَته وتاجه؛ دعا سراقة بن مالكٍ ، فألبسه إيَّاها ، وكان سراقة رجلاً أَزَبَّ[(٢٣٩)] كثير شعر السَّاعدين ، وقال له: ارفع يديك ، فقال: الله أكبر ، الحمد للهِ الَّذي سلبهما كسرى بن هُرْمز ، الَّذي كان يقول: أنا ربُّ النَّاس ، وألبسهما سراقة بن مالك بن جُعْشُمٍ أعرابيَّاً من بني مُدْلِج ، ورفع بها عمر

صوته[(٢٤٠)] ، ثمَّ أركب سُراقة ، وطوَّف به المدينة ، والنَّاس حوله ، وهو يرفع عقيرته مردداً قول الفاروق: الله أكبر ، الحمد للهِ الذي سلبهما كسرى بن هرمز ، وألبسهما سراقة بن جُعْشُمٍ أعرابيّاً من بني مُدْلِج[(٢٤١)].

ثامناً: سبحان مقلِّب القلوب:

كان سراقة في بداية أمره يريد القبض على رسول الله (ص) ، وتسليمه لزعماء مكَّة؛ لينال مئة ناقة ، وإذا بالأمور تنقلب رأساً على عَقِب ، ويصبح يردُّ الطلب عن رسول الله (ص) ، فجعل لا يلقى أحداً من الطَّلب إلا ردَّه ، قائلاً: كُفيتم هذا الوجه ، فلمَّا اطمأنَّ إلى أنَّ النَّبيَّ (ص) وصل إلى المدينة المنوَّرة ، جعل سراقة يقصُّ ما كان من قصَّته ، وقصَّة فرسه ، واشتهر هذا عنه ، وتناقلته الألسنة؛ حتَّى امتلأت به نوادي مكَّة ، فخاف رؤساء قريش أن يكون ذلك سبباً لإسلام بعض أهل مكَّة ، وكان سراقة أمير بني مُدْلِج ، ورئيسهم ، فكتب أبو جهل إليهم:

بني مُدْلِجٍ إنِّي أخاف سَفيهَكُمْسراقةَ مستغوٍ لِنَصْرِ مُحَمَّدِ

عَلَيْكُمْ به ألاَّ يُفَرِّقَ جَمْعَكُمْفَيُصْبِحَ شَتَّى بَعْدَ عِزٍّ وسُؤْدُدِ

فقال سراقة يردُّ على أبي جهلٍ:

أبا حَكَمٍ الَّلاتِ لوْ كنتَ شاهداًلأَمرِ جَوَادِي إذْ تسيخُ قَوائِمُهْ

عَجِبْتَ وَلَمْ تَشْكُكْ بأنَّ مُحَمَّداًرَسُولٌ بِبُرْهَانٍ فَمَنْ ذَا يُقَاوِمُهْ

عَلَيْكَ فكُفَّ القَوْمَ عَنْهُ فإنَّنيأَرَى أَمْرَهُ يَوْماً سَتَبْدُو مَعالِمُهْ

بأَمْرٍ تَوَدُّ النَّاسُ فِيْهِ بأَسْرِهِمْبأنَّ جَمِيْعَ النَّاسِ طُرّاً مُسَالِمُهْ[(٢٤٢)]

تاسعاً: استقبال الأنصار لرسول الله (ص):

«ولما سمع المسلمون بالمدينة مَخْرَجَ رسول الله (ص) من مكَّةَ ، فكانوا يغدون كلَّ غداةٍ إلى الحَرَّة فينتظرونه ، حتَّى يردَّهم حرُّ الظَّهيرة ، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم ، فلمَّا أَوَوْا إلى

بيوتهم؛ أوفى رجلٌ من يهود على أُطُمٍ[(٢٤٣)] من اطامهم ، لأمرٍ ينظر إليه ، فبصُرَ برسول الله (ص) وأصحابه مُبَيَّضين[(٢٤٤)] ، يزولُ بهم السَّرابُ[(٢٤٥)] ، فلم يملكِ اليهوديُّ أن قال بأعلى صوته: يا معاشرَ العرب! هذا جَدُّكم[(٢٤٦)] الَّذي تنتظرونَ ، فثار المسلمون إلى السِّلاح ، فتلقَّوا رسول الله (ص) بظهر الحَرَّة ، فعدل بهم ذات اليمين ، حتَّى نَزَل بِهِم في بني عمرو بن عوف ، وذلك يوم الإثنين[(٢٤٧)] من شهر ربيع الأوَّل[(٢٤٨)] ، فقام أبو بكر للنَّاس ، وجلس رسول الله (ص)

صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار ـ ممَّن لم يَرَ رسول الله (ص) ـ يُحَيِّي أبا بكرٍ ، حتَّى أصابت الشَّمْسُ رسولَ الله (ص) ، فأقبل أبو بكر حتَّى ظلَّلَ عليه بردائه ، فعرف النَّاس رسول الله (ص) عند ذلك ، فلبث رسولُ الله (ص) في بني عمرو بن عوف بضعَ عَشْرَةَ ليلةً[(٢٤٩)] ، وأُسِّسَ المسجدُ الذي أُسِّسَ على التَّقوى ، وصلَّى فيه رسول الله (ص) ، ثمَّ ركب راحلته» [البخاري (٣٩٠٦)] .

وبعد أن أقام رسول الله (ص) المدَّة الَّتي مكثها بقُباء ، وأراد أن يدخل المدينة؛ «بعث إلى الأنصار» فجاؤوا إلى نبيِّ الله (ص) وأبي بكر ، فسلَّموا عليهما ، وقالوا: اركبا امِنَيْن مُطَاعَيْن ، فركب نبيُّ الله (ص) ، وأبو بكرٍ ، وحَفُّوا دونَهما بالسِّلاح».

وعند وصوله (ص) إلى المدينة ، قيل في المدينة: «جاء نبيُّ الله ، جاء نبيُّ الله (ص) ، فأشرفوا ينظرون ، ويقولون: جاء نبيُّ الله» [البخاري (٣٩١١)] .

فكان يوم فرحٍ وابتهاجٍ ، لم ترَ المدينة يوماً مثله ، ولبس النَّاس أحسن ملابسهم ، كأنَّهم في يوم عيدٍ ، ولقد كان حقّاً يوم عيدٍ؛ لأنَّه اليوم الَّذي انتقل فيه الإسلام من ذلك الحيِّز الضَّيِّق في مكَّة ، إلى رحابة الانطلاق والانتشار ، بهذه البقعة المباركة (المدينة) ، ومنها إلى سائر بقاع الأرض ، لقد أحسَّ أهل المدينة بالفضل الَّذي حباهم الله به ، وبالشَّرف الَّذي اختصَّهم به أيضاً ، فقد صارت بلدتهم موطناً لإيواء رسول الله (ص) ، وصحابته المهاجرين ، ثم لنصرة الإسلام ، كما أصبحت موطناً للنِّظام الإسلاميِّ العامِّ ، والتَّفصيليِّ بكلِّ مقوِّماته ، ولذلك خرج أهل المدينة يهلِّلون في فرحٍ وابتهاجٍ ، ويقولون: يا رسول الله! يا محمد! يا رسول الله[(٢٥٠)]!

روى الإمام مسلمٍ بسنده ، قال: «عندما دخل رسول الله (ص) المدينة؛ صعد الرِّجال ، والنِّساء فوق البيوت ، وتفرَّق الغِلْمَان ، والخدم في الطُّرق ، ينادون: يا محمد! يا رسول الله! يا محمَّد! يا رسول الله!!» [مسلم (٣٠١٤/م)] .

وبعد هذا الاستقبال الجماهيريِّ العظيم؛ الَّذي لم يرد مثله في تاريخ الإنسانيَّة سار رسول الله (ص) حتَّى نزل في دار أبي أيوبٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه ، فعن أنسٍ رضي الله عنه في حديث الهجرة الطَّويل: «فأقبل يسيرُ حتَّى نزل جانب دار أبي أيوب، فإنَّه ليُحَدِّثُ أهلَه[(٢٥١)]؛ إذ سمع به عبد الله بن سَلاَم ، وهو في نخلٍ لأهله يَخْتَرِف[(٢٥٢)] لهم ، فعجَّل أن يضع الَّذي يَخْتَرِف لهم فيها ، فجاء وهي معه ، فسمع من نبيِّ الله (ص) ، ثمَّ رجع إلى أهله ، فقال نبيُّ الله (ص) : أيُّ بيوتِ أهلنا[(٢٥٣)] أقرب؟

فقال أبو أيوب: أنا يا نبيَّ الله! هذه داري، وهذا بابي ، قال: فانَطَلِقْ فهيِءْ لنا مقيلاً[(٢٥٤)]....» [البخاري (٣٩١١)] ، ثمَّ نزل رسول الله (ص) على أبي أيوبٍ حتَّى بنى مسجده ، ومساكنه.

وبهذا قد تمَّت هجرته (ص) ، وهجرة أصحابه رضي الله عنهم؛ ولم تنته الهجرة بأهدافها ، وغاياتها ، بل بدأت بعد وصول رسول الله (ص) سالماً إلى المدينة ، وبدأت معها رحلة المتاعب ، والمصاعب ، والتَّحدِّيات ، فتغلَّب عليها رسول الله (ص) للوصول للمستقبل الباهر للأمَّة ، والدَّولة الإسلاميَّة؛ الَّتي استطاعت أن تصنع حضارةً إنسانيَّةً رائعةً ، على أسس من الإيمان ، والتَّقوى ، والإحسان ، والعدل بعد أن تغلَّبت على أقوى دولتين كانتا تحكمان العالم ، وهما: دولة الفرس ، ودولة الرُّوم[(٢٥٥)].

عاشراً: فوائد ، ودروسٌ ، وعبر:

١ ـ الصِّراع بين الحقِّ والباطل صراعٌ قديمٌ ، وممتدٌّ:

وهو سنَّةٌ إلهيَّةٌ نافذةٌ ، قال عزَّ وجلَّ: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ *} [الحج: ٤٠] .

ولكنَّ هذا الصِّراع معلومُ العاقبة: {كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ *} [المجادلة: ٢١] .

٢ ـ مكر خصوم الدَّعوة بالدَّاعية أمرٌ مستمرٌ متكرِّرٌ:

سواءٌ عن طريق الحبس ، أو القتل ، أو النَّفي ، والإخراج من الأرض ، وعلى الدَّاعية أن يلجأ إلى ربِّه ، وأن يثق به ، ويتوكَّل عليه ، ويعلم: أنَّ المكر السَّيأى لا يحيق إلا بأهله[(٢٥٦)] ، كما قال عزَّ وجل: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ *} [الأنفال: ٣٠] .

ومن مكر أهل الباطل وخصوم الدَّعوة استخدام سلاح المال لإغراء النُّفوس الضَّعيفة ، للقضاء على الدَّعوة والدُّعاة ، ولذلك رصدوا مئة ناقةٍ ، لمن يأتي برسول الله (ص) حيّاً ، أو ميتاً ، فتحرَّك الطَّامعون ، ومنهم سراقة؛ الَّذي عاد بعد هذه المغامرة الخاسرة ماديّاً ، بأوفر ربحٍ ، وأطيب رزقٍ ، وهو رزق الإيمان ، وأخذ يعمِّي الطريق على الطَّامعين الاخرين ، الَّذين اجتهدوا في الطَّلب ، وهكذا يردُّ الله عن أوليائه والدُّعاة[(٢٥٧)]. قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ *} [الأنفال: ٣٦] .

٣ ـ دقَّة التَّخطيط ، والأخذ بالأسباب:

إنَّ مَنْ تأمَّل حادثة الهجرة ، ورأى دقَّة التَّخطيط فيها ، ودقَّة الأخذ بالأسباب من ابتدائها إلى انتهائها ، ومن مقدِّماتها إلى ما جرى بعدها؛ يدرك أنَّ التَّخطيط المسدَّد بالوحي في حياة رسول الله (ص) كان قائماً ، وأنَّ التَّخطيط جزءٌ من السُّنَّة النَّبويَّة ، وهو جزءٌ من التَّكليف الإلهيِّ في كل ما طولب به المسلم ، وأنَّ الَّذين يميلون إلى العفوية؛ بحجة أنَّ التخطيط ، وإحكام الأمور ليسا من السُّنَّة؛ أمثال هؤلاء مخطئون ، ويجنون على أنفسهم ، وعلى المسلمين[(٢٥٨)].

فعندما حان وقت الهجرة للنَّبيِّ (ص) ، وشرع النَّبيُّ (ص) في التَّنفيذ ، نلاحظ الاتي:

* وجود التَّنظيم الدَّقيق للهجرة حتَّى نجحت ، برغم ما كان يكتنفها من صعابٍ، وعقباتٍ ، وذلك أنَّ كلَّ أمرٍ من أمور الهجرة ، كان مدروساً دراسةً وافيةً؛ فمثلاً:

١ ـ جاء (ص) إلى بيت أبي بكر ، في وقت شدَّة الحرِّ ـ الوقت الذي لا يخرج فيه أحدٌ ـ؛ بل من عادته لم يكن يأتي له في ذلك الوقت ، لماذا؟ حتَّى لا يراه أحد.

٢ ـ إخفاء شخصيته (ص) في أثناء مجيئه للصِّدِّيق ، وجاء إلى بيت الصِّدِّيق متلثماً؛ لأنَّ التلثُّم يقلِّل من إمكانية التعرُّف على معالم الوجه المتلثم[(٢٥٩)].

٣ ـ أمر (ص) أبا بكر أن يُخْرِج مَن عنده ، ولما تكلَّم لم يبيِّن إلا الأمر بالهجرة ، دون تحديد الاتجاه.

٤ ـ كان الخروج ليلاً ، ومن بابٍ خلفيٍّ في بيت أبي بكرٍ[(٢٦٠)].

٥ ـ بلغ الاحتياط مداه ، باتِّخاذ طرقٍ غير مألوفةٍ للقوم ، والاستعانة في ذلك بخبيرٍ يعرف مسالك البادية ، ومسارب الصَّحراء ، ولو كان ذلك الخبير مشركاً ، ما دام على خُلُقٍ ورزانةٍ ، وفيه دليلٌ على أنَّ الرَّسول (ص) كان لا يحجم عن الاستعانة بالخبرات مهما يكن مصدرها[(٢٦١)].

* انتقاء شخصياتٍ عاقلةٍ لتقوم بالمعاونة في شؤون الهجرة ، ويلاحظ أنَّ هذه الشَّخصيات كلَّها تترابط برباط القرابة ، أو برباط العمل الواحد ، ممَّا يجعل من هؤلاء الأفراد ، وحدةً متعاونةً على تحقيق الهدف الكبير.

* وضع كلِّ فردٍ من أفراد هذه الأسرة في عمله المناسب؛ الذي يجيد القيام به على أحسن وجهٍ؛ ليكون أقدر على أدائه ، والنُّهوض بتبعاته.

* فكرة نوم عليٍّ بن أبي طالب مكان الرَّسول (ص) فكرةٌ ناجحةٌ ، قد ضلَّلت القوم ، وخدعتهم ، وصرفتهم عن الرَّسول (ص) ، حتَّى خرج في جنح اللَّيل ، تحرسه عناية الله ، وهم نائمون ، ولقد ظلَّت

أبصارهم معلَّقةً بعد اليقظة ، بمضجع الرَّسول (ص) ، فما كانوا يشكُّون في أنَّه ما يزال نائماً ، مُسجّىً في بردته ، في حين أنَّ النَّائم هو عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه.

* وقد كان عملُ أبطال هذه الرِّحلة على النَّحو التالي:

١ ـ عليٌّ رضي الله عنه: ينام في فراش الرَّسول (ص) ؛ ليخدع القوم؛ ويُسلِّم الودائع ، ويلحق بالرَّسول (ص) بعد ذلك.

٢ ـ عبد الله بن أبي بكر: رجل المخابرات الصَّادق ، وكاشف تحرُّكات العدوِّ.

٣ ـ أسماء ذات النِّطاقين: حاملة التموين من مكَّة إلى الغار ، وسط جنون المشركين؛ بحثاً عن محمَّدٍ (ص) ليقتلوه.

٤ ـ عامر بن فهيرة: الرَّاعي البسيط الذي قدَّم اللَّحم واللَّبن إلى صاحبي الغار ، وبدَّد اثار أقدام المسيرة التَّاريخيَّة بأغنامه كي لا يتفرَّسها القوم!! لقد كان هذا الرَّاعي يقوم بدور الإمداد ، والتَّموين ، والتَّعمية.

٥ ـ عبد الله بن أريقط: دليل الهجرة الأمين ، وخبير الصَّحراء البصير ينتظر في يقظةٍ إشارة البدء من الرَّسول (ص) ؛ ليأخذ الرَّكبُ طريقه من الغار إلى يثرب.

فهذا تدبيرٌ للأمور على نحوٍ رائعٍ دقيقٍ ، واحتياطٌ للظُّروف بأسلوبٍ حكيمٍ ، وَوَضْعٌ لكلِّ شخصٍ من أشخاص الهجرة في مكانه المناسب ، وسدٌّ لجميع الثَّغرات ، وتغطيةٌ بديعةٌ لكلِّ مَطالب الرِّحلة ، واقتصارٌ على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادةٍ ، ولا إسرافٍ.

لقد أخذ الرَّسول (ص) بالأسباب المعقولة ، أخذاً قوياً حسب استطاعته ، وقدرته؛ ومن ثمَّ باتت عنايةُ الله متوقَّعةً[(٢٦٢)].

٤ ـ الأخذ بالأسباب أمرٌ ضروريٌّ:

إنَّ اتخاذ الأسباب أمرٌ ضروريٌّ وواجبٌ؛ ولكن لا يعني ذلك دائماً حصول النتيجة؛ ذلك لأنَّ هذا أمرٌ يتعلَّق بأمر الله ومشيئته ، ومن هنا كان التوكُّل أمراً ضرورياً ، وهو من باب استكمال اتِّخاذ الأسباب.

إنَّ رسول الله (ص) أعدَّ كلَّ الأسباب ، واتَّخذ كلَّ الوسائل؛ ولكنَّه في الوقت نفسه مع الله ، يدعوه ، ويستنصره أن يكلِّل سعيه بالنَّجاح ، وهنا يُستجاب الدُّعاء ، وينصرف القوم بعد أن وقفوا على باب الغار ، وتسيخ فرس سراقة في الأرض ، ويكلَّل العمل بالنَّجاح[(٢٦٣)].

٥ ـ الإيمان بالمعجزات الحسِّيَّة:

وفي هجرة النَّبيّ (ص) وقعت معجزاتٌ حسِيَّةٌ ، وهي دلائل ملموسةٌ على حفظ الله ، ورعايته لرسوله (ص) ، ومن ذلك ـ على ما روي ـ نسيج العنكبوت على فم الغار ، ومنها ما جرى لرسول الله (ص) مع أمِّ معبد ، وما جرى له مع سراقة ، ووعده إيَّاه بأن يلبس سواري كسرى ، فعلى الدُّعاة ألا يتنصَّلوا من هذه الخوارق ، بل يذكروها ما دامت ثابتةً بالسُّنَّة النَّبويَّة ، على أن

ينبِّهوا الناس على أن هذه الخوارق ، هي من جملة دلائل نبوَّته ، ورسالته عليه السَّلام[(٢٦٤)].

٦ ـ جواز الاستعانة بالكافر المأمون:

ويجوز للدُّعاة أن يستعينوا بمن لا يُؤمنون بدعوتهم ما داموا يثقون بهم ، ويأتمنونهم؛ فقد رأينا: أنَّ النَّبيَّ (ص) وأبا بكرٍ استأجرا مشركاً ليدلهما على طريق الهجرة ، ودفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه عند غار ثور ، وهذه أمورٌ خطيرةٌ أطلعاه عليها، ولاشكَّ: أنَّ النَّبيَّ (ص) ، وأبا بكر وثقا به ، وأمَّناه ، ممَّا يدلُّ على أنَّ الكافر، أو العاصي ، أو غير المنتسب إلى الدُّعاة ، قد يوجد عند هؤلاء ما يستدعي وثوق الدُّعاة بهم ، كأن تربطهم رابطة القرابة ، أو المعرفة القديمة ، أو الجوار ، أو عمل معروف كان قد قدَّمه الدَّاعية لهم ، أو لأن هؤلاء عندهم نوعٌ جيِّدٌ من الأخلاق الأساسيَّة؛ مثل الأمانة ، وحبِّ عمل الخير ، إلى غير ذلك من الأسباب ، والمسألة تقديريَّة ، يترك تقديرها إلى فطنة الدَّاعي ، ومعرفته بالشَّخص(١).

٧ ـ دور المرأة في الهجرة:

وقد لمعت في سماء الهجرة أسماءٌ كثيرةٌ ، كان لها فضلٌ كبيرٌ ، ونصيبٌ وافرٌ من الجهاد؛ منها: عائشة بنت أبي بكرٍ الصِّدِّيق؛ الَّتي حفظت لنا القصَّة ، ووعتها ، وبلَّغتها للأمَّة ، وأمُّ سلمة المهاجرة الصَّبور ، وأسماء ذات النِّطاقين[(٢٦٥)] ، الَّتي أسهمت في تموين الرَّسول (ص) وصاحبه في الغار ، بالماء ، والغذاء ، وكيف تحمَّلت الأذى في سبيل الله ، فقد حدَّثتنا عن ذلك ، فقالت: «لما خرج رسول الله (ص) ، وأبو بكرٍ رضي الله عنه أتانا نفرٌ من قريشٍ ، فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكرٍ ، فخرجتُ إليهم ، فقالوا: أين أبوك يا بنتَ أبي بكرٍ؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي!

قالت: فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشاً خبيثاً ـ فلطم خَدِّي لطمةً ، طرح منها قُرْطِي ، قالت: ثمَّ انصرفوا» [الطبري في تاريخه (٢/٣٧٩ ـ ٣٨٠) وابن هشام (٢/١٣١ ـ ١٣٢)][(٢٦٦)] .

فهذا درسٌ من أسماء رضي الله عنها؛ تعلِّمه لنساء المسلمين جيلاً بعد جيل ، كيف تخفي أسرار المسلمين عن الأعداء ، وكيف تقف صامدةً شامخةً أمام قوى البغي والظُّلم! وأمَّا درسها الثَّاني البليغ ، فعندما دخل عليها جدُّها أبو قحافة ، وقد ذهب بصره ، فقال: «والله إِنِّي لأراه قد فجعكم بماله مع

نفسه» ، قالت: «كلا يا أبت! ضع يدك على هذا المال» قالت: «فوضع يده عليه» ، فقال: «لابأس ، إذا كان ترك لكم هذا؛ فقد أحسن» ، وفي هذا بلاغ لكم ، قالت:

«ولا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكنّي أردت أن أسكِّن الشَّيخ بذلك»[(٢٦٧)].

وبهذه الفطنة ، والحكمة ، سترت أسماء أباها ، وسكَّنت قلب جدِّها الضرير ، من غير أن تكذب فإنَّ أباها قد ترك لهم حقاً هذه الأحجار الَّتي كوَّمتها؛ لتطمئن لها نفس الشَّيخ! إلا أنه قد ترك لهم معها إيماناً بالله لا تزلزله الجبال ، ولا تحرِّكه العواصف الهوج ، ولا يتأثر بقلَّةٍ أو كثرةٍ في المال ، وورَّثهم يقيناً ، وثقةً به لا حدَّ لها ، وغرس فيهم همَّةً تتعلَّق بمعالي الأمور ، ولا تلتفت إلى سفاسفها[(٢٦٨)] ، فضرب بهم للبيت المسلم مثالاً عزَّ أن يتكرَّر ، وقلَّ أن يوجد نظيره.

لقد ضربت أسماء رضي الله عنها بهذه المواقف لنساء ، وبنات المسلمين مثلاً هُنَّ في أمسِّ الحاجة إلى الاقتداء به ، والنَّسج على مِنواله.

وظلَّت أسماء مع أخواتها في مكَّة ، لا تشكو ضيقاً ، ولا تظهر حاجةً ، حتَّى بعث النَّبيُّ (ص) زيد بن حارثة ، وأبا رافع مولاه ، وأعطاهما بعيرين وخمسمئة درهمٍ إلى مكَّة ، فقدما عليه بفاطمة ، وأم كلثوم ابنتيه ، وسودة بنت زمعة زوجه ، وأسامة بن زيد ، وأُمُّه بركة المكنَّاة بأم أيمن ، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكرٍ بعيال أبي بكرٍ ، فيهم عائشة ، وأسماء ، فقدموا المدينة ، فأنزلهم في بيت حارثة بن النُّعمان[(٢٦٩)].

٨ ـ أمانات المشركين عند رسول الله (ص):

في إيداع المشركين ودائعهم عند رسول الله (ص) مع محاربتهم له ، وتصميمهم على قتله دليلٌ باهرٌ على تناقضهم العجيب ، الَّذي كانوا واقعين فيه؛ ففي الوقت الَّذي كانوا يكذِّبونه ، ويزعمون: أنَّه ساحرٌ ، أو مجنونٌ ، أو كذَّابٌ ، لم يكونوا يجدون فيمن حولهم مَنْ هو خيرٌ منه أمانةً وصدقاً ، فكانوا لا يضعون حوائجهم ، ولا أموالهم الَّتي يخافون عليها إلا عنده! وهذا يدلُّ على أنَّ كفرانهم ، لم يكن بسبب الشَّكِّ لديهم في صدقه؛ وإنَّما بسبب تكبُّرهم ، واستعلائهم على الحقِّ الَّذي جاء به ، وخوفاً على زعامتهم ، وطغيانهم[(٢٧٠)] ، وصدق الله العظيم؛ إذ يقول: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ *} [الأنعام: ٣٣] .

وفي أمر الرَّسول (ص) لعليٍّ رضي الله عنه بتأدية هذه الأمانات لأصحابها في مكَّة؛ برغم هذه

الظُّروف الشَّديدة؛ الَّتي كان من المفترض أن يكتنفها الاضطراب ، بحيث لا يتَّجه التَّفكير إلا إلى إنجاح خطَّة هجرته فقط؛ برغم ذلك فإنَّ الرَّسول (ص) ما كان لينسى ، أو ينشغل عن ردِّ الأمانات إلى أهلها ، حتَّى ولو كان في أصعب الظُّروف الَّتي تُنسي الإنسان نفسه ، فضلاً عن غيره[(٢٧١)].

٩ ـ الرَّاحلة بالثَّمن:

لم يقبل رسولُ الله (ص) أن يركب الرَّاحلة ، حتَّى أخذها بثمنها من أبي بكرٍ رضي الله عنه ، واستقرَّ الثَّمن دَيْناً بذمَّته ، وهذا درسٌ واضحٌ بأنَّ حملة الدَّعوة لا ينبغي أن يكونوا عالةً على أحدٍ في وقتٍ من الأوقات ، فهم مصدر العطاء في كلِّ شيءٍ.

إنَّ يدهم إن لم تكن العليا ، فلن تكون السُّفلى ، وهكذا يصرُّ (ص) أن يأخذها بالثَّمن ، وسلوكه ذلك هو التَّرجمة الحقَّة لقوله تعالى: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ *} [الشعراء: ١٠٩] .

إنَّ الذين يحملون العقيدة ، والإيمان ، ويبشِّرون بهما ، ما ينبغي أن تمتدَّ أيديهم إلى أحدٍ إلا الله؛ لأنَّ هذا يتناقض مع ما يدعون إليه ، وقد تعوَّد النَّاس أن يعوا لغة الحال؛ لأنَّها أبلغ من لغة المقال ، وما تأخَّر المسلمون ، وأصابهم ما أصابهم من الهوان إلا يوم أصبحت وسائل الدَّعوة ، والعاملون بها خاضعين لِلُغة المادَّة؛ إذ ينتظر الواحد منهم مرتَّبه ، ويومها تحوَّل العمل إلى عملٍ ماديٍّ؛ فقَد الرُّوح ، والحيويَّة ، والوضاءة ، وأصبح للأمر بالمعروف موظَّفون ، وأصبح الخطباء موظَّفين ، وأصبح الأئمَّة موظَّفين.

إنَّ الصَّوت الَّذي ينبعث من حنجرةٍ وراءها الخوف من الله ، والأمل في رضاه ، غير الصَّوت الَّذي ينبعث ليتلقَّى دراهم معدودة ، فإذا توقَّفت؛ توقف الصَّوت ، وقديماً قالوا: «ليست النَّائحة كالثَّكلى»؛ ولهذا قلَّ التأثير ، وبَعُدَ النَّاس عن جادَّة الصَّواب[(٢٧٢)].

١٠ ـ الدَّاعية يَعفُّ عن أموال النَّاس:

لما عفا النَّبيُّ (ص) عن سراقة؛ عرض عليه سراقة المساعدة ، فقال: «وهذه كنانتي فخذ منها سهماً؛ وإنَّك ستمرُّ بإبلي ، وغنمي في موضع كذا ، وكذا ، فخذ منها حاجتك». فقال رسول الله (ص) : «لا حاجة لي فيها» [أحمد (٣/١) ومسلم (٣٠١٤/م)][(٢٧٣)] .

فحين يزهد الدُّعاة فيما عند النَّاس ، يحبُّهم الناس ، وحين يطمعون في أموال النَّاس ، ينفر النَّاس منهم ، وهذا درسٌ بليغٌ للدُّعاة إلى الله تعالى[(٢٧٤)].

١١ ـ الجندية الرَّفيعة والبكاء من الفرح:

تظهر أثر التَّربية النَّبويَّة ، في جندية أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، وعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنهما؛ فأبو بكرٍ رضي الله عنه عندما أراد أن يهاجر إلى المدينة ، وقال له رسول الله (ص) : «لا تعجل؛ لعلَّ الله يجعل لك صاحباً»؛ بدأ في الإعداد والتَّخطيط للهجرة؛ فابتاع راحلتين ، واحتبسهما في داره يعلفهما إعداداً لذلك ، وفي رواية البخاريِّ: «وعلف راحلتين كانتا عندهُ ورقَ السَّمُر ـ وهو الخَبَط ـ أربعة أشهر» [البخاري (٣٩٠٥) والبيهقي في الدلائل (٢/٤٧٣)] لقد كان يدرك بثاقب بصره رضي الله عنه ـ وهو الَّذي تربَّى؛ ليكون قائداً ـ: أنَّ لحظة الهجرة صعبةٌ ، قد تأتي فجأةً ، ولذلك هيَّأ وسيلة الهجرة ، ورتَّب تموينها ، وسخَّر أسرته لخدمة النَّبيِّ (ص) ، وعندما جاء رسول الله (ص) ، وأخبره: أنَّ الله قد أذن له في الخروج ، والهجرة؛ بكى من شدَّة الفرح ، وتقول عائشة رضي الله عنها في هذا الشأن: «فوالله! ما شعرت قطُّ قبل ذلك اليوم: أنَّ أحداً يبكي من الفرح؛ حتَّى رأيت أبا بكرٍ يبكي يومئذٍ» ، إنَّها قمَّة الفرح البشريِّ أن يتحوَّل الفرح إلى بكاءٍ ، كما قال الشَّاعر عن هذا:

وَرَدَ الكِتَابُ مِنَ الحَبِيْبِ بِأَنَّهُسَيَزُورُنِي فاستعبرتْ أَجْفَانِي

غَلَبَ السُّرورُ عليَّ حتَّى إنَّنيمِنْ فرْطِ ما قَدْ سرَّني أَبْكَانِي

يا عَيْنُ صَارَ الدَّمْعُ عِنْدَكِ عَادَةًتَبْكِيْنَ مِنْ فَرَحٍ وَمِنْ أَحْزَانِ

فالصِّدِّيق رضي الله عنه ، يعلم: أنَّ معنى هذه الصُّحبة: أنَّه سيكون وحدَه برفقة رسول ربِّ العالمين ، بضعة عشر يوماً على الأقلِّ ، وهو الَّذي سيقدِّم حياته لسيِّده ، وقائده ، وحبيبه المصطفى (ص) ، فأيُّ فوزٍ في هذا الوجود يفوق هذا الفوز: أن يتفرَّد الصِّدِّيق وحدَه من دون أهل الأرض ، ومن دون الصَّحب جميعاً برفقة سيِّد الخلق (ص) وصحبته كلَّ هذه المدَّة[(٢٧٥)]. وتظهر معاني الحبِّ في الله في خوف أبي بكرٍ ، وهو في الغار من أن يراهما المشركون؛ ليكون الصِّدِّيق مثلاً لما ينبغي أن يكون عليه جنديُّ الدَّعوة الصَّادق مع قائده الأمين حين يحدق به الخطر من خوفٍ ، وإشفاقٍ على حياته؛ فما كان أبو بكر ساعتئذٍ بالَّذي يخشى على نفسه الموت ، ولو كان كذلك؛ لما رافق رسولَ الله (ص) في هذه الهجرة الخطيرة ، وهو يعلم: أنَّ أقلَّ جزائه القتلُ؛ إن أمسكه المشركون مع رسول الله (ص) ؛ ولكنَّه كان يخشى على حياة الرَّسول الكريم (ص) ، وعلى مستقبل الإسلام؛ إن وقع الرَّسول (ص) في قبضة المشركين[(٢٧٦)].

ويظهر الحسُّ الأمنيُّ الرَّفيع للصِّدِّيق في هجرته مع النَّبيِّ (ص) ، في مواقف كثيرةٍ؛ منها: حين أجاب السَّائل: مَنْ هذا الرَّجل الَّذي بين يديك؟ فقال: هذا هادٍ يهديني السَّبيل ، فظنَّ السائل بأنَّ الصِّدِّيق يقصد الطريق ، وإنَّما كان يقصد سبيل الخير. [البخاري (٣٩١)][(٢٧٧)] ، وهذا يدلُّ على حسن استخدام أبي بكرٍ للمعاريض فراراً من الكذب[(٢٧٨)] ، وفي إجابته للسَّائل توريةٌ ، وتنفيذٌ للتَّربية الأمنيَّة؛ الَّتي تلقَّاها من رسول الله (ص) ؛ لأنَّ الهجرة كانت سرّاً ، وقد أقرَّه الرَّسول (ص) على ذلك[(٢٧٩)].

وفي موقف عليِّ بن أبي طالبٍ مثالٌ للجنديِّ الصَّادق المخلص لدعوة الإسلام؛ حيث فدى قائده بحياته ، ففي سلامة القائد سلامةٌ للدَّعوة ، وفي هلاكه خذلانها ، ووهنها ، وهذا ما فعله عليٌّ رضي الله عنه ليلة الهجرة؛ من بياته على فراش الرَّسول (ص) ؛ إذ كان من المحتمل أن تهوي سيوف فتيان قريش على رأس عليٍّ رضي الله عنه ، ولكنَّ عليّاً رضي الله عنه لم يبالِ بذلك ، فحسبه أن يَسْلَم رسول الله (ص) نبيُّ الأمَّة ، وقائد الدَّعوة[(٢٨٠)].

١٢ . فنُّ قيادة الأرواح ، وفنُّ التَّعامل مع النُّفوس:

يظهر الحبُّ العميق؛ الَّذي سيطر على قلب أبي بكرٍ لرسول الله (ص) في الهجرة ، كما يظهر حبُّ سائر الصَّحابة أجمعين في سيرة الحبيب المصطفى (ص) ، وهذا الحبُّ الرَّبَّانيُّ كان نابعاً من القلب وبإخلاصٍ ، لم يكن حبَّ نفاقٍ ، أو نابعاً من مصلحة دنيويَّةٍ ، أو رغبةٍ في منفعةٍ ، أو رهبةٍ لمكروه قد يقع ، ومن أسباب هذا الحبِّ لرسول الله (ص) صفاته القياديَّة الرَّشيدة ، فهو يسهر؛ ليناموا ، ويتعب؛ ليستريحوا ، ويجوع؛ ليشبعوا ، كان يفرح لفرحهم ، ويحزن لحزنهم ، فمن سلك سنن الرَّسول (ص) مع صحابته ، في حياته الخاصَّة والعامَّة ، وشارك النَّاس في أفراحهم ، وأتراحهم ، وكان عمله لوجه الله ، أصابه شيءٌ من هذا الحبِّ؛ إنْ كان من الزُّعماء أو القادة أو المسؤولين في أمَّة الإسلام[(٢٨١)].

وصدق الشَّاعر اللِّيبيُّ عندما قال:

فَإِذَا أَحَبَّ اللهُ بَاطِنَ عبدِهِظَهَرَتْ عَلَيْهِ مَوَاهِبُ الفَتَّاحِ

وإِذَا صَفَتْ للهِ نِيَّةُ مُصْلِحٍمَالَ العِبَادُ عَلَيْهِ بالأَرْوَاحِ[(٢٨٢)]

إنَّ القيادة الصَّحيحة هي الَّتي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كلِّ شيءٍ ، وتستطيع أن تتعامل مع النُّفوس قبل غيرها ، وعلى قدر إحسان القيادة ، يكون إحسان الجنود ، وعلى قدر البذل من القيادة يكون الحبُّ من الجنود ، فقد كان (ص) رحيماً ، وشفيقاً بجنوده ، وأتباعه ، فهو لم يهاجر إلا بعد أن

هاجر معظم أصحابه ، ولم يبقَ إلا المستضعفون ، والمفتونون ، ومن كانت له مهمَّاتٌ خاصَّةٌ بالهجرة[(٢٨٣)].

١٣ . وفي الطَّريق أسلم بُريدة الأسْلَمِيُّ رضي الله عنه في ركبٍ من قومه:

إنَّ المسلم الَّذي تغلغلت الدَّعوة في شغاف قلبه ، لا يفتر لحظة واحدةً عن دعوة النَّاس إلى دين الله تعالى ، مهما كانت الظُّروف قاسيةً ، والأحوال مضطربةً ، والأمن مفقوداً؛ بل ينتهز كلَّ فرصةٍ مناسبةٍ لتبليغ دعوة الله تعالى ، فهذا نبيُّ الله تعالى يوسف عليه السلام حينما زُجَّ به في السِّجن ظُلْماً ، واجتمع بالسُّجناء في السِّجن لم يندُبْ حظَّهُ ، ولم تشغله هذه الحياة المظلمة عن دعوة التَّوحيد ، وتبليغها للنَّاس ، ومحاربة الشِّرك ، وعبادة غير الله ، والخضوع لأيِّ مخلوقٍ.

قال تعالى: {قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ *وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ *يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ *مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *} [يوسف: ٣٧ . ٤٠] .

وسورة يوسف عليه السلام مكِّيَّة ، وقد أمر الله تعالى رسوله محمَّداً (ص) أن يقتدي بالأنبياء والمرسلين في دعوته إلى الله؛ ولذلك نجده (ص) في هجرته من مكَّة إلى المدينة . وقد كان مطارداً من المشركين ، قد أهدروا دمه ، وأغروا المجرمين منهم بالأموال الوفيرة ، ليأتوا برأسه حيّاً أو ميتاً . لا ينسى مهمَّته ، ورسالته ، فقد لقي (ص) في طريقه رجلاً يقال له: بُرَيْدة بن الحُصَيب الأسلميُّ رضي الله عنه ، في رَكْبٍ من قومه ، فدعاهم إلى الإسلام ، فامنوا ، وأسلموا[(٢٨٤)].

وذكر ابن حجرٍ العسقلانيُّ . رحمه الله .: «أنَّ النبي (ص) في طريق هجرته إلى المدينة لقي بُريدة بن الحُصَيْب بن عبد الله بن الحارث الأسلميَّ ، فدعاه إلى الإسلام ، وقد غزا مع الرَّسول (ص) ست عَشْرَة غَزْوة[(٢٨٥)] ، وأصبح بُرَيْدَةُ بعد ذلك من الدُّعاة إلى الإسلام ، وفتح الله لقومه «أسْلَم» على يديه أبوابَ الهداية ، واندفعوا إلى الإسلام ، وفازوا بالوسام النَّبويِّ؛ الَّذي نتعلَّم

منه منهجاً فريداً في فقه النُّفوس[(٢٨٦)]. قال (ص) : «أَسْلَمُ سالمها الله ، وغِفَارُ غَفَرَ الله لها ، أَما إِنِّي لم أَقُلْهَا، ولكنْ قالها اللهُ» [البخاري (٣٥١٤) ومسلم (٢٥١٦)] .

١٤ . وفي طريق الهجرة أسلم لصَّان على يدي رسول الله (ص):

كان في طريقه (ص) بالقرب من المدينة لصَّان من أَسْلم ، يقال لهما: المهَانَانِ ، فقصدهما (ص) ، وعرض عليهما الإسلام ، فأسلما ، ثمَّ سألهما عن اسميهما ، فقالا: نحن المهانان ، فقال: بل أنتما المكْرمان ، وأمرهما أن يقدما عليه المدينة [أحمد (٧٤/٤)] وفي هذا الخبر يظهر اهتمامه (ص) بالدَّعوة إلى الله؛ حيث اغتنم فرصةً في طريقه ، ودعا اللِّصَّين إلى الإسلام ، فأسلما ، وفي إسلام هذين اللِّصين مع ما ألفاه من حياة البطش ، والسَّلب ، والنَّهب دليلٌ على سرعة إقبال النُّفوس على اتِّباع الحقِّ؛ إذا وجد مَنْ يمثِّله بصدقٍ وإخلاصٍ ، وتجرَّدت نفس السَّامع من الهوى المنحرف ، وفي اهتمام الرَّسول (ص) بتغيير اسمي هذين اللِّصين ، من المهَانَيْن إلى المكْرَمَيْن دليلٌ على اهتمامه (ص) بسمعة المسلمين ، ومراعاته مشاعرهم ، إكراماً لهم ، ورفعاً لمعنوياتهم.

وإنَّ في رفع معنوية الإنسان تقويةً لشخصيته ، ودفعاً له إلى الأمام؛ ليبذل كل طاقته في سبيل الخير ، والفلاح[(٢٨٧)].

١٥ . الزُّبير ، وطلحة رضي الله عنهما ، والتقاؤهما برسول الله (ص) في طريق الهجرة:

وممَّا وقع في الطَّريق إلى المدينة: أنَّه (ص) لقي الزُّبير بن العوَّام في ركبٍ من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشَّام ، فكسا الزُّبيرُ رسولَ الله (ص) وأبا بكر ثياباً بيضاء. [البخاري (٣٩٠٦) والبيهقي في الدلائل (٤٩٨/٢)][(٢٨٨)] ، وكذا روى أصحاب السِّيَر: أنَّ طلحة بن عبيد الله لقيهما أيضاً وهو عائد من الشَّام ، وكساهما بعض الثِّياب [البيهقي في الدلائل (٤٩٨/٢)][(٢٨٩)] .

١٦ . أهمِّيَّة العقيدة والدِّين في إزالة العداوة والضَّغائن:

إنَّ العقيدة الصَّحيحة السَّليمة، والدِّين الإسلاميَّ العظيم لهما أهمِّيَّةٌ كبرى في إزالة العداوات، والضَّغائن ، وفي التَّأليف بين القلوب والأرواح ، وهو دورٌ لا يمكن لغير العقيدة الصَّحيحة أن تقوم به ، وهاقد رأينا كيف جمعت العقيدة الإسلاميَّة بين الأوس ، والخزرج ، وأزالت اثار معارك استمرَّت عقوداً من الزَّمن، وأغلقت ملف ثاراتٍ كثيرةٍ في مدَّةٍ قصيرةٍ، بمجرَّد

التَّمسُّك بها ، والمبايعة عليها ، وقد رأينا ما فعلته العقيدة في نفوس الأنصار ، فقد استقبلوا المهاجرين بصدورٍ مفتوحةٍ، وتاخوا معهم في مثاليَّةٍ نادرةٍ، لا تزال مثارَ الدَّهشة، ومضرب المثل، ولا توجد في الدُّنيا فكرةٌ ، أو شعارٌ اخر فعل مثلما فعلت عقيدة الإسلام الصَّافية في النُّفوس.

ومن هنا ندرك السِرَّ في سعي الأعداء الدَّائب إلى إضعاف هذه العقيدة ، وتقليل تأثيرها في نفوس المسلمين ، واندفاعهم المستمرِ نحو تزكية النَّعرات العصبيَّة ، والوطنيَّة ، والقوميَّة ، وغيرها ، وتقديمها كبديلٍ للعقيدة الصَّحيحة[(٢٩٠)].

١٧ ـ فرحة المهاجرين والأنصار بوصول النَّبيّ (ص):

كانت فرحة المؤمنين من سكان يثرب؛ من أنصارٍ ، ومهاجرين بقدوم رسول الله (ص) ووصوله إليهم سالماً فرحةً أخرجت النِّساء من بيوتهنَّ ، والولائد ، وحملت الرِّجال على ترك أعمالهم ، وكان موقف يهود المدينة ، موقف المشارك لسكَّانها في الفرحة ظاهراً ، والمتألِّم من منافسة الزَّعامة الجديدة باطناً ، أمَّا فرحة المؤمنين بلقاء رسولهم؛ فلا عجب فيها ، فهو الَّذي أخرجهم من الظُّلمات إلى النُّور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، وأما موقف اليهود ، فلا غرابة فيه؛ فهم الذين عُرِفوا بالملق ، والنِّفاق للمجتمع؛ الَّذي فقدوا السَّيطرة عليه ، وبالغيظ ، والحقد الأسود ممَّن يسلبهم زعامتهم على الشُّعوب ، ويَحُول بينهم وبين سلب أموالهم باسم القروض ، وسفك دمائها باسم النُّصح ، والمشورة ، وما زال اليهود يحقدون على كلِّ من يخلِّص الشُّعوب من سيطرتهم ، وينتهون من الحقد إلى الدَّسِّ ، والمؤامرات ، ثمَّ إلى الاغتيال إن استطاعوا ، ذلك دينهم ، وتلك جِبلَّتُهم[(٢٩١)].

ويستفاد من استقبال المهاجرين والأنصار لرسول الله (ص) ، مشروعية استقبال الأمراء والعلماء عند مقدمهم ، بالحفاوة والإكرام ، فقد حدث ذلك لرسول الله (ص) ، وكان هذا الإكرام ، وهذه الحفاوة ، نابعين من حبٍّ للرسول (ص)؛ بخلاف ما نراه من استقبال الزعماء والحكام في عالمنا المعاصر ، ويستفاد كذلك التنافس في الخير ، وإكرام ذوي العلم والشرف ، فقد كانت كل قبيلة تحرص أن تستضيف رسولَ الله (ص) ، وتعرض أن يكون رجالها حُراساً له ، ويؤخذ من هذا ، إكرام العلماء والصالحين ، واحترامهم وخدمتهم[(٢٩٢)].

١٨ ـ مقارنة بين الهجرة ، والإسراء والمعراج:

كانت الهجرة النَّبويَّة الشَّريفة على النَّحو الَّذي كانت عليه ، وسارت على الوضع الَّذي يسلكه كلُّ مهاجرٍ؛ حتَّى توجد القدوة ، وتتحقَّق الأسوة ، ويسير المسلمون على نهجٍ مألوفٍ ، وسبيلٍ معروفٍ ، ولذلك ، فلم يرسلِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له (ص) البراق ليهاجر عليه ـ كما حدث في ليلة الإسراء ـ مع أنَّ الرَّسول (ص) في يوم هجرته أحوج إلى البراق منه في أيِّ وقتٍ اخر؛ لأنَّ القوم يتربَّصون به هنا ، ولم يكن هناك تربُّص في ليلة الإسراء ، ولو ظفروا به في هجرته؛ لشفوا نفوسهم منه بقتله.

والحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ: أنَّ الهجرة كانت مرحلةً طبيعيَّةً من مراحل تطوُّر الدَّعوة ، ووسيلةً من أهمِّ وسائل نشرها ، وتبليغها ، ولم تكن خاصةً برسول الله (ص) ؛ بل كان غيره من المؤمنين مكلَّفين بها ، حين قطع الإسلام الولاية[(٢٩٣)] بين المهاجرين وغير المهاجرين القادرين على الهجرة.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلاَيَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *} [الأنفال: ٧٢] .

أمَّا رحلة الإسراء ، والمعراج ، فكانت رحلةَ تشريفٍ ، وتقديرٍ ، كما كانت إكراماً من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لنبيِّه (ص) ؛ ليطلعه على عالم الغيب ، ويريه من اياته الكبرى ، فالرِّحلة من أولها إلى اخرها خوارق ، ومعجزاتٌ ، ومشاهد للغيبيَّات ، فناسب أن تكون وسيلتها مشابهةً لغايتها.

زِدْ على ذلك: أنَّ رحلة الإسراء خصوصيَّةٌ للرسول (ص) ، وليس لأحدٍ من النَّاس أن يتطلَّع لمثلها ، ولسنا مطالبين بالاقتداء به فيها ، ولذا فإنَّ حصولها على النَّحو؛ الَّذي كانت عليه ، هو أنسب الأوضاع لحدوثها[(٢٩٤)].

١٩ ـ وضوح سنَّة التَّدرُّج:

حيث نلاحظ: أنَّ رسول الله (ص) عندما تقابل مع طلائع الأنصار الأولى ، لم يفعل سوى ترغيبهم في الإسلام ، وتلاوة القران عليهم ، فلمَّا جاؤوا في العام التالي ، بايعهم بيعة النِّساء على العبادات ، والأخلاق ، والفضائل ، فلمَّا جاؤوا في العام التالي؛ كانت بيعة العقبة الثَّانية على الجهاد ، والنَّصر ، والإيواء[(٢٩٥)].

وجديرٌ بالملاحظة: أنَّ بيعة الحرب لم تتمَّ إلا بعد عامين كاملين ، أي بعد تأهيلٍ ، وإعدادٍ

استمرَّ عامين كاملين ، وهكذا تمَّ الأمر على تدرُّجٍ ينسجم مع المنهج التَّربويِّ الَّذي نهجت عليه الدَّعوة من أوَّل يومٍ[(٢٩٦)].

إنَّه المنهج الَّذي هدى الله نبيَّه (ص) إلى التزامه ، ففي البيعة الأولى ، بايعه هؤلاء الأنصار الجدد على الإسلام؛ عقيدةً ، ومنهاجاً ، وتربية ، وفي البيعة الثانية ، بايعه الأنصار على حماية الدَّعوة ، واحتضان المجتمع الإسلاميِّ؛ الذي نضجت ثماره ، واشتدَّت قواعده قوَّةً وصلابةً.

إنَّ هاتين البيعتين أمران متكاملان ضمن المنهج التَّربويّ للدَّعوة الإسلاميَّة ، وإنَّ الأمر الأول هو المضمون ، والأمر الثاني ـ وهو بيعة الحرب ـ هو السِّياج الَّذي يحمي ذلك المضمون ، نعم كانت بيعة الحرب بعد عامين من إعلان القوم الإسلام ، وليس فور إعلانهم.

بعد عامين؛ إذ تمَّ إعدادهم حتَّى غدوا موضع ثقةٍ، وأهلاً لهذه البيعة، ويلاحظ: أنَّ بيعة الحرب لم يسبق أن تمَّت قبل ذلك اليوم مع أيِّ مسلم؛ إنَّما حصلت عندما وجدت الدَّعوة في هؤلاء الأنصار ، وفي الأرض الَّتي يقيمون فيها المعقل الملائم؛ الَّذي ينطلق منه المحاربون؛ لأنَّ مكَّة لوضعها عندئذٍ لم تكن تصلح للحرب[(٢٩٧)].

وقد اقتضت رحمة الله بعباده «ألاَّ يُحَمِّلَهم واجبَ القتال إلى أن توجد لهم دار إسلام ، تكون لهم بمثابة معقلٍ يأوون إليه ، ويلوذون به ، وقد كانت المدينة المنوَّرة أوَّل دار إسلامٍ»[(٢٩٨)].

لقد كانت البيعة الأولى قائمةً على الإيمان بالله ، ورسوله (ص) ، والبيعة الثَّانية على الهجرة ، والجهاد ، وبهذه العناصر الثلاثة: الإيمان بالله ، والهجرة ، والجهاد ، يتحقَّق وجود الإسلام في واقع جماعيٍّ ممكنٍ ، والهجرة لم تكن لتتمَّ لولا وجود الفئة المستعدَّة للإيواء؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلاَيَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *} [الأنفال: ٧٢] .

وقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *} [الأنفال: ٧٥] .

وقد كانت بيعة الحرب هي التَّمهيد الأخير لهجرة النَّبيِّ (ص) وأصحابه إلى المدينة، وبذلك وَجَدَ الإسلامُ موطنَه؛ الَّذي ينطلق منه دعاةُ الحقِ بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وتنطلق منه جحافل الحقِّ المجاهدة أوَّل مرَّةٍ ، وقامت الدَّولة الإسلاميَّة المحكِّمة لشرع الله[(٢٩٩)].

٢٠ ـ الهجرة تضحيةٌ عظيمةٌ في سبيل الله:

كانت هجرة النَّبيِّ (ص) وأصحابه من البلد الأمين تضحيةً عظيمةً ، عبَّر عنها النَّبيُّ (ص) بقوله: «والله! إنك لخير أرض الله ، وأحبُّ أرض الله إلى الله ، ولولا أنِّي أُخرِجت منك ما خرجتُ» [أحمد (٤/٣٠٥) والترمذي (٣٩٢٥) وابن ماجه (٣١٠٨)] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قدم رسول الله (ص) المدينة؛ قدمها ، وهي أوبأ أرض الله من الحمَّى ، وكان واديها يجري نجلاً ـ يعني ماءً اجناً ـ فأصاب أصحابَه منها بلاءٌ ، وسقمٌ ، وصرف الله ذلك عن نبيِّه ، قالت: فكان أبو بكر ، وعامر بن فهيرة ، وبلال ، في بيتٍ واحدٍ ، فأصابتهم الحمَّى ، فاستأذنتُ رسولَ الله (ص) في عيادتهم ، فأذن ، فدخلت إليهم أعودهم ، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب ، وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدَّة الوعك[(٣٠٠)] ، فدنوت من أبي بكرٍ ، فقلت: يا أبتِ كيف تجدُك؟ فقال:

كلُّ امْرِأىَ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِوالموْتُ أَدْنَىَ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

قالت: فقلت: والله! ما يدري أبي ما يقول ، ثم دنوت من عامر بن فهيرة ، فقلت: كيف تجدُك يا عامر؟! فقال:

لَقَدْ وَجَدْتُ الموْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِإنَّ الجَبَانَ حَتْفُهُ منْ فَوْقِهِ

كُلُّ امْرِأىٍ مُجَاهِدٌ بِطَوْقِهِ[(٣٠١)]كالثَّوْرِ يَحْمِي جِلْدَهُ بِرَوْقِهِ[(٣٠٢)]

قالت: فقلت: والله! ما يدري عامر ما يقول. قالت: وكان بلال إذا أقلع عنه الحمَّى ، اضطجع بفناء البيت ، ثمَّ يرفع عقيرته[(٣٠٣)] ، ويقول:

ألا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيْتَنَّ لَيْلَةًبِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ[(٣٠٤)] وجَلِيْلُ

وهَلْ أَرِدَنْ يَوْماً مِيَاهَ مَجَنَّةٍوَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شامَةٌ وَطَفِيْلُ[(٣٠٥)]

قالت: فأخبرت رسولَ الله (ص) بذلك ، فقال: «اللهمَّ! حبِّبْ إلينا المدينة ، كما حببت إلينا مكَّة ، أو أشدَّ ، وانقل حُمَّاها إلى الجُحْفَةِ. اللَّهمَّ! باركْ لنا في مُدِّنا ، وصاعنا» [البخاري (١٨٨٩) ومسلم (١٣٧٦)] .

وقد استجاب الله دعاء نبيِّه (ص) ، وعُوفي المسلمون بعدها من هذه الحمَّى ، وغدت المدينة موطناً ممتازاً لكلِّ الوافدين ، والمهاجرين إليها ، من المسلمين على تنوُّع بيئاتهم ، ومواطنهم[(٣٠٦)].

٢١ ـ مكافأة النَّبيِّ (ص) لأمِّ معبد:

وقد روي: أنَّها كثرت غنمها ، ونمت؛ حتَّى جلبت منها جَلَباً إلى المدينة ، فمرَّ أبو بكر ، فراه ابنها فعرفه ، فقال: يا أُمَّه! هذا هو الرَّجل الَّذي كان مع المبارك.

فقامت إليه فقالت: يا عبد الله! مَنِ الرَّجل الَّذي كان معك؟ قال: أو ما تدرين من هو؟! قالت: لا! قال: هو نبيُّ الله ، فأدخلها عليه ، فأطعمها رسولُ الله (ص) ، وأعطاها ، وفي روايةٍ: فانطلقت معي ،

وأهدت لرسول الله (ص) شيئاً من أقطٍ ، ومتاع الأعراب ، فكساها ، وأعطاها ، قال: ولا أعلمه إلا قال: وأسلمت ، وذكر صاحب (الوفاء): أنَّها هاجرت هي وزوجها ، وأسلم أخوها خُنَيْس ، واستشهد يوم الفتح[(٣٠٧)].

٢٢ ـ أبو أيُّوبٍ الأنصاريُّ رضي الله عنه ومواقف خالدة:

قال أبو أيوب الأنصاريُّ رضي الله عنه: «لما نزل عليَّ رسول الله (ص) في بيتي؛ نزل في السُّفْل ، وأنا وأمُّ أيوبٍ في العُلْو ، فقلت له: يا نبيَّ الله ـ بأبي أنت ، وأمي! إنِّي لأكره وأُعْظِمُ أن أكون فوقك ، وتكون تحتي ، فاظْهَرْ أنت ، فكن في العلوِ ، وننزل نحن فنكون في السُّفل ، فقال: يا أبا أيوب! إنَّ أرفق بنا ، وبمن يغشانا أن نكون في سُفْل البيت.

قال: فلقد انكسر حُبٌّ[(٣٠٨)] لنا فيه ماءٌ ، فقمت أنا ، وأمُّ أيوب بقطيفة لنا ، مالنا لحاف غيرها ، ننشِّفُ بها الماء؛ تخوفاً أن يقطر على رسول الله (ص) منه شيءٌ ، فيؤذيه» [ابن هشام (١٤٤/٢)][(٣٠٩)] .

٢٣ ـ هجرة عليٍّ رضي الله عنه وأمره بالمعروف ، ونهيه عن المنكر في المجتمع الجديد:

بعد أن أدَّى عن رسول الله (ص) الأمانات الَّتي كانت عنده للنَّاس لحق برسول الله (ص) ، وأدركه بقُباء بعد وصوله بليلتين ، أو ثلاثٍ ، فكانت إقامته بقُباء ليلتين ، ثمَّ خرج مع النَّبيِّ (ص)

إلى المدينة يوم الجمعة[(٣١٠)] ، وقد لاحظ سيِّدنا عليٌّ مدَّة إقامته بقُباء امرأةً مسلمة لا زوج لها ، ورأى إنساناً يأتيها من جوف اللَّيل ، فيضرب عليها بابها ، فتخرج إليه ، فيعطيها شيئاً معه ، فتأخذه ، قال: فاستربت بشأنه ، فقلت لها: يا أمةَ الله! مَنْ هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كلَّ ليلةٍ فتخرجين إليه ، فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو! وأنت امرأةٌ مسلمةٌ لا زوج لك؟ قالت: هذا سهلُ بن حُنيف ، قد عرف أني امرأةٌ لا أحد لي ، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه ، فكسرها ، ثمَّ جاءني بها ، فقال: احتطبي بهذا ، فكان عليٌّ رضي الله عنه يأثر ذلك من أمر سهل بن حنيف ، حين هلك عنده بالعراق[(٣١١)].

٢٤ ـ الهجرة النَّبويَّة نقطة تحوُّلٍ في تاريخ الحياة:

«كانت الهجرة النَّبويَّة من مكَّة المشرَّفة إلى المدينة المنوَّرة أعظم حدثٍ حوَّل مجرى التَّاريخ ، وغيَّر مسيرة الحياة ، ومناهجها؛ التي كانت تحياها ، وتعيش محكومةً بها في صورة قوانين ، ونظمٍ ، وأعرافٍ ،

وعاداتٍ ، وأخلاقٍ ، وسلوكٍ للأفراد والجماعات ، وعقائد ، وتعبُّداتٍ ، وعلمٍ ، ومعرفةٍ ، وجهالةٍ ، وسفه ، وضلالٍ ، وهدًى ، وعدلٍ ، وظلمٍ»[(٣١٢)].

٢٥ ـ الهجرة من سنن الرُّسل الكرام:

إنَّ الهجرة في سبيل الله سنَّةٌ قديمة ، ولم تكن هجرة نبيِّنا محمَّدٍ (ص) بدعاً في حياة الرُّسل لنصرة عقائدهم ، فلئن كان قد هاجر من وطنه ، ومسقط رأسه من أجل الدَّعوة حفاظاً عليها ، وإيجاداً لبيئةٍ خصبةٍ تتقبلها ، وتستجيب لها ، وتذود عنها؛ فقد هاجر عددٌ من إخوانه من الأنبياء قبله من أوطانهم؛ للأسباب نفسها ، التي دعت نبيَّنا للهجرة.

وذلك: أنَّ بقاء الدَّعوة في أرضٍ قاحلةٍ لا يخدمها؛ بل يعوق مسارها ، ويشلُّ حركتها ، وقد يعرضها للانكماش داخل أضيق الدوائر ، وقد قصَّ علينا القران الكريم نماذج من هجرات الرُّسل ، وأتباعهم من الأمم الماضية؛ لتبدو لنا في وضوحٍ سنَّةٌ من سنن الله في شأن الدَّعوات ، يأخذ بها كلُّ مؤمن من بعدهم؛ إذا حيل بينه وبين إيمانه ، وعزَّته ، واستُخفَّ بكيانه ، ووجوده ، واعتُدِيَ على مروءته وكرامته[(٣١٣)].

هذه بعض الفوائد ، والعبر ، والدروس ، وأترك للقارأى الكريم أن يستخرج غيرها ، ويستنبط سواها من الدُّروس ، والعبر ، والفوائد الكثيرة النَّافعة من هذا الحدث العظيم.

* * *

المبحث الثَّاني

الثَّناء على المهاجرين بأوصافٍ حميدةٍ ، والوعد لمن هاجر منهم ، والوعيد لمن تخلَّف

تُعَدُّ الهجرةُ النَّبويَّة المباركة من مكَّة إلى المدينة أهمَّ حدثٍ في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة؛ إذ كانت نقطة تحوُّل في تاريخ المسلمين؛ فقد كان المسلمون قبل الهجرة أمَّة دعوةٍ ، يبلغون دعوة الله للنَّاس ، دون أن يكون لهم كيانٌ سياسيٌّ ، يحمي الدَّعاة ، أو يدفع عنهم الأذى من أعدائهم.

وبعد الهجرة تكوَّنت دولة الدَّعوة ، هذه الدَّولة الَّتي أخذت على عاتقها نشر الإسلام ، في داخل الجزيرة العربيَّة وخارجها ، ترسل الدُّعاة إلى الأمصار ، وتتكفَّل بالدِّفاع عنهم ، وحمايتهم من أيِّ اعتداءٍ قد يقع عليهم ، ولو أدَّى ذلك إلى قيام حربٍ ، أو حروبٍ[(٣١٤)].

وبجانب هذا ، فإنَّ الهجرة النَّبويَّة لها مكانتها في فهم القران وعلومه؛ حيث فرَّق العلماء بين المكِّيِّ ، والمدنيّ؛ فالمكِّيّ: ما نزل قبل الهجرة . وإن كان بغير مكَّة . والمدني: ما نزل بعد الهجرة . وإن كان بغير المدينة . وترتَّب على ذلك فوائد؛ من أهمِّها:

١ . تذوُّق أساليب القران الكريم ، والاستفادة منها في أسلوب الدَّعوة إلى الله.

٢ . الوقوف على السِّيرة النَّبويَّة من خلال الايات القرانيَّة[(٣١٥)].

ولأهمية الهجرة النَّبويَّة نرى: أنَّ القران الكريم حثَّ المؤمنين على الهجرة في سبيل الله بأساليب متنوعةٍ ، مرَّةً بالثَّناء على المهاجرين بأوصافٍ حميدةٍ ، وأخرى بالوعد للمهاجرين ، وتارةً بالوعيد للمتخلِّفين عن الهجرة[(٣١٦)].

أولاً: الثناء على المهاجرين بأوصافٍ حميدةٍ:

أثنى الله . سبحانه وتعالى . على المهاجرين في القران الكريم ، ووصفهم بأوصافٍ حميدةٍ متميِّزةٍ؛ وذلك لأنَّهم أُخرِجوا من ديارهم ، وأموالهم ، أكرههم على الخروج الأذى ،

والاضطهاد ، والتنكُّر لهم من قرابتهم ، وعشيرتهم في مكَّة ، وما أُخرِجوا إلا أن يقولوا ربُّنا الله ، فمن أهمِّ الصِّفات المميِّزة للمهاجرين[(٣١٧)]:

١ . الإخلاص:

قال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *} [الحشر: ٨]؛ قوله تعالى: يدلُّ على أنَّهم لم يخرجوا من {يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً} ، وأموالهم إلا أن يكونوا مخلصين لله ، مبتغين مرضاته ، ورضوانه[(٣١٨)].

٢ . الصَّبر:

ومن صفات المهاجرين ، وأخلاقهم المتميِّزة؛ الَّتي أثنى الله عليهم بها الصَّبر. قال تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *الَّذِينَ صَبَرُوا

وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *} [النحل: ٤١ ، ٤٢] ، وقال عزَّ وجلَّ: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ *} [النحل: ١١٠] .

٣ . الصِّدق:

ومن الصفات الحميدة الَّتي أثنى الله . سبحانه وتعالى . بها على المهاجرين الصِّدق. قال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *} [الحشر: ٨] .

قال البغويُّ في تفسيره قوله: {وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *} أي: في إيمانهم. قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الَّذين تركوا الدِّيار ، والأموال ، والعشائر ، وخرجوا حبّاً لله ، ولرسوله (ص) ، واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدَّةٍ ، حتَّى ذُكِر لنا: أنَّ الرَّجل كان يعصب الحجر على بطنه؛ ليقيم به صلبه من الجوع ، وكان الرَّجل يتَّخذ الحصيرة في الشِّتاء ، ما له من دثارٍ غيرها[(٣١٩)].

٤ . الجهاد والتَّضحية:

قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ *} [التوبة: ٢٠] .

تركَّزت دعوة الرُّسل على التَّضحية ، والفداء؛ إذ إنَّها تواجه عناداً ، وتكذيباً وعداءً مستحكماً ، وهذا لابدَّ من مواجهته بصلابة عودٍ ، وقوَّة إيمانٍ ، ورسوخ عقيدةٍ ، وعظيم بذل ، والحياة في ظلِّ العقيدة حياةُ جهادٍ وكفاحٍ ، ومنذ مطلع الدَّعوة كان نزول جبريل بالوحي إيذاناً لرسول الله (ص) بإيذاء قومه؛ حيث قال له ورقة بن نوفل: «هذا النَّاموسُ الَّذي أُنزل على موسى. يا ليتني فيها جَذَعاً[(٣٢٠)]! يا ليتني أكون حيّاً حين يخرجك قومك! فقال رسول الله (ص) : «أوَمخرجيَّ هم؟» فقال ورقة: «نعم ، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بما جئتَ به إلا عُودي ، وإن يُدركْني يومُك؛ أنصرك نصراً مؤزَّراً» [البخاري (٣) ومسلم (١٦٠)] .

وقد اشتمل حدث الهجرة على أنواعٍ من التَّضحية ، والفداء ، وبذل النَّفس ، والمال في سبيل الله[(٣٢١)].

ولعلَّ الملاحظة الجديرة بالتأمُّل في هذا المجال: أنَّ التَّضحية ملازمةٌ للجهاد في سبيل الله؛ إذ لا جهاد دون تضحيةٍ[(٣٢٢)].

٥ . نصرُهم لله ورسوله (ص):

قال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *} [الحشر: ٨] .

امتدح الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه الاية الكريمة المهاجرين ، بأنهم ينصرون الله ورسوله؛ ذلك لأنَّهم ما خرجوا من بين الكفار مراغمين لهم ، مهاجرين إلى المدينة إلا لنصرة الله تعالى ، ورسوله (ص) .

ونَصْرُ الله شرطٌ لتحقيق النَّصر ، والتثبيت. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ *} [محمد: ٧] .

قال سيِّد قطب: وكيف يَنْصُرُ المؤمنون الله؛ حتَّى يقوموا بالشَّرط ، وينالوا ما شرط لهم من النَّصر ، والتثبيت؟

إنَّ للهِ في نفوسهم أن تتجرَّد له ، وألا تشرك به شيئاً شركاً ظاهراً ، أو خفيّاً ، وألا تستبقي فيها معه أحداً ، ولا شيئاً ، وأن يكون الله أحبَّ إليها من ذاتها ، ومن كلِّ ما تحبُّ وتهوى ، وأن تحكِّمَه في رغباتها ، ونزواتها ، وحركاتها ، وسكناتها ، وسرِّها وعلانيتها ، ونشاطها كلِّه ، وخلجاتها ، فهذا نصر الله في ذوات النُّفوس.

وإنَّ للهِ شريعةً ، ومنهاجاً للحياة ، تقوم على قواعد ، وموازين ، وقيمٍ ، وتصوُّر خاصٍّ للوجود كلِّه، وللحياة ، ونصرُ الله يتحقَّق بنصرة شريعته ، ومنهاجه ، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلِّها بدون استثناءٍ ، فهنا نصر الله في واقع الحياة[(٣٢٣)].

٦ ـ التوكُّل على الله عزَّ وجلَّ:

قال تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *} [النحل: ٤١ ـ ٤٢] يمتدح الله ـ سبحانه وتعالى ـ المهاجرين ، بأنَّهم يتوكَّلون على الله لا على غيره ، والتوكُّل على الله خاصِّيَّةُ الإيمان ، وعلامته ، وهو منطق الإيمان ، ومقتضاه. قال تعالى: {قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *}[المائدة: ٢٣] .

وقال تعالى: {وَقَالَ مُوسَى ياقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ *} [يونس: ٨٤] .

وقال الله تعالى: {قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *} [إبراهيم: ١١] .

وقد ضرب رسول الله (ص) ، وصحابتُه الكرام مثالاً يُقتدى به على مرِّ الدُّهور في ترجمة التَّوكُّل في واقع الحياة في حادثة الهجرة ، ولحسن توكِّلهم على الله . سبحانه وتعالى . أثنى عليهم ، وجزاهم أحسن الجزاء[(٣٢٤)].

٧ . الرَّجاء:

ومن صفات المهاجرين الحميدة؛ الَّتي مدحهم الله بها: الرَّجاء. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [البقرة: ٢١٨] .

وإنَّما قال: وقد مدحهم؛ لأنَّه {يَرْجُونَ} يعلم أحدٌ في هذه الدُّنيا: أنَّه صائر إلى الجنَّة ، ولو بلغ في طاعة الله كلَّ مبلغٍ لأمرين: أحدهما: أنَّه لا يدري بما يُختم له ، والثَّاني: لئلا يتَّكل على عمله ، فهؤلاء قد غفر الله لهم ، ومع ذلك يرجون رحمة الله ، وذلك زيادة إيمانٍ منهم[(٣٢٥)].

٨ . اتِّباع الرَّسول (ص):

وممَّا يدلُّ على أنَّ الهجرة لها مكانةٌ عظيمةٌ في القران الكريم: أنَّ الله . سبحانه وتعالى . وصف المهاجرين ، وأنصارهم بأنَّهم يتَّبعون الرَّسول (ص) . قال تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [التوبة: ١١٧] فالمهاجرون، والأنصار ، هم الذين يتَّبعون الرَّسول (ص) ؛ في أقواله ، وأعماله؛ بل في ساعة العسرة ، ممَّا يدلُّ على أنَّهم يستحقُّون بذلك الدَّرجة العظمى ، والتَّوبة من الله عزَّ وجلَّ.

وقد نزلت هذه الاية في غزوة تبوك ، وذلك أنَّهم خرجوا إليها في شدَّةٍ من الأمر ، في سَنَةٍ مُجْدبةٍ ، وحرٍّ شديدٍ ، وعُسْرٍ في الزَّاد ، والماء.

قال قتادة: «خرجوا إلى الشَّام عام تبوك في لهبان الحرِّ ، على ما يعلم الله من الجهد ، أصابهم فيها جهدٌ شديدٌ ، حتَّى لقد ذُكِرَ لنا: أنَّ الرجلين كانا يشقَّان التَّمرة بينهما ، وكان النَّفر يتداولون التَّمرة بينهم؛ يمصُّها هذا ، ثمَّ يشرب عليها ، ثم يمصُّها هذا ، ثم يشرب عليها ، فتاب الله عليهم ، وأقفلهم[(٣٢٦)] من غزوتهم»[(٣٢٧)].

إنَّ اتِّباع الرَّسول (ص) يدلُّ على حقيقة الإيمان ، وحقيقة الدِّين ، ويفرِّق تفريقاً حاسماً بين الإيمان ، والكفر في جلاءٍ ، كما أنَّه دليلٌ على حبِّ الله ، وحبُّ الله ليس دعوى باللِّسان، ولا هياماً بالوجدان، إلا أنْ يُصاحبه الاتِّباع لرسول الله (ص) ، والسَّير على هداه ، وتحقيق منهجه في الحياة. إنَّ الإيمان ليس كلماتٍ تُقال ، ولا مشاعر تَجيش ، ولا شعائر تُقام ، ولكنَّه طاعةُ الله ، والرَّسول ، وعملٌ بمنهج الله؛

الَّذي يحمله الرَّسول (ص) . قال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ *} [آل عمران: ٣١ ـ ٣٢] .

قال ابن كثيرٍ في تفسيره للاية المذكورة: «هذه الاية الكريمة ، حاكمةٌ على كلِّ مَنِ ادَّعى محبَّة الله؛ وليس هو على الطَّريقة المحمَّدية؛ فإنَّه كاذبٌ في نفس الأمر ، حتَّى يتَّبع الشَّرع المحمَّديَّ ، والدِّين النَّبويَّ ، في جميع أقواله ، وأعماله[(٣٢٨)] ، كما ثبت في الصَّحيح عن رسول الله (ص) : أنَّه قال: «مَنْ عمل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ» [البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨)] .

٩ ـ حقُّ السَّبق في الإيمان والعمل:

قال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *} [التوبة: ١٠٠] .

قال الرَّازي: والسَّبق موجبٌ للفضيلة؛ فإقدامهم على هذه الأفعال يُوجِبُ اقتداء غيرهم بهم. قال (ص) : «من سنَّ في الإسلام سنَّةً حسنةً ، فله أجرُها ، وأجر من عمل بها ، إلى يوم القيامة» [أحمد (٤/٣٥٧ ـ ٣٥٨) ومسلم (١٠١٧) والترمذي (٢٦٧٥) والنسائي (٥/٧٥ ـ ٧٧) وابن ماجه (٢٠٣)]. فدواعي النَّاس تَقوى بما يرون من أمثالهم ، في أحوال الدِّين ، والدُّنيا ، وثبت بهذا: أنَّ المهاجرين هم رؤساء المسلمين وسادتهم[(٣٢٩)] .

وهكذا اختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ السَّابقين من المهاجرين ، من تلك العناصر الفريدة النَّادرة ، الَّتي تحتمل الضغوط ، والفتنة ، والأذى ، والجوع ، والغربة ، والعذاب ، والموت في أبشع الصُّور في بعض الأحيان؛ ليكونوا هم القاعدة الصُّلبة لهذا الدِّين في مكَّة ، ثمَّ ليكونوا هم القاعدة الصُّلبة لهذا الدِّين بعد ذلك في المدينة ، مع السَّابقين من الأنصار الذين وإن كانوا لم يصطلوا بها في أوَّل الأمر كما اصطلاها المهاجرون ، إلا أنَّ بيعتهم لرسول الله (ص) (بيعة العقبة) ، قد دلَّت على أنَّ عنصرهم ذو طبيعةٍ أصيلةٍ مكافئةٍ لطبيعة هذا الدِّين.

وبالمهاجرين ، والأنصار تكوَّنت للإسلام قاعدةٌ صلبةٌ من أصلب العناصر عوداً في المجتمع العربيِّ ، فأما العناصر الَّتي لم تحتمل هذه الضُّغوط؛ فقد فُتنت عن دينها ، وارتدَّت إلى الجاهليَّة مرَّةً أخرى ، وكان هذا النَّوع قليلاً ، فقد كان الأمر كلُّه معروفاً مكشوفاً من قبل ، فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من

الجاهليَّة إلى الإسلام ، وقطع الطريق الشَّائك الخطر المرهوب إلا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التَّكوين[(٣٣٠)]. وبذلك أيضاً تتَّضح لنا منزلة المهاجرين ، وعلوُّ طبقتهم في الفضل؛ حيث أنفقوا ، وقاتلوا؛ والعقيدة مطاردةٌ ، والأنصار قلَّةٌ ، وليس في الأفق ظلُّ منفعةٍ ، ولا سلطانٍ ، ولا رخاءٍ ، مما يدلُّ على أنَّهم لا يستوون مع غيرهم من الَّذين أنفقوا وقاتلوا بعد تلك الظُّروف الصَّعبة[(٣٣١)]. قال تعالى: {وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ *} [الحديد: ١٠].

وقد تحدَّث ابن كثيرٍ عن اية سورة التَّوبة؛ الَّتي بيَّنت فضل السَّابقين من المهاجرين ، والأنصار ، فقال: فقد أخبر الله العظيم: أنَّه قد رضي عن السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين ، والأنصار ، والذين اتَّبعوهم بإحسانٍ ، فيا ويل من أبغضهم ، أو سبَّهم أو أبغض ، أو سبَّ بعضهم ، ولا سيما سيِّد الصَّحابة بعد الرَّسول (ص) ؛ وخيرهم ، وأفضلهم ، أعني: الصِّديق الأكبر ، والخليفة الأعظم ، أبا بكرٍ بن أبي قحافة؛ فإنَّ الطَّائفة المخذولة من الرَّافضة يعادون أفضل الصَّحابة ، ويبغضونهم ، ويسبُّونهم ، عياذاً بالله من ذلك! وهذا يدلُّ على أنَّ عقولهم معكوسةٌ ، وقلوبهم منكوسةٌ ، فأين هؤلاء من الإيمان بالقران؛ إذ يسبُّون من رضي الله عنهم؟! وأمَّا أهل السُّنَّة فإنَّهم يترضَّون عمَّن رضي الله عنهم ، ويسبُّون من سبَّه الله ورسولُه ، ويوالون من يوالي الله ، ويعادون من يعادي الله ، وهم متَّبعون ، لا مبتدعون ، ويقتدون ، ولا يبتدعون؛ ولهذا هم حزب الله المفلحون ، وعباده المؤمنون[(٣٣٢)].

١٠ ـ الفوز:

قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ *} [التوبة: ٢٠] .

قال أبو السُّعود في تفسيره: قوله تعالى: أي: المختصُّون بالفوز {هُمُ الْفَائِزُونَ *} ، أو بالفوز المطلق ، كأنَّ فوز من عداهم ليس بفوزٍ بالنِّسبة إلى فوزهم[(٣٣٣)].

فهذا ثناءٌ من الله العليِّ العظيم ، على المهاجرين ، بأنَّهم يستحقُّون الفوز العظيم ، والفوز يكون عظيماً لأنَّه يأتي من مصدر العظمة ، وأيُّ فوزٍ أعظم من هذا الفوز! يخبرهم ربُّهم بأنَّهم من الفائزين في الاخرة ، وذلك بدخولهم الجنَّة ، وبُعْدهم عن النَّار. قال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ *} [آل عمران: ١٨٥] .

١١ ـ الإيمان الحقيقيُّ:

ومن هذه الصِّفات الحميدة؛ الَّتي أثنى الله على المهاجرين بها في كتابه الكريم صفة الإيمان الحقِّ. قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *} [الأنفال: ٧٤] .

فهذه شهادةٌ من الله العليم الخبير للمهاجرين بأنَّهم المؤمنون حقّاً ، فالمهاجرون رضي الله عنهم هم النَّموذج الحقيقيُّ؛ الَّذي يتمثَّل فيه الإيمان ـ بعد رسول الله (ص) ـ كما أنَّهم قدوةٌ حسنةٌ

لمن جاء بعدهم ، وصورةٌ حقيقيَّةٌ في ترجمة الصِّفات الحميدة في واقع الحياة ، فلذلك استحقُّوا هذا الثناء الرَّبانيَّ بأنَّهم المؤمنون حقّاً. قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *} [الأنفال: ٢ ـ ٤]. وهذه الصِّفات الحميدة تتمثَّل في حياة المهاجرين ، كما أنَّ المتَّصفين بهذه الصِّفات هم المؤمنون حقَّ الإيمان[(٣٣٤)].

ثانياً: الوعد للمهاجرين:

ذكر الله تعالى بعض النِّعم الَّتي وعد بها المهاجرين في الدُّنيا ، والاخرة؛ ومن هذه النِّعم:

١ ـ سعة رزق الله لهم في الدُّنيا:

قال تعالى: {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *} [النساء: ١٠٠] .

ومن سعة رزق الله لهم في الدُّنيا تخصيصهم بمال الفيء ، والغنائم. قال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *} [الحشر: ٨] فالمال لهؤلاء لأنَّهم أُخرجوا من ديارهم ، فهم أحقُّ النَّاس به[(٣٣٥)].

ومن سعة الله لهم في الرِّزق أن خلَّص الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الأنصار من شحِّ النفس ، ووسَّع صدورهم للمهاجرين. قال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [الحشر: ٩] .

إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعد المهاجرين سعة الرِّزق في الدُّنيا ، وتحقَّق ذلك الوعد الكريم؛ وذلك لأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في منهجه الرَّبانيِّ القراني يعالج هذه النَّفس في وضوحٍ وفصاحةٍ ، فلا يكتم عنها شيئاً من المخاوف ، ولا يداري عنها شيئاً من الأخطار ـ بما في ذلك خطر الموت ـ ولكنَّه يسكب فيها الطُّمأنينة بحقائق أخرى ، وبضمانة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فهو يحدِّد الهجرة بأنَّها «في سبيل الله» ، وهذه هي الهجرة المعتبرة في الإسلام ، فليست هجرةً للثَّراء ، أو هجرةً للنَّجاة من المتاعب ، أو هجرةً للذائذ والشَّهوات ، أو هجرةً لأيِّ عرضٍ من أعراض الحياة ، ومَنْ يهاجر هذه الهجرة في سبيل الله يجد في الأرض فسحةً ، ومنطلقاً ، فلا تضيق به الأرض ،

ولا يعدم الحيلة ، والوسيلة للنَّجاة ، وللرِّزق ، والحياة[(٣٣٦)]؛ لأنَّ الله سيكون في عونه ، ويسدِّد خطاه.

٢ ـ تكفير سيئاتهم ، ومغفرة ذنوبهم:

ومن النِّعم الَّتي وعد بها الله ـ سبحانه وتعالى ـ المهاجرين تكفيرُ سيِّئاتهم ، ومغفرة ذنوبهم. قال تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأَُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ *} [آل عمران: ١٩٥] .

وقد ورد عن رسول الله (ص) ، أحاديث كثيرةٌ تبيِّن: أنَّ الهجرة من أعظم الوسائل المكفِّرة للسَّيِّئات ، وأنَّها سببٌ لمغفرة ذنوب أهلها ، ومن هذه الأحاديث: عن ابن شماسة المهريِّ قال: حضَرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة[(٣٣٧)] الموت ، فبكى طويلاً ، وحوَّل وجهه إلى الجدار ، فجعل ابنُهُ يقول: يا أبتاهُ! أما بشَّرك رسول الله (ص) بكذا؟ أمَا بشَّرك رسول الله (ص) بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه ، فقال: إنَّ أفضل ما نُعِدُّ شهادةُ أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله. إنِّي كنت على أطباقٍ[(٣٣٨)] ثلاث ، لقد رأيتني وما أحدٌ أشدَّ بغضاً لرسول الله (ص) منِّي ، ولا أحبَّ إليَّ أن أكون قد استمكنتُ منه ، فقتلْتُهُ ، فلو مُتُّ على تلك الحال لكنت من أهل النَّار ، فلمَّا جعل اللهُ الإسلامَ في قلبي ، أتيتُ النَّبيَّ (ص) ، فقلتُ: ابسُطْ يمينك فلأبايعنَّك ، فَبَسَطَ يمينَهُ ، قال: فقبضتُ يدي ، قال: «مالك يا عمرو؟» قال: قلتُ: أردت أن أشترط ، قال: «تشترط بماذا؟» قلتُ: أن يُغْفَرَ لي. قال: «أما علمت أنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأنَّ الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأنَّ الحج يهدم ما كان قبله!» وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله (ص) ، ولا أجلَّ في عيني منه ، وما كنت أُطيق أن أملأ عينيَّ منه؛

إجلالاً له ، ولو سُئِلْتُ أن أصفه ما أطَقْتُ؛ لأنِّي لم أكن أملأ عينيَّ منه ، ولو مُتُّ على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنَّة ، ثم ولينا أشياءَ ما أدري ما حالي فيها ، فإذا أنا متُّ فلا تصحبني نائحةٌ ، ولا نارٌ ، فإذا دفنتموني؛ فشُنُّوا[(٣٣٩)] عليَّ التُّرابَ شنّاً ، ثمَّ أقِيمُوا حول قبري قَدْرَ ما تُنْحَرُ جَزُورٌ ، ويُقْسَمُ لحمُها؛ حتى أستأنسَ بكم ، وأنظر ماذا أراجع به رُسُلَ ربِّي. [مسلم (١٢١)] .

قال النَّوويُّ: فيه: عظم موقع الإسلام ، والهجرة ، والحجِّ ، وأنَّ كلَّ واحدٍ منها يهدم ما كان قبله من المعاصي. وفيه: استحباب تنبيه المحتضر على إحسان ظنِّه بالله سبحانه وتعالى ،

وذكر ايات الرَّجاء ، وأحاديث العفو عنده ، وتبشيره بما أعدَّه الله تعالى للمسلمين ، وذكر حسن أعماله عنده ليحسن ظنَّه بالله تعالى ، ويموت عليه ، وهذا الأدب مستحبٌّ بالاتفاق[(٣٤٠)].

٣ ـ ارتفاع منزلتهم ، وعظمة درجتهم عند ربِّهم:

وعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ الَّذين نالوا أفضل الإيمان ، والهجرة ، والجهاد في سبيل الله بأموالهم، وأنفسهم أعظم الدَّرجات عند الله. قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ *} [التوبة: ٢٠] .

يقول الفخر الرَّازي: إنَّ الموصوفين بهذه الصِّفات الأربعة ، في غاية الجلالة والرِّفعة؛ لأنَّ الإنسان ليس له إلا مجموع أمورٍ ثلاثة: الرُّوح ، والبدن ، والمال ، أمَّا الرُّوح؛ فلمَّا زال عنها الكفر ، وحصل فيها الإيمان؛ فقد وصلت إلى مراتب العادات اللاَّئقة بها ، وأمَّا البدن ، والمال؛ فبسبب الهجرة وقعا في النُّقصان ، وبسبب الاشتغال بالجهاد صارا مُعرَّضَيْنِ للهلاك ، والبطلان ، ولا شكَّ: أنَّ كلاً من النَّفس ، والمال؛ محبوبٌ للإنسان ، والإنسان لا يعرض عن مجموعه إلا للفوز بمحبوبٍ أكمل من الأوَّل ، فلولا أنَّ طلب الرِّضوان أتمُّ عندهم من النَّفس ، والمال؛ لما رجَّحُوا جانب الاخرة على جانب النَّفس ، والمال ، ولما رَضُوا بإهدار النَّفس ، والمال لطلب مرضاة الله تعالى.

فثبت: أنَّ عند حصول الصِّفات الأربعة صار الإنسان واصلاً إلى أعلى درجات البشريَّة ، وأوَّل مراتب درجات الملائكة ، وهم بذلك يكونون أفضل من كلِّ مَنْ سواهم من البشر على الإطلاق؛ لأنَّه لا يعقل حصول سعادةٍ ، وفضيلةٍ للإنسان أعلى وأكمل من هذه الصِّفات[(٣٤١)].

فالذين امنوا ، وهاجروا ، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم ، وأنفسهم أعظم ، وأعلى مقاماً في مراتب الفضل ، والكمال في حكم الله ، وأكبر مثوبةً من أهل سقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام؛ الَّذين رأى بعض المسلمين: أنَّ عملهم إيَّاهما من أفضل القربات بعد الإسلام.

فالَّذين نالوا فضل الهجرة ، والجهاد بنوعيه: النَّفسيِّ ، والماليِّ أعلى مرتبةً ، وأعظم كرامةً ممَّن لم يتَّصف بهما كائناً مَنْ كان ، ويدخل في ذلك أهل السِّقاية ، والعمارة[(٣٤٢)].

وأنَّه تعالى لم يقل: أعظم درجةً من المشتغلين بالسِّقاية ، والعمارة؛ لأنَّه لو عين ذكرهم لأوهم أنَّ فضيلتهم إنَّما حصلت بالنسبة إليهم ، ولما ترك ذكر المرجوح؛ دلَّ ذلك على أنَّهم أفضل من كل مَنْ سواهم على الإطلاق؛ لأنَّه لا يعقل حصول سعادةٍ، وفضيلةٍ للإنسان أعلى ،

وأكمل من هذه الصِّفات[(٣٤٣)]. والتَّفضيل هنا في قوله: ليس على {أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ} ، فهو لا يعني: أنَّ للاخرين درجةً أقلَّ؛ إنما هو التَّفضيل المطلق، فالاخرون {حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ *} [التوبة: ١٧] فلا مفاضلة بينهم وبين المؤمنين المهاجرين المجاهدين في درجةٍ ، ولا في نعيمٍ[(٣٤٤)].

٤ ـ استحقاقهم الجنَّة ، والخلود فيها:

ومن النِّعم الَّتي أعدَّها الله ـ سبحانه وتعالى ـ للمهاجرين الجنَّةُ ، والخلود فيها. قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ *يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ *خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ *} [التوبة: ٢٠ ـ ٢٢] .

قال الشَّوكاني في تفسيره: والتنكير في الرَّحمة ، والرِّضوان ، والجنَّات للتَّعظيم ، والمعنى: أنَّها فوق وصف الواصفين ، وتصوُّر المتصوِّرين. والنَّعيم المقيم: الدَّائم المستمرُّ الَّذي لا يفارق صاحبه ، وَذِكْرُ الأبد بعد الخلود تأكيدٌ له[(٣٤٥)]. هذه بشرى ما بعدها بشرى ، وقد وعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها المؤمنين والمؤمنات. قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *} [التوبة: ٧٢] .

٥ ـ الفوز العظيم ورضوان الله عليهم:

ومن النِّعم الَّتي وعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها المهاجرين: أنَّهم سينالون الفوز العظيم. قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ *} [التوبة: ٢٠] .

ورضوانُ الله تعالى عليهم أكبر ، وأجلُّ ، وأعظم ممَّا هم فيه من النَّعيم ، وهو نهاية الإحسان، وهو أعلى النِّعم، وأكمل الجزاء[(٣٤٦)]، كما يدلُّ على ذلك قوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *} [التوبة: ٧٢] .

ورضا الله عنهم هو الرِّضا الَّذي تتبعه المثوبة ، وهو في ذاته أعلى ، وأكرم مثوبةً ، ورضاهم عن الله هو الاطمئنان إليه على نعمائه ، والصَّبر على ابتلائه ، ولكن التَّعبير بالرِّضا هنا ، وهناك

يشيع جوَّ الرِّضا الشَّامل ، الغامر ، المتبادل ، الوافر ، الوارد ، الصَّادر بين الله سبحانه وتعالى وهذه الصَّفوة المختارة من عباده ، ويرفع من شأن هذه الصَّفوة من البشر؛ حتَّى إنَّهم ليبادلون ربهم الرِّضا ، وهو ربُّهم الأعلى ، وهم عبيده المخلوقون ، وهو حالٌ ، وشأنٌ وجوٌّ لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبِّر عنه ، ولكن يتَّسم ، ويتشرَّف ، ويستجلي من خلال النَّصِّ القرانِيّ ، بالرُّوح المتطلِّع ، والقلب المتفتِّح ، والحسِّ الموصول[(٣٤٧)].

هذا بعض ما وعد الله به المهاجرين من الجزاء ، والثَّواب بسبب جهادهم المرير. إنَّ المهاجرين بإيمانهم الرَّاسخ ، ويقينهم الخالص لم يمكِّنوا الجاهليَّة في مكَّة من وأد الدَّعوة؛ وهي في مستهلِّ حياتها؛ لقد استمسكوا بما أُوحي إلى نبيِّهم ، ولم تزدهم حماقة قريش إلا اعتصاماً بما اهتدوا إليه ، وامنوا به ، فلمَّا أسرفت الجاهليَّة في عسفها ، واضطهادها ، وأذن الله لهؤلاء المؤمنين الصَّابرين بالهجرة من مكَّة؛ خرجوا من ديارهم ، وأموالهم ، ويمَّموا صوب المدينة؛ ليس رهبة من الكفر ، ولا رغبة في الدنيا؛ ولكنهم كانوا بذلك يرجون رحمة الله ، ويبتغون فضلاً منه ورضواناً؛ ولذلك صاروا أهلاً لما أسبغه الله عليهم من فَضْلٍ في الدُّنيا ، وما أعدَّه لهم يوم القيامة من ثوابٍ عظيم[(٣٤٨)].

ثالثاً: الوعيد للمتخلِّفين عن الهجرة:

إنَّ الأسلوب القرانيَّ في الوعد ، والوعيد يهدف إلى الخشية ، والرَّجاء في النُّفوس: رجاء يدفعها إلى الطَّاعة ، والاستقامة ، وخشيةٍ تمنعها من المعصية ، وتسرع بها إلى الاستغفار ، والتَّوبة ، والمؤمن بينهما في معادلةٍ جِدُّ دقيقةٍ؛ لئلا يقعَ فريسةً لليأس ، والقنوط ، ولا يندفع إلى الجرأة على محارم الله ، أو التهاون فيما أمر الله، ولقد استطاع القران الكريم بسلاحيه هذين أن يحفظ للفرد شخصيته ، وللمجتمع مقوِّماته؛ في الحياة ، والمال ، والعقل ، والعِرْض ، والدِّين[(٣٤٩)] ، وهي كلِّياتٌ تقوم عليها الحياة الرَّشيدة الفاضلة. ولقد رأت الحياة النُّور في أجيالٍ عديدةٍ ، أنارها القران بالوعد ، والرجاء ، وبالوعيد ، والخشية ، ولما خَفَتَ ذلك النورُ بِبُعد النَّاس عن القران؛ اصطدم الفردُ بفطرته ، والمجتمعُ بواقعه؛ فاضطربت القيم، وانهارت الأخلاق، وفسدت المعاملات، والمناهج والتَّصوُّرات، ولن يصلح اخر

هذه الأمَّة إلا بما صلح به أوَّلها ، وأن تخشى الله لا تخشى سواه ، وأن ترجوه لا ترجو إلا إيَّاه[(٣٥٠)].

ومن العقوبات الَّتي توعَّد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بها المتخلِّفين عن الهجرة سوءُ المصير. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا *} [النساء: ٩٧] .

روى البخاريُّ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: أنَّ ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين ، يُكثرون سوادَ المشركين على رسول الله (ص) ، يأتي السَّهم يُرْمَى به ، فيُصيبُ أحدَهم فيقتُله ، أو يُضْرَبُ ، فيُقتل ، فأنزل الله: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ} (٤٥٩٦ و٧٠٨٥)] .

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: كان قومٌ من أهل مكَّة أسلموا ، وكانوا يَسْتخْفُون بالإسلام ، فأخرجهم المشركون يوم بدرٍ معهم ، فأُصيب بعضهم ، فقال المسلمون: كان أصحابنا مسلمين ، وأُكرهوا ، فاستغفروا لهم ، فنزلت: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ} ، قال: فكتب إلى من بقي بمكَّة من المسلمين بهذه الاية ، لا عذر لهم ، قال: فخرجوا ، فلحقهم المشركون ، فأعطوهم التَّقيَّة ، فنزلت فيهم: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ *} [العنكبوت: ١٠] .

فكتب المسلمون إليهم بذلك ، فخرجوا ، وأيسوا من كلِّ خير ، ثمَّ نزلت فيهم: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ *} [النحل: ١١٠][(٣٥١)] .

لقد وصف الله ـ سبحانه ـ المتخلِّفين عن الهجرة بأنَّهم ظلموا أنفسهم ، والمراد بالظُّلم في هذه الاية: أنَّ الذين أسلموا في دار الكفر ، وبقوا هناك ، ولم يهاجروا إلى المدينة ظلموا أنفسهم بتركهم الهجرة[(٣٥٢)]. وبما أنَّهم حرموها من دار الإسلام ، تلك الحياة الرَّفيعة النَّظيفة الكريمة الحرَّة الطَّليقة ، وألزموها الحياة في دار الكفر ، تلك الحياة الذَّليلة الخاسئة الضَّعيفة المضطهدة؛ توعَّدهم ممَّا يدلُّ على أنَّها تعني الَّذين فُتِنوا عن دينهم {جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا *} هناك[(٣٥٣)].

وفي هذه الاية الكريمة وعيد للمتخلِّفين عن الهجرة ، بهذا المصير السَّيِّأى ، وبالتَّالي التزم الصَّحابة بأمر الله ، وانضمُّوا إلى المجتمع الإسلامي في المدينة؛ تنفيذاً لأمر الله ، وخوفاً من عقابه ، وكان لهذا الوعيد أثرُه في نفوس الصَّحابة رضي الله عنهم ، فهذا ضمْرَة بنُ جُنْدب لما

بلغه قوله تعالى: وهو {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ} ، قال لبنيه: احملوني؛ فإنِّي لست من المستضعفين ، وإنِّي لأهتدي الطريق ، وإنِّي لا أبيت اللَّيلة بمكَّة ، فحملوه على سريرٍ ، متوجهاً إلى المدينة ، وكان شيخاً كبيراً ، فمات بالتَّنعيم ، ولما أدركه الموت ، أخذ يصفِّق بيمينه على شماله ، ويقول: اللَّهمَّ هذه لك ، وهذه لرسولك (ص) ، أبايعك على ما بايع عليه رسولك ، ولما بلغ خبرُ موته الصَّحابة رضي الله عنهم ، قالوا: ليته مات بالمدينة! فنزل[(٣٥٤)] قوله تعالى: {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *} [النساء: ١٠٠] .

وهذا الموقف يرينا ما كان عليه جيل الصَّحابة ، من سرعةٍ في امتثال الأمر ، وتنفيذه في النَّشاط ، والشِّدَّة ، كائنةً ما كانت ظروفهم ، فلا يلتمسون لأنفسهم المعاذير ، ولا يطلبون الرُّخص[(٣٥٥)].

فهذا الصحابيُّ تفيد بعض الرِّوايات: أنَّه كان مريضاً[(٣٥٦)] ، إلا أنَّه رأى أنَّه ما دام له مالٌ يستعين به ، ويُحمل به إلى المدينة؛ فقد انتفى عذره ، وهذا فقهٌ أملاه الإيمان ، وزكَّاه الإخلاص ، واليقين[(٣٥٧)].

وبعد أن ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعيده للمتخلِّفين عن الهجرة بسوءِ مصيرهم استثنى من ذلك مَنْ لا حيلة لهم في البقاء في دار الكفر ، والتَّعرُّض للفتنة في الدِّين ، والحرمان من الحياة في دار الإسلام من الشُّيوخ ، والضِّعاف ، والنِّساء ، والأطفال ، فيعلقهم بالرَّجاء في عفو الله ، ومغفرته ، ورحمته بسبب عذرهم البيِّن ، وعجزهم عن الفرار[(٣٥٨)]. قال تعالى: {إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً *فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا *} [النساء: ٩٨ ـ ٩٩] .

* * *

الفصل السَّابع

دعائم دولة الإسلام في المدينة[(٣٥٩)]

شرع رسول الله (ص) منذ دخوله المدينة يسعى لتثبيت دعائم الدَّولة الجديدة ، على قواعد متينةٍ ، وأسسٍ راسخةٍ ، فكانت أولى خطواته المباركة ، الاهتمام ببناء دعائم الأمَّة؛ كبناء المسجد الأعظم بالمدينة ، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على الحبِّ في الله ، وإصدار الوثيقة ، أو الدُّستور الإسلاميِّ في المدينة ، الَّذي ينظِّم العلاقات بين المسلمين، واليهود، ومشركي المدينة ، وإعداد جيش لحماية الدولة، والسَّعي لتحقيق أهدافها، والعمل على حلِّ مشاكل المجتمع الجديد ، وتربيته على المنهج الربَّانيِّ في شؤون الحياة كافَّةً ، فقد استمرَّ البناء التَّربويُّ والتَّعليميُّ، واستمرَّ القران الكريم يتحدَّث في المدينة عن عظمة الله، وحقيقة الكون ، والتَّرغيب في الجنَّة ، والتَّرهيب من النَّار ، ويشرِّع الأحكام لتربية الأمَّة ، ودعم مقوِّمات الدَّولة ، الَّتي ستحمل نشر دعوة الله بين النَّاس قاطبةً ، وتجاهد في سبيل الله.

وكانت مسيرة الأمَّة العلميَّة ، والتَّربويَّة ، تتطوَّر مع تطوُّر مراحل الدَّعوة ، وبناء المجتمع ، وتأسيس الدَّولة. وعالج رسول الله (ص) الأزمة الاقتصاديَّة بالمدينة ، من خلال المنهج الربَّانيِّ ، واستمرَّ البناء التربويُّ ، ففُرِض الصِّيامُ ، وفُرضتِ الزَّكاة ، وأخذ المجتمع يزدهر ، والدَّولة تتقوَّى على أسسٍ ثابتةٍ ، وقويَّة.

* * *

المبحث الأوَّل

الدِّعامة الأولى

بناء المسجد الأعظم بالمدينة

كان أوَّلَ ما قام به الرَّسول (ص) بالمدينة بناءُ المسجد؛ وذلك لتظهر فيه شعائر الإسلام ، الَّتي طالما حُوربت ، ولتقام فيه الصَّلوات؛ الَّتي تربط المرء بربِّ العالمين ، وتنقِّي القلب من أدران الأرض ، وأدناس الحياة الدُّنيا[(٣٦٠)].

روى البخاريُّ بسنده: أنَّ رسول الله (ص) دخل المدينة راكباً راحلتَهُ ، فسار يمشي معه النَّاسُ؛ حتَّى بَرَكَتْ عند مسجد رسول الله (ص) بالمدينة ، وهو يصلِّي فيه يومئذٍ رجالٌ من المسلمين ، وكان مِرْبَداً[(٣٦١)] للتَّمر ، لسهلٍ ، وسُهَيْلٍ غلامين يتيمين في حِجْر أسعد بن زُرَارَة ، فقال رسول الله (ص) حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل» ، ثمَّ دعا رسولُ الله (ص) الغلامين ، فساومهما بالمِرْبَد ليتَّخذَه مسجداً ، فقالا: لا ، بل نَهَبُهُ لك يا رسولَ الله! فأبى رسول الله (ص) أن يقبله منهما هِبَةً؛ حتَّى ابتاعه منهما. [البخاري (٣٩٠٦)] .

وفي رواية أنس بن مالكٍ: فكان فيه ما أقول: كان فيه نَخْلٌ ، وقُبورُ المشركين ، وخربٌ ، فأمر رسولُ الله (ص) بالنَّخل ، فقُطع ، وبقبور المشركين ، فنُبِشَتْ ، وبالخربِ ، فسُوِّيَتْ. قال: فَصَفُّوا النَّخلَ قبلةً ، وجعلوا عِضَادَتَيْهِ حجارةً. قال: فكانوا يرتجزون ، ورسولُ الله (ص) معهم؛ وهم يقولون:

اللَّهُمَّ! لا خَيْرَ إلا خَيْرُ الاخِرَهْفَانْصُرِ الأنْصَارَ والمهَاجِرَهْ

[البخاري (٤٢٨) ومسلم (٥٢٤)] .

شرع الرَّسول (ص) في العمل مع أصحابه ، وضرب أوَّل معولٍ في حفر الأساس؛ الَّذي كان عمقه ثلاثة أذرع ، ثمَّ اندفع المسلمون في بناء هذا الأساس بالحجارة ، والجدران ـ الَّتي لم تزد عن قامة الرَّجل إلا قليلاً ـ باللَّبن؛ الَّذي يعجن بالتُّراب ، ويسوَّى على شكل أحجارٍ صالحةٍ للبناء[(٣٦٢)]. وفي النَّاحية الشَّمالية منه، أقيمت ظلَّةٌ من الجريد على قوائم من جذوع النَّخل، كانت تسمَّى «الصُّفة»، أما باقي أجزاء المسجد، فقد تُرِكت مكشوفةً بلا غطاءٍ[(٣٦٣)].

أمَّا أبواب المسجد؛ فكانت ثلاثةٌ: باب في مؤخرته من الجهة الجنوبيَّة، وباب في الجهة الشَّرقيَّة، كان يدخل منه رسول الله (ص) بإزاء باب بيت عائشة، وباب من الجهة الغربية، يقال له: باب الرَّحمة، أو باب عاتكة[(٣٦٤)].

أولاً: بيوتات النَّبيِّ (ص) التَّابعة للمسجد:

وبُني لرسول الله (ص) حُجَرٌ حول مسجده الشَّريف؛ لتكون مساكن له، ولأهله، ولم تكن الحجر كبيوت الملوك، والأكاسرة، والقياصرة؛ بل كانت بُيوتَ مَنْ تَرَفَّعَ عن الدُّنيا، وزخارفها، وابتغى الدَّار

الآخرة، فقد كانت كمسجده مبينةً من اللَّبن، والطين، وبعض الحجارة، وكانت سقوفها من جذوع النَّخل، والجريد، وكانت صغيرة الفناء، قصيرة البناء، ينالها الغلام الفارع بيده. قال الحسن البصريُّ ـ وكان غلاماً مع أمِّه خيرة مولاة أمِّ سلمة ـ: «قد كنت أنال أول سقفٍ في حُجَرِ النَّبيِّ (ص) بيدي»[(٣٦٥)]. وهكذا كانت بيوت النَّبيِّ (ص) في غاية البساطة، بينما كانت المدينة تشتهر بالحصون العالية، الَّتي كان يتَّخذها عِلْيَةُ القوم؛ تباهياً بها في السِّلم، واتقاءً بها في الحرب، وكانوا من تفاخرهم بها يضعون لها أسماء، كما كان حصن عبد الله بن أُبيِّ ابن سلول اسمه: (مزاحم)، وكما كان حصن حسَّان بن ثابت رضي الله عنه اسمه: (فارع).

إنَّ النبي (ص) بنى بيوته بذلك الشَّكل المتواضع، وكان باستطاعته أن يبني لنفسه قصوراً شاهقةً، ولو أنَّه أشار إلى رغبته بذلك مجرَّد إشارةٍ، لسارع الأنصار في بنائها له، كما كان بإمكانه أن يشيدها من أموال الدَّولة العامَّة؛ كالفيء، ونحوه، ولكنه (ص) لم يفعل ذلك؛ ليضرب لأمتِّه مثلاً رفيعاً، وقدرةً عاليةً في التَّواضع والزُّهد في الدُّنيا، وجمع الهمَّة، والعزيمة للعمل لما بعد الموت[(٣٦٦)].

ثانياً: الأذان في المدينة[(٣٦٧)]:

تشاور رسول الله (ص) مع أصحابه لإيجاد عملٍ ينبِّه النَّائم، ويدرك السَّاهي، ويُعلِم النَّاس بدخول الوقت لأداء الصَّلاة ، فقال بعضهم: نرفع راية إذا حان وقت الصَّلاة ليراها النَّاس ، فاعترضوا على هذا الرأي؛ لأنَّها لا تفيد النَّائم ، ولا الغافل ، وقال اخرون: نُشعل ناراً على مرتفع من الهضاب ، فلم يُقبل هذا الرَّأي أيضاً ، وأشار اخرون ببوقٍ ـ وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم ـ فكرهه الرَّسول (ص) ؛ لأنه يحبُّ مخالفة أهل الكتاب في أعمالهم ، وأشار بعضُ الصَّحابة باستعمال النَّاقوس ـ وهو ما يستعمله النَّصارى ـ فكرهه الرَّسول (ص) أيضاً ، وأشار فريقٌ بالنِّداءِ ، فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة وينادي بها ، فقُبل هذا الرَّأي ، وكان أحد المنادين عبدَ الله بن زيدٍ الأنصاريَّ ، فبينما هو بين النَّائم واليقظان؛ إذ عرض له شخصٌ وقال: ألا أعلمك كلماتٍ تقولها عند النِّداء بالصَّلاة؟ قال: بلى! فقال له: قل: الله أكبر مرَّتين ، وتشهَّد مرَّتين ، ثمَّ قل: حيَّ على الصَّلاة مرَّتين ، ثمَّ قل: حيَّ على الفلاح مرَّتين ، ثمَّ كبِّر ربَّك مرَّتين ، ثمَّ قل: لا إله إلا الله. فلما استيقظ توجَّه إلى الرَّسول (ص) ، وأخبره خبر رؤياه ، فقال: إنَّها لرؤيا حقٍّ ، ثمَّ قال له: لَقِّنْ بلالاً؛ فإنَّه أندى صوتاً منك.

وبينما بلالٌ يؤذِّن للصَّلاة بهذا الأذان؛ جاء عمر بن الخطَّاب يجرُّ رداءه ، فقال: والله لقد رأيت مثله يا رسول الله! وكان بلال بن رباح أحد مؤذِّنيه بالمدينة ، والاخر عبد الله بنُ أمِّ مكتومٍ ، وكان بلال يقول

في أذان الصُّبح بعد (حيَّ على الفلاح): الصَّلاة خيرٌ من النَّوم مرَّتين ، وأقرَّه الرَّسول (ص) على ذلك ، وكان يُؤذِّن في البداءة من مكانٍ مرتفعٍ ، ثمَّ استُحدثت المنارة (الْمئذَنة) [أحمد (٤٣/٤) وأبو داود (٤٩٩) والترمذي (١٨٩) وابن ماجه (٧٠٦) وابن حبان (١٦٧٩)][(٣٦٢)] .

ثالثاً: أوَّل خطبةٍ خطبها رسول الله (ص) بالمدينة:

كانت أوَّل خطبةٍ خطبها رسولُ الله (ص) بالمدينة: أنه قام فيهم ، فحمِدَ الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثمَّ قال: «أمَّا بعد: أيُّها النَّاسُ! فقدموا لأنفسكم. تعلمُنَّ والله ليُصْعَقَنَّ أحدُكم ، ثمَّ لَيَدَعَنَّ غَنَمَهُ ليس لها راعٍ ، ثمَّ ليقولنَّ له ربُّه؛ وليس له ترجمانٌ ، ولا حاجبٌ يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي ، فبلَّغك؟! واتيتك مالاً ، وأفضلت عليك ، فما قدَّمت لنفسك؟ فَلَيَنْظُرَنَّ يميناً ، وشمالاً ، فلا يرى شيئاً ، ثمَّ لينظرنَّ قُدَّامه ، فلا يرى غير جهنَّم؛ فمن استطاع أن يقي وجهه من النَّار ولو بشقٍّ من تمرةٍ فليفعل ، ومن لم يجد؛ فبكلمةٍ طيِّبةٍ؛ فإنَّ بها تُجزى الحسنة عشر أمثالها ، إلى سبعمئة ضعفٍ. والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته» [البيهقي في الدلائل (٥٢٤/٢) وابن هشام (١٤٦/٢)] .

ثمَّ خطب رسول الله (ص) مرَّةً أخرى ، فقال: «إنَّ الحمد لله ، أحمده ، وأستعينه ، نعوذ بالله

من شرور أنفسنا ، وسيِّئات أعمالنا ، مَنْ يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له. إنَّ أحسنَ الحديث كتابُ الله تبارك وتعالى. قد أفلح من زَيَّنَهُ الله في قلبه ، وأدخله في الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث النَّاس ، إنَّه أحسن الحديث ، وأبلغه ، أحِبُّوا من أحبَّ اللهُ ، أحِبُّوا الله من كلِّ قلوبكم ، ولا تَملُّوا كلام الله وذكرَهُ ، ولا تَقْسُ عنه قلوبكم؛ فإنَّه من كلِّ ما يخلق الله يختار ، ويصطفي ، قد سمَّاه الله خيرتَه من الأعمال ، ومُصطفاه من العباد ، والصَّالح من الحديث ، ومن كلِّ ما أوتي النَّاس الحلالُ والحرامُ ، فاعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتَّقوه حقَّ تقاته ، واصْدُقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابُّوا بروح الله بينكم ، إنَّ الله يغضب أن يُنْكَثَ عهده ، والسَّلام عليكم» [البيهقي في الدلائل (٥٢٤/٢ ـ ٥٢٥) وابن هشام (١٤٦/٢ ـ ١٤٧)] .

رابعاً: الصُّفَّة التَّابعة للمسجد النَّبويِّ:

لما تمَّ تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرَّفة بأمر الله تعالى ، وذلك بعد ستة عشر شهراً من هجرته (ص) إلى المدينة [البخاري (٤٠) ومسلم (٥٤٥)] ، بقي حائط القبلة الأولى في مؤخرة المسجد

النبوي ، فأمر النبي (ص) به ، فظلِّل ، أو سقف ، وأطلق عليه اسم (الصُّفَّة) أو (الظُّلَّة)[(٣٦٣)] ، ولم يكن له ما يسترُ جوانبه[(٣٦٤)].

قال القاضي عياض: الصُّفَّة ظُلَّةٌ في مؤخرة مسجد رسول الله (ص) ، يأوي إليها المساكين ، وإليها يُنسب أهل الصُّفَّة[(٣٦٥)].

وقال ابن تيميَّة: الصُّفَّة كانت في مؤخرة مسجد النَّبيِّ (ص) ، في شمالي المسجد بالمدينة المنوَّرة[(٣٦٦)].

وقال ابن حَجَرٍ: الصُّفَّة مكانٌ في مؤخَّر المسجد النَّبويِّ مظلَّلٌ ، أُعدَّ لنزول الغرباء فيه ، ممَّن لا مأوىً له ، ولا أهل. [فتح الباري (٦/٧٣٨)][(٣٦٧)] .

١ ـ أهل الصُّفَّة:

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «وأهلُ الصُّفَّة أضيافُ الإسلام ، لا يأوون إلى أهلٍ ، ولا مالٍ ، ولا على أحدٍ» [البخاري (٦٤٥٢)] .

إنَّ المهاجرين الأوائل ، الَّذين هاجروا قبل النَّبيِّ (ص) ، أو معه ، أو بعده؛ حتَّى نهاية الفترة الأولى قبل غزوة بدرٍ ، استطاع الأنصار أن يستضيفوهم في بيوتهم ، وأن يشاركوهم النَّفقة ، ولكن فيما بعد كبر حجم المهاجرين ، فلم يعد هناك قدرةٌ للأنصار على استيعابهم[(٣٦٨)]؛ فقد «صار المهاجرون يكثرون بعد ذلك شيئاً بعد شيءٍ؛ فإنَّ الإسلام صار ينتشر ، والنَّاس يدخلون فيه ، ويكثر المهاجرون إلى المدينة من الفقراء ، والأغنياء ، والاهلين ، والعُزَّاب ، فكان مَنْ لم يتيسَّر له مكانٌ يأوي إليه ، يأوي إلى تلك الصُّفَّة في المسجد»[(٣٦٩)].

والَّذي يظهر للباحث: أنَّ المهاجر الَّذي يقدم إلى المدينة كان يلتقي بالرَّسول (ص) ، ثمَّ يوجهه بعد ذلك إلى مَنْ يكفله ، فإن لم يجد فإنَّه يستقرُّ في الصُّفَّة مؤقتاً ، ريثما يجدُ السَّبيل[(٣٧٠)]؛ فقد جاء في المسند عن عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه قال: «كان رسول الله (ص) يُشغل ، فإذا قدم رجلٌ مهاجرٌ على رسول الله (ص) ، دفعه إلى رجلٍ منَّا يعلِّمه القران ، فدفع إليَّ رسولُ الله (ص) رجلاً ، وكان معي في البيت ، أُعشِّيه عشاء أهل البيت ، فكنت أُقرئه القران» [أحمد (٥/٣٢٤)] . وقد كان أول مَنْ نزل الصُّفة المهاجرون[(٣٧١)]؛ لذلك نسبت إليهم ، فقيل: (صُفَّة المهاجرين)[(٣٧٢)] ، وكذلك كان ينزل بها الغرباء من الوفود ، الَّتي كانت تقدم على النَّبيِّ (ص) معلنةً إسلامَها ، وطاعتها[(٣٧٣)] ، وكان الرَّجل إذا قدم على النَّبيِّ (ص) وكان له عريفٌ؛ نزل عليه ، وإذا لم يكن له

عريف؛ نزل مع أصحاب الصُّفَّة[(٣٧٤)] ، وكان أبو هريرة رضي الله عنه عَرِيفَ مَنْ سَكَنَ الصُّفَّة من القاطنين، ومَنْ نزلها من الطَّارقين، فكان النَّبيُّ (ص) إذا أراد دعوتهم، عهد إلى أبي هريرة ، فدعاهم؛ لمعرفته بهم ، وبمنازلهم ، ومراتبهم في العبادة ، والمجاهدة[(٣٧٥)]. ونزل بعض الأنصار في الصُّفَّة؛ حبّاً لحياة الزُّهد ، والمجاهدة ، والفقر ، برغم استغنائهم عن ذلك ، ووجود دارٍ لهم في المدينة؛ ككعب بن مالك الأنصاريِّ ، وحنظلة بن أبي عامرٍ الأنصاري (غسيل الملائكة) ، وحارثة بن النُّعمان الأنصاريِّ ، وغيرهم[(٣٧٦)].

٢ ـ نفقة أهل الصُّفَّة ، ورعاية النَّبيِّ (ص) والصَّحابة لهم:

كان النَّبيُّ (ص) يتعهَّد أهل الصُّفَّة بنفسه ، فيزورهم ، ويتفقَّد أحوالَهم ، ويعود مرضاهم ، كما كان يكثر مجالستهم ، ويرشدهم ، ويواسيهم ، ويذكِّرهم ، ويعلِّمهم ، ويوجِّههم إلى قراءة القران الكريم ، ومدارسته ، وذِكْرِ الله ، والتَّطلُّع إلى الاخرة[(٣٧٧)] ، وكان (ص) يُؤَمِّن نفقتهم بوسائل متعدِّدةٍ ، ومتنوعةٍ؛ منها:

١ ـ «إذا أتته (ص) صدقةٌ؛ بعث بها إليهم ، ولم يتناول منها شيئاً ، وإذا أتته هديَّة ، أرسل إليهم ، وأصاب منها ، وأشركهم فيها» [البخاري (٦٤٥٢)] .

٢ ـ كثيراً ما كان يدعوهم إلى تناول الطَّعام في إحدى حجرات أمَّهات المؤمنين رضي الله عنهن ، ولم يكن يغفل عنهم مطلقاً؛ بل كانت حالتُهم ماثلةً أمامه؛ فعن عبد الرَّحمن بن أبي بكرٍ رضي الله عنهما قال: إنَّ أصحاب الصُّفَّة كانوا أناساً فقراء ، وإنَّ النَّبيَّ (ص) قال مرَّةً: «من كان عنده طعام اثنين؛ فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة؛ فليذهب بخامسٍ ، أو سادسٍ ـ أو كما قال ـ وإنَّ أبا بكر جاء بثلاثةٍ ، وانطلق النَّبيُّ (ص) بعشرةٍ» [البخاري (٣٥٨١) ومسلم (٢٠٥٧)]. وعن يعيش بن طخفة بن قيس الغفاريِّ ، قال: «كان أبي من أصحاب الصُّفَّة ، فأمر رسولُ الله (ص) بهم ، فجعل الرَّجل ينقلب بالرَّجل ، والرَّجل بالرَّجلين؛ حتَّى بقيت خامس خمسة ، فقال رسول الله (ص) : «انطلقوا» ، فانطلقنا معه إلى بيت عائشة». [أحمد (٤/٤٢٩ ـ ٤٣٠) والطيالسي (١٣٣٩)] .

٣ ـ وكان (ص) يطلب من النَّاس أن يوجِّهوا صدقاتهم إليهم؛ فقد جاء في المسند: أنَّ فاطمة لما ولدت الحسن؛ طلب منها (ص) أن تحلق رأسه ، وتتصدَّق بوزن شعره من فضَّة ، على أهل الصُّفَّة. [أحمد (٦/٣٩٠ ـ ٣٩١)] .

٤ ـ وقد كان (ص) يقدِّم حاجتهم على غيرها ممَّا يطلب منه؛ فقد أُتي بسَبْيٍ مرَّةً ، فأتته فاطمة رضي الله عنها تسأله خادماً ، فكان جوابه ـ كما في المسند عند الإمام أحمد ـ: «والله! لا أعطيكما ، وأدَعُ أهل الصُّفَّة تُطْوى بطونُهم من الجوع ، لا أجد ما أنفق عليهم؛ ولكن أبيعُهم ، وأنفق عليهم أثمانَهم» [البخاري (٣١١٣)] .

٥ ـ وقد أوصى النَّبيُّ (ص) الصَّحابة بالتَّصدُّق على أهل الصُّفَّة[(٣٧٨)] ، فجعلوا يَصلُونهم بما استطاعوا مِنْ خيرٍ [الحلية (١/٣٤٠)] ، فكان أغنياء الصَّحابة يبعثون بالطَّعام إليهم [الحلية (١/٣٧٨)] .

٣ ـ انقطاعهم للعلم ، والعبادة ، والجهاد:

كان أهل الصُّفَّة يعتكفون في المسجد للعبادة ، ويألفون الفقر ، والزُّهد ، فكانوا في خلواتهم يصلُّون ويقرؤون القران ، ويتدارسون اياته ، ويذكرون الله تعالى ، ويتعلَّم بعضهم الكتابة ، حتَّى أهدى أحدُهم قوسَه لعبادة بن الصَّامت رضي الله عنه؛ لأنَّه كان يعلمهم القران ، والكتابة[(٣٧٩)]. واشتهر بعضهم بالعلم ، وحفظ الحديث عن النَّبيِّ (ص) ؛ مثل أبي هريرة رضي الله عنه ، الَّذي عُرِف بكثرة تحديثه ، وحُذَيفة بن اليمان ، الذي اهتم بأحاديث الفتن.

وكان أهل الصُّفة يشاركون في الجهاد؛ بل كان منهم الشُّهداء ببدرٍ؛ مثل صفوان ابن بيضاء ، وخريم بن فاتك الأسديّ ، وخبيب بن يساف ، وسالم بن عُمير ، وحارثة بن النُّعمان الأنصاريِّ[(٣٨٠)] ، ومنهم من استشهد بأحدٍ؛ مثل حنظلة الغسيل [الحلية (١/٣٥٧)] ، ومنهم من شهد الحديبية؛ مثل جرهد بن خويلد [الحلية (١/٣٥٣)] ، وأبو سريحة الغفاري [الحلية (١/٣٥٥)] ، ومنهم من استشهد بخيبر؛ مثل ثقيف بن عمرو[(٣٨١)] ، ومنهم من استشهد بتبوك؛ مثل عبد الله (ذو البِجادَين)[(٣٨٢)] ، ومنهم من استشهد باليمامة؛ مثل سالم مولى أبي حذيفة ، وزيد بن الخطاب ، فكانوا رهباناً باللَّيل ، فُرْساناً في النَّهار[(٣٨٣)].

وكان بعض الصَّحابة قد اختاروا المكوث في الصُّفَّة رغبةً منهم لا اضطراراً؛ كأبي هريرة رضي الله عنه ، فقد أحبَّ أن يلازم رسول الله (ص) ، ويعوِّضَ ما فاته من العلم ، والخير ـ فقد جاء إلى المدينة بعد فتح خيبر في العام السَّابع ـ وحرص على سماع أكبر قدرٍ ممكنٍ من حديثه (ص) ، ومعرفة أحواله ، وتبرُّكاً بخدمته (ص) ، وهذا لا يتوافر له إلا إذا كان قريباً من بيت النَّبيِّ (ص) ، فكانت الصُّفة هي المكان الوحيد الَّذي يؤمِّن له ذلك ، ولنستمع إليه يوضِّح لنا ذلك ، قال أبو هريرة رضي الله عنه: «إنَّكم

تقولون: إنَّ أبا هريرة يُكْثِرُ الحديث عن رسول الله (ص) ، وتقولون: ما بالُ المهاجرين ، والأنصار لا يُحَدِّثُون عن رسول الله (ص) بمثل حديث أبي هريرة؟! وإنَّ إخوتي من المهاجرين كان يَشغَلُهُم الصَّفْقُ بالأسواق ، وكنت ألزم رسول الله (ص) على ملء بطني ، فأشهدُ إذا غابوا ، وأحفظ إذا نَسُوا ، وكان يَشْغَلُ إخوتي من الأنصار عملُ أموالهم ، وكنت امرأً مسكيناً من مساكين الصُّفَّة ، أعي حين يَنْسَون» [البخاري (٢٠٤٧) ومسلم (٢٤٩٢)] .

وهكذا يوضِّح رضي الله عنه: أنه فعل ذلك رغبةً منه في ملازمة النَّبيِّ (ص) ، ثمَّ إنَّ أبا هريرة كان له سكنٌ في المدينة ، وهو المكان الَّذي تسكنه أمُّه ، والَّتي طلب من النَّبيِّ (ص) أن يدعو لها بالهداية. [مسلم (٢٤٩١) وأحمد (٢/٣٢٠)] .

ثمَّ إنَّ أبا هريرة رضي الله عنه لم يكن فقيراً مُعْدماً ، ففي أوَّل يومٍ قدم فيه على النَّبيِّ (ص) في خيبر أسهم له (ص) من الغنيمة ، كما أنَّه لما قدم كان معه عبدٌ يخدمه ـ كما ورد في الصَّحيح ـ[(٣٨٤)]؛ وإذاً فالَّذي أفقره هو إيثاره ملازمة النَّبيِّ (ص) ، واستماع أحاديثه ، وكان يستطيع الاستغناء عن الصُّفَّة لو أراد[(٣٨٥)].

كان أهل الصُّفَّة يكثرون ، ويقلُّون بحسب تبدُّل الأحوال الَّتي تحيط بأهل الصُّفَّة؛ من عودة الأهل ، أو زواجٍ ، أو يُسرٍ بعد عُسْر ، أو شهادةٍ في سبيل الله.

ولم يكن فقرهم لقعودهم عن العمل ، وكسب الرِّزق ، فقد ذكر الزَّمخشريُّ: أنهم كانوا يرضخون النَّوى بالنَّهار ، ويظهر: أنَّهم كانوا يرضخون النَّوى ـ يكسرونه ـ لعلف الماشية ، وهم ليسوا أهل ماشية ، فهم إذاً يعملون لكسب الرِّزق[(٣٨٦)].

٤ ـ عددهم وأسماؤهم:

كان عددهم يختلف باختلاف الأوقات ، فهم يزيدون؛ إذا قدمت الوفود إلى المدينة ، ويقلُّون إذا قلَّ الطَّارقون من الغرباء ، على أنَّ عدد المقيمين منهم في الظروف العاديَّة ، كان في حدود السَّبعين رجلاً [الحلية (١/٣٣٩ ، ٣٤١)] ، وقد يزيد عددهم كثيراً؛ حتَّى إنَّ سعد بن عبادة كان يستضيف وحده ثمانين منهم ، فضلاً عن الاخرين الَّذين يتوزَّعهم الصَّحابة [الحلية (١/٣٤١)] .

ومن أهل الصُّفَّة:

١ ـ أبو هريرة رضي الله عنه؛ حيث نسب نفسه إليهم.

٢ ـ أبو ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه؛ حيث نسب نفسه إليهم.

٣ . واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.
٤ . قيس بن طهفة الغفاريُّ رضي الله عنه؛ حيث نسب نفسه إليهم.
٥ .كعب بن مالكٍ الأنصاريُّ رضي الله عنه.

٦ . سعيد بن عامر بن حذيم الجمحيُّ رضي الله عنه.
٧ . سلمان الفارسيُّ رضي الله عنه.
٨ . أسماء بن حارثة بن سعيد الأسلميُّ رضي الله عنه.
٩ . حنظلة بن أبي عامر الأنصاريُّ «غسيل الملائكة» رضي الله عنه.
١٠ . حازم بن حرملة رضي الله عنه.
١١ . حارثة بن النُّعمان الأنصاريُّ النَّجاريُّ رضي الله عنه.
١٢ . حُذَيفة بن أَسِيد أبو سريحة الأنصاريُّ رضي الله عنه.
١٣ . حُذَيفة بن اليمان رضي الله عنه.
١٤ . جارية بن حُمَيل بن نُشَبَة بن قُرْطٍ رضي الله عنه.
١٥ . جُعَيْل بن سراقة الضَّمَّريُّ رضي الله عنه.
١٦ . جَرْهَدُ بن خويلد الأسديُّ رضي الله عنه.
١٧ . رفاعة أبو لبابة الأنصاريُّ رضي الله عنه.
١٨ . عبد الله ذو البِجَادَين رضي الله عنه.
١٩ . دكين بن سعيد المزنيُّ ، وقيل: الخثعميُّ رضي الله عنه.
٢٠ . خُبَيْبُ بن يساف بن عِنَبة رضي الله عنه.
٢١ . خريم بن أوس الطائيُّ رضي الله عنه.
٢٢ . خريم بن فاتك الأسديُّ رضي الله عنه.
٢٣ . خُنيس بن حذافة السَّهميُّ رضي الله عنه.
٢٤ . خبَّاب بن الأرتِّ رضي الله عنه.
٢٥ . الحكم بن عمير الثُّماليُّ رضي الله عنه.
٢٦ . حرملة بن أياس ، وقيل: حرملة بن عبد الله العنبريُّ رضي الله عنه[(٣٨٧)].
٢٧ . زيد بن الخطَّاب رضي الله عنه.

٢٨ . عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه.

٢٩ . الطَّفاويُّ الدَّوسيُّ رضي الله عنه.

٣٠ . طلحة بن عمرو النَّضريُّ رضي الله عنه.

٣١ . صفوان بن بيضاء الفهريُّ رضي الله عنه.

٣٢ . صهيب بن سنان الرُّوميُّ رضي الله عنه.

٣٣ . شدَّاد بن أسيد رضي الله عنه.

٣٤ . شقران رضي الله عنه مولى النَّبيِّ (ص) .

٣٥ . السَّائب بن خلاَّد رضي الله عنه.

٣٦ . سالم بن عمير من الأوس من بني ثعلبة بن عمرو بن عوفٍ رضي الله عنه.

٣٧ . سالم بن عبيد الأشجعيُّ رضي الله عنه.

٣٨ . سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه.

٣٩ . سفينة رضي الله عنه مولى النَّبيِّ (ص) .

٤٠ . أبو رزين رضي الله عنه.

٤١ . الأغرُّ المزنيُّ رضي الله عنه.

٤٢ . بلال بن رباحٍ رضي الله عنه.

٤٣ . البراء بن مالكٍ الأنصاريُّ رضي الله عنه.

٤٤ . ثوبان رضي الله عنه مولى النَّبيِّ (ص) .

٤٥ . ثابت بن وديعة الأنصاريُّ رضي الله عنه.

٤٦ . ثَقْفُ بن عمرو بن سُميط الأسديُّ رضي الله عنه.

٤٧ . سعد بن مالكٍ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضي الله عنه.

٤٨ . العِرباض بن سارية رضي الله عنه.

٤٩ . غَرَفَةُ الأزديُّ رضي الله عنه.

٥٠ . عبد الرَّحمن بن قُرْطٍ رضي الله عنه.

٥١ . عبادة بن خالد الغفاريُّ[(٣٨٨)] رضي الله عنهم أجمعين ، وغيرهم من الصَّحابة الكرام.

وقد وقع بعض الباحثين في خطأ فادحٍ حين استدلَّ بعضهم على مشروعيَّة مسلك بعض المنحرفين من المتصوِّفة ، من حيث ترك العمل ، والإخلاد إلى الرَّاحة ، والكسل ، والمكوث
في الزَّوايا ، والتكايا؛ بحجَّة الاقتداء بحال أهل الصُّفَّة[(٣٨٩)]؛ فإن أبا هريرة ـ وهو أكثر ارتباطاً بالصُّفَّة من غيره ـ لم يستمرَّ فيها ، وخرج إلى الحياة؛ بل أصبح أميراً في بعض أيَّامه على البحرين ، في عهد عمر بن الخطَّاب ، ولم يكن مخشوشناً في حياته[(٣٩٠)]؛ بل إنَّ أهل الصُّفَّة كانوا من المجاهدين في سبيل الله في ساحات القتال ، وقد استشهد بعضهم كما ذكرتُ.

خامساً: فوائد ودروس وعبر:

١ ـ المسجد من أهمِّ الركائز في بناء المجتمع:

إنَّ إقامة المساجد من أهمِّ الرَّكائز في بناء المجتمع الإسلاميِّ؛ ذلك أنَّ المجتمع المسلم إنَّما يكتسب صفة الرُّسوخ ، والتَّماسك بالتزام نظام الإسلام ، وعقيدته ، وادابه ، وإنَّما ينبع ذلك من رُوح المسجد ، ووحيه[(٣٩١)].

قال تعالى: {لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ *} [التوبة: ١٠٨] ، وقال تعالى: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ *رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ *لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ *} [النور: ٣٦ ـ ٣٨] .

٢ ـ المسجد رمزٌ لشموليَّة الإسلام:

١ ـ حيث «أُنشأى ليكون متعبَّداً لصلاة المؤمنين ، وذكرهم لله تعالى ، وتسبيحهم له ، وتقديسهم إيَّاه بحمده ، وشكره على نعمه عليهم ، يدخله كلُّ مسلمٍ ، ويقيم فيه صلاته ، وعبادته ، ولا يضارُّه أحدٌ ما دام حافظاً لقداسته ، ومؤدِّياً حقَّ حرمته»[(٣٩٢)].

٢ ـ كما «أنشأى المسجد ليكون ملتقى رسول الله (ص) بأصحابه ، والوافدين عليه؛ طلباً للهداية ، ورغبةً في الإيمان بدعوته وتصديق رسالته»(١).

٣ ـ «وهو قد أنشأى ليكون جامعةً للعلوم ، والمعارف الكونيَّة ، والعقليَّة ، والتَّنزليَّة ، الَّتي حثَّ القران الكريم على النَّظر فيها ، وليكون مدرسةً يتدارس فيها المؤمنون أفكارهم ، وثمرات عقولهم ، ومعهداً يَؤُمُّهُ

طلاب العلم من كلِّ صوبٍ؛ ليتفقهوا في الدِّين ، ويرجعوا إلى قومهم مبشِّرين ، ومنذرين ، داعين إلى الله هادين ، يتوارثونها جيلاً بعد جيلٍ»(١).

٤ ـ وهو «قد أنشأى؛ ليجد فيه الغريب مأوىً ، وابن السَّبيل مستقراً ، لا تكدِّره منَّةُ أحدٍ عليه ، فينهل من رِفْدِهِ ، ويعبُّ من هدايته ما أطاق استعداده النَّفسيُّ ، والعقليُّ ، لا يصدُّه أحدٌ عن علمٍ ، أو معرفةٍ ، أو لونٍ من ألوان الهداية ، فكم من قائد تخرَّج فيه ، وبرزت بطولتُه بين جدرانه! وكم من عالمٍ استبحر علمُه في رحابه ، ثمَّ خرج به على النَّاس يروي ظمأهم للمعرفة! وكم من داعٍ إلى الله تلقَّى في ساحاته دروس الدَّعوة إلى الله ، فكان أسوة الدُّعاة ، وقدوة الهداة ، وريحانةً جَذَبَ القلوبَ شَذَاها ، فانجفلت إليها تأخذ عنها الهداية؛ لتستضيء بأنوارها!

وكم من أعرابيٍّ جلفٍ لا يفرِّق بين الأحمر ، والأصفر وفد عليه ، فدخله ، ورأى أصحابَ رسول الله (ص) حوله هالةً تحفُّ به ، يسمعون منه؛ وكأنَّ على رؤوسهم الطَّير ، فسمع معهم ، وكانت عنده نعمة العقل مخبَّأةً تحت ستار الجهالة ، فانكشف له غطاء عقله ، فعقل ، وفَقِهَ ، واهتدى ، واستضاء ، ثمَّ عاد إلى قومه إماماً يدعوهم إلى الله ، ويربِّيهم بعلمه الَّذي علم ، وسلوكه الَّذي سلك ، فامنوا بدعوته، واهتدوا بهديه ، فكانوا سطراً منيراً في كتاب التَّاريخ الإسلاميِّ!»[(٣٩٣)].

٥ ـ وهو «قد أُنشأى ليكون قلعةً لاجتماع المجاهدين إذا استُنفروا ، تعقد فيه ألوية الجهاد ، والدَّعوة إلى الله ، وتخفق فيه فوق رؤوس القادة الرَّايات ، للتوجُّه إلى مواقع الأحداث ، وفي ظلِّها يقف جند الله في نشوة ترقُّب النَّصر ، أو الشَّهادة»(١).

٦ ـ وهو «قد أُنشأى؛ ليجد فيه المجتمع المسلم الجديد ركناً في زواياه ، ليكون مشفىً يستشفي فيه جرحى كتائب الجهاد؛ ليتمكن نبيُّ الله (ص) من عيادتهم ، والنَّظر في أحوالهم ، والاستطباب لهم ، ومداواتهم في غير مشقَّةٍ ، ولا نَصَبٍ؛ تقديراً لفضلهم»(١).

٧ ـ «وهو قد أُنشأى ليكون مركزاً لبريد الإسلام؛ منه تصدر الأخبار ، ويُبْرَدُ البريد ، وتصدر الرَّسائل ، وفيه تُتلقَّى الأنباء السِّياسيَّة سلماً ، أو حرباً ، وفيه تُتلقى وتُقرأ رسائل البشائر بالنَّصر ، ورسائل طلب المدد ، وفيه يُنعى المستشهدون في معارك الجهاد؛ ليتأسَّى بهم المتأسُّون، وليتنافس في الاقتداء بهم المتنافسون»(١).

٨ ـ «وهو قد أُنشأى ليكون مرقباً للمجتمع المسلم؛ يتعرَّف منه على حركات العدو المريبة ، ويراقبها ، ولا سيَّما الأعداء الَّذين معه يساكنونه ، ويخالطونه في بلده؛ من شراذم اليهود ، وزُمَر المنافقين ، ونفايات الوثنيَّة ، الذين انغمسوا في الشِّرك ، فلم يتركوه ، ليتجنَّب المجتمع
المسلم عاقبة كيدهم ، وسوء مكرهم ، وتدبيرهم ، ويأمن مغَبَّةَ[(٣٩٤)] غدرهم ، وخياناتهم»[(٣٩٥)].

فالمسجد النَّبويُّ «بدأ بتأسيسه وبنائه رسول الله (ص) أوَّل ما بدأ من عملٍ في مستقرِّهِ ، ودار هجرته في مطلع مقدمه؛ ليكون نموذجاً يُحتذَى به في بساطة المظهر ، وعمق المخبر؛ ليحقِّق به أعظم الأهداف ، وأعمَّها بأقلِّ النفقات ، وأيسر المشقَّات»[(٣٩٦)].

٣ ـ التَّربية بالقدوة العمليَّة:

من الحقائق الثَّابتة: أنَّ النَّبيَّ (ص) شارك أصحابه العمل ، والبناء ، فكان يحمل الحجارة ، وينقل اللَّبن على صدره ، وكتفيه ، ويحفر الأرض بيديه كأيِّ واحدٍ منهم ، فكان مثال الحاكم العادل ، الَّذي لا يفرِّق بين رئيسٍ ومرؤوسٍ ، أو بين قائدٍ ومقودٍ، أو بين سيِّد ومسودٍ ، أو بين غنيٍّ ، وفقيرٍ؛ فالكلُّ سواسيةٌ أمام الله ، لا فرق بين مسلمٍ واخر إلا بالتَّقوى ، ذلك هو الإسلام: عدالةٌ ، ومساواةٌ في كلِّ شيءٍ ، والفضل فيه يكون لصاحب العطاء في العمل الجماعيِّ للمصلحة العامَّة ، وبهذا الفضل ثوابٌ من الله ، والرَّسول (ص) كغيره من المسلمين ، لا يطلب إلا ثواب الله[(٣٩٧)]؛ فقد كانت مشاركة النَّبيِّ (ص) في عملية البناء ككلِّ العمال الَّذين شاركوا فيه ، وليس بِقَطْعِ الشَّريط الحريريِّ فقط ، وليس بالضَّربة الأولى بالفأس فقط؛ بل غاص بعملية البناء كاملةً ، وقد دُهِشَ المسلمون من النَّبيِّ (ص) ؛ وقد عَلَتْهُ غَبَرَةٌ ، فتقدَّم أُسَيد بن حُضَير رضي الله عنه؛ ليحمل عن رسول الله (ص) ، فقال: يا رسول الله! أعطنيه! فقال: «اذهب فاحتمل غيره؛ فإنَّك لست بأفقرَ إلى الله منِّي»[(٣٩٨)] ، وقد سمع المسلمون ما يقول النَّبيُّ (ص) لصاحبه ، فازدادوا نشاطاً ، واندفاعاً في العمل[(٣٩٩)].

إنَّه مشهدٌ فريدٌ من نوعه ، ولا مثيل له في دنيا النَّاس ، وإذا كان الزُّعماء ، والحكَّام قد يقدمون على المشاركة أحياناً بالعمل؛ لتكون شاشات التِّلفزيون جاهزةً لنقل أعمالهم ، وتملأ الدُّنيا في الصُّحف ، ووسائل الإعلام كلِّها ، بالحديث عن أخلاقهم ، وتواضعهم؛ فالنَّبيُّ (ص) ينازع الحجرَ أحدَ أفراد المسلمين ، ويبيِّن له: أنَّه أفقر إلى الله تعالى ، وأحرص على ثوابه منه.

وقد تفاعل الصَّحابة الكرام تفاعلاً عظيماً في البناء ، وأنشدوا هذا البيت:

لَئِنْ قَعَدْنا والنَّبِيُّ يَعْمَلُلَذاك مِنَّا العَمَلُ المِضَلَّلُ[(٤٠٠)]

إنَّ هذه التَّربية العمليَّة لا تَتِمُّ من خلال الموعظة ، ولا من خلال الكلام المنمَّق ، إنَّما تتمُّ من خلال العمل الحيّ الدَّؤُوب ، والقدوةِ المصطفاة من ربِّ العالمين ، والَّتي ما كان يمكن أن تتمَّ في أجواء مكَّة ، والملاحقة ، والاضطهاد ، والمطاردة فيها ، إنَّما تَتِمُّ في هذا المجتمع الجديد ، والدَّولة الَّتي تُبنى ، وكأنَّما غدا هذا الجمع من الصَّحابة الكرام كلُّه صوتاً واحداً ، وقلباً واحداً ، فمضى يهتف:

اللَّهُمَّ إنَّ العَيْشَ عَيْشُ الاخِرَهْفانْصُرِ الأنْصَارَ وَالمهَاجِرَهْ

ويهتف بلحنٍ واحدٍ:

لَئِنْ قَعَدْنَا والنَّبِيُّ يَعْمَلُفَذَاكَ مِنَّا العَمَلُ المِضَلَّلُ

وكان الهُتاف الثَّالث:

هَذِي الحِمَالُ لاَ حِمَالُ خَيْبَرْهَذَا أَبَرُّ لِرَبِّنَا وأطْهَرْ

[البخاري (٣٩٠٦)][(٤٠١)] .

فحَمْلُ التَّمر ، والزَّبيب من خيبر إلى المدينة كان له مكانةً عظيمةً في المجتمع المدنيّ؛ لكنَّه أصبح لا يُذْكَرُ أمام حمل الطُّوب لبناء المسجد النَّبويِّ العظيم ، فقد أيقنوا بقوله تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ} [النحل: ٩٦] .

وأمَّا الهُتاف الرَّابع:

لاَ يَسْتَوي مَنْ يَعْمُرُ المِسَاجِدَايَدْأَبُ فِيْهَا قَائِماً وقَاعِدا

وَمَنْ يُرَى عَنِ الغُبَارِ حَائِدَا

[فتح الباري (٣١٤/٧) وابن هشام (١٤٢/٢)][(٤٠٢)] .

٤ ـ الاهتمام بالخبرة والاختصاص:

أخرج الإمام أحمد [مجمع الزوائد (٩/٢)] عن طَلْق بن عليٍّ اليماميِّ الحنفيِّ ، قال: بنيت المسجد مع رسول الله (ص) ، فكان يقول: «قرِّبوا اليماميَّ من الطِّين؛ فإنَّه أحسنكم له مسيساً» ، وأخرج الإمام أحمد عن طلقٍ أيضاً [الطبراني في الكبير (٨٢٥٤) ومجمع الزوائد (٩/٢)] قال: جئت إلى النَّبي (ص)؛ وأصحابه يبنون المسجد ، وكأنَّه لم يعجبه عملهم ، فأخذت المسحاة ، فخلطت الطِّين ، فكأنَّه أعجبه ، فقال: «دعوا الحنفيَّ والطِّين؛ فإنَّه أضبطكم للطِّين» ، وأخرج ابن حبَّان

عن طلقٍ ، قال: فقلت: يا رسولَ الله! أأنقل كما ينقلون؟ قال: «لا ، ولكن اخلطْ لهمُ الطِّين؛ فأنت أعلم به» [ابن حبان (١١٢٢)][(٤٠٣)] .

فقد اهتمَّ النَّبيُّ (ص) بهذا الوافد الجديد على المدينة ، والَّذي لم يكن من المسلمين الأوائل ، ووظَّف خبرته في خلط الطِّين ، وفي قوَّة العمل ، وهو درسٌ للمسلمين في الثَّناء على الكفاءات ، والاستفادة منها ، وإرشادٌ نبويٌّ كريمٌ في كيفيَّة التعامل معها ، وما أحوجَنَا إلى هذا الفهم العميق![(٤٠٤)].

٥ . شعار الدَّولة المسلمة:

إنَّ أذان الصَّلاة شعارٌ لأوَّل دولةٍ إسلاميَّة عالميَّةٍ: «الله أكبر ، الله أكبر»: إنَّها تعني: أنَّ الله أكبر من أولئك الطُّغاة ، وأكبر من صانعي العقبات ، وهو الغالب على أمره.

«أشهد أن لا إله إلا الله» أي: لا حاكمية ، ولا سيادة ، ولا سلطة ، إلا لله ربِّ العالمين ، {إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ} ، فمعنى لا إله إلا الله: لا حاكم ، ولا امر ، ولا مُشَرِّع ، إلا الله.

«أشهد أنَّ محمداً رسول الله»: أسْلَمَهُ الله تعالى القيادة ، فليس لأحدٍ أن ينزعها منه ، فهو ماضٍ بها إلى أن يُكمل الله دينه بما ينزله على رسوله من قران ، وبما يلهمه إيَّاه من سُنَّة[(٤٠٥)] ، ويعني الاعتراف لرسول الله بالرِّسالة ، والزَّعامة الدِّينيَّة والدُّنيويَّة ، والسَّمع والطَّاعة له[(٤٠٦)].

«حَيَّ على الصَّلاة.. حيَّ على الفلاح»: أقبل يا أيها الإنسان للانضواء تحت لواء هذه الدَّولة الَّتي أخلصت لله ، وجعلت من أهدافها تمتين العلاقة بين المسلم وخالقه ، وتمتين العلاقة بين المؤمنين على أساسٍ من القيم السَّامية. «قد قامت الصَّلاة»: وقد اختيرت الصَّلاة من بين سائر العبادات؛ لأنَّها عماد الدِّين كلِّه ، ولأنَّها بما فيها من الشَّعائر كالرُّكوع ، والسُّجود ، والقيام أعظم مظهرٍ لمظاهر «العبادة» بمعناها الواسع؛ الَّتي تعني: الخضوع ، والتذلُّل ، والاستكانة ، فهي خضوعٌ ليس بعده خضوعٌ ، فكلُّ طاعةٍ لله على وجه الخضوع ، والتذلُّل عبادةٌ ، فهي طاعة العبد لسيِّده ، فيقف بين يديه قد أسلم نفسه طاعةً وتذلُّلاً.

قال تعالى: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ *} [غافر: ٦٦] .

وهذا الارتباط بين شعار الدَّولة الرَّسميِّ بحاكمية الله ، وسيادة الشَّرع ، وسقوط

الطَّواغيت ، وقوانينهم ، وأنظمتهم ، وشرائعهم ، بـ «حيَّ على الفلاح... قد قامت الصَّلاة» يشير إلى أنَّه: لا قيام للصَّلاة ، ولا إقامة لها كما ينبغي إلا في ظلِّ دولةٍ تقوم عليها ، وتقوم بها ، ولها ، فقد كان

المسلمون يصلُّون خِفْيَةً في شِعاب مكَّة قبل قيام دولتهم ، أما وقد قامت تحت حماية سيوف الأنصار ، فليجهروا بالأذان ، والإقامة ، وليركعوا ويسجدوا لله ربِّ العالمين.

إنَّ الواقع التَّاريخيَّ خيرُ شاهدٍ على أنَّ الله لا يُعْبَدُ في الأرض حقَّ عبادته ، إلا في ظلِّ دولةٍ قويَّةٍ ، تحمي رعاياها من أعداء الدِّين.

ثمَّ تتكرَّر كلمات الأذان: «الله أكبر... الله أكبر» للتأكيد على المعاني السَّابقة[(٤٠٧)].

إنَّنا بحاجةٍ ماسَّةٍ لفهم الأذان ، وإدراك معانيه ، والعمل على ترجمته ترجمةً عمليَّةً؛ لنجاهد في الله حقَّ جهاده ، حتَّى ندمِّر شعارات الكفر ، ونرفع شعارات الإيمان ، ونقيم دولة التَّوحيد ، الَّتي تحكم بشرع الله ، ومنهجه القويم.

٦ ـ حكم تشييد المساجد ، ونقشها ، وزخرفتها:

والتَّشييد: أن تقام عمارة المسجد بالحجارة ، ممَّا يزيد في قوَّة بنائه ، ومتانة سقفه وأركانه. والنَّقش ، والزَّخرفة: ما جاوز أصل البناء من شتَّى أنواع الزِّينة.

فأمَّا التشييد: فقد أجازه ، واستحسنه العلماء عامَّةً؛ بدليل ما فعله عمر ، وعثمان رضي الله عنهما من إعادة بناء مسجده (ص) ؛ لأنَّ في ذلك عنايةً ، واهتماماً بشعائر الله تعالى ، واستدلَّ العلماء على ذلك بقوله تعالى: {لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ *} [التوبة: ١٠٨] .

وأمَّا النَّقش ، والزَّخرفة؛ فقد أجمع العلماء على كراهتهما ، ثمَّ هم في ذلك بين محرِّمٍ ، ومكرِّهٍ كراهةَ تنزيه؛ غير أنَّ الذين قالوا بالحرمة ، والَّذين قالوا بالكراهة اتَّفقوا على أنَّه يحرم صرف المال الموقوف لعمارة المساجد على شيءٍ من الزَّخرفة ، والنَّقش[(٤٠٨)]. وكان أوَّلَ مَنْ زخرف المساجد الوليدُ بن عبد الملك بن مَرْوان ، ومن يومها والنَّاس شرعوا يغالون في بناء المساجد ، وزخرفتها ، حتى أصبح بعضها من قبيل المتاحف ، وكلُّ ذلك خارج عن هَدي النُّبوَّة[(٤٠٩)] ، فعندما زُخرفتِ المساجد ، وخرجت عن نمط البساطة؛ الَّذي أرشد إليه النَّبيُّ (ص) ،

بخعَ الأسفُ نفوسَ المستضعفين ، وتنافس في شهوات التَّزخرف الفارغون من عواصم الإيمان[(٤١٠)].

إنَّ الذين يهتمُّون بتعمير المساجد ، وتشييدها ، وينصرفون بكلِّ جهودهم إلى التَّفنُّن في تزيينها ، ونقشها ، وإضفاء مختلف مظاهر الأبَّهة عليها قد وقعوا في خطأ عظيمٍ؛ حتَّى إنَّ الداخل إليها لا يكاد

يستشعر أيَّ معنىً من ذلِّ العبودية لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإنَّما يستشعر ما ينطق به لسان حالها من الافتخار بما ارتقى إليه فنُّ الهندسة المعماريَّة ، وفنون الزَّخرفة العربيَّة.

إنَّ الفقراء لم يعودوا يستطيعون أن يتهرَّبوا من مظاهر الإغراء الدُّنيويِّ إلى أيِّ جهةٍ ، لقد كان في المساجد ما يعزِّي الفقير بفقره ، ويخرجه من جوِّ الدُّنيا ، وزخرفها إلى الاخرة ، وفضلها ، فأصبحوا يجدون حتَّى في مظهر هذه المساجد ما يذكِّرهم بزخارف الدُّنيا الَّتي حُرموها ، ويشعرهم بنكد الفقر ، وأوضاره ، فما أسوأ ما وقع فيه المسلمون من هجران لحقائق إسلامهم ، وانشغالٍ بمظاهر كاذبةٍ ، ظاهرها الدِّين ، وباطنها الدُّنيا بكلِّ ما فيها من شهواتٍ ، وأهواءٍ![(٤١١)].

٧ ـ فضائل المسجد النَّبويِّ:

تحدَّث النَّبيُّ (ص) عن فضائل المسجد النَّبويِّ؛ ولذلك تعلَّق الصَّحابة به. ويمكننا تلخيص هذه الفضائل في الاتي:

أ ـ تأسيس المسجد النَّبويِّ على التَّقوى:

عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه ، قال: دخلتُ على رسول الله (ص) في بيت بعض نسائه ، فقلت: يا رسول الله! أيُّ المسجدينِ الَّذي أُسِّسَ على التَّقوى؟ قال: فأخذ كفاً من حَصْبَاء ، فضرب به الأرض ، ثمَّ قال: «هو مسجدكم هذا» [مسلم (١٣٩٨) والترمذي (٣٠٩٩) والنسائي (٣٦/٢) وأحمد (٨/٣)] لمسجد المدينة.

وقد تكلَّم بعض العلماء ، في الأحاديث الَّتي أشارت إلى أنَّ المسجد النَّبويَّ هو الَّذي أُسِّس على التَّقوى؛ بحجَّة أنَّها معارضةٌ لقوله تعالى: {لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ *} [التوبة: ١٠٨] .

وقد اختلف العلماء في المراد بالمسجد الَّذي أسس على التَّقوى في الاية السَّابقة ، فقال بعضهم: هو مسجد النَّبيِّ (ص) ، وقال اخرون: هو مسجد قُباء ، وقد ذكر أقوالهم محمَّدُ بن جريرٍ الطَّبريُّ في تفسيره ، ثمَّ قال: «وأولى القولين في ذلك عندي بالصَّواب ، قول مَنْ قال:

هو مسجد الرَّسول (ص) ؛ لصحَّة الخبر بذلك عن رسول الله (ص) »[(٤١٢)].

ولا معارضة بين الحديث والاية السَّابقة على القول بأنَّ المراد بالمسجد الَّذي أُسِّس على التَّقوى فيها هو مسجد قُباء؛ لأنَّ كلاً من المسجدين أُسِّس على التَّقوى[(٤١٣)]. وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة: أنَّ الاية السَّابقة نزلت بسبب مسجد قُباء ، ثمَّ قال: «لكن الحكم يتناوله ، ويتناول ما هو أحقُّ منه

بذلك ، وهو مسجد المدينة ، وهذا يوجِّه ما ثبت في الصَّحيح عن النَّبيِّ (ص) : أنَّه سئل عن المسجد الذي أُسِّس على التَّقوى ، فقال: «هو مسجدي هذا» [سبق تخريجه][(٤١٤)].

وقال في موضع اخر: «... فتبيَّن أنَّ كلا المسجدين أُسِّس على التَّقوى ، لكن مسجد المدينة أكمل في هذا النَّعت ، فهو أحقُّ بهذا الاسم ، ومسجد قُباء كان سبب نزول الاية»[(٤١٥)].

وذكر الحافظ ابن حجرٍ: أنَّ السِّرَّ في جوابه (ص) بأنَّ المسجد الَّذي أُسِّس على التَّقوى مسجده رفعُ توهم أنَّ ذلك خاصٌّ بمسجد قُباء[(٤١٦)].

ب ـ فضل الصَّلاة في المسجد النَّبويِّ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «صلاةٌ في مسجدي هذا ، خيرٌ من ألفِ صلاةٍ فيما سواه ، إلا المسجد الحرامَ» [البخاري (١١٩٠) ومسلم (١٣٩٤/٥٠٦ و٥٠٧)] .

ج ـ أحد المساجد الثَّلاثة الَّتي لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا إليها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ (ص) : أنَّه قال: «لا تُشَدُّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: «المسجد الحرام ، ومسجد الرَّسول (ص) ، ومسجد الأقصى» [البخاري (١١٨٩) ومسلم (١٣٩٧/٥١١)] .

د ـ الرَّوضة في المسجد النَّبويِّ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ (ص) قال: «ما بين بيتي ومِنْبري روضةٌ من رياض الجنَّة ، ومنبري على حوضي» [البخاري (١١٩٦) ومسلم (١٣٩١)] .

هـ فضل التَّعلُّم والتَّعليم في المسجد النَّبويِّ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّه سمع رسولَ الله (ص) يقول: «مَنْ دخل مسجدنا هذا؛ يتعلَّم خيراً ، أو يعَلِّمه؛ كان كالمجاهد في سبيل الله ، ومَنْ دخله لغير ذلك؛ كان كالنَّاظر إلى ما ليس له» [أحمد (٢/٣٥٠) وابن ماجه (٢٢٧) والحاكم (١/٩١)] .

٨ ـ ايةٌ نزلت في أهل الصُّفَّة وفقراء المهاجرين:

قال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ *} [البقرة: ٢٧٣] .

ذكر ابن سعدٍ بسنده إلى ابن كعبٍ القرظيّ ، قال: هُمْ أصحاب الصُّفَّة[(٤١٧)]. وذكر الطَّبريُّ بأسانيده عن مجاهدٍ والسُّدِّيّ: أنَّها في فقراء المهاجرين[(٤١٨)].

إنَّ الأحداث الَّتي تتعلَّق بالدِّعامة الأولى في المجتمع كثيرةٌ ، وكذلك ما يتعلَّق بها من أحكام؛ كضمان حقوق الأيتام ، وجواز نبش القبور الدَّارسة ، واتِّخاذ موضعها مسجداً إذا نظفت ، وطابت أرضُها ، إلاَّ أنني أكتفي بهذه الدُّروس ، والعبر ، والفوائد فيما يتعلَّق بالمسجد؛ خوفاً من الإطالة.

* * *

المبحث الثَّاني

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

كان مِنْ أولى الدَّعائم الَّتي اعتمدها الرَّسول (ص) في برنامجه الإصلاحيِّ والتَّنظيميِّ للأمَّة ، وللدَّولة ، والحكم ، الاستمرار في الدَّعوة إلى التَّوحيد ، والمنهج القرانيّ ، وبناء المسجد ، وتقرير المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وهي خطوةٌ لا تقلُّ أهمِّيَّةً عن الخطوة الأولى في بناء المسجد؛ لكي يتلاحم المجتمع المسلم ، ويتالف ، وتتَّضح معالم تكوينه الجديد[(٤١٩)].

كان مبدأ التَّاخي العام بين المسلمين قائماً ، منذ بداية الدَّعوة في عهدها المكِّيِّ، ونهى الرَّسول (ص) عن كلِّ ما يؤدِّي إلى التَّباغض بين المسلمين ، فقال (ص) : «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا ، ولا تَدَابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيَّامٍ» [البخاري (٦٠٦٥ و٦٠٧٦) ومسلم (٢٥٥٩)] ، وقال (ص) : «المسلم أخو المسلم ، لا يظلِمُهُ ، ولا يُسْلِمُهُ[(٤٢٠)] ، ومن كان في حاجة أخيه ، كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلمٍ كربة[(٤٢١)]، فرَّج الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عنه كربةً من كُرُبات يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ، ستره الله يوم القيامة» [البخاري (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠)] .

وقد أكَّد القران الكريم الأُخوَّة العامَّة بين أبناء الأمَّة ، في قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *} [آل عمران: ١٠٣] ،

وقوله تعالى: {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *} [الأنفال: ٦٣] .

أمَّا موضوع هذا البحث، فهو المؤاخاة الخاصَّة؛ الَّتي شُرِعت ، وترتبت عليها حقوقٌ ،

وواجباتٌ أخصُّ من الحقوق ، والواجبات العامَّة بين المؤمنين كافَّةً[(٤٢٢)].

وقد تحدَّث بعض العلماء عن وجود مؤاخاةٍ كانت في مكَّة بين المهاجرين ، فقد أشار البلاذري إلى أنَّ النَّبيَّ (ص) اخى بين المسلمين في مكَّة قبل الهجرة على الحقِّ ، والمواساة ، فاخى بين حمزة ، وزيد بن حارثة ، وبين أبي بكرٍ ، وعمر ، وبين عثمان بن عفَّان وعبد الرَّحمن بن عوف، وبين الزُّبير بن العوَّام، وعبد الله بن مسعودٍ، وبين عبيدة بن الحارث ، وبلالٍ الحبشيِّ ، وبين مصعب بن عميرٍ ، وسعد ابن أبي وقَّاصٍ ، وبين أبي عبيدة بن الجرَّاح ، وسالمٍ مولى أبي حذيفة ، وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وطلحة بن عبيد الله ، وبينه وبين عليِّ بن أبي طالب[(٤٢٣)] وَيُعَدُّ البلاذريُّ (ت ٢٧٦ هـ) أقدم مَنْ أشار إلى المؤاخاة المكِّيَّة ، وقد تابعه في ذلك ابن عبد البرِّ (ت ٤٦٣هـ) دون أن يصرّح بالنَّقل عنه ، كما تابعهما ابن سيِّد النَّاس دون التَّصريح بالنَّقل عن أحدهما[(٤٢٤)].

وقد أخرج الحاكم في المستدرك ، من طريق جميع بن عمير ، عن ابن عمر رضي الله عنهما: «اخى رسولُ الله (ص) بين أبي بكرٍ، وعمر ، وبين طلحة ، والزبير ، وبين عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان»[(٤٢٥)] ، وعن ابن عباسٍ: «اخى النَّبيُّ (ص) بين الزُّبير ، وابن مسعودٍ» [الحاكم (٣/٣١٤)][(٤٢٦)] .

وذهب كلٌّ مِنْ: ابن القيِّم ، وابن كثير إلى عدم وقوع المؤاخاة بمكَّة ، فقال ابن القيِّم: «وقد قيل: إنَّه ـ أي النَّبيَّ (ص) ـ اخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض ، مؤاخاةً ثانيةً ، واتَّخذ فيها عليّاً أخاً لنفسه ، والثَّابت الأوَّل[(٤٢٧)]؛ فالمهاجرون كانوا مستغنين بأخوَّة الإسلام ، وأخوَّة الدَّار ، وقرابة النَّسب عن عقدِ مؤاخاةٍ ، بخلاف المهاجرين مع الأنصار»[(٤٢٨)] ، أمَّا ابن كثيرٍ؛ فقد ذكر: أنَّ من العلماء من ينكر هذه المؤاخاة للعلَّة نفسها ، الَّتي ذكرها ابن القيّم[(٤٢٩)].

لم تُشِرْ كتب السِّيرة الأولى المختصَّة ، إلى وقوع المؤاخاة بمكَّة ، والبلاذريُّ ساق الخبر بلفظ «قالوا» دون إسنادٍ؛ ممَّا يضعِّف الرِّواية ، كما أنَّ البلاذريَّ نفسه ضعَّفه النُّقاد ، وعلى فرض

صحَّة هذه المؤاخاة بمكَّة ، فإنها تقتصر على المؤازرة ، والنَّصيحة بين المتاخين؛ دون أن تترتب عليها حقوق التَّوارث[(٤٣٠)].

أولاً: المؤاخاة في المدينة:

أسهم نظام المؤاخاة في ربط الأمَّة بعضها ببعض ، فقد أقام الرَّسول (ص) هذه الصِّلة على أساس الإخاء الكامل بينهم ، هذا الإخاء الَّذي تذوب فيه عصبيَّات الجاهليَّة ، فلا حَمِيَّة إلا للإسلام ، وتسقط به فوارق النَّسب ، واللَّون ، والوطن ، فلا يتأخَّر أحدٌ ، أو يتقدَّم ، إلا بمروءته ، وتقواه.

وقد جعل الرَّسولُ (ص) هذه الأخوَّة عقداً نافذاً ، لا لفظاً فارغاً ، وعملاً يرتبط بالدِّماء ، والأموال ، لا تحية تثرثر بها الألسنة ، ولا يقوم لها أثرٌ.

وكانت عواطف الإيثار ، والمواساة ، والمؤانسة تمتزج في هذه الأُخوَّة ، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال[(٤٣١)].

والسَّبب الَّذي أدَّى إلى تقوية هذه الأُخوَّة بين المهاجرين والأنصار هو أنَّ أهل هذا المجتمع ، ممَّن التقوا على دين الله وحده ، نشَّأهم دينهم الَّذي اعتنقوه ، على أن يقولوا ، ويفعلوا ، وعلَّمهم الإيمانَ ، والعملَ جميعاً ، فهم أبعد ما يكونون عن الشِّعارات الَّتي لا تتجاوز أطراف الألسنة ، وكانوا على النَّحو الَّذي حكاه الله عنهم في قوله تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *}[النور: ٥١] .

وبذلك الَّذي درج عليه المسلمون كفل البقاء ، والاستمرار لهذه الأخوَّة؛ الَّتي شدَّ الله بها أَزْرَ دينه ، ورسوله (ص) ، حتَّى اتت ثمارَها في كلِّ أطوار الدَّعوة ، طوال حياته (ص) ، وامتدَّ أثرها ، فجمع كلمة المهاجرين والأنصار عند استخلاف الصِّدِّيق رضي الله عنه دون أن تطوّع لهم أنفسهم (أي: للأنصار) أن يحدثوا صدعاً في شمل الأمَّة ، مستجيبين في ذلك لشهوات السُّلطة ، وغريزة السَّيطرة ، لذلك فإنَّ سياسة المؤاخاة بين المهاجرين ، والأنصار نوع من السَّبق السِّياسيِّ: الَّذي اتَّبعه رسول الله (ص) ، في تأصيل المودة ، وتمكينها في مشاعر المهاجرين ، والأنصار ، الَّذين سهروا جميعاً على رعاية هذه المودَّة ، وذلك الإخاء؛ بل كانوا يتسابقون في تنفيذ بنوده[(٤٣٢)] ،

ولا سيما الأنصار ، الَّذين لا يجد الكُتَّاب ، والباحثون مهما تساموا إلى ذروة البيان ، خيراً من حديث الله عنهم[(٤٣٣)].

قال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [الحشر: ٩] .

ونلحظ في الاية السَّابقة: أنَّ الله تعالى شهد لهم بخمس شهادات:

١ . تبوَّؤوا الدَّار ، والإيمان من قبلهم.

٢ . يحبُّون من هاجر إليهم.

٣ . لا يجدون في صدورهم حاجةً ممَّا أُوتوا.

٤ . ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

٥ . ومن يوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون[(٤٣٤)].

وفي الاية السَّابقة فوائدُ عظيمةٌ ، وحكمٌ جليلةٌ؛ منها:

(أ) التَّعبير عن المدينة بلفظ «الدَّار» إشعارٌ بأنَّها دارٌ خاصَّةٌ لكلِّ متوطِّنٍ بها ، متبوِّأٍى لها ، فهي بالنِّسبة لأهلها كدارٍ خاصَّةٍ للفرد ، يهنأ بالأمن ، والاستقرار ، وهو في داخلها ، وفي هذا الإشعار نوعٌ من الأُنس السَّريِّ في النَّفس ، يزيدها رُوْحاً ، وطُمأْنِينَةً ، فالأنصار في دارهم ، وإيمانهم متمكِّنون من الأمن ، والاستقرار المادِّيِّ ، تتنزَّل عليهم السَّكينة ، فتحفُّهم بنورها ، كأنَّها سياجٌ من الرَّحمة مضروبٌ عليهم ، لا يلحقهم فزعٌ ، ولا يدخل عليهم قلقٌ.

(ب) أمَّا قوله تعالى: فالضَّمير فيه {مِنْ قَبْلِهِمْ} ، ومعناه: أنَّ الأنصار هم الذين تبوَّؤوا المدينة المنوَّرة داراً لهم ، وتبوَّؤوا معها الإيمان من قبل هجرة المهاجرين إليهم؛ لأنَّ المهاجرين وإن تبوَّؤوا الإيمان قبل الأنصار؛ لأنَّهم سبقوهم إليه ، وتمكَّنوا منه أعظم تمكُّنٍ ، وتمكَّن هو منهم أبلغ تمكُّنٍ؛ لكنَّهم لم يتبوَّؤوا مع الإيمان داراً يتمكَّنون فيها من الاستقرار الحسِّيِّ المادِّيِّ ، والأمن على أنفسهم ، وإيمانهم من فزعات الأعداء ، وسطواتهم ، فكان للمهاجرين في تَبَوُّؤ الإيمان دون تَبوؤ الدَّار ، وكان للأنصار تَبَوُّؤهما معاً في قرنٍ واحدٍ.

(ج) ومن لطائف القران الحكيم: أنَّه ساق مدْحَةَ المهاجرين قبل مِدْحَة الأنصار ، مفتتحاً لها بقوله: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *} [الحشر: ٨] .

فجعل فَقْد بعض ما كان مدحةً للأنصار من تَبَوُّؤ الدَّار ، والإيمان مدحةً للمهاجرين؛ لأنَّهم فقدوه ابتغاء فضل الله ورضوانه ، ونصرهم الله بنصر دينه ، ونصر رسوله (ص) بنصر رسالته ، ودعوته ، ووصفهم بأنَّهم هم الصَّادقون ، وأنَّ الناس تَبَعٌ لهم في ذلك ، فقال يشرِّفهم بهذا الاختصاص: {أُولَئِكَ

هُمُ الصَّادِقُونَ *} وقال لعامَّة المؤمنين: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ *} [التوبة: ١١٩] .

فالقَبْلِيَّةُ . أي: قوله تعالى: {مِنْ قَبْلِهِمْ} . بهذا المعنى مدحةٌ للأنصار؛ جاءت لتشعرهم بواجباتهم نحو إخوانهم الَّذين هاجروا إليهم ، تاركين ديارهم ، وأموالهم ابتغاء فضل الله ، ورضوانه ، والتَّفرُّغ لنصرة دينه ، ونصرة رسوله ، فالدَّار الَّتي فقدها المهاجرون بما فيها من أموالٍ، وفلذات أكبادٍ إنَّما فقدوها تقرُّباً بفقدها إلى الله، فأووا إلى الأنصار يتبوَّؤون معهم دارهم ، دار الأمن ، والاستقرار ، مع سبق تَبوُّئهم الإيمان قبل الأنصار ، فكمل لهم بهذه الهجرة تبوُّءُ الدَّار والإيمان ، وانفردوا بسبق تَبَوُّئِهم الإيمان. فضيلةٌ لا يشاركهم فيها غيرهم من سائر المؤمنين ، وفي طليعتهم الأنصار ، الَّذين جعلوا من الإيواء والنُّصرة دعامتين للمؤاخاة القائمة على الحبِّ الصَّادق ، فقيل في وصفهم: وهذا حبٌّ {يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ} ، والله جعله فضيلةً لهم ، ميَّزهم بها في مقابلة وصف المهاجرين بأنَّهم أُخرجوا من ديارهم ، وأموالهم؛ ابتغاء مرضاة الله ، وتعرُّضاً لفضله المنهمر عليهم غيثُه ديمة لا ينقطع ، ولا يفتر ، وهم يحملون بين جوانحهم قلوباً عامرةً بالحبِّ لإخوانهم الأنصار ، الَّذين وُصفوا بالإخلاص الصَّفيِّ ، الَّذي كان ثمرة الحبّ في الله ، ولله ، فقيل عنهم: أي: أنَّهم {وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا} تستشرف نفوسهم إلى فضلٍ ناله إخوانهم المهاجرون من سبقهم بالإيمان ، وتضحيتهم بمفارقة ديارهم ، وأموالهم ، وانتهاضهم لنصرة دين الله ، ورسالاته ، ولا يتطلَّعون إلى شيءٍ منه تطلباً له ، أو مشاركةً فيه[(٤٣٥)].

(د) وفي قوله: : والحبُّ الَّذي يسجِّله ربُّ العزَّة {يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ} تبارك وتعالى . في محكم كتابه ايات بيِّنات تُتلى ، ويُتعبَّد بها في روعة إعجازها ، وبراعة أسلوبها ، وسموِّ منهجها في الهداية ، لا يمكن أن يبقى معه في حنايا النَّفس المؤمنة اثارُ حزازةٍ تحسد المهاجرين على ما اتاهم الله من مكارم الإيمان ، والتَّضحية في سبيله بالدِّيار ، والأموال ، بله متعةً مادِّيَّةً زائلةً تافهةً.

وصفات المدحة السَّلبيَّة لا تذكر في مقامها إلا إذا كانت ممكنة الوقوع ، فيكون نفيُها عنصراً من عناصر المدح المقتضية إحلال ما يقابلها من صفاتٍ إيجابيَّةٍ في بناء المدحة المشرِّفة[(٤٣٦)].

فإذا قيل في وصف الأنصار بعد وصفهم بحبِّهم المهاجرين: {وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا} ، معنى ذلك: أنَّ هؤلاء الأنصار سَمَوا في حبِّهم لإخوانهم المهاجرين إلى ذِروة الصَّفاء ، والإخلاص ، ووحدة الشُّعور ، وامتلأت صدورهم بهذا الحبِّ القدسيِّ ، فلم تعد تتَّسع لشيءٍ معه ، إلا أن يكون

ذلك الشَّيء أثراً من اثار الحبِّ ، وليس ذلك إلا ذِروة الفضائل ، وهو إيثارهم على أنفسهم بكلِّ مكرمة ، ولو كانوا هم في أشدِّ الحاجة إليها[(٤٣٧)].

(هـ) ومجيء قوله تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ } عقب قوله عزَّ شأنُه: { يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ } بيانٌ لثمرة هذا الحب ، وهي ثمرةٌ سما بها الأنصار إلى افاقٍ لم تصل إليها البشريَّة في تاريخها البعيد السَّحيق ، ولا في تاريخها الدَّاني القريب ، تلك هي ثمرة الإيثار على النَّفس ، الَّتي أثمرها الحبُّ الإيمانيُّ[(٤٣٨)].

(و) ثمَّ وُصِفُوا بالفلاح على جهة الاختصاص به في مقابلة اختصاص المهاجرين بالصِّدق في عزائمهم ، والإخلاص في إيمانهم ، فقيل فيهم بعد تقرير: أنَّهم بهذا الإيثار صفَتْ نفوسُهم من كُدورات التَّطلُّعات ، والحزازات ، وأخلصوا الحبَّ لإخوانهم المهاجرين ، وطُهِّروا من رشح الشُّح ، فتوقَّوه بفضيلة الكرم والسَّخاء المؤثر: {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *}

كان هذا الحبُّ الأخويُّ بين المهاجرين والأنصار ، هو الأساس الَّذي قامت على دعائمه المؤاخاة الاجتماعيَّة؛ الَّتي عقدها النَّبيُّ (ص) بين أصحابه بعد مَقْدِمِه المدينة ، فقد كانت هذه المؤاخاة ، من أسبق الأعمال؛ الَّتي قام بها رسول الله (ص) أوَّل ما استقرَّ في مقامه ، وأخذ في بناء مسجده الأعظم[(٤٣٩)].

والظاهر: أنَّ ابتداءها كان في المسجد؛ وهو يُبْنى ، والنَّبيُّ (ص) مشغولٌ في بنائه مع أصحابه من المهاجرين ، والأنصار ، وكان ذلك المكان الطَّاهر ، والعمل الشَّريف الخالص لوجه الله ـ تبارك وتعالى ـ أنسب الأمكنة لبدء المؤاخاة ، لما فيهما من اقتضاء التَّرافق ، والتَّعاون ، والتَّعاضد ، والتَّواسي ، والتَّناصر ، والتوادُد ، وتقوية اصرة الأخوَّة الإيمانيَّة ، فاخى رسول الله (ص) بين العاملين معه في بناء المسجد أوَّلاً ، ثمَّ اخى بين قومٍ اخرين في دار أنسٍ ،

وتكرَّر ذلك منه (ص) ، حتَّى استوعبت المؤاخاة عدد طلائع المهاجرين ، والأنصار ، وكانوا نحو المئة ، نصفهم من المهاجرين ، ونصفهم من الأنصار[(٤٤٠)].

بعض أسماء المهاجرين والأنصار ممَّن تاخوا في الله:

أبو بكرٍ الصِّديق رضي الله عنه ، وخارجة بن زهيرٍ. وعمر بن الخطَّاب ، وعتبان بن مالكٍ. وأبو عبيدة بن الجرَّاح ، وسعد بن معاذ. وعبد الرَّحمن بن عوفٍ ، وسعد بن الرَّبيع. والزُّبير بن العوام ، وسلامة بن سلامة بن وَقْشٍ. وطلحة ابن عُبيد الله ، وكعب بن مالكٍ. وسعيد بن زيدٍ ، وأُبيُّ بن كعبٍ. ومصعب

بن عميرٍ ، وأبو أيوبٍ خالد بن زيد. وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وعبَّاد بن بشر بن وَقْش. وعمَّار بن ياسر ، وحذيفة بن اليمان. وأبو ذرٍّ الغفاريُّ ، والمنذر بن عمرو. وحاطب بن أبي بلتعة[(٤٤١)] ، وعُوَيم بن ساعدة. وسلمان الفارسي ، وأبو الدَّرداء. وبلال مؤذِّن رسول الله (ص) ، وأبو رُوَيْحة عبد الله بن عبد الرَّحمن الخَثْعميُّ[(٤٤٢)].

ثانياً: الدُّروس ، والعبر ، والفوائد:

١ ـ اصرة العقيدة هي أساس الارتباط:

إنَّ المجتمع المدنيَّ الَّذي أقامه الإسلام كان مجتمعاً عقديّاً يرتبط بالإسلام ، ولا يعرف الموالاة إلا لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين ، وهو أعلى أنواع الارتباط ، وأرقاه؛ إذ يتَّصل بوحدة العقيدة ، والفكر ، والرُّوح[(٤٤٣)].

إنَّ الولاء لله ، ولرسوله (ص) ، وللمؤمنين من أهمِّ الاثار ، والنَّتائج المترتِّبة على الهجرة ، وكان القران الكريم يربِّي المسلمين على هذه المعاني الرَّفيعة ، فقد بيَّن الحقُّ ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّ ابن نوحٍ وإن كان من أهله باعتبار القرابة؛ لكنَّه لم يَعُدْ من أهله لما فارق الحقَّ ، وكفر بالله ، ولم يتَّبع نبيَّ الله. قال تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ *قَال يانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ *} [هود: ٤٥ ، ٤٦] .

وقد حصر الإسلامُ الأُخوَّة والموالاة بين المؤمنين فقط. قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *} [الحجرات: ١٠] وقطع الولاية بين المؤمنين ،

والكافرين من المشركين ، واليهود ، والنَّصارى ، حتَّى لو كانوا اباءهم ، أو إخوانهم ، أو أبناءهم ، ووصف مَنْ يفعل ذلك من المؤمنين بالظُّلم ، ممَّا يدلُّ على أنَّ موالاة المؤمنين للكافرين ، من أعظم الذُّنوب.

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ *} [التوبة: ٢٣] .

وقال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ

*إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ *لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *} [الممتحنة: ١ ـ ٣] .

فإذا كان الله سبحانه يحذِّر المؤمنين في الايات السَّابقة من موالاة الكفَّار عامَّةً ، فهناك اياتٌ كثيرةٌ وردت في تحذير المؤمنين ، ونهيهم عن طاعة أهل الكتاب خاصَّةً ، أو اتخاذهم أولياء ، أو الرُّكون إليهم[(٤٤٤)].

قال تعالى: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ *} [البقرة: ١٢٠] وقال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ *} [آل عمران: ١٠٠] ، وقال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *} [المائدة: ٥١] .

قال صاحب الظِّلال: «هذا النِّداء موجَّهٌ إلى الجماعة المسلمة في المدينة ، ولكنَّه في الوقت ذاته موجَّهٌ لكلِّ جماعةٍ مسلمةٍ ، تقوم في أيِّ ركنٍ من أركان الأرض إلى يوم القيامة ، ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ ذاك لتوجيه هذا النداء لِلَّذين امنوا: أنَّ المفاصلة لم تكن كاملةً ، ولا حاسمةً بين بعض المسلمين في المدينة ، وبعض أهل الكتاب ، وبخاصَّةٍ اليهود ، فقد كانت هناك علاقات ولاءٍ ، وحلفٍ ، وعلاقات اقتصادٍ ، وتعاملٍ ، وعلاقات جيرةٍ ، وصحبةٍ ، وكان هذا كلُّه طبيعياً مع الوضع التَّاريخي ، والاقتصاديِّ ، والاجتماعيِّ في المدينة قبل الإسلام بين أهل المدينة من العرب ، وبين اليهود بصفةٍ خاصَّةٍ ، وكان هذا الوضع يتيح لليهود أن يقوموا بدورهم في الكيد لهذا الدِّين وأهله بكل صنوف الكيد؛ التي عدَّدَتْها ، وكشفتها النُّصوص القرانيَّة الكثيرة.

ونزل القران؛ ليبثَّ الوعي اللاَّزم للمسلم في المعركة الَّتي يخوضها بعقيدته ، لتحقيق منهجه الجديد في واقع الحياة؛ ولينشأى في ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة ، بينه وبين كلِّ من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة ، ولا يقف تحت رايتها الخاصَّة. المفاصلة الَّتي لا تُنهي السَّماحة الخلقيَّة ، فهذه صفة المسلم دائماً ، ولكنَّها تنهي الولاء الَّذي لا يكون في قلب المسلم إلا لله ، ورسوله ، والذين امنوا. الوعي ، والمفاصلة اللَّذان لابُدَّ منهما في كلِّ أرضٍ ، وفي كلِّ جيلٍ... {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [المائدة: ٥١] ، إنَّها حقيقةٌ لا علاقة لها بالزّمن؛ لأنَّها حقيقةٌ نابعةٌ من طبيعة الأشياء ، إنَّهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسلمة في أيِّ أرضٍ ، ولا في أيِّ تاريخٍ ، وقد مضت القرون تلو القرون ، ترسم مصداق هذه المقولة

الصَّادقة ، ولم تختلَّ هذه القاعدة مرَّةً واحدةً ، ولم يقع في هذه الأرض إلا ما قرَّره القران الكريم في صيغة الوصف الدَّائم ، لا الحادث المفرد ، واختيار الجملة الاسميَّة على هذا النَّحو ، {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [المائدة: ٥١] ليست مجرد تعبير! إنَّما هي اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدَّائم الأصيل»[(٤٤٥)].

وقد نهى الله ـ سبحانه ـ المؤمنين عن اتخاذ المنافقين أولياء؛ وذلك لأنَّ من أبرز صفاتهم موالاة الكفار ، وكراهية دين الله. قال تعالى: {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَولِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا *} [المنافقين: ١٣٨ ـ ١٣٩] .

وقد جاءت اياتٌ توضِّح صور هذه المفاصلة في القران المدنيّ ، ومنها قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ *} [التوبة: ٧٣] .

ونهى المولى ـ عزَّ وجل ـ عن الصَّلاة عليهم ، أو القيام على قبورهم. قال تعالى: {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ *} [التوبة: ٨٤] .

وحدَّد المولى ـ عزَّ وجل ـ لِلَّذين امنوا جهة الولاء الوحيدة ، الَّتي تتَّفق مع صفة الإيمان ، وبيَّن لهم من يتولَّون. قال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ *وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ *} [المائدة: ٥٥ ـ ٥٦] .

فقد فهم الصحابة: أنَّ ولاءهم لا يكون إلا لقيادتهم ، وإخلاصهم لا يكون إلا لعقيدتهم ، وجهادهم لا يكون إلا لإعلاء كلمة الله ، فحقَّقوا ذلك كلَّه في أنفسهم ، وطبَّقوه على حياتهم ، فمحَّضوا ولاءهم ، وجعلوه لله ، ورسوله ، والمؤمنين ، وأصبح تاريخهم حافلاً بالمواقف الرَّائعة ، الَّتي تدلُّ على فهمهم العميق لمعنى الولاء ، الذي منحوه لخالقهم ، ولدينهم ، وعقيدتهم ، وإخوانهم.

إنَّ التَّاخي الَّذي تمَّ بين المهاجرين ، والأنصار كان مسبوقاً بعقيدةٍ تمَّ اللِّقاء عليها ،

والإيمان بها؛ فالتاخي بين شخصين يُؤْمِن كلٌّ منهما بفكرةٍ ، أو عقيدةٍ مخالفةٍ للأخرى خرافةٌ ، ووَهْمٌ ، خصوصاً إذا كانت تلك الفكرة ، أو العقيدة ، ممَّا تَحْمِلُ صاحبها على سلوكٍ معيَّنٍ في الحياة العمليَّة ، ولذلك كانت العقيدة الإسلاميَّة الَّتي جاء بها رسولُ الله (ص) من عند الله تعالى هي العمود الفقريّ للمؤاخاة التي حدثت؛ لأنَّ تلك العقيدة تضع الناس كلَّهم في مصافِّ العبودية الخالصة لله ، دون الاعتبار لأيِّ فارقٍ ، إلا فارق التَّقوى ، والعمل الصَّالح؛ إذ ليس من المتوقَّع أن يسود الإخاء ، والتَّعاون

، والإيثار بين أناسٍ شَتَّتَتْهُمُ العقائد ، والأفكار المختلفة ، فأصبح كلٌّ منهم ملكاً لأنانيته ، وأثرته ، وأهوائه[(٤٤٦)] .

٢ . الحبُّ في الله أساسُ بنية المجتمع المدنيّ:

إنَّ المؤاخاة على الحبِّ في الله من أقوى الدَّعائم في بناء الأمَّة المسلمة ، فإذا وَهَتْ؛ تاكل كلُّ بنيانها[(٤٤٧)]؛ ولذلك حرصَ النَّبيُّ (ص) على تعميق معاني الحبِّ في الله ، في المجتمع المسلم الجديد ، فقد قال (ص) : «إنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابُّون بجلالي؟ اليوم أُظلُّهم في ظلِّي؛ يوم لا ظلَّ إلا ظِلِّي» [مسلم (٢٥٦٦) وأحمد (٢/٢٣٧ و٥٣٥) ومالك في الموطأ (٢/٩٥٢)].

وقال: «قال الله تبارك وتعالى: حقَّت محبَّتي للمتحابِّين فيَّ ، وحقَّت محبَّتي للمتواصلين فيَّ ، وحقَّت محبَّتي للمتباذلين فيَّ. المتحابُّون فيَّ على منابرَ من نورٍ ، يغبطهم النَّبيُّون ، والصِّدِّيقون ، والشُّهداء» [أحمد (٥/٢٢٩ و٢٣٩) وابن حبان (٥٧٧) وروى الترمذي (٢٣٩٠) طرفه الأخير] .

كانت توجيهات النَّبيِّ (ص) ، تحثُّ الصَّحابة على معاني الحبِّ والتَّكافل ، واحترام المسلمين بعضهم بعضاً ، فلا يستعلي غنيٌّ على فقيرٍ ، ولا حاكمٌ على محكومٍ ، ولا قويٌّ على ضعيفٍ ، وكان للحبِّ في الله أثرُه في المجتمع المدنيّ الجديد ، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاريٍّ بالمدينة نخلاً ، وكان أحبَّ أمواله إليه بَيْرُحَاء ، وكانت مُستقبلةَ المسجد ، وكان رسول الله (ص) يدخلها ، ويشرب من ماءٍ فيها طيِّبٍ ، فلمَّا نزلت: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ *} [آل عمران: ٩٢]؛ قام أبو طلحة ، فقال: يا رسول الله! إنَّ الله يقول: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} ، وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ (بَيْرُحاء) ، وإنَّها صدقةٌ لله ، أرجو بِرَّها ، وذُخْرها عند الله ، فضعها يا رسول الله! حيث أراك الله. قال رسول الله (ص) : «ذلك مالٌ رابحٌ! ذلك مالٌ رابحٌ! وقد سمعتُ ما قلتَ ، وإنِّي أرى أن

تجعلها في الأقربين» ، فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله! فقسَّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمِّه. [البخاري (١٤٦١)][(٤٤٨)] ومسلم (٩٩٨)] .

وهذا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يحدِّثنا عن هذه المعاني الرَّفيعة ، حيث قال: لما قدمنا المدينة؛ اخى رسولُ الله (ص) بيني ، وبين سعدٍ بن الرَّبيع ، فقال سعد بن الرَّبيع: إنِّي أكثر الأنصار مالاً ، فأَقسمُ لك نصف مالي ، وانظر أيَّ زوجتيَّ هويتَ؛ نَزَلْتُ لك عنها ، فإذا حَلَّتْ[(٤٤٩)]؛ تزوَّجتَها.

قال: فقال له عبد الرَّحمن: لا حاجة لي في ذلك ، هل من سوقٍ فيه تجارةً؟ قال: سوق قينقاع[(٤٥٠)].

قال: فغدا إليه عبد الرَّحمن فأتى بأقطٍ ، وسمنٍ ، قال: ثمَّ تابع الغُدُوَّ[(٤٥١)] ، فما لبث أن جاء عبدُ الرَّحمن عليه أثَرُ صُفرةٍ ، فقال رسول الله (ص) : «تَزَوَّجتَ؟» قال: نعم. قال: «ومَنْ؟» قال: امرأةً من الأنصار. قال: «كم سُقْتَ؟» قال: زِنَةَ نواةٍ من ذهبٍ . أو: نواةً من ذهب . فقال له النَّبيُّ (ص) : «أوْلِمْ ولو بشاةٍ» [البخاري (٢٠٤٨ و٣٧٨٠) ومسلم (١٤٢٦)].

ونلاحظ: أنَّ كرم سعد بن الرَّبيع قابله عفةُ وكرمُ نفسٍ من عبد الرَّحمن بن عوفٍ رضي الله عنهما ، ولم يكن مسلك عبد الرَّحمن بن عوفٍ خاصّاً به؛ بل إنَّ الكثير من المهاجرين كان مكوثهم يسيراً في بيوت إخوانهم من الأنصار ، ثمَّ باشروا العمل ، والكسب ، واشتروا بيوتاً لأنفسهم ، وتكفَّلوا بنفقة أنفسهم؛ ومن هؤلاء: أبو بكرٍ ، وعمر ، وعثمان ، وغيرُهم رضي الله عنهم.

٣ ـ النَّصيحة بين المتاخين في الله:

كان للمؤاخاة أثرٌ في المناصحة بين المسلمين ، فقد اخى النَّبيُّ (ص) بين سلمان ، وأبي الدَّرداء ، فزار سلمانُ أبا الدَّرداء ، فرأى أمَّ الدرداء ، مُتَبَذِّلَةً ، فقال لها: ما شأنُكِ؟ قالت: أخوك أبو الدَّرداء ، ليس له حاجةٌ في الدُّنيا. فجاء أبو الدَّرداء فصنع له طعاماً ، فقال له: كلْ ، فإنِّي صائم ، قال: ما أنا باكلٍ حتَّى تأكل. قال: فأكل ، فلمَّا كان اللَّيل؛ ذهب أبو الدَّرداء يقوم ، قال: نَمْ ، فنام ، ثمَّ ذهب يقوم ، فقال: نَمْ. فلمَّا كان اخر اللَّيل ، قال سلمان: قم الان ، فصَلَّيا. فقال له سلمان: إنَّ لربِّك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، فأعط كلَّ ذي حقٍّ حقَّه. فأتى النبيَّ (ص) فذكر ذلك له ، فقال له النَّبيُّ (ص) : «صَدَقَ سلمان» [البخاري (١٩٦٨ و٦١٣٩) والترمذي (٢٤١٣)] .

٤ ـ لا ما أثنيتم عليهم ، ودعوتم الله لهم:

كان الأنصار قد واسوا إخوانهم المهاجرين بأنفسهم ، وزادوا على ذلك بأن اثروهم على أنفسهم بخير الدُّنيا ، وهذا شاهدٌ على صدق محبَّتهم ، وقوَّة إيمانهم ، فقد رويت نماذج عالية من مواقف الأنصار ، الَّتي كان لها أثرٌ عميق في نفوس المهاجرين ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قالت الأنصارُ للنَّبيِّ: اقْسِمْ بيننا وبين إخواننا النَّخيلَ. قال: لا. فقالوا: تكفوننا المؤونة ، ونشرككم في الثَّمرة. قالوا: سمعنا ، وأطعنا» [البخاري (٢٣٢٥)] .

فهذا الحديث يفيد: أنَّ الأنصار عرضوا على النَّبيِّ (ص) ، أن يتولَّى قسمة أموالهم بينهم ، وبين إخوانهم المهاجرين ، وقد كانت أموالهم هي النَّخيل ، فأبى عليهم النَّبيُّ (ص) ، وأراد أمراً تكون فيه المواساة من غير إجحافٍ بالأنصار بزوال ملكية أموالهم عنهم ، فقال الأنصار للمهاجرين: تكفوننا المؤونة . أي: العمل في النَّخيل من سقيها ، وإصلاحها . ونشرككم في الثَّمرة ، فلمَّا قالوا ذلك؛ رأى رسولُ الله (ص) : أنَّ هذا الرأي ضمن سدِّ حاجة المهاجرين ، مع الإرفاق بالأنصار ، فأقرَّهم على ذلك؛ فقالوا جميعاً: سمعنا ، وأطعنا[(٤٥٢)].

وقد قام الأنصار بالمؤونة ، وأشركوا المهاجرين في الثَّمرة ، ولعلَّ المهاجرين كانوا يساعدونهم في العمل ، ولكنَّ أكثر العمل عند الأنصار. وقد شكر المهاجرون للأنصار فعلهم ، ومواقفهم الرَّفيعة في الإيثار ، والكرم ، وقالوا: يا رسول الله! ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً في قليلٍ ، ولا أحسن بذلاً في كثيرٍ ، ولقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ[(٤٥٣)] ، حتَّى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كلِّه ، قال: «لا ، ما أثنيتم عليهم ، ودعوتم الله . عزَّ وجل . لهم» [أحمد (٣/٢٠٠ . ٢٠١) والترمذي (٢٤٨٧) وابن أبي شيبة (٩/٦٨)] .

وفي إشارة المهاجرين إلى الأجر الأخرويِّ بيانٌ لعمق تصوُّرهم للحياة الاخرة ، وهيمنة هذا التَّصور على تفكيرهم[(٤٥٤)].

وقد أراد النَّبيُّ (ص) أن يكافأى الأنصار على تلك المكارم العظيمة ، الَّتي قدَّموها لإخوانهم المهاجرين ، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: «دعا النَّبيُّ (ص) الأنصارَ إلى أن يُقْطِعَ لهمُ البحرين ، فقالوا: لا ، إلا أن تُقْطِع لإخواننا من المهاجرين مثلَها. قال: إمَّا لا؛ فاصبروا حتَّى تلْقَوني؛ فإنَّه سيصيبكم بعدي أَثَرَةٌ» [البخاري (٣٧٩٤)] .

لقد حقَّقتْ هذه المؤاخاةُ أهدافها ، فمنها إذهاب وحشة الغربة للمهاجرين ، ومؤانستهم عن مفارقة الأهل ، والعشيرة ، وشدِّ أزر بعضهم بعضاً ، ومنها نهوض الدَّولة الجديدة؛ لأنَّ أيَّ دولةٍ لا يمكن أن تنهض ، وتقوم إلا على أساس من وحدة الأمَّة ، وتساندها ، ولا يمكن لكلٍّ من الوحدة والتَّساند أن يتمَّ بغير عاملِ التَّاخي والمحبَّة المتبادلة ، فكلُّ جماعةٍ لا تؤلف بينها اصرة المودة ، والتَّاخي الحقيقية لا يمكن أن تتَّحد حول مبدأ ما ، وما لم يكن الاتِّحاد حقيقةً قائمةً في الأمَّة ، أو الجماعة ، فلا يمكن أن تتألَّف منها دولةٌ[(٤٥٥)].

٥ . الإرث بالمؤاخاة:

لم يعرف تاريخ البشر كلُّه حادثاً جماعيّاً ، كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين، بهذا الحبِّ الكريم ، وبهذا البذل السَّخيِّ ، وبهذه المشاركة الفعَّالة ، وبهذا التَّسابق إلى الإيواء ، واحتمال الأعباء ، فقد طُبِّقت الأخوَّة في الواقع العمليِّ لحياة الصَّحابة رضي الله عنهم.

إنَّ ما أقامه الرَّسول (ص) بين أصحابه من مبدأ تاريخيٍّ لم يكن مجرَّد شعارٍ في كلمةٍ أجراها على ألسنتهم؛ وإنَّما كان حقيقةً عمليَّةً ، تتَّصل بواقع الحياة ، وبكلِّ أوجه العلاقات القائمة بين الأنصار والمهاجرين ، فقد جعل النَّبيُّ (ص) من هذه الأخوة مسؤوليَّةً حقيقيَّةً ، تشيع بين هؤلاء الإخوة ، وكانت هذه المسؤوليَّة تؤدَّى فيما بينهم على خير وجهٍ ، ولذلك جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ حقَّ الميراث منوطاً بهذا التَّاخي دون حقوق القرابة والرَّحم ، فقد كان من حكمة التَّشريع أن تتجلَّى الأخوَّة الإسلاميَّة حقيقةً محسوسةً في أذهان المسلمين ، وأن يعلموا أنَّ ما بين المسلمين من التاخي والتَّحابب ، ليس شعاراً ، وكلاماً مجرَّدين؛ وإنَّما هي حقيقةٌ قائمةٌ ، ذات نتائج اجتماعيَّةٍ محسوسةٍ ، تكوِّن أهمَّ أسس نظام العدالة الاجتماعيَّة. أمَّا حكمة نسخ التَّوارث على أساس هذه الأخوَّة فيما بعد ، فهي أنَّ نظام الميراث الَّذي استقرَّ أخيراً إنَّما هو نفسه قائم على أخوَّة الإسلام بين المتوارثين؛ إذ لا توارث بين ذوي دينين مختلفين؛ إلا أنَّ الفترة الأولى من الهجرة ، وضعت كلاً من الأنصار والمهاجرين ، أمام مسؤوليَّةٍ خاصَّةٍ من التعاون ، والتَّناصر ، والمؤانسة؛ بسبب مفارقة المهاجرين لأهلهم ، وتركهم ديارهم ، وأموالهم في مكَّة ، ونزولهم ضيوفاً على إخوانهم الأنصار في المدينة ، فكان من إقامة الرَّسول (ص) من التَّاخي بين أفراد المهاجرين ، والأنصار ضمانةٌ لتحقيق هذه المسؤوليَّة ، ولقد كان من مقتضى هذه المسؤوليَّة أن يكون هذا التاخي أقوى في حقيقته ، وأثره من أُخوَّة الرَّحم المجرَّدة ، فلمَّا استقرَّ أمر المهاجرين في المدينة ، وتمكَّن الإسلام فيها؛ غدت الرُّوح الإسلاميَّة هي وحدها العصب الطَّبيعيُّ للمجتمع الجديد في المدينة[(٤٥٦)].

ولما أَلِفَ المهاجرون جوَّ المدينة ، وعرفوا مسالك الرِّزق فيها ، وأصابوا من غنائم بدرٍ الكبرى ما كفاهم؛ رجع التَّوارث إلى وضعه الطَّبيعيِّ ، المنسجم مع الفطرة البشريَّة ، على أساس صلة الرَّحم ، وأبطل التَّوارث بين المتاخين ، وذلك بنصِّ القران الكريم. قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *} [الأنفال: ٧٥].

فهذه الاية نسخت التَّوارث بموجب نظام المؤاخاة[(٤٥٧)] ، وبقيت النُّصرة ، والرِّفادة ، والنَّصيحة بين المتاخين[(٤٥٨)] ، فقد بيَّن حَبْرُ الأمَّة ابن عباسٍ ذلك عند قوله تعالى: {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا *} [النساء: ٣٣] .

قال: {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ} قال: ورثةً { وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ} كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرثُ المهاجرُ الأنصاريَّ دون ذوي رحمه؛ للأُخوة الَّتي اخى النَّبيُّ (ص) بينهم ، فلمَّا نزلت {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ}؛ نسخت، ثمَّ قال: {وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ}[(٤٥٩)] من النصر، والرِّفادة والنَّصيحة ، وقد ذهب الميراثُ ، ويُوصي له [البخاري (٢٢٩٢ و٤٥٨٠ و٦٧٤٧) وأبو داود (٢٩٢٢) والنسائي في السنن الكبرى (١١٠٣٧)] .

٦ ـ قيمٌ إنسانيَّة ومبادأى مثاليَّةٌ:

من خلال الرَّوابط الوثيقة الَّتي أَلَّفَتْ بين المهاجرين ، والأنصار أُرْسِيَتْ قيمٌ إنسانيَّةٌ ، واجتماعيَّةٌ ، ومبادأى مثاليَّةٌ لا عهد للمجتمع القبليِّ بها؛ وإنَّما هي من شأن المجتمعات المتحضِّرة الفاضلة ، وفي مقدمة تلك القيم قيمة العمل الشَّريف كوسيلةٍ لكسب الرِّزق ، فلقد قَبِلَ المهاجرون في أوَّل الأمر ما أظهره إخوانهم الأنصار من كرم الضيافة ، ولكنَّهم أبوا بعد ذلك إلا أن يبحثوا عن موارد رزقٍ لهم ، ولا يُعوِّلُوا على رابطة المؤاخاة الَّتي سعد بها الأنصار ، فكان منهم من اشتغل بالتِّجارة ، ومنهم من عمل بالزِّراعة ، مستعذبين متاعب العمل على أن يكونوا عالةً على إخوانهم؛ ذلك لأنَّ عزَّة الإيمان لا ترضى لصاحبها أن يكون عالةً على أحدٍ ، بل تطلب منه أن يعطي أكثر ممَّا يأخذ ، فاليد العليا خيرٌ ، وأحبُّ إلى الله من اليد السُّفلى ، وقد فهم الصَّحابة الكرام من تعاليم الإسلام: أنَّ العمل عبادةٌ ، وهي منزلةٌ لم تصل إليها النُّظم المعاصرة ، الَّتي قصرت فائدتها على سدِّ حاجات الإنسان المادِّيَّة والمعنويَّة ، وفي ضوء هذا

المفهوم الإسلاميّ نستطيع أن نقول: إنَّ الإخاء ، والعمل كانا حَجَرَ الزَّاوية في بناء مجتمع دار المهجر ، وبالتَّالي في تأسيس الحضارة الإسلاميّة؛ الَّتي بُنيت أصولها في المدينة بعد إقامة أوَّل دولةٍ في الإسلام ، برئاسة النَّبيِّ (ص) ، ثمَّ ترعرعت حتَّى أصبحت شجرةً يتفيَّأ ظلالَها العالمُ كلُّه[(٤٦٠)].

٧ ـ تذويب الفوارق الإقليمية والقبلية:

إنَّ القضاء على الفوارق الإقليميَّة ، والقبليَّة ، ليس بالأمر الهيِّن في المجتمعات الجاهليَّة؛ حيث العصبية هي الدِّين عندهم ، وعملية المؤاخاة تهدف إلى إذابة هذه الفوارق بصورةٍ واقعيَّةٍ ، منطلقةٍ من قلب البيئة الجاهليَّة.

إنَّ من الأمراض في الصَّفِّ الإسلاميِّ المعاصر ، سيطرةَ الرُّوح الإقليميَّة ، والعصبيَّة في نفوس بعض الدُّعاة ، وهذه الأمراض تحول بينهم وبين التَّمكين ، وتُضعف الصُّفوف؛ بل تُشتِّتها ، وينشغل الصَّفُّ بنفسه عن أهدافه الكبار. وقد أصيبت بعض الحركات الإسلاميَّة بداء العصبية الإقليميَّة ، والعصبيَّة الشَّخصيَّة ، والعصبية القُطريَّة ، والعصبية حتَّى على مستوى المدينة ، والقرية الصَّغيرة[(٤٦١)] ، وقد تولَّد هذا عن أمراضٍ في نفوس بعض الأفراد ، بسبب بُعْدِهم عن القران الكريم ، وسنَّة سيِّد المرسلين (ص) ، فلم يتربَّوا عليها؛ ولذلك كثر التَّناحر ، والتَّباغض.

إنَّ المسلمين اليوم في أشدِّ الحاجة إلى مثل هذه المؤاخاة؛ الَّتي حدثت بين المهاجرين ، والأنصار؛ لأنَّه يستحيل أن تُسْتَأْنف حياةٌ إسلاميَّةٌ عزيزةٌ قويَّةٌ؛ إذا لم تتخلَّق المجتمعات الإسلاميَّة بهذه الأخلاق الكريمة ، وترتقي إلى هذا المستوى الإيمانيّ الرَّفيع ، وإلى هذه التَّضحيات الكبيرة ، وأمَّا المظاهر الزَّائفة من الأخوة (باللِّسان)؛ فلا تجدي فتيلاً.

إنَّ الفرد المسلم حين يشعر: أنَّ له إخوةً يحبُّهم ، ويحبُّونه ، وينصرهم ، وينصرونه ، خاصَّةً إذا تفاقمت الأزمات ، وضاقت عليه الأرض بما رَحُبَتْ ، فإنَّ هذا ممَّا يرفع من رُوحه المعنويَّة؛ بل ويرفع قدراته الذَّاتية ، ويجعله أقوى مضاءً ، وعزيمةً ، وإنَّ فقدان مثل هذه المؤاخاة ، ممَّا يضعف الصفَّ الإسلاميَّ ، ويجعل الفرد المسلم يشعر أحياناً: أنَّه وحيدٌ أمام أعداء يكنُّون له كلَّ حقدٍ ، ويحيطون به من كلِّ جانبٍ ، فكيف يستطيع حمل كلِّ هذه الضُّغوط النَّفسيَّة والمادِّيَّة؟![(٤٦٢)].

وقد حفظ لنا التَّاريخ جهاد المجتمع المسلم مع أعدائه ، بعد تحقيق وحدته الاجتماعيَّة ، وهو لا يزال في دَوْرِ نشأته ، وتكوينه ، وكثيراً من المحاولات الإفساديَّة ، الَّتي كان الأعداء يدبِّرون مكايدها؛ ليشعلوا بها نيران الفتن بين صفوف المجتمع المسلم ، ليفرِّقوا جمعه ، ويفكِّكوا وحدته ، ولكنَّ هذه المحاولات الإفسادية كانت تبوء بالخسران؛ لأنَّها كانت تصطدم بقوَّة تماسك المجتمع المسلم ، في تركيبه الإيمانيّ والاجتماعيِّ ، فيذيبها في تلك القوَّة ، الَّتي جعلت من تركيبه الاجتماعيِّ وحدةً مدمَّجة العناصر دمجاً لا يقبل التَّفريق ، ولا تنفصم عراه ، ولا تُحَلُّ روابطه[(٤٦٣)].

٨ ـ المؤاخاة بين المسلمين من أسباب التَّمكين المعنويَّة:

إنَّ من أسباب التَّمكين المعنويَّة العملَ على تربية الأفراد تربيةً ربانيَّةً ، وإعداد القيادة الرَّبَّانيَّة ، ومحاربة أسباب الفُرْقة ، والأخذ بأصول الوحدة ، والاتِّحاد[(٤٦٤)].

وأهمُّ أصول الوحدة ، والاتِّحاد وحدةُ العقيدة ، وصدق الانتماء إلى الإسلام ، وطلب الحقِّ ، والتَّحري في ذلك ، وتحقيق الأخوَّة بين أفراد المسلمين.

إنَّ من الأصول العظيمة؛ التي تحقِّق وحدة الصَّف ، وقوَّة التَّلاحم ، ومتانة التَّماسك بين أفراد المسلمين تحقيق الأخوَّة في أوساطهم.

إنَّ الأُخوَّة منحةٌ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يعطيها الله للمخلصين من عباده ، والأصفياء ، والأتقياء من أوليائه ، وجنده. قال تعالى: {وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ *وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *} [الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣].

وهي قوَّةٌ إيمانيَّةٌ ، تورث شعوراً عميقاً بعاطفةٍ صادقةٍ ، ومحبَّةٍ وودٍّ ، واحترامٍ ، وثقةٍ متبادلةٍ مع كلِّ مَنْ تربطنا بهم عقيدة التَّوحيد ، ومنهج الإسلام الخالد ، يتبعها ، ويستلزمها تعاونٌ ، وإيثارٌ ، ورحمةٌ ، وعفوٌ ، وتسامحٌ ، وتكافلٌ ، وتآزرٌ ، وهي ملازمةٌ للإيمان. قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *} [الحجرات: ١٠] .

ولا يذوق حلاوة الإيمان ، إلا من أشرب هذه الأُخوَّة. قال (ص) : «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان: أن يكون اللهُ ، ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما ، وأن يُحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقْذَفَ في النَّار» [البخاري (١٦) ومسلم (٤٣)] .

إنَّ القران الكريم يرسم لنا صورةً جميلةً لأصحاب رسول الله (ص) . قال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا *} [الفتح: ٢٩] .

إنَّ القران الكريم حين وضع بين دفتيه هذه الصُّورة إنَّما يخبرنا بتكريم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؛ فَهُمْ: أشدَّاء على الكفَّار؛ ولو كان فيهم {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} ، والقرابة ، والأبناء ، رحماءُ بينهم ، وهذه الأخوَّة في الحقِّ أخوَّةٌ في الدِّين. إن الأخوَّة في الله من أهم الأسباب التي تعمل على الصُّمود في وجه

أعتى المحن الَّتي تنزل بالمسلمين ، كما أنَّ الفهم المتبادل ، والكامل للأخوَّة في الله من أسباب تماسك صفوف المسلمين ، وقوَّتهم ، ومن أسباب شموخهم ، والتَّمكين لهم[(٤٦٥)].

٩ ـ من فضائل الأنصار:

تسميتهم بالأنصار: سمَّاهم الله ، ورسولُه (ص) بهذا الاسم حين بايعوا على الإسلام ، وقاموا بإيواء المؤمنين ، ونصرة دين الله ، ورسول الله (ص) ، ولم يكونوا معروفين بذلك مِنْ قبل[(٤٦٦)] ، فعن غَيْلان بن جرير ـ رحمه الله! ـ قال: قلتُ لأنسٍ رضي الله عنه: أرأيتَ اسم (الأنصار) كنتم تُسَمَّوْنَ به ، أم سمَّاكم الله؟ قال: بل سمَّانا الله [البخاري (٣٧٧٦)] .

أمَّا مناقبهم ، وفضائلهم ، فكثيرةٌ ، لا تحصى ، منها مناقب عامَّةٌ لجميع الأنصار ، ومناقب خاصَّة بأفراد من الأنصار. أمَّا المناقب العامَّة الواردة في القران الكريم مايلي:

فقد وصفهم المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ بأنَّهم من المؤمنين حقّاً ، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *} [الأنفال: ٧٤] .

وبشَّرهم ربُّهم برضاه عنهم، وامتدح رضاهم عنه ، فقال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *} [التوبة: ١٠٠] .

ووصفهم المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ بالفلاح. قال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [الحشر: ٩] .

وأمَّا الأحاديث الَّتي تحدَّثت عن ماثر الأنصار؛ فمنها:

حبُّ النَّبيّ (ص) للأنصار: عن أنسٍ رضي الله عنه قال: رأى النَّبيُّ (ص) النِّساءَ ، والصِّبيان مقبلين ـ قال: حَسِبْتُ: أنَّه قال: مِنْ عُرس ـ فقام النَّبيُّ (ص) مُمْتَناً[(٤٦٧)] ، فقال: «اللَّهمَّ أنتم مِنْ أحبِّ النَّاس إليَّ» قالها ثلاث مِرارٍ [البخاري (٣٧٨٥) ومسلم (٢٥٠٨)] .

حبُّ الأنصار علامة الإيمان ، وبغضهم علامة النِّفاق: عن البَرَاء بن عازبٍ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله (ص) يقول: «الأنصار لا يحبُّهم إلا مؤمنٌ ، ولا يُبْغِضُهم إلا منافقٌ ، فَمَنْ أحبَّهم أحبَّه الله ، ومَنْ أبغضهم أبغضه الله» [البخاري (٣٧٨٣) ومسلم (٧٥)] .

مَنْ أحبَّهم فاز بحبِّ الله إيَّاه ، ومن أبغضهم شقي ببغض الله إيَّاه ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله (ص) : «من أحَبَّ الأنصارَ أحبَّه اللهُ ، ومن أبغض الأنصارَ أبغضه الله» [أحمد (٥٠١/٢ و٥٢٧) وأبو يعلى (٧٣٦٧) والبزار (٢٧٩٢ و٢٧٩٣) ومجمع الزوائد (٣٩/١٠)] .

الشَّهادة لهم بالعفاف ، والصَّبر: العفة والصَّبر شيمتان كريمتان ، تدلاَّن على أصالة معدن المتخلِّق بهما ، وتمام مروءته ، وكمال رجولته ، وفتوته ، وقد شهد النَّبيُّ (ص) للأنصار بهما ، وما أعظمها من شهادةٍ! وما أعظمه من شاهدٍ![(٤٦٨)] ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله (ص) : «ما يضرُّ امرأةً نزلت بين بيتين من الأنصار ، أو نزلت بين أبويها» [أحمد (٢٥٧/٦) وابن حبان (٧٢٦٧) والحاكم (٨٣/٤) والبزار (٢٨٠٦) ومجمع الزوائد (٤٠/١٠)] .

رغبة النَّبيِّ (ص) في الانتساب إليهم لولا الهجرة: عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ (ص) قال: «لو أنَّ الأنصار سلكوا وادياً ، أو شعباً ، لسلكت في وادي الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار» [البخاري (٣٧٧٩ و٧٣٤٤) وأحمد (٤١٠/٢) والنسائي في السنن الكبرى (٨٢٦١)] .

دعاء النَّبيِّ (ص) بالمغفرة لهم ، ولأبنائهم ، ولأزواجهم ، ولذراريهم: لاشكَّ أنَّ دعاء الرَّسول (ص) مستجابٌ ، وقد فاز الأنصار بهذا الفضل ، فقد روى البخاريُّ عن عبد الله بن الفضل: أنَّه سمع أنس بن مالكٍ يقول: «حَزِنْتُ على من أُصيبَ بالحَرَّةِ[(٤٦٩)]، فكتب إليَّ زيدُ بنُ أرقم . وبَلَغَهُ شِدَّةُ حُزني . يذكر: أنَّه سمع رسول الله (ص) يقول: «اللّهُمَّ اغفر للأنصار! ولأبناء

الأنصار». وشكَّ ابنُ الفضل في أبناء أبناء الأنصار[(٤٧٠)] ، فسأل أنساً بعضُ مَنْ كان عنده ، فقال: هو الذي يقولُ رسولُ الله (ص) ، هذا الَّذي أوفى الله له بأذنِهِ[(٤٧١)]» [البخاري (٤٩٠٦) ومسلم (٢٥٠٦)] .

وصية النَّبيِّ (ص) بالإحسان إليهم ، وعدم إفزاعهم: كان جهاد الأنصار في سبيل الدِّين عظيماً ، وكان فضلهم في نشره ، والدِّفاع عنه بليغاً؛ إذ لم يمنعهم من الخفَّة إلى الخروج في سبيل الله عسرٌ، ولا يسرٌ، وحفظ الله لهم ذلك في قوله تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [التوبة: ١١٧] .

وَمِنْ ثَمَّ كانت وصيَّة رسول الله (ص) بالأنصار ، والإحسان إلى محسنهم ، والتَّجاوز عن مسيئهم ، وكان ترهيبه (ص) من ترويعهم ، وتفزيعهم وكانت توصيته بالأنصار خيراً[(٤٧٢)] ، فعن أنسٍ رضي

الله عنه: أنَّ رسول الله (ص) قال: «الأنصار كَرِشي ، وعَيْبَتي[(٤٧٣)] ، والنَّاسُ سيكثرون ، ويَقِلُّون[(٤٧٤)] ، فاقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم» [البخاري (٣٨٠١) ومسلم (٢٥١٠)] .

وعنه أيضاً ، قال: خرج نبيُّ الله (ص) ، فتلقَّته الأنصار بينهم ، فقال: «والذي نفسُ محمَّدٍ بيده! إنِّي لأحِبُّكم ، وإنَّ الأنصار قد قضوا ما عليهم ، وبقي الَّذي لهم[(٤٧٥)] ، فأحْسِنوا إلى مُحسنهم ، وتجاوزوا عن مُسيئهم» [أحمد (١٨٧/٣) والنسائي في السنن الكبرى (٨٢٧٠) وابن حبان (٧٢٦٦ و ٧٢٧١) وأبو يعلى (٣٧٧٠)] وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللهِ (ص) يقول على المنبر للأنصار: «....فمن ولي الأنصار؛ فليحسن إلى محسنهم ، وليتجاوز عن مسيئهم ، ومَنْ أفزعهم؛ فقد أفزع هذا الَّذي بين هاتين ، وأشار إلى نَفْسِه (ص) »[(٤٧٦)].

* * *

المبحث الثَّالث

الوثيقة أو الصَّحيفة

نظَّم النَّبيُّ (ص) العلاقات بين سكان المدينة ، وكتب في ذلك كتاباً أوردته المصادر التَّاريخية ، واستهدف هذا الكتاب ، أو الصَّحيفة توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة ، وتحديد الحقوق ، والواجبات ، وقد سُمِّيت في المصادر القديمة بالكتاب ، والصَّحيفة ، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها لفظة (الدُّستور).

ولقد تعرَّض الدُّكتور أكرم ضياء العمري في كتابه «السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة» لدراسة طرق ورود الوثيقة ، وقال: «ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصَّحيحة»[(٤٧٧)] ، وبيَّن: أنَّ أسلوب الوثيقة ينمُّ عن أصالتها؛ «فنصوصها مكوَّنةٌ من كلماتٍ ، وتعابير كانت مألوفةً في عصر الرَّسول (ص) ، ثم قَلَّ استعمالها فيما بعد ، حتَّى أصبحت مغلقةً على غير المتعمِّقين في دراسة تلك الفترة. وليس في هذه الوثيقة نصوصٌ تمدح ، أو تقدح فرداً ، أو جماعةً ، أو تخصُّ أحداً بالإطراء ، أو الذَّمِّ؛ لذلك يمكن القول بأنَّها وثيقةٌ أصليةٌ ، وغير مزوَّرةٍ»[(٤٧٨)] ، ثمَّ إنَّ التَّشابه الكبير بين أسلوب الوثيقة ، وأساليب كُتُبِ النَّبيِّ (ص) يعطيها توثيقاً اخر.

أولاً: كتابه (ص) بين المهاجرين والأنصار واليهود:

نصُّ الوثيقة[(٤٧٩)]:

١ . هذا كتابٌ من محمَّد النَّبيِّ «رسول الله» بين المؤمنين ، والمسلمين من قريشٍ ، «وأهل يثرب» ، وَمَنْ تبعهم ، فلحق بهم ، وجاهد معهم.

٢ . إنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ من دون النَّاس.

٣ . المهاجرون من قريشٍ على رِبْعتهم[(٤٨٠)] ، يتعاقلون بينهم ، وهم يَفْدُون عانِيَهم[(٤٨١)] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٤ . وبنو عَوْف على رِبْعتهم ، يتعاقلون معاقلهم[(٤٨٢)] الأولى ، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٥ . وبنو الحارث «بنو الخزرج» على رِبْعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٦ . وبنو ساعدة على رِبْعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٧ . وبنو جُشَم على رِبْعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٨ . وبنو النَّجار على رِبْعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٩ . وبنو عمرو بن عوف على رِبْعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٠ . وبنو النَّبيت على رِبْعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكلُّ طائفة تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١١ . وبنو الأوس على رِبْعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكلُّ طائفة تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٢ . وإنَّ المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً[(٤٨٣)] بينهم أن يُعْطوه بالمعروف؛ من فِداءٍ ، أو عَقْل ، وألا يحالف مؤمنٌ مولى مؤمنٍ دونَه.

١٣ . وإنَّ المؤمنين المتَّقين «أيديهم» على «كلِّ» مَنْ بغى منهم ، أو ابتغى دَسِيعةَ[(٤٨٤)] ظُلْمٍ ، أو إثماً ، أو عدواناً ، أو فساداً بين المؤمنين ، وإنَّ أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان وَلَدَ أحدهِم.

١٤ . ولا يَقْتُل مؤمنٌ مؤمناً في كافرٍ ، ولا يَنْصُر كافراً على مؤمنٍ.

١٥ . وإنَّ ذمة الله واحدةٌ ، يُجير عليهم أدناهم ، وإنَّ المؤمنين بعضهم موالي بعضٍ دون النَّاس.

١٦ . وإنَّه مَنْ تبعنا من يهود ، فإنَّ له النَّصرَ ، والأُسوة غير مظلومين ، ولا متناصرٍ عليهم.

١٧ . وإنَّ سِلْمَ المؤمنين واحدةٌ ، لا يسالم مؤمنٌ دون مؤمنٍ في قتالٍ في سبيل الله إلا على سواءٍ ، وعدلٍ بينهم.

١٨ . وإنَّ كلَّ غازيةٍ غزت معنا يُعْقب بعضها بعضاً.

١٩ . وإنَّ المؤمنين يُبِأى[(٤٨٥)] بعضهم على بعضٍ بما نال دماءهم في سبيل الله.

٢٠ . وإنَّ المؤمنين المتَّقين على أحسن هدىً ، وأقومه ، وإنَّه لا يجير مشركٌ مالاً لقريشٍ ، ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمنٍ.

٢١ . وإنَّه من اعتبط[(٤٨٦)] مؤمناً قتلاً عن بيّنةٍ؛ فإنَّه قَوَدٌ[(٤٨٧)] به ، إلا أن يرضى وليُّ المقتول بـ (العَقْل) ، وإنَّ المؤمنين عليه كافَّةً ، ولا يحلُّ لهم إلا قيامٌ عليه.

٢٢ . وإنَّه لا يحلُّ لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصَّحيفة ، وامن بالله واليوم الاخر ، أن ينصر مُحْدِثاً[(٤٨٨)] ، أو يُؤْوِيه ، وإنَّ مَنْ نصره ، أو اواه ، فإنَّ عليه لعنةَ الله ، وغضبه يوم القيامة ، ولا يُؤْخذ منه صرفٌ ، ولا عدلٌ.

٢٣ . وإنَّه مهما اختلفتم فيه من شيءٍ ، فإنَّ مردَّه إلى الله ، وإلى محمَّدٍ (ص) .

٢٤ . وإنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٢٥ . وإن يهود بني عوف أمَّةٌ مع المؤمنين؛ لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم نفسه ، وأَثِمَ ، فإنَّه لا يُوتِغُ[(٤٨٩)] إلا نفسَه ، وأهلَ بيته.

٢٦ .وإنَّ ليهود بني النَّجار مثل ما ليهود بني عوفٍ.

٢٧ . وإنَّ ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوفٍ.

٢٨ . وإنَّ ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوفٍ.

٢٩ . وإن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوفٍ.

٣٠ . وإنَّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوفٍ.

٣١ . وإنَّ ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوفٍ ، إلا من ظَلَمَ ، وأَثِمَ ، فإنَّه لا يُوتِغُ إلا نفسَه ، وأهلَ بيته.

٣٢ . وإنَّ جَفْنَةَ بطنٍ مِن ثعلبة كأنفسهم.

٣٣ . وإنَّ لبني الشُّطَيبة مثل ما ليهود بني عوفٍ ، وإنَّ البر دون الإثم.

٣٤ . وإنَّ موالي ثعلبة كأنفسهم.

٣٥ . وإنَّ بطانة يهود كأنفسهم. (بطانة الرَّجل: أي: خاصَّته ، وأهل بيته).

٣٦ . وإنَّه لا يخرج منهم أحدٌ إلا بإذن محمَّد (ص) .

٣٧ . وإنَّ على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإنَّ بينهم النَّصرَ على من حارب أهل هذه الصَّحيفة ، وإنَّ بينهم النُّصح ، والنَّصيحة ، والبرُّ دون الإثم.

٣٨ . وإنَّه لا يأثم امرؤٌ بحليفه ، وإنَّ النَّصر للمظلوم.

٣٩ . وإنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٤٠ . وإنَّ يثرب حرامٌ جَوْفُها لأهل هذه الصَّحيفة.

٤١ . وإنَّ الجار كالنَّفس غير مُضارٍّ ، ولا اثم.

٤٢ . وإنَّه لا تُجار حُرمةٌ إلا بإذن أهلها.

٤٣ . وإنَّه ما كان بين أهل هذه الصَّحيفة من حدثٍ ، أو اشتجار يُخاف فسادُه ، فإنَّ مَرَدَّهُ إلى الله ـ عزَّ و جلَّ ـ وإلى محمَّدٍ رسول الله (ص) ، وإنَّ الله على أتقى ما في هذه الصَّحيفة وأبرِّه (أي: إنَّ الله ، وحزبه المؤمنين على الرِّضا به).

٤٤ . وإنَّه لا تُجارُ قريشٌ ، ولا مَنْ نصرها ، وإنَّ بينهم النَّصرَ على من دَهَمَ يثربَ.

٤٥ . وإذا دُعوا إلى صلحٍ يصالحونه ، ويَلْبَسونه؛ فإنَّهم يصالحونه ، ويلبسونه ، وإنَّهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك؛ فإنَّه لهم على المؤمنين ، إلا مَنْ حارب في الدِّين. وعلى كلِّ أناسٍ حِصَّتُهم من جانبهم الَّذي قِبَلَهم.

٤٦ . وإنَّ يهود الأوس ـ مواليهم ، وأنفسهم ـ على مثل ما لأهل هذه الصَّحيفة ، مع البرِّ المحض من أهل هذه الصَّحيفة ، وإنَّ البرَّ دون الإثم ، لا يكسب كاسبٌ إلا على نفسه ، وإنَّ الله على أصدق ما في هذه الصَّحيفة وأبرِّه.

٤٧ ـ وإنَّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالمٍ ، أو اثمٍ ، وإنَّه مَنْ خرج امنٌ ، ومن قعد امنٌ بالمدينة ، إلا من ظَلم ، وَأَثِمَ ، وإنَّ الله جارٌ لمن برَّ ، واتقى ، ومحمَّدٌ رسولُ الله (ص)[(٤٩٠)] .

ثانياً: دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد من الوثيقة:

١ ـ تحديد مفهوم الأمَّة:

تضمَّنت الصَّحيفة مبادأى عامَّةً ، درجت دساتير الدُّول الحديثة على وضعها فيها ، وفي طليعة هذه المبادأى ، تحديد مفهوم الأمَّة؛ فالأمَّة في الصَّحيفة تضمُّ المسلمين جميعهم ، مهاجريهم ، وأنصارهم ، وَمَنْ تبعهم ممَّن لحق بهم ، وجاهد معهم ، أمَّةٌ واحدةٌ من دون النَّاس[(٤٩١)] ، وهذا شيءٌ جديدٌ كلَّ الجدَّة في تاريخ الحياة السِّياسيَّة في جزيرة العرب؛ إذ نقل الرَّسول (ص) قومه من شعار القبليَّة ، والتَّبعيَّة لها، إلى شعار الأمَّة ، الَّتي تضمُّ كلَّ من اعتنق الدِّين الجديد ، فلقد قالت الصَّحيفة عنهم: «إنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ» (الفقرة: ١ ، ٢). وقد جاء به القران الكريم. قال تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ *} [الأنبياء: ٩٢] ، وبيَّن سبحانه وتعالى وسطية هذه الأمَّة في قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣] ، ووضَّح ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّها أمَّةٌ إيجابيَّة؛ فهي لا تقف موقف المتفرّج من قضايا عصرها؛ بل تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتدعو إلى الفضائل ، وتحذِّر من الرَّذائل[(٤٩٢)]. قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ *} [آل عمران: ١١٠] .

وبهذا الاسم الَّذي أُطلق على جماعةٍ من المسلمين ، والمؤمنين ، ومَنْ تبعهم من أهل يثرب اندمج المسلمون على اختلاف قبائلهم في هذه الجماعة؛ الَّتي ترتبط فيما بينها برابطة الإسلام؛ فهم يتكافلون فيما بينهم ، وهم ينصرون المظلوم على الظَّالم ، وهم يرعون حقوق القرابة ، والمحبَّة ، والجوار[(٤٩٣)]. لقد انصهرت طائفتا الأوس ، والخزرج في جماعة الأنصار ، ثمَّ انصهر الأنصار والمهاجرون في جماعة المسلمين ، وأصبحوا أمَّةً واحدةً[(٤٩٤)] ، تربط أفرادها رابطةُ العقيدة ، وليس الدَّم ، فيتَّحد شعورهم ، وتتَّحد أفكارهم ، وتتَّحد قبلتهم ، ووجهتهم ،

وولاؤهم لله وليس للقبيلة ، واحتكامهم للشَّرع وليس للعُرْف ، وهم يتمايزون بذلك كلِّه على بقيَّة النَّاس «من دون النَّاس» ، فهذه الرَّوابط تقتصر على المسلمين ، ولا تشمل غيرهم من اليهود ، والحلفاء ، ولا شكَّ: أنَّ تمييز الجماعة الدِّينية كان أمراً مقصوداً ، يستهدف زيادة تماسكها ، واعتزازها بذاتها[(٤٩٥)]

، ويتَّضح ذلك في تمييزها بالقبلة ، واتجاهها إلى الكعبة ، بعد أن اتَّجهت ستة عشر ، أو سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس[(٤٩٦)].

وقد مضى النَّبيُّ (ص) يميّز أتباعه عمَّن سواهم في أمورٍ كثيرةٍ ، ويوضِّح لهم: أنَّه يقصد بذلك مخالفة اليهود ، ومن ذلك: أنَّ اليهود لا يُصلُّون بالخِفاف ، فأذن النَّبيُّ (ص) لأصحابه أن يصلُّوا بالخُفِّ ، واليهود لا تصبغ الشَّيب ، فصبغ المسلمون شيب رؤوسهم بالحنَّاء ، والكَتَم[(٤٩٧)] ، واليهود تصوم عاشوراء ، والنبيُّ (ص) يصومه أيضاً ، ثمَّ اعتزم في أواخر حياته أن يصوم تاسوعاء معه؛ مخالفةً لهم[(٤٩٨)]. ثمَّ إنَّ النَّبيَّ (ص) وضع للمسلمين مبدأ مخالفة غيرهم ، والتميُّز عليهم ، فقال: «مَنْ تشبَّه بقومٍ فهو منهم» [أحمد (٢/٥٠ و٩٢) وأبو داود (٤٠٣١) وعبد بن حميد (٨٤٨)] ، وقال أيضاً: «لا تشبَّهوا باليهود» [أحمد (١/١٦٥) والنسائي (٨/١٣٧) وأبو يعلى (٦٨١)] . والأحاديث في ذلك كثيرةٌ ، وهي تفيد معنى تميُّز المسلمين ، واستعلائهم على غيرهم ، ولا شك: أنَّ التشبُّه، والمحاكاة للاخرين يتنافى مع الاعتزاز بالذَّات، والاستعلاء على الكفار، ولكن هذا التَّميُّز ، والاستعلاء ، لا يشكِّل حاجزاً بين المسلمين ، وغيرهم ، فكيان الجماعة الإسلاميَّة مفتوح ، وقابلٌ للتوسُّع ، ويستطيع الانضمامَ إليه مَنْ يؤمن بعقيدته[(٤٩٩)].

واعتبرت الصَّحيفة اليهود جزءاً من مواطني الدَّولة الإسلاميَّة ، وعنصراً من عناصرها؛ ولذلك قيل في الصَّحيفة: «وإنَّه من تبعنا من يهود ، فإنَّ له النَّصر والأسوة ، غير مظلومين ، ولا متناصرٌ عليهم» (الفقرة ١٦) ، ثمَّ زاد هذا الحكم إيضاحاً ، في الفقرة (٢٥) وما يليها؛ حيث نصَّ فيها صراحةً بقوله: «وإنَّ يهود بني عوف أمَّةٌ مع المؤمنين...».

وبهذا ترى: أنَّ الإسلام قد اعتبر أهل الكتاب؛ الَّذين يعيشون في أرجائه مواطنين ، وأنَّهم أمَّةٌ مع المؤمنين ، ما داموا قائمين بالواجبات المترتِّبة عليهم؛ فاختلاف الدِّين ليس ـ بمقتضى
أحكام الصَّحيفة ـ سبباً للحرمان من مبدأ المواطنة[(٥٠٠)].

٢ ـ المرجعيَّة العليا لله ورسوله (ص):

جعلت الصَّحيفة الفصل في كل الأمور بالمدينة يعود إلى الله ، ورسوله (ص) ، فقد نصَّت على مرجع فضِّ الخلاف في الفقرة (٢٣) ، وقد جاء فيها: «وإنَّه مهما اختلفتم فيه من شيءٍ ، فإنَّ مردَّه إلى الله ، وإلى محمَّد (ص) » والمغزى من ذلك واضحٌ ، وهو تأكيدُ سلطةٍ عليا دينيَّةٍ ، تُهيمن على المدينة ، وتفصل في الخلافات؛ منعاً لقيام اضطراباتٍ في الدَّاخل من جرَّاء تعدُّد السُّلطات، وفي الوقت نفسه

تأكيدٌ ضمنيٌ برئاسة الرَّسول (ص) على الدَّولة[(٥٠١)]، فقد حدَّدت الصَّحيفة مصدر السُّلطات الثلاثة: التَّشريعية، والقضائية، والتَّنفيذية، فكان رسول الله (ص) ، حريصاً على تنفيذ أوامر الله، من خلال دولته الجديدة؛ لأنَّ تحقيق الحاكمية لله على الأمَّة هو محض العبوديَّة لله تعالى؛ لأنَّه بذلك يتحقَّق التَّوحيد ، ويقوم الدِّين. قال تعالى: {إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *} [يوسف: ٤٠] .

يعني: «ما الحكم الحقُّ في الرُّبوبية ، والعقائد ، والعبادات ، والمعاملات إلا لله وحده ، يوحيه لمن اصطفاه من رسله ، لا يمكن لبشرٍ أن يحكم فيه برأيه وهواه ، ولا بعقله واستدلاله ، ولا باجتهاده واستحسانه ، فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله ، لا تختلف باختلاف الأزمنة ، والأمكنة»[(٥٠٢)].

لقد نزل القران الكريم من أجل تحقيق العبوديَّة ، والحاكميَّة لله تعالى ، قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ *أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ *} [الزمر: ٢ ـ ٣] .

وقال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا *} [النساء: ١٠٥] فكما أنَّ تحقيق العبودية غايةٌ من إنزال الكتاب؛ فكذلك تطبيق الحاكميَّة غايةٌ من إنزاله ، وكما أنَّ العبادة لا تكون إلا عن وحي مُنَزَّل؛ فكذلك لا ينبغي أن يُحكم إلا بشرع منزَّلٍ ، أو بما له أصلٌ في شرعٍ مُنزَّلٍ[(٥٠٣)].

إنَّ تحقيق الحاكميَّة تمكينٌ للعبوديَّة ، وقيامٌ بالغاية الَّتي من أجلها خُلق الإنسان ، والجان ، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ *} [الذاريات: ٥٦] .

وقد اعترف اليهود في هذه الصَّحيفة بوجود سلطة قضائيَّة عليا ، يرجع إليها سكَّان المدينة ـ بما فيهم اليهود ـ بموجب بند رقم (٤٣) ، لكنَّ اليهود لم يُلزَموا بالرُّجوع إلى القضاء الإسلاميِّ دائماً؛ بل فقط عندما يكون الحدث ، أو الاشتجار بينهم وبين المسلمين ، أمَّا في قضاياهم الخاصَّة ، وأحوالهم الشَّخصيَّة ، فهم يحتكمون إلى التَّوراة ، ويقضي بينهم أحبارها ، ولكن إذا شاؤوا؛ فبوسعهم الاحتكام إلى النَّبيِّ (ص) ، وقد خيَّر القران الكريم النَّبيَّ (ص) بين قبول الحكم فيهم ، أو ردِّهم إلى أحبارهم ، قال تعالى: {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ

عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ *} [المائدة: ٤٢] .

ومن القضايا التي أراد اليهود تحكيم الرَّسول (ص) فيها اختلافُ بني النَّضير ، وبني قريظة في دِيَة القتلى بينهما ، فقد كانت بنو النَّضير أعزَّ من بني قريظة ، فكانت تفرض عليهم دِيَةً مضاعفةً لقتلاها ، فلمَّا ظهر الإسلام في المدينة؛ امتنعت بنو قريظة عن دفع الضِّعف ، وطالبت بالمساواة في الدِّيَة[(٥٠٤)] ، فنزلت الاية: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ *} [المائدة: ٤٥] .

وبهذه الصَّحيفة ـ الَّتي أقرَّت المادة (٤٣): على «أنَّه ما كان بين أهل هذه الصَّحيفة من حدثٍ ، أو اشتجارٍ يُخاف فساده. فإنَّ مردَّه إلى الله ، وإلى محمَّدٍ رسوله (ص) » ـ أصبح للرَّسول (ص) سلطةٌ قضائيَّةٌ مركزيَّةٌ عليا ، يرجع إليها الجميع ، وجعلها ترجع إلى الله وإلى الرَّسول (ص) ، ولها قوَّةٌ تنفيذيَّةٌ؛ لأنَّ أوامر الله واجبة الطَّاعة ، وملزمة التَّنفيذ، كما أنَّ أوامر الرَّسول (ص) هي من الله ، وطاعتها واجبةٌ[(٥٠٥)].

وبذلك أصبح رسول الله (ص) رئيسَ الدَّولة ، وفي الوقت نفسه رئيس السُّلطة القضائيَّة ، والتَّنفيذيَّة ، والتَّشريعية؛ فقد تولَّى رسول الله (ص) السُّلطات الثلاث ، بصفته رسول الله (ص) ، المكلَّف بتبليغ شرع الله ، والمفسِّر لكلام الله ، والسُّلطة التَّنفيذيَّة بصفته الرَّسول الحاكم ، ورئيس الدَّولة ، فقد تولَّى رئاسة الدَّولة وَفْقَ نصوص الصَّحيفة ، وباتفاق الطَّوائف المختلفة الموجودة في المدينة ، ممَّن شملتهم نصوص الصَّحيفة في المادة (٣٦) ، الَّتي تقرِّر: أنَّه: «لا يخرج منهم أحدٌ إلا بإذن محمَّدٍ (ص) » ولهذا تأثيرٌ كبيرٌ في عدم السَّماح لهم بمحالفة قريش ،

أو غيرها من القبائل المعادية. وهناك المادَّة (٤٤) الَّتي ذهبت إلى ما هو أبعد ، وأصرح من ذلك؛ إذ قرَّرت: أنَّه: «لا تُجارُ قريشٌ ، ولا مَنْ نَصَرَها» ، ولم يَرِدْ في الصَّحيفة اسمٌ لأيِّ شخصٍ ما عدا رسولِ الله (ص)[(٥٠٦)] .

٣ ـ إقليم الدَّولة:

وجاء في الصَّحيفة: «إنَّ يثرب حرامٌ جوفها لأهل هذه الصَّحيفة» مادة (٤٠) ، وأصل التَّحريم ألا يقطع شجرها ، ولا يقتل طيرها ، فإذا كان هذا هو الحكم في الشَّجر والطَّير ، فما بالك في الأموال ،

والأنفس؟![(٥٠٧)] فهذه الصَّحيفة حدَّدت معالم الدَّولة: أمَّةٌ واحدةٌ ، وإقليمٌ هو المدينة ، وسلطةٌ حاكمةٌ يُرْجَع إليها ، وتَحْكُم بما أنزل الله.

إنَّ المدينة كانت بداية إقليم الدَّولة الإسلاميَّة ، ونقطة الانطلاق ، ومركز الدَّائرة؛ الَّتي كان الإقليم يتَّسع منها ، حتَّى يضع حدَّاً للقلاقل والاضطرابات ، ويسوده السلم ، والأمن العام.

وقد أرسل النَّبيُّ (ص) أصحابه ليثبّتوا أعلاماً على حدود حرم المدينة من جميع الجهات ، وحدود المدينة بين لابَتَيْها شرقاً وغرباً ، وبين جبل ثَوْر في الشمال ، وجبل عَيْر في الجنوب[(٥٠٨)].

ثمَّ اتسع «الإقليم» باتِّساع الفتح ، ودخول شعوب البلاد المفتوحة في الإسلام ، حتَّى عمَّ مساحةً واسعةً في الأرض ، والبحر ، وما يعلوهما من فضاء ، فمن المحيط الأطلسي غرباً ، ومناطق واسعةٍ من غرب أوربة ، وجنوبها ، ومناطق فسيحةٍ من غرب اسية وجنوبها ، إلى أكثر أهل الصِّين وروسية شرقاً ، وكلِّ شمال إفريقية وأواسطها[(٥٠٩)]. إنَّ إقليم الدَّولة مفتوحٌ وغير محدودٍ بحدود جغرافيَّةٍ ، أو سياسيَّةٍ؛ فهو يبدأ من عاصمة الدَّولة «المدينة» ، ويتَّسع حتَّى يشمل الكرة الأرضيَّة بأسرها.

قال تعالى: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *} [الأعراف: ١٢٨] كما أنَّ مفهوم الأمَّة مفتوحٌ وغير منغلقٍ على فئةٍ دون فئةٍ؛ بل هي ممتدَّةٌ لتشمل الإنسانيَّة كلَّها ، إذا ما استجابت لدين الله تعالى؛ الذي ارتضاه لخلقه ، ولبني ادم أينما كانوا ، فالدَّولة الإسلاميَّة دولةُ الرِّسالة العالمية ، لكلِّ فردٍ من أبناء
المعمورة نصيبٌ فيها ، وهي تتوسَّع بوسيلة الجهاد[(٥١٠)].

٤ ـ الحرِّيَّات وحقوق الإنسان:

إنَّ الصَّحيفة تدلُّ بوضوحٍ ، وجلاءٍ على عبقرية الرَّسول (ص) في صياغة موادِّها ، وتحديد علاقات الأطراف بعضها ببعضٍ؛ فقد كانت موادُّها مترابطةً ، وشاملةً ، وتصلح لعلاج الأوضاع في المدينة انذاك ، وفيها من القواعد والمبادأى ما يحقِّق العدالة المطلقة ، والمساواة التَّامَّة بين البشر ، وأن يتمتَّع بنو الإنسان على اختلاف ألوانهم، ولغاتهم، وأديانهم، بالحقوق والحرِّيَّات بأنواعها[(٥١١)]. يقول الأستاذ محمد سليم العوَّا: «ولا تزال المبادأى التي تضمَّنها الدستور ـ في جملتها ـ معمولاً بها ، والأغلب أنَّها ستظل كذلك في مختلف نُظُم الحكم المعروفة إلى اليوم... وصل إليها الناس بعد قرون من تقريرها، في أوَّل وثيقة سياسيَّة دوَّنها الرَّسول (ص) »[(٥١٢)].

فقد أعلنت الصَّحيفة: أنَّ الحرِّيات مصونةٌ؛ كحرية العقيدة ، والعبادة ، وحقِّ الأمن... إلخ ، فحرية الدِّين مكفولةٌ: «للمسلمين دينهم ، ولليهود دينهم». قال تعالى: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *} [البقرة: ٢٥٦] وقد أنذرت الصَّحيفة بإنزال الوعيد ، وإهلاك من يخالف هذا المبدأ ، أو يكسر هذه القاعدة ، وقد نصَّت الوثيقة على تحقيق العدالة بين النَّاس ، وعلى تحقيق مبدأ المساواة.

إنَّ الدَّولة الإسلاميَّة واجبٌ عليها أن تقيم العدل بين الناس ، وتفسح المجال وتيسِّر السُّبل أمام كلِّ إنسانٍ ـ يطلب حقَّه ـ أن يصل إلى حقِّه بأيسر السُّبل ، وأسرعها ، دون أن يكلِّفه ذلك جهداً ، أو مالاً[(٥١٣)] ، وعليها أن تمنع أيَّ وسيلةٍ من الوسائل ، التي من شأنها أن تعوق صاحب الحقِّ من الوصول إلى حقِّه.

لقد أوجب الإسلام على الحكَّام أن يقيموا العدلَ بين النَّاس دون النّظر إلى لغاتهم ، أو أوطانهم ، أو أحوالهم الاجتماعيَّة ، فهو يعدل بين المتخاصمين ، ويحكم بالحقِّ ، ولا يهمُّه أن يكون المحكوم لهم أصدقاء ، أو أعداء ، أغنياء ، أو فقراء ، عمالاً أو أصحاب عمل. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *} [المائدة: ٨] والمعنى:

لا يحملنَّكم بُغض قومٍ على ظلمهم ، ومقتضى هذا أنَّه لا يحملنَّكم حبُّ قوم على محاباتهم ، والميل إليهم[(٥١٤)].

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ معقِّباً على قوله تعالى: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأِعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ *} [الشورى: ١٥] ما نصُّه: «يعني أنَّني مأمور بالإنصاف دون عداوةٍ ، فليس من شأني أن أتعصَّب لأحدٍ ، أو ضدَّ أحدٍ ، وعلاقتي بالنَّاس كلِّهم سواءٌ ، وهي علاقة العدل ، والإنصاف ، فأنا نصيرُ مَنْ كان الحقُّ في جانبه ، وخصيم من كان الحق ضدَّه ، وليس في ديني أيُّ امتيازات لأيِّ فردٍ كائناً مَنْ كان ، وليس لأقاربي حقوقٌ ، وللغرباء حقوقٌ أخرى ، ولا للأكابر عندي مميِّزاتٌ لا يحصل عليها الأصاغر ، والشُّرفاء والوضعاء عندي سواءٌ ، فالحقُّ حقٌّ للجميع ، والذَّنب والجُرْم ذنبٌ للجميع ، والحرام حرامٌ على الكلِّ ، والحلال حلالٌ للكُلِّ ، والفرض فرض على الكلِّ، حتَّى أنا نفسي لست مستثنىً من سلطة القانون الإلهيِّ[(٥١٥)].

إنَّ تربية المجتمع المسلم وإعداده لقيادة الإنسانيَّة بخصائصه؛ التي احتواها منهجه التربويُّ حفيَّةٌ أشدَّ الحفاوة بِشِرْعَةِ العدل، وإقامته بين الأفراد ، والجماعات ، والأمم ، والشُّعوب؛ لأنَّ العدل في شمول مواطنه هو دعامةُ القيادة الموفَّقة.

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا *} [النساء: ١٣٥] .

وهذا نصٌّ قرانيٌّ صريحٌ في تكليف المجتمع القياديِّ المسلم بتحقيق العدل على أتمِّ صوره ، وأكمل أحواله ، فالعدل على النفس ، وعلى أقرب ذوي القربى كالعدل مع غير النفس ، وأبعد البُعَدَاء ، وفي قوله تعالى: {كُونُوا} ، أمرٌ للمجتمع المسلم ، في جميع أفراده ، وجماعاته ، أينما حلُّوا من أرض الله ، وحيثما كانوا في أوطانهم المتقاربة ، أو المتباعدة ، وهو أمر كينونة يُشْعر بمادَّته بالإلزام ، والالتزام ، والتَّهيُّؤ والانبعاث للقيام بإقامة منهج العدل في الحياة ، وفي قوله تعالى: بصيغة {قَوَّامِينَ} ، إيماءٌ إلى ما يجب أن يكون عليه المجتمع المسلم من النهوض بإقامة معالم العدل بكلِّ ما أوتي من قوة مادِّية ، ورُوحية ، مشمِّراً علساق العزم في بذل الجهد ، والتحفُّز للعمل في سبيل توطيد دعائم العدل الاجتماعيِّ.

إنَّ القران الكريم . وهو دستور المجتمع المسلم . لا يقف في أسلوبه الَّذي يحضُّ به على الاستمساك بالعدل عند سفح الحياة ، ولكنَّه يَلِجُ[(٥١٦)] إلى مداخل الضَّمير الإنسانيّ ، ويأبى عليه أن يخضع في إقامة العدل لعاطفة تتملَّق الغنيَّ لغناه ، وسعة ثروته من المال ، أو يتملَّق عاطفة الرَّحمة ، فيرحم الفقير لفقره ، فيلوي عنه عنق العدل حتى لا يرى ما يقع منه من ظلمٍ ، وحَيْفٍ على الحق.

والقران بذلك لا يرضى للمجتمع المسلم ، أن يحمله تعزُّز الغني بثرائه ، وغناه على ألا يقام معه العدل ، ويظلم له الفقير ، ولا يرضى لهذا المجتمع المسلم أن تحمله الرَّحمة للفقير ، فيُحابي بظلم الغنيِّ لأجله.

ولا يرضى القران الحكيم لمجتمعه المسلم ، أن يميل مع الهوى ، ويخضع للعواطف ، فيحيد عن العدل ليّاً بالحق ، وإعراضاً عنه.

وقد جاءت أخت هذه الاية ، في نسق أسلوبها ، وألفاظها؛ لتكمِّل صورة إقامة العدل على أتمِّ وجوهه ، ولتقرِّر: أنَّ موازين العدل يجب أن يتساوى فيها المحبُّ والمبْغض ، والقريب والبعيد ، والصَّديق والعدوُّ ، فقال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *} [المائدة: ٨] .

فصورة الخطاب الكينوني هنا {كُونُوا} الَّذي يجعل من العدل طبيعة خلائق المجتمع المسلم؛ الَّذي نيطَ به قيادة الإنسانيَّة ـ هي صورته هناك؛ لأنَّ العدل أمانة هذا المجتمع المسلم العظمى الَّتي حملوها؛ ليؤدُّوها إلى النَّاس في حياتهم[(٥١٧)]؛ بيد أنَّ الأمر قد اختلف في الايتين اختلافاً جَمَعَ مُتَفَرِّقَ مواطنِ العدل باعتباره أصلاً من أصول الرِّسالة الخالدة الخاتمة؛ الَّذي يعمُّ الحياة من جميع جوانبها؛ ففي الاية الأولى وجَّه الأمر للمجتمع المسلم بأشرف أوصافه ـ قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} ـ إلى أن يكون قوَّاماً بالعدل ، ولو كان في ذلك مراغمةُ منازع الحبِّ ، والودِّ ، والقربى ، وفي هذه الاية الثانية وجَّه الأمر للمجتمع بعنوانه المشرِّف ، إلى أن يكون قوَّاماً بالعدل ، ولو كان في ذلك مراغمةُ جميع عواطف البغض ، والعداوة[(٥١٨)].

وملتقى الايتين الكريمتين في توجيه المجتمع المسلم توجيهاً صارماً لا هوادة فيه إلى أن يكون نهَّاضاً بالعدل ، قائماً به بين النَّاس ، له قيادته للإنسانيَّة ، وليخلص له التوجُّه إلى الله

تعالى في إخلاص العبوديَّة له وحده ، لا تحمله محبَّةٌ مهما عظمت ، أو بغضٌ مهما اشتدَّ على الإعراض عن إقامة العدل؛ إحقاقاً للحقِّ ، وإنصافاً للمظلوم ، ونصراً للضَّعيف[(٥١٩)].

أمَّا مبدأ المساواة؛ فقد جاءت نصوصٌ صريحةٌ في الصَّحيفة حولها ، منها: «أن ذمَّة الله واحدة» ، وأن المسلمين «يجير عليهم أدناهم» ، وأنَّ «المؤمنين بعضهم موالي بعضٍ دون النَّاس» ، ومعنى الفقرة الأخيرة: أنَّهم يتناصرون في السَّراء والضَّرَّاء (الفقرة ١٥). وتضمَّنت الفقرة (١٩): أنَّ «المؤمنين يُبيء بعضهم على بعضٍ ، بما نال دماءهم في سبيل الله» ، قال السُّهيلي ـ شارح السيرة ـ في كتابه (الرَّوض الأنف): «ومعنى قوله يبيء: هو من البَوَاء ، أي: المساواة»[(٥٢٠)].

ويعدُّ مبدأ المساواة أحد المبادأى العامَّة الَّتي أقرَّها الإسلام ، وهو من المبادأى الَّتي تساهم في بناء المجتمع المسلم ، ولقد أقرَّ هذا المبدأ ، وسبق به تشريعات ، وقوانين العصر الحديث ، وممَّا ورد في القران الكريم تأكيداً لمبدأ المساواة قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ *} [الحجرات: ١٣] .

وقال رسول الله (ص) : «يا أيها النَّاس! ألا إنَّ ربَّكم واحدٌ ، وإنَّ أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ ، ولا لأعجميٍّ على عربيٍّ ، ولا لأحمرَ على أسودَ ، ولا لأسودَ على أحمرَ ، إلا بالتَّقوى. أَبَلَّغْتُ؟» [أحمد (٥/٤١١)] .

إنَّ هذا المبدأ كان من أهم المبادأى الَّتي جذبت الكثير من الشُّعوب قديماً نحو الإسلام ، فكان هذا المبدأ مصدراً من مصادر القوَّة للمسلمين الأوَّلين[(٥٢١)].

وليس المقصود بالمساواة هنا ، (المساواة العامَّة) بين النَّاس جميعاً في أمور الحياة كافَّةً ، كما ينادي بعض المخدوعين ، ويرون ذلك عدلاً[(٥٢٢)]؛ فالاختلاف في المواهب ، والقدرات ، والتَّفاوت في الدَّرجات غايةٌ من غايات الخلق[(٥٢٣)]؛ ولكنَّ المقصود المساواةُ؛ الَّتي دعت إليها الشَّريعة الإسلاميَّة ، مساواةٌ مقيَّدةٌ بأحوالٍ فيها التَّساوي ، وليست مطلقةً في جميع الأحوال[(٥٢٤)] ، فالمساواة تأتي في معاملة النَّاس أمام الشَّرع ، والقضاء ، والأحكام الإسلاميَّة

كافَّةً ، والحقوق العامَّة دون تفريق بسبب الأصل أو الجنس ، أو اللَّون ، أو الثروة ، أو الجاه ، أو غير ذلك[(٥٢٥)].

إنَّ النَّاس جميعاً في نظر الإسلام سواسيةٌ ، الحاكم ، والمحكوم ، الرِّجال والنساء ، العرب والعجم ، الأبيض والأسود ، لقد ألغى الإسلام الفوارق بين النَّاس بسبب الجنس ، واللون ، أو النَّسب ، أو الطَّبقة ، والحكَّام والمحكومون كلُّهم في نظر الشَّرع سواء؛ ولذلك كانت الدَّولة الإسلاميَّة الأولى ، تعمل على تطبيق هذا المبدأ بين النَّاس وكانت تراعي الاتي:

ـ إنَّ مبدأ المساواة أمرٌ تعبُّديٌّ ، تؤجر عليه من خالق الخلق سبحانه وتعالى.

ـ إسقاط الاعتبارات الطَّبقية ، والعُرْفية ، والقبليَّة ، والعنصريَّة ، والقوميَّة ، والوطنية ، والإقليمية ، وغير ذلك من الشِّعارات الماحقة لمبدأ المساواة الإنسانيَّة ، وإحلال المعيار الإلهيِّ بدلاً عنها للتَّفاضل ، ألا وهو التَّقوى.

ـ ضرورة مراعاة مبدأ تكافؤ الفرص للجميع ، ولا يُراعى أحدٌ لجاهه ، أو سلطانه ، أو حسبه ونسبه؛ وإنَّما الفرص للجميع ، وكلٌّ على حسب قدراته ، وكفاءاته ، ومواهبه ، وطاقته ، وإنتاجه.

ـ إنَّ تطبيق مبدأ المساواة بين رعايا الدَّولة الإسلاميَّة ، يقوِّي صفَّها ، ويوحِّد كلمتها ، وينتج عنه مجتمعٌ متماسكٌ متراحمٌ يعيش لعقيدةٍ ، ومنهجٍ ، ومبدأ[(٥٢٦)].

كانت الوثيقة قد اشتملت على أتمِّ ما قد تحتاجه الدَّولة ، من مقوِّماتها الدُّستوريَّة ، والإداريَّة ، وعلاقة الأفراد بالدَّولة ، وظَلَّ القران يتنزَّل في المدينة عشر سنين ، يرسم للمسلمين خلالها مناهج الحياة ، ويرسي مبادأى الحكم ، وأصول السِّياسة ، وشؤون المجتمع ، وأحكام الحرام والحلال ، وأسس التَّقاضي ، وقواعد العدل ، وقوانين الدَّولة المسلمة في الدَّاخل ، والخارج ، والسُّنَّة الشريفة تدعم هذا ، وتشيده ،

وتفصِّله في تنوير وتبصرةٍ ، فالوثيقة خطَّت خطوطاً عريضة في التَّرتيبات الدُّستورية ، وتُعَدُّ في قمَّة المعاهدات الَّتي تحدِّد صلة المسلمين بالأجانب الكفَّار المقيمين معهم، في شيءٍ كثيرٍ من التَّسامح، والعدل، والمساواة ، وعلى التَّخصيص إذا لُوحِظَ أنَّها أوَّل وثيقةٍ إسلاميَّة ، تُسَجِّل ، وتنفَّذ في أقوامٍ كانوا ـ منذ قريب ـ وقبل الإسلام ـ أسرى العصبية القَبَلِيَّة ، ولا يشعرون بوجودهم إلا من وراء الغلبة ، والتسلُّط ، وبالتَّخوض في حقوق الاخرين ، وأشيائهم[(٥٢٧)].

كانت هذه الوثيقة ، فيها من المعاني الحضاريَّة الشيء الكثير ، وما توافق النَّاس على تسميته اليوم بحقوق الإنسان ، وأنَّه لا بدَّ على الجانبين المتعاقدين أن يلتزموا ببنودها ، فهل حدث هذا الالتزام[(٥٢٨)].

ثالثاً: موقف اليهود في المدينة:

لقد قامت الحجج القاطعة ، والبراهين السَّاطعة لليهود على صدق رسالة الرَّسول (ص) ، ولكنَّ ذلك لم يزدْهم إلا عناداً ، وعداوةً ، واستكباراً ، وحقداً ، وحسداً على الرَّسول (ص) والَّذين امنوا معه ، فعن صفية بنت حُيَيِّ بن أخطب: أنَّها قالت: كنتُ أحَبَّ ولدِ أبي إليه ، وإلى عمِّي أبي ياسر ، لم ألقَهُما قطُّ مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه ، قالت: فلمَّا قدم رسولُ الله (ص) المدينة ، ونزل قُباء ، في بني عمرو بن عوف ، غدا عليه أبي حُيَيُّ بن أخطب ، وعمِّي أبو ياسر بن أخطب ، مُغَلِّسَيْن. قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، قالت: فأتيا كالَّيْنِ ، كسلانينِ ، ساقطينِ ، يمشيان الهُوَيْنَى. قالت: فَهَشِشْتُ إليهما ، كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إليَّ واحدٌ منهما ، مع ما بهما من الغَمِّ. قالت: وسمعتُ عمِّي أبا ياسر ، وهو يقول لأبي حُيَيِّ بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله! قال: أتعرفه ، وتُثْبته؟ قال: نعم ، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله! ما بَقِيتُ[(٥٢٩)].

وقد شنَّ اليهودُ على رسول الله (ص) والذين امنوا معه ، حملاتٍ إعلاميَّةً لتشويه صورة الرَّسول (ص) ، وتنفير النَّاس منه ، ونَزْع الثِّقة بينه ، وبين النَّاس. لقد شعر اليهود بخطورة هذا الدِّين على مصالحهم ، وعلى عقيدتهم المنحرفة المزيَّفة ، القائمة على الاستعلاء ، واحتقار النَّاس ، عدا الجنسَ اليهوديَّ؛ لقد جاء ينادي بعقيدة التَّوحيد ، وهم يقولون: «عزير ابن الله» ، وجاء ينادي بالمساواة بين أفراد الجنس البشريِّ ، وأنَّه لا يعلو شعبٌ على شعبٍ ، ولا جماعةٌ على جماعةٍ ، وهم يرون: أنَّهم شعب الله المختار ، يترفَّعون عن بقيَّة الأجناس ، وينظرون إليهم على أنَّهم دونهم ، وأقلُّ منهم[(٥٣٠)]؛ ولذلك لم يلتزموا

ببنود الوثيقة ، وشرعوا في التَّشكيك في نبوَّة الرَّسول (ص) ورسالته ، وأكثروا من الأسئلة لإحراج رسول الله (ص) ، وخدعوا المؤمنين ، ودلَّسوا عليهم[(٥٣١)] ، وغير ذلك من الأعمال الخبيثة.

١ ـ محاولة اليهود تصديع الجبهة الدَّاخلية:

ومن وسائلهم الخبيثة في حرب الإسلام محاولاتُهم المستمرَّة لتمزيق الصَّفِّ المسلم ،

وتخريبه بتقطيع أواصر المحبَّة بين المسلمين ، وذلك بإثارة الفتن الدَّاخلية ، والشِّعارات الجاهليَّة ، والنَّعرات الإقليميَّة ، والدَّعوات القوميَّة ، والقَبَلِيَّة ، والسَّعي بالدَّسيسة والوقيعة بين الإخوة المتالفين المتوادِّين المتحابِّين ، فهم في توادِّهم ، وتعاطفهم ، وتراحمهم كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضوٌ؛ تداعى له سائر الأعضاء بالحُمَّى والسَّهر[(٥٣٢)].

فقد تفتَّق ذهنُ أحد شيوخهم الكبار في السنِّ ، عن حيلةٍ هدف بها إلى تفريق وحدة الأنصار ، وذلك بإثارة العصبيَّة القبليَّة بينهم؛ ليعودوا إلى جاهليتهم ، فتعود الحروب بينهم كما كانت ، ويخسر النَّبيُّ (ص) بذلك أقوى أنصاره[(٥٣٣)] ، وفي بيان هذا الخبر يقول محمَّد بن إسحاق ـ رحمه الله تعالى! ـ: ومَرَّ شأس بن قيس ـ وكان شيخاً قد عَسَا[(٥٣٤)] ، عظيمَ الكفر ، شديدَ الضِّغْن على المسلمين ، شديدَ الحسد لهم ـ على نفرٍ من أصحاب رسول الله (ص) من الأوس ، والخزرج ، في مجلسٍ قد جمعهم يتحدَّثون فيه ، فغاظه ما رأى من أُلْفَتِهم ، وجماعتهم ، وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الَّذي كان بينهم في الجاهليَّة ، فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلَة[(٥٣٥)] بهذه البلاد ، لا والله! ما لنا معهم ـ إذا اجتمع مَلَؤهم بها ـ من قرارٍ ، فأمر فتىً شابّاً من يهود كان معهم ، فقال: اعْمِدْ إليهم ، فاجلس معهم ، ثمَّ اذكر يوم بُعاث ، وما كان قَبْلَه ، وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار.

وكان يومُ بُعاث يوماً اقتتلتْ فيه الأوس والخزرج ، وكان الظَّفَر فيه يومئذٍ للأوس على الخزرج ، وكان على الأوس يومئذٍ حُضَيْر بن سماك الأشهليُّ أبو أُسيد بن حُضَير ، وعلى الخزرج عمرو بن النُّعمان البَيَاضي ، فَقُتِلا جميعاً.

قال ابن إسحاق: ففعل ، فتكلَّم القوم عند ذلك ، وتنازعوا ، وتفاخروا ، حتَّى تواثب رجلانِ من الحَيَّيْنِ على الرُّكب: أوس بن قَيْظيٍّ ـ أحد بني حارثة بن الحارث، من الأوس ـ وجبَّار بن صخر ـ أحد بني سلمة من الخزرج ـ فتقاولا ، ثمَّ قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الان جَذَعَة[(٥٣٦)] ، فغضب الفريقان جميعاً ، وقالوا: قد فعلنا ، موعدكم الظَّاهرة ـ والظَّاهرة: الحَرَّة ـ السِّلاحَ السِّلاحَ ، فخرجوا إليها.

فبلغ ذلك رسولَ الله (ص) ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتَّى جاءهم ، فقال: يا معشرَ المسلمين! اللهَ اللهَ! أَبِدَعْوَى الجاهلية ، وأنا بين أظهُركم بعد أن هداكم الله

للإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألَّف به بين قلوبكم؟!

فعرف القوم أنَّها نزغةٌ من الشَّيطان ، وكيدٌ من عدوِّهم ، فبكوا ، وعانق الرِّجال من الأوس والخزرج بعضُهم بعضاً ، ثمَّ انصرفوا مع رسول الله (ص) سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدوِّ الله شأس بن قيس ، فأنزل الله تعالى في شأس بن قيس ، وما صنع: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ *قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *} [آل عمران: ٩٨ ـ ٩٩] وأنزل الله في أوس بن قَيْظيٍّ ، وجبَّار بن صخر ، ومن كان معهما من قومهما؛ الَّذين صنعوا ما أدخل عليهم شأس من أمر الجاهلية[(٥٣٧)]: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ *وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *} [آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠٥] .

ونرى من خلال القصَّة ، قدرة القيادة النَّبويَّة على إحباط مخطَّط اليهود الهادف لتفتيت وحدة الصفِّ ، واهتمام النَّبيِّ (ص) بأمور المسلمين ، وإشفاقه عليهم ، وفزعه ممَّا يصيبهم من الفتن والمصائب ، فقد أسرع إلى الأنصار ، وذكَّرهم بالله ، وبيَّن لهم: أنَّ ما أقدموا عليه من أمر الجاهليَّة ، وذكَّرهم بالإسلام ، وما أكرمهم الله به من القضاء على الحروب والفتن ، وتطهير النُّفوس من الضَّغائن ، وتأليف القلوب بالإيمان ، وكانت لكلمات النَّبيِّ (ص) أثرٌ في نفوسهم ، وسرت في كيانهم رُوحٌ جديدةٌ ، مسحت كل أثرٍ لأمر الجاهليَّة بفضل الله تعالى ، ثمَّ بكلمات نبيِّه (ص) المعبِّرة ، ورُوحه القويَّة المؤثِّرة ، وهيئته الوثَّابة المنذرة ، وأدركوا: أن ما وقعوا فيه كان من وساوس الشَّيطان ، وكيد عدوِّهم من اليهود ، فبكوا ندماً على ما وقعوا فيه من الذُّنوب ، وتعانق رجال الإسلام؛ تعبيراً عن محبَّتهم الإيمانيَّة لبعضهم[(٥٣٨)].

٢ ـ التَّهجم على الذَّات الإلهيَّة:

ذكر غيرُ واحدٍ من كُتَّاب السِّير ، والمفسّرين: أنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه ، قد دخل بيت الْمِدْرَاس[(٥٣٩)] على يهود ، فوجد منهم ناساً كثيراً ، قد اجتمعوا إلى رجلٍ منهم ، يقال له: (فِنْحاص) ، وكان من علمائهم ، وأحبارهم ، ومعه حَبْرٌ من أحبارهم ، يقال له: (أشيع) ، فقال أبو بكر لفِنْحاص: ويحَك! اتَّق الله ، وأَسْلِم ، فوالله! إنَّك تعلم: إنَّ محمداً لَرسولُ اللهِ ، قد جاءكم بالحقِّ من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم في التَّوراة ، والإنجيل. فقال فِنْحاص لأبي بكرٍ: والله! يا أبا بكر! ما بنا إلى الله من فَقْرٍ ، وإنَّه إلينا لفقير ، وما نتضرَّع إليه كما يتضرَّع إلينا ، وإنَّا عنه لأغنياء ، وما هو عنَّا بغنيٍّ ، ولو كان عنَّا غنيّاً ما استقرضنا أموالنا ، كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الرِّبا ويُعْطِيناه ، ولو كان عنا غنيّاً ما أعطانا الرِّبا. فغضب أبو بكر ، فضرب وجه فِنْحاص ضرباً شديداً ، وقال: والذي نفسي بيده! لولا العهدُ الذي بيننا وبينكم؛ لضربتُ رأسَك أيْ عدوَّ الله! فذهب فِنْحاص إلى رسول الله (ص) ، فقال: يا محمد! انظر ما صنع بي صاحبك ! فقال رسول الله (ص) لأبي بكرٍ: « ما حملك على ما صنعت؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله! إنَّ عدوَّ الله قال قولاً عظيماً؛ إنَّه يزعم: أنَّ الله فقيرٌ ، وأنَّهم أغنياء ، فلمَّا قال ذلك؛ غضبتُ لله ممَّا قال ، وضربتُ وجهه! فجحد ذلك فِنْحاص ، وقال: ما قلتُ ذلك؛ فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص؛ ردَّاً عليه ، وتصديقاً لأبي بكر: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ *} [آل عمران: ١٨١] .

ونزل في أبي بكرٍ الصِّديق رضي الله عنه ، وما بلغه في ذلك من الغضب[(٥٤٠)]: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ *} [آل عمران: ١٨٦][(٥٤١)] .

وذكر القران الكريم في أكثر من موضعٍ ، سوءَ أدبهم مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعدم تنزيهه عن النَّقائص ، وَوَصْفَه بما لا يليق به سبحانه ، وهذا عين الوقاحة ، وانعدام الأدب؛ ومن هذه الايات قول الله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ *} [المائدة: ٦٤] .

ويبدو من مضمون الاية: أنَّ هذا الموقف الَّذي وقفوه ، كان منبعثاً ممَّا كان يملأ صدورهم من الغيظ ، والسُّخط من رسوخ قدم النَّبيّ (ص) وانتشار دعوته ، ولعلَّ ممَّا يصحُّ أن يضاف إلى هذا الاحتمال كون المسلمين قد انصرفوا عنهم ، أو قاطعوهم بسبب مواقف الكيد ، والجحود؛ الَّتي ما فتئوا يقفونها ، واستجابةً لأمر القران ، ونهيه ، وتحذيره ، فأثَّر ذلك في حالتهم الاقتصاديَّة تأثيراً سيئاً ، فزاد سخطهم ، وغيظهم ، وتَبَرُّمُهم ، ودفعهم إلى ما كان منهم من سوء الأدب في حقِّ الله ، ومن ردٍّ غير جميلٍ لرسول الله (ص)[(٥٤٢)] .

وقد جاء بعد هذه الاية ما يدلُّ على صحَّة ما ذهبتُ إليه ، قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا واتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ *وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ *} المائدة: ٦٥ ـ ٦٦] .

٣ ـ سوء أدبهم مع رسول الله (ص) والنَّيل من الرُّسل الكرام والقران الكريم:

وكان اليهود يسيئون الأدب مع رسول الله (ص) ، في حضرته ، وأثناء خطابه؛ إذ يلمزونه، ويحيّونه بتحيَّةٍ فيها من الأذى والتهجُّم ما يدلُّ على سوء أخلاقهم ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء ناسٌ من اليهود إلى رسول الله (ص) فقالوا: السَّامُ[(٥٤٣)] عليك يا أبا القاسم! فقلتُ: السَّام عليكم! وفعل الله بكم! فقال رسول الله (ص) : «مَهْ يا عائشة! فإنَّ الله لا يحبُّ الفحش ، ولا التفحُّش» ، فقلت: يا رسول الله! ترى ما يقولون؟ فقال: «ألستِ تريني أردُّ عليهم ما يقولون؟ وأقول: وعليكم» ، قالت: فنزلت هذه الاية في ذلك [البخاري (٢٩٣٥) ومسلم (٢١٦٥/١١)][(٥٤٤)] وهي قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ويَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ *} [المجادلة: ٨] .

وهذه الاية تُظْهِر الحقد الَّذي هيمن على نفوس اليهود ، ودفعهم إلى استخدام كلِّ الوسائل، والطُّرق لهدم الإسلام، والتخلُّص من صاحب الرِّسالة (ص) ، والسَّيطرة على المسلمين ، ولكن يظهر من دعاء بعض اليهود على الرَّسول (ص) بالموت ـ مع التَّظاهر بالسَّلام عليه ـ الضَّعفُ الَّذي كانوا عليه عند التجائهم إلى هذا النَّوع من السَّلام ، فالممارس لمثل ما قام به اليهوديُّ الَّذي سلَّم على الرَّسول (ص)

بقوله: «السَّام عليك» يعيش أزمةً نفسيَّةً متولِّدة عن فقدان عزٍّ كان يظنُّ أنه ينعم فيه ، لقد تغلَّبت قوىً جديدةٌ على ماضيه وحاضره ، ولم يستطع أن يتفاعل مع مَنْ تغلَّب عليه ،

ومنعهم الحسد والغيرة من الانقياد للدِّين الجديد ، وممَّا زاد في تأزُّم اليهود: أنهم جرَّبوا محاربة الإسلام بوسائلهم الَّتي كانوا يظنُّون أنَّها لا تُقهر ، فكان الفشل حليفهم ، لذلك لجؤوا إلى الطُّرق السَّلبيَّة ، والوسائل الملتوية ، فالدُّعاء على الخصم مع التَّظاهر بالسَّلام ، هو سلاح العاجزين ، ووسيلة الخائبين ، وتِرْيَاقُ الحاقدين[(٥٤٥)].

ولما سمع رسولُ الله (ص) ما صدر عن عائشة رضي الله عنها ، دعاها إلى الرِّفق ، واللِّين ، وبيَّن لها: أنَّ المسلم لا يجوز له أن يترك الغضبَ يتحكَّم فيه ، فالرِّفق في الإسلام ثمرةٌ لا يثمرها إلا حسن الخُلُق ، فالله رفيقٌ يحبُّ الرِّفق ، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف[(٥٤٦)].

وأمَّا نَيْلُهم من المرسلين: فقد أتى رسولَ الله (ص) نفرٌ من يهود ، فيهم أبو ياسر ابن أخطب ، ونافع بن أبي نافع ، وعازر بن أبي عازر ، وغيرهم ، وسألوا رسولَ الله (ص) عمَّن يؤمن به من الرُّسل ، فقال (ص) : «نؤمن بالله ، وما أُنزل إلينا ، وما أُنزل إلى إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباط ، وما أُوتي موسى وعيسى ، وما أُوتي النبيون من ربهم ، لا نفرّق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون» ، فلما ذكر عيسى ابن مريم عليه السلام جحدوا نبوَّته ، وقالوا: لا نؤمن بعيسى ابن مريم ، ولا بمن امن به[(٥٤٧)] ، فأنزل الله فيهم: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ *} [المائدة: ٥٩] .

وأمَّا عن محاولاتهم للنَّيل من القران الكريم في أسئلتهم ، ونقاشهم ، الَّذي لا ينتهي: فعن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله (ص) المدينة؛ قالت أحبار اليهود: يا محمد! أرأيتَ قولك: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً *} [الإسراء: ٨٥] إيَّانا تريد أم قومك؟ قال: «كُلاًّ» ، قالوا: فإنَّك تتلو فيما جاءك: أنّا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيءٍ ، فقال رسول الله (ص) : «إنَّها في عِلْم الله قليلٌ ، وعندكم في ذلك ما يكفيكم؛ لو أقمتموه»[(٥٤٨)]. قال: فأنزل الله تعالى عليه فيما سألوه عنه من ذلك: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *} [لقمان: ٢٧] .

٤ ـ دعم حزب المنافقين ، وتامرهم معهم:

حدَّثنا القران الكريم ، عن قيادة اليهود الفكريَّة لحزب المنافقين ، فهم شياطين المنافقين؛

يخطِّطون لهم ، ويوجِّهونهم ، ويدرسون لهم أساليب الكيد ، والمكر ، والخداع ، والدَّهاء ، وإثارة الفتن.
قال تعالى: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ *} [البقرة: ١٤] .

قال النَّسفي في تفسيره: «وشياطينهم الَّذين ماثلوا الشَّياطين في تمرُّدهم ، هم اليهود»[(٥٤٩)].
وكان اليهود في المدينة يتامرون مع المنافقين ضدَّ المسلمين ، وفي هذا التامر يقول تعالى: {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَولِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا *} [النساء: ١٣٨ . ١٣٩] .
قال الأستاذ محمد دَرْوَزَة: «وجمهور المفسرين على أنَّ الكافرين هنا هم اليهود ، وفي الاية قرينةٌ على صحَّة ذلك ، كما أنَّ فيما بعدها قرينةً ثانيةً أيضاً ، وواضحٌ: أن اتِّخاذ المنافقين اليهود أولياء ، وتواثقهم معهم ، إنَّما هما أثران من اثار التامر الموطَّد بين اليهود ، والمنافقين تجاه الدَّعوة والقوَّة الإسلاميَّة»[(٥٥٠)].
وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ *ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ *} [محمد: ٢٥ . ٢٦] .
والجمهور على أنَّ الاية الأولى عَنَتِ المنافقين ، وأنَّ الَّذين كرهوا ما نزَّل الله هم اليهود ، وهكذا تبدو في الاية الثَّانية صورةٌ من صور التامر بين الفريقين ضدَّ الإسلام ، والمسلمين ، ونلفت النَّظر إلى ما حَكَتْهُ الاية الثَّانية ، من وَعْد المنافقين لليهود بطاعتهم ، والسَّير على الخطَّة ؛ الَّتي يضعونها ، ففي هذا كما هو ظاهرٌ صورةٌ لبعض ما كان لليهود من التَّوجيه والتَّأثير والنُّفوذ في المنافقين ، وحركتهم ، وأعمالهم[(٥٥١)].
وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ *أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ *} [المجادلة: ١٤ . ١٦] .
قال الماورديُّ في تفسيره لهذه الاية: «يعني: المنافقين؛ تولَّوا قوماً غضب الله عليهم: هم اليهود»[(٥٥٢)] ، وفسر الماورديُّ الصدَّ عن سبيل الله بأنه: الصَّدُّ عن الجهاد ممايلةً لليهود(٢).

ودفع اليهود المنافقين لإشعال حربٍ ضدَّ رسول الله (ص) . فعن أسامة بن زيدٍ رضي الله عنه قال: إنَّ رسول الله (ص) ركب على حمارٍ على قطيفةٍ فَدَكيَّة[(٥٥٣)] ، وأردف أسامة بن زيد وراءه ، يعودُ سعدَ بن عُبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، قال: حتَّى مرَّ بمجلسٍ فيه عبد الله بن أُبيّ بن سَلول ، وذلك قبل أن يُسْلم عبد الله بن أُبيّ ، فإذا في المجلس أخلاطٌ من المسلمين ، والمشركين عبدة الأوثان ، واليهود ، وفي المجلس عبد الله بن رَواحة ، فلمَّا غَشِيَتِ المجلسَ عَجَاجةُ الدَّابة ، خَمَّر عبد الله بن أُبيّ أنفَه بردائه ، ثمَّ قال: لا تُغبِّروا علينا ، فسلَّم رسول الله (ص) عليهم ، ثم وقف ، فنزل فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القران ، فقال عبد الله بن أُبيّ بن سَلول: أيها المرءُ! إنَّه لا أحسنَ ممَّا تقول ـ إن كان حقّاً ـ فلا تُؤْذِنَا به في مجلسنا ، ارجع إلى رَحْلك فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله! فَاغْشَنَا به في مجالسنا ، فإنَّا نحبُّ ذلك ، فاستبَّ المسلمون ، والمشركون ، واليهود ، حتَّى كادوا يتثاورون[(٥٥٤)] ، فلم يزلِ النَّبيُّ (ص) يُخَفِّضُهم حتَّى سكنوا ، ثمَّ ركب النَّبيُّ (ص) دابته ، فسار حتى دخل على سعد بن عبادة ، فقال له النَّبيُّ (ص) : «يا سعدُ! ألم تسمع ما قال أبو حُبَاب ـ يريد عبد الله بن أُبيّ ـ قال كذا ، وكذا». قال سعد بن عبادة رضي الله عنه: يا رسول الله! أُعْفُ عنه ، واصفحْ ، فوالَّذي أنزل عليك الكتاب! لقد جاء الله بالحقِّ الذي أَنزل عليك ، ولقد اصطلح أهلُ هذه البحيرة[(٥٥٥)] على أن يُتَوِّجوه ، فيعصِّبُونه بالعصابة[(٥٥٦)] ، فلمَّا أبى الله ذلك بالحقِّ الذي أعطاك الله شَرِقَ بذلك ، فذلك فعل به ما رأيتَ. فعفا عنه رسول الله (ص) . [البخاري (٤٥٦٦)] .

٥ ـ طعنُ اليهود في مَنْ امن من الأحبار (عبد الله بن سَلام) رضي الله عنه:

«بلغ عبدَ الله بن سَلام مَقْدَمُ رسول الله (ص) المدينةَ ، فأتاه ، فقال: إنِّي سائلُك عن ثلاث لا يعلمهنَّ إلا نبيٌّ ، قال: ما أوَّل أشراط السَّاعة؟ وما أوَّل طعامٍ يأكله أهل الجنة؟ ومن أيِّ شيءٍ يَنْزِعُ الولدُ إلى أبيه؟ ومن أيِّ شيء يَنْزِعُ إلى أخواله؟ فقال رسول الله (ص) : «خَبَّرَني بهنَّ انفاً جبريلُ» ، قال: فقال عبد الله: ذاك عدوُّ اليهود من الملائكة ، فقال رسول الله (ص) : «أمَّا أوَّلُ أشراط السَّاعة ، فنارٌ تحشر الناسَ من المشرق إلى المغرب ، وأمَّا أولُ طعامٍ يأكله أهلُ الجنة ، فزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ ، وأما الشَّبهُ في الولد ، فإنَّ الرَّجل إذا غَشيَ المرأةَ ، فسبقها ماؤه؛ كان الشَّبه

له ، وإذا سبق ماؤها؛ كان الشَّبهُ لها». قال: أشهد أنَّك رسول الله ، ثمَّ قال: يا رسول الله! إنَّ اليهود قومٌ بُهْتٌ ، وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك ، فجاءت اليهود ، ودخل عبدُ الله البيت

، فقال رسول الله (ص) : «أيُّ رجل فيكم عبدُ الله بن سلام!» قالوا: أعلمُنا وابن أعلمِنا ، وأخبرُنا وابن أخبرِنا ، فقال رسول الله (ص) : «أفرأيتم إن أسلم عبد الله!» قالوا: أعاذه اللهُ من ذلك. فخرج عبد الله إليهم ، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمَّداً رسول الله ، فقالوا: شَرُّنا ، وابن شَرّنِا ، ووقعوا فيه» [البخاري (٣٣٢٩)] . فكانوا يؤذون من امن من أحبارهم ، ويثيرون حولهم الشُّكوك ، ويقذفونهم بتهمٍ باطلةٍ قبيحةٍ ، وقد حدَّثنا القران الكريم عن هذه الوسيلة ، ودافع عن هؤلاء المؤمنين ، الَّذين وجَّه اليهود ضدَّهم تلك الحملات الظَّالمة[(٥٥٧)].

قال الله تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ *يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ *وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ *} [آل عمران: ١١٣ ـ ١١٥] .

قال الواحديُّ في (أسباب النُّزول): «قال ابن عباسٍ ، ومقاتلٍ: لما أسلم عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعيد ، وأسيد بن سعية ، وأسد بن عُبيد ، ومن أسلم من اليهود ، قالت أحبار اليهود: ما امن لمحمَّد إلا شرارُنا ، ولو كانوا من خيارنا لما تركوا دين ابائهم ، وقالوا لهم: لقد خُنتم حين استبدلتم بدينكم ديناً غيره ، فأنزل الله تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً} الاية»[(٥٥٨)].

٦ ـ بثُّ الإشاعات والشَّماتة بالنَّبيِّ (ص) والمسلمين:

كان اليهود يتحيَّنون الفرص للنَّيل من المسلمين ، والبحث عمَّا يفرّق كلمتهم ، ومن ذلك استغلالهم ـ في الأشهر الأولى من الشَّهر ـ لوفاة أحد النُّقباء ، الَّذين بايعوا رسولَ الله (ص) بيعة العقبة ، وهو أبو أُمامة أسعد بن زُرَارةَ الأنصاريُّ الخزرجيُّ رضي الله عنه ، فعندما أخذته الشَّوْكة[(٥٥٩)] ، فجاءه رسول الله (ص) يعوده ، فقال: بئس الميّتُ ليهود ـ مرَّتين ـ سيقولون: لولا دفع عنه صاحبه ، ولا أملك له ضرّاً ، ولا نفعاً ، ولأتَمَحَّلَنَّ[(٥٦٠)] له» ، فأمر به ، فكُوِيَ بخطَّين فوق رأسه فمات ، [أحمد (١٣٨/٤) والحاكم (٢١٤/٤) ومجمع الزوائد (٩٨/٥)] . وفي روايةٍ: فكواه

حَوْران[(٥٦١)] ، على عنقه ، فمات ، فقال النَّبيُّ (ص) : «بئس الميتُ لليهود ، يقولون: قد داواه صاحبه ، أفلا نفعه!» [الطبراني في المعجم الكبير (٥٥٨٤) وعبد الرزاق في المصنف (١٩٥١٥) ومجمع الزوائد (٩٨/٥)] .

ولم تكن حادثة أبي أُمامة هي الحدث الوحيد الَّذي أبان الحقد اليهوديَّ على المسلمين ، فقد أشاعوا في أوَّل الهجرة: أنَّهم سحروا المسلمين ، فلا يُولد لهم ولد ، أشاعوا ذلك ليضيِّقوا على المسلمين الخناق ،

ويفسدوا عليهم حياتهم الجديدة ، التي عاشوها في مدينة رسول الله (ص) ، وليعكِّروا ذلك الجوَّ الصَّافي؛ الَّذي يملؤه الحبُّ ، والتالف بين المسلمين.

وممَّا يدلُّ على مقدار ما فعلته تلك الإشاعة بين المسلمين ، شدَّة الفرحة التي اعترتهم حيث ولد بينهم أوَّل مولودٍ ذكر من المهاجرين ، وهو عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه[(٥٦٢)] ، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: «أنَّها حَمَلَتْ بعبد الله بن الزُّبير في مكَّة ، قالت: فخرجت وأنا مُتِمٌّ ، فأتيت المدينة ، فنزلت قُباءً ، فولدت بقُباء ، ثمّ أتيت به رسولَ الله (ص) ، فوضعتُه في حجره ، ثمَّ دعا بتمرةٍ ، فمضغها ، ثمَّ تفل في فيه ، فكان أوَّل شيءٍ دخل جوفه ريقُ رسول الله (ص) ، ثمَّ حَنَّكَه بالتَّمرة ، ثمَّ دعا له ، فَبَرَّك عليه ، وكان أولَ مولود وُلِدَ في الإسلام ، ففرحوا به فرحاً شديداً؛ لأنَّهم قيل لهم: إنَّ اليهود قد سحرتكم ، فلا يُولدُ لكم» [البخاري (٥٤٦٩) ومسلم (٢٦/٢١٤٦)] ، وفي روايةٍ مسلم [(٢٥/٢١٤٦)]: «وسمَّاه عبد الله ، ثمَّ جاء بعدُ وهو ابن سبعٍ، أو ابن ثماني سنين، يبايع النَّبيَّ (ص) ، أمره الزُّبير رضي الله عنه بذلك ، فتبسم النَّبيُّ (ص) حين راه مقبلاً ، وبايعه» ، وكان أوَّل من وُلِدَ في الإسلام بالمدينة بعد مَقْدَمِ رسول الله (ص) ، وكانت اليهود تقول: قد أخذناهم ، فلا يُولدُ لهم بالمدينة وُلد ذكر ، فكبَّرَ أصحابُ رسول الله (ص) حين وُلد عبد الله [الحاكم (٥٤٨/٣)] .

٧ ـ موقفهم من تحويل القبلة:

تكاد تكون حادثة تحويل القبلة ، من بيت المقدس إلى الكعبة المشرَّفة هي الفاصل بين الحرب الكلاميَّة ، وحرب المناوشات ، والتدخُّل الفعليَّ من جانب اليهود ، لزعزعة الدَّولة الإسلاميَّة الناشئة[(٥٦٣)] ، فعن البَرَاء بن عازبٍ رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ (ص) كان أولَ ما قَدِمَ المدينة نزل على أجداده ـ أو قال: أخواله ـ من الأنصار ، وأنَّه (ص) صلَّى قِبَلَ بيت المقدس ستةَ عَشَرَ شهراً ، أو سبعةَ عَشَرَ شهراً ، وكان يُعجبه أن تكون قبلتُه قِبَلَ البيت ، وأنَّه (ص) صلَّى أوَّل صلاةٍ

صلاها ، صلاةَ العصر ، وصلَّى معه قومٌ ، فخرج رجلٌ ممَّن صلَّى معه ، فمرَّ على أهل مسجدٍ؛ وهم راكعون ، فقال: أشهد بالله! لقد صليت مع رسول الله (ص) قِبَلَ مكَّة ، فداروا كما هم قِبَلَ البيت ، وكانت اليهود قد أعجبهم أنَّه كان يُصلِّي قِبَلَ بيت المقدس ، وأهلُ[(٥٦٤)] الكتاب ، فلمَّا ولَّى وجهه قِبَلَ البيت؛ أنكروا ذلك [البخاري (٤٠) ومسلم (٥٢٥)] ، وقد نزلت في هذه الحادثة اياتٌ عظيمة ، فيها عِبَرٌ ، وحكمٌ ودروسٌ للصفِّ المسلم.

قال تعالى: {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ *} [البقرة: ١٤٩ ـ ١٥٢] .

* {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا ولاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا} [البقرة: ١٤٢] : أخبر الله ـ تبارك وتعالى ـ بما سيقوله اليهود عند تحوُّل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة من إثارة الشُّكوك ، والتَّساؤلات قبل وقوع الأمر ، ولهذا دلالته؛ فهو يدلُّ على نبوَّة محمَّدٍ (ص) ؛ إذ هو أمر غيبيٌّ ، فأخبر عنه قبل وقوعه ، ثمَّ وقع ، فدلَّ ذلك على أنَّ محمداً (ص) رسولٌ ، ونبيٌّ يخبره الوحي بما سيقع؛ إذ من الأدلَّة على صدق رسالة الرَّسول (ص) ، أن يخبر بأمور غيبية ثمَّ تقع بعد ذلك.

وهو يدلُّ أيضاً على علاجٍ للمشاكل قبل حدوثها ، حتَّى يستعدَّ المسلمون ، ويهيِّئوا أنفسهم لهذه المشاكل للتغلُّب عليها ، والردِّ عليها ، ودفعها؛ لأنَّ الأمر حين يكون مفاجئاً لهم ، يكون وقعه على النفس أشدَّ ، ويربك المفاجأ ، أمَّا حين يُحدَّثون عنه قبل وقوعه ، فالحديث يطمئنهم ، ويوطِّن نفوسهم ، ويعدُّها لمواجهة الشَّدائد[(٥٦٥)]. قال أبو السعود في تفسيره: «وأخبر بالأمر قبل وقوعه؛ لتوطين النُّفوس ، وإعدادها على ما يبكتهم ، فإنَّ مفاجأة المكروه على النَّفس أشقُّ ، وأشدُّ ، والجواب العتيد لشغب الخصم الألد أردُّ»[(٥٦٦)] ، وقد وصف الله تعالى اليهود بالسَّفه؛ لاعتراضهم على تحويل القبلة ، وللكيد ضدَّ رسول الله (ص) . قال أبو السعود: «والسفهاء الذين خفَّت أحلامُهم ، واستمهنوها بالتَّقليد ، والإعراض عن التدبُّر ، والنَّظر. وقولهم: ثوبٌ سفيهٌ ، إذا كان خفيف النَّسيج ، وقيل: السَّفيه: البهَّات الكذَّاب ، المتعمِّد

خلاف ما يعلم ، وقيل: الظَّلوم الجهول ، والسُّفهاء هم اليهود»[(٥٦٧)].

* {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣][(٥٦٨)] : يقول ابن كثير: «يقول تعالى: إنما حوَّلناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام ، واخترناها لكم ، لنجعلكم خيارَ الأمم؛ لتكونوا يوم القيامة شهداءَ الأمم؛ لأنَّ الجميع معترفون لكم بالفضل. والوسط هاهنا: الخيار ، والأجود ، كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً ، أي: خيرها ، وكان

رسول الله (ص) وسطاً في قومه ، أي أشرفهم نسباً ، ومنه الصَّلاة الوسطى الَّتي هي أفضل الصَّلوات وهي العصر»[(٥٦٩)].

فهي أمَّةٌ وسطٌ في التَّصوُّر والاعتقاد ، في التَّفكير والشُّعور ، في التَّنظيم والتَّنسيق ، في الارتباطات والعلاقات ، في المكان في سرَّة الأرض وأوسط بقاعها[(٥٧٠)].

* {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ} [البقرة: ١٤٣] .

فالاية تذكِّر أنَّ الصَّلاة نحو بيت المقدس كانت فتنةً؛ أي: اختباراً ، والتَّحوُّل من بيت المقدس إلى الكعبة كان أيضاً اختباراً ، وامتحاناً. قال البيضاويُّ في تفسيره: «وما جعلنا قبلتك بيت المقدس إلا لنعلم مَنْ يتَّبع الرَّسول ، ممَّن ينقلب على عقبيه ، إلا لنمتحن به النَّاس ، ونعلم من يتَّبعك في الصَّلاة إليها ، ممَّن يرتدُّ عن دينك إلفاً لقبلة ابائه ، أو لنعلم من يتَّبع الرَّسول ممَّن لا يتَّبعه ، وما كان لعارض يزول بزواله ، وعلى الأول: معناه: ما رددناك إلى الَّتي كنت عليها ، إلا لنعلم الثَّابت على الإسلام ، ممَّن ينكص على عقبيه؛ لقلقه ، وضعف إيمانه»[(٥٧١)].

فالصَّلاة إلى الكعبة في بداية الأمر ، ثمَّ الصَّلاة إلى بيت المقدس ، ثمَّ العودة إلى الكعبة ، واستمرار ذلك لا شيء فيه؛ ما دام الباري سبحانه أمر بذلك ، ومن ثَمَّ فالتَّوجه في كلِّ حالةٍ هو عبادة ، وما على الناس إلا أن ينقادوا لأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ ، ويلتزموا بأمره ، فالذي يتَّبع الرسول وينقاد لأوامره في القبلة يُعَدُّ فائزاً في الاختبار ، والامتحان ، والَّذي يجد في نفسه مخالفة حكمٍ من الأحكام الشَّرعيَّة كان ساقطاً ، وهالكاً ، والإيمان الحقُّ هو الَّذي يُلزم صاحبه

بالاتِّباع ، ومخالفة الهوى[(٥٧٢)]؛ ولهذا ثبت الصَّحابة الكرام ، واستجابوا لأوامر الله تعالى ، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: بينا النَّاس يصلُّون الصُّبح في مسجد قُباء؛ إذ جاء رجلٌ فقال: قد أُنزل على النَّبيِّ (ص) قران ، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة ، فاسْتقبِلُوها. فتوجَّهوا إلى الكعبة[(٥٧٣)].

* {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنْ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [البقرة: ١٤٣] .

تبيِّن الاية الكريمة حرص المؤمنين على إخوانهم ، وحبَّ الخير لهم ، فحينما نزلت الايات؛ الَّتي تأمر المؤمنين بتحويل القبلة إلى الكعبة؛ تساءل المؤمنون مشفقين عن مصير عبادة إخوانهم ، الَّذين ماتوا؛ وقد صلوا نحو بيت المقدس ، فأخبر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: أنَّ صلاتهم مقبولةٌ ، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: لما وُجِّه النَّبيُّ (ص) إلى الكعبة؛ قالوا: يا رسول الله! كيف بإخواننا الَّذين ماتوا وهم يصلُّون

إلى بيت المقدس؟ ، فأنزل الله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنْ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [البقرة: ١٤٣] [أبو داود (٤٦٨٠) والترمذي (٢٩٦٤) وأحمد (١/٢٩٥ و٣٠٤ و٣٢٢ و٣٤٧)] ، وبيَّن لهم: أنَّه رؤوف رحيمٌ ، «وبهذا يسكب في قلوب المسلمين الطُّمأنينة ، ويذهب عنها القلق ، ويفيض عليها الرِّضا ، والثِّقة ، واليقين»[(٥٧٤)].

* {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ *وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ *الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ *الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [البقرة: ١٤٤ ـ ١٤٨] .

كان رسول الله (ص) ، حريصاً على أن يتوجَّه في صلاته إلى قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام ، فهو أولى النَّاس به؛ لأنَّه من ثمرة دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام ، وحامل لواء التَّوحيد بحقٍّ كما حملها إبراهيم عليه السلام ، وهو (ص) كان يحرص على أن يكون مستقلاً ، ومتميِّزاً عن أهل الدِّيانات السَّابقة؛ الَّذين حرَّفوا ، وبدَّلوا ، وغيَّروا؛ كاليهود ، والنَّصارى؛ ولهذا كان ينهى عن تقليدهم والتَّشبُّه بهم؛ بل يأمر بمخالفتهم، ويحذِّر من الوقوع فيما وقعوا فيه من الزَّلل، والخطل[(٥٧٥)]، والانحراف، ومقتضى هذا الحرص أن يتوجَّه في صلاته بشكل دائم إلى قيلة أبي الأنبياء، وهو أول بيت وضع للناس[(٥٧٦)].

إن لحادثة تحويل القبلة أبعاداً كثيرة: منها السِّياسيُّ، ومنها العسكريُّ، ومنها الدِّينيُّ البحت، ومنها التاريخيُّ؛ فبعدها السياسيُّ: أنها جعلت الجزية العربية محور الأحداث، وبعدها التَّاريخيُّ: أنها ربطت هذا العالم بالإرث العربيِّ لإبراهيم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وبعدها العسكريُّ: أنَّها مهَّدت لفتح مكة ، وإنهاء الوضع الشَّاذِّ في المسجد الحرام، حيث أصبح مركز التَّوحيد مركزاً لعبادة الأصنام، وبُعدها الدينيُّ: أنها ربطت القلب بالحنفيَّة، وميَّزت الأمة الإسلامية عن غيرها، والعبادة في الإسلام في بقية الأديان[(٥٧٧)].

*{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ

لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ} [البقرة: ١٤٩ ـ ١٥٢].

إنَّ نعمة توجيهكم إلى قبلتكم، وتمييزكم بشخصيَّتكم من نعم الله عليكم، وقد سبقتها آلاء من الله كثيرةٌ عليكم؛ منها:

ـ {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ}: فوجود شخص رسول الله (ص) ـ إمام المربيِّين والدُّعاة ـ هو من خصيصة هذه النخبة القيَّاديَّة، الَّتي شرَّفها الله تعالى بأن يكون هو المسؤول عن تربيتها؛ فقيه النُّفوس، وطبيب القلوب، ونور الأفئدة، فهو النُّور، والبرهان، والحجَّة.

ـ {يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا}: فالمادة الأساسيَّة للبناء والتَّربية كلام الله تعالى، وكان يرافقهُ شحنةٌ عظيمةٌ لنزوله أوَّل الأمر غضَّاً طريَّاً، فكان جيلاً متميِّزاً في تاريخ الإنسانيَّة.

ـ {وَيُزَكِّيكُمْ}: فالمعلِّم المربِّي رسول الله (ص)، فهو المسؤول عن عمليَّة التربيَّة، وهو الَّذي بَلَغَ من الخُلُق، والتَّطبيق لأحكام القرآن الكريم ما وصفه الله تعالى به من هذا الوصف الجامع المانع، الذي تفرَّد به (ص) من دون البشريَّة كافَّةً، قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤]، وهو الَّذي وصفته عائشة رضي الله عنها، بأعظم ما يملك بشرٌ أن يصف به نبيَّاً، فقالت: «كان خُلُق نبيِّ الله القران» [البخاري في الأدب المفرد (٣٠٨) وأحمد (٦/٩١) والنسائي في السنن الكبرى (١١٢٨٧)] فكان الصَّحابة يسمعون القران الَّذي يُتلى من فم رسول الله (ص) ، ويرون القران الَّذي يمشي على الأرض ، متجسِّداً في خلُقه الكريم (ص) .

ـ : فهذه هي المهمَّة {وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} ، تعليم الصَّحابة الكرام الكتاب ، والحكمة ، فالقران الكريم لكي يكون مؤثراً في الأمَّة لا بدَّ من المربِّي الرَّبَّانِيّ الَّذي يزكِّي النُّفوس ، ويطهِّر القلوب ، ويعلِّمها شرع الله تعالى من خلال القران الكريم ، وسنَّة سيِّد المرسلين (ص) ؛ فيشرح للمسلمين غامضَه ، ويبيِّن مُحْكَمَهُ ، ويفصِّل مجمله ، ويسأل عن تطبيقه ، ويصحِّح خطأ الفهم لهم؛ إن وجد. كان الرَّسول (ص) ، يعلِّم ، ويربِّي أصحابه؛ لكي يُعلِّموا ، ويربُّوا النَّاس على المنهج الرَّبَّانِيّ ، فتعلَّم الصَّحابة من رسول الله (ص) منهج التَّعليم ، ومنهج التَّربية ، ومنهج الدَّعوة ، ومنهج القيادة للأمَّة من خلال ما تسمع ، وما تبصر ، ومن خلال ما تعاني وتجاهد ، فاستطاع (ص) أن يعدَّ الجيل إعداداً كاملاً ،

ومؤهِّلاً لقيادة البشريَّة ، وانطلق أصحابه من بعده يحملون التَّربية القرانيَّة ، والتَّربية النَّبويَّة إلى كل صُقْعٍ[(٥٧٥)] ، وأصبحوا شهداء على النَّاس.
. {وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ *}: ماذا كانوا قبل الوحي والرِّسالة؟ وماذا أصبحوا ذلك؟ كانوا في حروبٍ ، وصراعٍ ، وجاهليَّةٍ عمياء ، وأصبحوا بفضل الله ، ومَنِّهِ ، وكرمه أمةً عظيمةً ، لها رسالةٌ ، وهدفٌ في الحياة ، لا همَّ لها إلا العمل ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى ، وحقَّقوا العبوديَّة لله وحده ، والطاعة للهِ وحده ، ولرسوله (ص) ، وانتقلوا من نزعة الفردية ، والأنانيَّة ، والهوى إلى البناء الجماعيّ ، بناء الأمَّة ، وبناء الدَّولة ، وصناعة الحضارة ، واستحقَّت بفضل الله ، ومَنِّه أعظمَ وسَامَيْنِ في الوجود[(٥٧٦)] ، قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: ١١٠] ، وقال . أيضاً .: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣].
. {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ *}: فهذه المنن ، وهذه العطايا ، وهذه الخيرات تحتاج لذكر الله في الغدوّ ، والاصال ، وشكره عليها ، وحثَّهم المولى . عزَّ وجلَّ . على ذكره ، وبكرمه يُذكرون في الملأ الأعلى ، بعدما كانوا تائهين في الصَّحاري ، ضائعين في الفيافي ، وحُقَّ لهذه النعم جميعاً أن تُشْكَر[(٥٧٧)]!.

وهكذا الايات الكريمة تربِّي الصَّحابة من خلال الأحداث العظيمة ، وتصوغ الشَّخصيَّة المسلمة القويَّة ، الَّتي لا ترضى إلا بالإسلام ديناً ، والتَّي تعرَّفت على طبيعة اليهود من خلال القران الكريم ، وبدأت تتعمَّق في ثنايا طبيعتهم الحقيقيَّة ، وانتهت إلى الصُّورة الكلِّيَّة النِّهائيَّة ، الَّتي تربوا عليها من خلال القران الكريم ، والتَّربيَة النَّبويَّة. قال تعالى: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} [البقرة: ١٢٠] .
٨ . من صفات اليهود في القران الكريم:
إنَّ المتتبّع لتاريخ اليهود ، ومواقفهم مع المصطفى (ص) يشاهد تلك الأفعال القبيحة ، والأخلاق الرَّذيلة ، الَّتي يتَّصف بها هؤلاء البشر ، ولا غرابة في ذلك ، فهي طبيعة كلِّ ادميٍّ ينسلخ من دينه الصَّحيح ، وعقيدته السَّليمة.

كانت معاناة رسول الله (ص) والمسلمين من اليهود شديدةً ، وأليمةً ، فالقران الكريم تحدَّث عن بعضها ، وكتب السُّنَّة ، والتَّاريخ ، والسِّير حافلةٌ بالأحداث الجسيمة مع اليهود ، وقد تحدَّث القران الكريم ، وبيَّنت السُّنَّة النَّبويَّة صفاتهم القبيحة؛ كالنِّفاق ، وسوء الأدب مع الله ، ورسوله (ص) ، والمكر ، والخداع ، والمداهنة ، وعدم الانتفاع بالعلم ، والحقد ، والكراهية ، والحسد ، والجشع ، والبُخل ، ونكران الجميل ، وعدم الحياء ، والغرور ، والتكبُّر ، وحبُّ الظهور ، والإشراك في العبادة ، ومحاربة الأنبياء ، والصَّالحين ، والتَّقليد الأعمى ، وكتمان العلم ، وتحريف المعلومات ، والتَّحايل على المحرمات ، والتَّفرُّق ، والطَّبقيَّة في تنفيذ الأحكام ، والرِّشوة ، والكذب ، والقذارة[(٥٧٨)] ، وسوف نشير إلى بعض هذه الصِّفات الذَّميمة؛ التي جاءت في القران الكريم.

١ . الإشراك في العبادة:

فعبادة اليهود شركيَّةٌ باطلةٌ؛ حيث يعتقدون: أنَّ لله ولداً ، ويشركون معه في عِبادته غيره ، وقد سجَّل الله . عزَّ وجل . عليهم بعض مظاهر الإشراك. قال تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ *اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ *} [التوبة: ٣٠ . ٣١] .

فهم لم يكتفوا في الإشراك بالقول المتقدِّم؛ بل عبدوا أنبياءهم ، وصالحيهم ، واتخذوا قبورهم مساجد ، وأوثاناً يعبدونها من دون الله[(٥٧٩)]. قال (ص) : «قاتَلَ اللهُ اليهودَ؛ اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد» [البخاري (٤٣٧) ومسلم (٥٣٠)] .

٢ . محاربة الأنبياء والصَّالحين:

في الوقت الَّذي يقدِّسون فيه أحبارهم ، ورهبانهم إلى درجة العبادة نجدهم في المقابل لا يتورَّعون عن محاربة أنبيائهم ، وصالحيهم ، ويشنُّون عليهم الحملات المغرضة بشتَّى الطُّرق ، والوسائل كافَّةً ، ولا يمتنعون حتَّى عن قتلهم؛ كما فعلوا بزكريا ، ويحيى عليهما السَّلام[(٥٨٠)] ، وقد أخبرنا الله . عزَّ وجلَّ . عنهم بذلك ، فبعد أن بيَّن . عزَّ وجلَّ . ألواناً من العذاب أوقعه عليهم؛ قال: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ *} [البقرة: ٦١] .

٣ . كتمانهم العلم ، وتحريفهم للحقائق:

إنَّ كتمان العلم ، وتحريف الحقائق صفتان ملازمتان لليهود من قديم الزَّمن ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله (ص) : «قيل لبني إسرائيل: {وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ} ، فبدَّلوا ، ودخلوا يزحفون على أَسْتَاههم ، وقالوا: حَبَّةٌ في شَعرةٍ» [البخاري (٣٤٠٣) ومسلم (٣٠١٥)] .

ومن أعظم العلوم الَّتي كتمها أحبار اليهود ، وحاولوا إخفاء حقيقتها علمُ نبوَّة محمَّدٍ (ص) ، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: جاء رسول الله (ص) رافعُ بن حارثة ، وسلام بن مِشْكم ، ومالك بن الصَّيف ، ورافع بن حُريملة ، فقالوا: يا محمد! ألستَ تزعم أنَّك على ملَّة إبراهيم ، ودينه ، وتؤمن بما عندنا من التَّوراة ، وتشهد أنَّها من الله حقٌّ؟ فقال رسول الله (ص) : «بلى؛ ولكنَّكم أحدثتم ، وجحدتم ما فيها ، ممَّا أخذ الله عليكم من الميثاق فيها ، وكتمتم منها ما أُمرتم أن تُبيِّنوه للنَّاس ، فَبَرِئْتُ من إحداثكم». قالوا: فإنَّا نأخذ بما في أيدينا ، فإنَّا على الهدى والحقِّ ، ولا نؤمن بك ، ولا نتبعك ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيهم [ابن هشام (٢/٢١٧) وابن جرير في تفسيره (٦/٣١٠)]: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْرًا فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ *} [المائدة: ٦٨] .

٤ ـ التَّفرُّق:

إنَّ اليهود دائماً ، وأبداً مختلفون في الأفكار ، مفترقون في الأحكام ، تحسبهم جميعاً؛

وقلوبهم شتَّى ، تماماً كما وصفهم الباري ـ عزَّ وجل ـ في قوله تعالى: {لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنَ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ *} [الحشر: ١٤] .

٥ ـ الرِّشوة:

إنَّ من سمات اليهود في معالم مجتمعاتهم بحثَهم عن تحقيق الغاية التي ينشدونها ، بشتَّى السُّبل ، والوسائل؛ ولو كانت مخالفةً لشرعهم؛ كدفع الرِّشوة ، والمال الحرام ، فأكل السُّحت من رشوةٍ ، ومال حرامٍ من طباعهم ، وقد وصفهم الحقُّ ـ سبحانه وتعالى ـ بذلك: {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ *} [المائدة: ٤٢] .

٦ ـ النِّفاق:

وقد أظهر بعضُ زعماء اليهود الإسلام حين قويت شوكة المسلمين بالمدينة ، وتستَّروا بالنِّفاق ، وقد سجل الله عليهم ذلك في قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ *وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ *} [البقرة: ١٣ ـ ١٤] .

٧ ـ المداهنة:

فكانوا يسايرون الواقع والمجتمع ، ولا ينكرون المنكر؛ ولذلك لعنهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وسجَّل لعنته عليهم في كتابه العزيز. قال تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ *كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ *} [المائدة: ٧٨ ـ ٧٩] .

٨ ـ عدم الانتفاع بالعلم:

وقد أخبرنا الله تعالى بذلك ، وصوَّر هذه الصِّفة تصويراً دقيقاً[(٥٨١)]. قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *} [الجمعة: ٥] .

٩ ـ الحقد ، والكراهية:

من صفات اليهودِ المستقرَّة في أعماق نفوسهم الحقدُ على كلِّ شيءٍ ليس منهم ، والكراهية
لكلِّ ما هو غير يهوديٍّ؛ مهما كان نوعه ومصدره ، وخاصَّةً إذا كان يمتُّ إلى رسول الله (ص) بصلةٍ ، كما حصل في أمر القبلة ، وما حصل في تحريم الخمر ، فعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: لما نزلت اية تحريم الخمر ، قالت اليهود: أليس إخوانكم الذين ماتوا كانوا يشربونها؟! [الحاكم (٤/١٤٣ ـ ١٤٤)] فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *} [المائدة: ٩٣] .

١٠ ـ الحسد:

فقد حسد اليهودُ النَّبيَّ (ص) على الرِّسالة؛ إذ كانوا يظنُّون: أنَّ الرَّسول الَّذي سيبعث ، سيكون منهم ، يتجمَّعون حوله ، ويقاتلون به أعداءهم ، فلمَّا بُعِث الرَّسول (ص) من غيرهم؛ جُنَّ جنونهم ، وطار صوابهم ، ووقفوا يعادونه عداوةً شديدةً ، ولقد حسدوا أصحابه على الإيمان ، ونعمة الهدى؛ الَّتي شرح

الله صدورهم لها[(٥٨٢)] ، وقد قال تعالى في ذلك: {وَمِنْ شَرِّ النَفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ *وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ *} [الفلق: ٤ ـ ٥] ، وسورتا «الفلق» و«النَّاس» تعوَّذ بهما الرَّسول (ص) حينما سحرته اليهود. وقال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [البقرة: ١٠٩] .

١١ ـ الغرور والتَّكبُّر:

اتَّصف اليهود بالغرور ، والتَّكبُّر على الخلق من قديم الزَّمان ، فهم يرون أنَّهم أرقى من النَّاس ، وأفضل من النَّاس ، ويزعمون أنَّهم شعب الله المختار ، ويعتقدون أنَّ الجنَّة لليهود ، وأنَّ طريق اليهودية هو طريق الهداية ، وسواها ضلالٌ ، وقد أخبر المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه عن هذه الخصلة الذَّميمة فيهم[(٥٨٣)]. قال تعالى: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *} [البقرة: ١١١] وقد مارسوا ذلك الغرور والتَّعالي على رسول الله (ص) ، بشتَّى الوسائل والصُّور ، ومن ذلك هذه الصُّورة[(٥٨٤)]:

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: أتى رسولَ الله (ص) نُعمانُ بن أضاء ، وبَحْريُّ بن عمرو ، وشأسُ بن عديٍّ ، فكلَّموه ، وكلَّمهم رسول الله (ص) ، ودعاهم إلى الله ، وحذَّرهم نِقمته ، فقالوا: ما تُخَوِّفنا يا محمد! نحن أبناء الله ، وأحبَّاؤه ـ كقول النَّصارى ـ فأنزل الله تعالى

فيهم: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ *} [المائدة: ١٨] .

١٢ ـ البخل:

من صفات اليهود القديمة بخلُهم بالمال ، وعدم إنفاقه في سبيل الخير ، فكانوا يأتون رجالاً من الأنصار ويقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم؛ فإنَّا نخشى عليكم الفقر في ذهابها ، ولا تسارعوا في النَّفقة؛ فإنَّكم لا تدرون علامَ يكون[(٥٨٥)] ، فأنزل الله فيهم: {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِيناً *} [النساء: ٣٧] أي: من التَّوراة الَّتي فيها تصديق ما جاء به محمَّد (ص) : {وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا *} [النساء: ٣٩] .

١٣ ـ العناد:

برغم قيام الأدلَّة ، والبراهين على صدق نبوَّة ورسالة محمَّدٍ (ص) ، إلا أنَّ اليهود بسبب عنادهم ، امتنعوا عن الإيمان ، وانغمسوا في الكفر ، والتكذيب؛ لأنَّ العناد يقفل العقول بأقفال الهوى ، وقد بيَّن المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ هذه الصِّفة في قوله تعالى: {وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ *} [البقرة: ١٤٥] نعم! لو قدَّمت لهم يا محمد! ألف دليل ودليل؛ ما اقتنعوا ، وما غيَّروا ، وما بدَّلوا ، ويصدق فيهم قول الله تعالى[(٥٨٦)]: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ *} [يونس: ١٠١] .

هذه بعض الصِّفات الَّتي تجسَّدت في الشَّخصية اليهوديَّة ، والَّتي أشار القران الكريم إليها؛ لنعرف اليهود على حقيقتهم ، حتَّى لا يغترَّ[(٥٨٧)] المسلمون بهم في أيِّ وقتٍ ، أو أيِّ زمانٍ ، أو أيِّ مكانٍ.

رابعاً: (إنَّ الله لا يصلح عمل المفسدين):

إنَّ هذه الوثيقة وضَّحت مدى العدالة الَّتي تميَّزت بها معاملة النَّبيِّ (ص) لليهود ، وأعطت لمواطني الدَّولة مفهوم الحرية الدِّينيَّة ، وضربت عُرْضَ[(٥٨٨)] الحائط بمبدأ التَّعصُّب ، ومصادرة الأفكار والمعتقدات ، ولم تكن المسألةُ مسألةَ تكتيكٍ مرحليٍّ ، ريثما يتسنَّى للرَّسول (ص) تصفية أعدائه في الخارج ، لكي يبدأ تصفيةً أخرى إزاء أولئك الَّذين عاهدهم.. وحاشاه؛ وإنَّما صدر هذا الموقف وَفْقَ سياسةٍ إسلاميَّةٍ منبثقةٍ من شريعةٍ ربَّانيَّة[(٥٨٩)].

لقد عقد الرَّسول (ص) مع اليهود المعاهدات الَّتي تؤمِّن لهم الحياة الكريمة في ظلِّ الدَّولة الإسلاميَّة ، بحكم أنَّهم أهل كتاب (أهل الذِّمَّة) ، ولكن طبيعة اليهود الغدر والخيانة ، وعدم الوفاء ، ولم يستطيعوا ـ ولن يستطيعوا لؤماً وخسَّةً ـ أن يتخلَّوا عن تلك الصِّفات الذَّميمة ، فنقضوا عهودهم مع رسول الله (ص) ، وكانت نهايتهم بما يتلاءم مع تلك الأفعال؛ حيث أجلى رسولُ الله (ص) بني قينقاع ، وبني النَّضير ، وَقَتَل رجالَ بني قريظة[(٥٩٠)] ، وهذا ما سوف نراه ـ بإذن الله تعالى ـ في هذا الكتاب ، ولقد أشار القران الكريم إلى طبيعة اليهود مع العهود ، فقال تعالى: {الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ *} [الأنفال: ٥٦] .

والعهد هنا ما عقده رسولُ الله (ص) مع اليهود ، من عهودٍ ، ومواثيق ، بألا يحاربوه ، ولا يعاونوا عليه ، كما بيَّن ذلك المفسِّرون(١).

لقد سلك اليهود وسائل عدَّةً ، ومتغايرةً ، ومتنوِّعةً للكيد لرسول الله (ص) ، والَّذين امنوا معه ، ومقاومتهم ، إلا أنَّ هذه الوسائل لم تفلح ، ولم تؤتِ ثمارها المرجوَّة منها ، وهي القضاء على جماعة المسلمين ، ودولتهم ، وكيانهم السِّياسيِّ ، فما أسباب ذلك؟

إنَّ ذلك يرجع إلى تلك التَّربية النَّبويَّة الرَّشيدة ، الَّتي غرست معاني الإيمان في القلوب ، وحقَّقت العبوديَّة الخالصة لله ، وحاربت الشِّرك بجميع أشكاله ، وعلَّمت الصَّحابة الأخذ بأسباب النُّهوض ، والتَّمكين المعنويَّة ، والمادِّيَّة ، فقد ربَّى النَّبيُّ (ص) أصحابه على العزَّة ، والنَّخوة ، والرُّجولة ، والشَّجاعة ، ورفض الذلِّ ، ومقاومة الظُّلم ، وعدم الاستسلام لمؤامرات اليهود ، وغيرهم؛ بل مقاومتها ، والقضاء عليها، وعلى أهلها، فثابروا، وصابروا، حتَّى انتصروا على أعدائهم[(٥٩١)].

كان مكر اليهود في غاية الدَّهاء، تكاد تزول منه الجبال؛ ولكنَّه لم يفلح مع الرَّعيل الأوَّل، بسبب القيادة النَّبوية، والمنهج الرَّبانيِّ الَّذي سار عليه رسول الله (ص)[(٥٩٢)] .

إنَّ المسلمين اليوم يتساقطون أمام المخطَّطات اليهوديَّة ، ومؤامراتها؛ لبُعْدهم عن المنهاج النَّبويِّ في تربية الأمَّة ، وكيفيَّة التَّعامل مع اليهود ، فالأمَّة في أشدِّ الحاجة للقيادة الرَّبانيَّة ، الحكيمة ، الواعية ، الموفَّقة من عند الله ، الخبيرة بأخلاق اليهود ، وصفاتهم ، فتتعامل معهم معاملةً واعيةً ، مستمدَّةً أصولها من السِّياسة النَّبويّة الرَّاشدة ، في التَّعامل مع هذا الصِّنف المنحرف من البشر.

لقد تغلغلت في عصرنا هذا الأصابع اليهوديَّة القذرة في مجالاتٍ عديدةٍ من حياة الشُّعوب ، والدُّول ، تلك الأصابع الَّتي تهدف إلى غايةٍ محدَّدةٍ ، هي (الفساد في الأرض) ، وهذا هو التَّعبير القرانيُّ: {وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا} [المائدة: ٦٤] .

إنَّ استعمال الفعل المضارع في الاية ، يدل على التَّجدُّد ، والاستمرار ، فليس سعيهم للفساد مرحلةً تاريخيَّةً انتهت؛ لكنَّه قدرهم الكونيُّ إلى يوم يبعثون ، وقد استطاع اليهود أن يهيمنوا على كثير من مقدَّرات الأمم من خلال كيدهم المدروس ، وفي غيبة الوجود الإسلاميِّ القادر على إحباط مؤامراتهم ، وفضح ألاعيبهم.

إنَّ العبقريَّة اليهوديَّة في الهدم ، والتخريب ، ليست موضعَ جدلٍ ، تلك العبقرية الَّتي تستغلُّ الأحداث ، وتستثمرها لمصلحتها. إنَّ لليهود وجوداً مؤثِّراً في الدُّول الكبرى ، اقتصاديّاً ، وسياسيّاً ، وإعلاميّاً ، ولم يكونوا غائبين في النِّظامين العالميين: الرَّأسمالية ، والشيوعية ، ولا عن الثَّورات الكبرى في العالم ، وهناك

عددٌ من المنظَّمات العالمية ، تبذل جهداً ضخماً في تحقيق أهداف اليهود ، أبرزها (الماسونية) ، و(الليونز) ، و(الرُّوتاري) ، و(شهود يهوه)... إلخ.

ألا يحسُّ الباحث الواعي: أنَّ في الأمر نوعاً من المبالغة المقصودة ، أو غير المقصودة؟! هذه الصُّورة الجاثمة في عقول الكثيرين: أنَّ اليهود هم الذين يحرِّكون العالم ، وهم زعماؤه السِّياسيُّون ، ومفكروه ، ومبدعوه و... و... وأنَّ الشَّخصيات المهمَّة من غير اليهود ، ما هي إلا «أحجار على رقعة الشَّطرنج» على حدِّ تعبير «وليام غاي كار»[(٥٩٣)].

إنَّ هذا الكمَّ الهائل من الكتب الَّتي تتحدَّث عن اليهود ، ودورهم العالمي الخطير تساهم في تهيئة الجوِّ للتسليم بالأمر الواقع ، وتمنح تفسيراً جاهزاً لجميع الهزائم الَّتي مُنِيَتْ[(٥٩٤)] بها الأمَّة ، الهزائم الحضاريَّة ، والعسكرية على حدٍّ سواءٍ.

إنَّ إحساس النَّاس بأنَّ كلَّ شيءٍ مدبَّرٌ ، ومُبَيَّتٌ ، ومدروسٌ من قِبَلِ اليهود ، أو محافلهم

يقعد بهم عن المقاومة ، والمواجهة ، والجهاد. وما يقال عن اليهود يمكن أن يقال عن أيِّ عدوٍّ اخر ، ينتهج سياسة الإرهاب الفكريِّ ، والعسكريِّ.

هذه الجماعات تجد ـ أحياناً ـ من يُهَوِّل من شأنها ، ويعطيها أكبر من حجمها ، فكلُّ من يتحدَّث ـ مثلاً ـ عن هذه الفئة الغالية المنحرفة ، أو يكتب ، أو يحاضر ، فهو مهدَّدٌ في رزقه ، وحياته ، إذاً: فليسكت الجميع حفاظاً على أرزاقهم ، وأرواحهم[(٥٩٥)]. إنَّ هذا التَّضخيم الرَّهيب لأعدائنا اليهود ليس له حقيقةٌ؛ لأنَّ أولياء الشَّيطان كيدهم مهما عظُم ، وكبُر ضعيفٌ. قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا *} [النساء: ٧٦] ، فإنَّ قوَّتهم بسبب ضعف إيماننا ، وبُعْدنا عن منهج ربِّنا؛ لأنَّ الإيمان الصَّحيح تنهار أمامه جميع المؤامرات ، وتفشل بسببه جميع الخطط ، لكن لا بدَّ من نزع عنصر الخوف الَّذي قتل كثيراً من الهِمَم ، وأحبط كثيراً من الأعمال. والأحداثُ تؤكِّد أنَّ (الوهم) قد يقتل.

وحين توجد الفئة المؤمنة الصَّابرة يتحطَّم الكيد كلُّه؛ يهوديّاً كان أم غير يهوديٍّ أمام عوامل التصدِّي والنُّهوض. قال تعالى: {إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ *} [آل عمران: ١٢٠] .

وهذا لا يعني ـ بحالٍ من الأحوال ـ تجاهل قوَّة العدوِّ ، أو التَّقليل من شأنه ، حتَّى لو كان عدوّاً حقيراً ، فضلاً عن عدو مُدَجَّجٍ ، وقديم (الْمُدَجَّجُ: من عليه سلاحه).

والمطلوب أن نسلك طريق الاعتدال في تقدير حجم العدوِّ ، فلا نبالغ في تهويل قوَّته بما يوهن قوانا ، ويفتِّت عزيمتنا ، ويُسوِّغ لنا الهزيمة ، وفي المقابل لا نستهين به ، أو نتجاهل وجوده[(٥٩٦)].
وستمضي في اليهود وغيرهم سنَّة الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ *} [يونس: ٨١] .

* * *

المبحث الرَّابع
سنَّة التَّدافع وحركة السَّرايا

أولاً: سنَّة التَّدافع:
إنَّ من السُّنن الَّتي تعامل معها النَّبيُّ (ص) ، سنَّةَ التَّدافع ، وتظهر جليّاً في الفترة المدنيَّة مع حركة السَّرايا، والبُعوث، والغزوات الَّتي خاضها النَّبيُّ (ص) ضدَّ المشركين، وهذه السنَّة متعلقةٌ تعلُّقاً وطيداً بالتَّمكين لهذا الدِّين ، وقد أشار الله تعالى إليها في كتابه العزيز ، وجاء التَّنصيص عليها في قوله تعالى: {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ *} [البقرة: ٢٥١] ، وفي قوله تعالى: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ *} [الحج: ٤٠].
ونلاحظ في اية البقرة: أنَّها جاءت بعد ذكر نموذج من نماذج الصِّراع بين الحقِّ والباطل ، المتمثِّل هنا في طالوتَ وجنوده المؤمنين ، وجالوتَ وأتباعه ، ويذيِّل الله تعالى الاية بقوله: {وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ *} [البقرة: ٢٥١] ؛ «ممَّا يفيد: أنَّ دفع الفساد بهذا الطَّريق ، إنعامٌ يعمُّ النَّاسَ كلَّهم»[(٥٩٧)].
وتأتي اية الحج بعد إعلان الله تعالى: أنَّه يدافع عن أوليائه المؤمنين ، وبعد إذنه لهم ـ سبحانه ـ بقتال عدوِّهم ، ويختتم الاية بتقريرٍ لقاعدةٍ أساسيَّةٍ: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ *}
لقد أدرك الصَّحابة هذه السُّنَّة ، وعلموا: أنَّ القضاء على الباطل وتدميره ، لابدَّ له من أمَّةٍ لها قيادةٌ ومنهجٌ ، وقوَّةٌ تدمغ الباطل ، وتزهقه ، وأيقنوا أنَّ الحقَّ يحتاج إلى عزائمَ تنهض به ، وسواعدَ تمضي به ،

وقلوب تحنو عليه ، وأعصاب ترتبط به. لقد علَّمهم النَّبيُّ (ص) كيف يتعاملون مع هذه السُّنَّة ، فاستجابوا لأمر الله تعالى عندما أمرهم بالجهاد في سبيله ، فقد شرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الجهاد لهذه الأمَّة ، وجعله فريضةً ماضيةً إلى يوم القيامة ، لا يبطله جورُ جائرٍ ،

ولا عدلُ عادل ، وما تركه قومٌ إلا أذلَّهم الله ، وسلَّط عليهم عدوَّهم. وقد شرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الجهاد على مراحل؛ ليكون أروضَ للنَّفس ، وأكثر ملاءمةً للطَّبع البشري ، وأحسن موافقةً لِسَيْرِ الدَّعوة ، وطريقة تخطيطها[(٥٩٨)]؛ فكان تشريع القتال على مراحل:

المرحلة الأولى: الحظر ، وذلك عندما كان المسلمون في مكَّة ، وكانوا يطالبون النَّبيَّ (ص) بالإذن لهم في القتال ، فيجيبهم (ص) : «اصبروا؛ فإنِّي لم أُؤمر بالقتال» [الكشاف (٤/١٩٩)][(٥٩٩)].

المرحلة الثانية: الإذن به من غير إيجابٍ. قال تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ *} [الحج: ٣٩] .

المرحلة الثالثة: وجوب قتال من قاتل المسلمين. قال تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ *} [البقرة: ١٩٠] .

المرحلة الرابعة: فرض قتال عموم الكفَّار على المسلمين. قال تعالى: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ *} [التوبة: ٣٦] .

إنَّ هذا التدرُّج في حكم القتال ، كان يقتضيه وضعُ الدَّولة الإسلاميَّة الناشئة ، وحالة الجيش الإسلاميِّ الَّذي كان اخذاً في التَّكوين ، من حيث العَدد ، والعُدد والتَّدريب ، وما إلى ذلك ، فكان لابُدَّ من مُضيِّ فترةٍ من الوقت ، يكون التعرُّضُ فيها لأعداء الدَّعوة الإسلاميَّة من كفَّار قريش ـ الَّذين اذوا المسلمين ، واضطروهم إلى الخروج من ديارهم .. يكون فيها ذلك التعرُّض لأعداء الدَّعوة ، إنَّما هو على سبيل الاختيار ، لا على سبيل الإجبار ، وذلك إلى أن يَصْلُب عودُ الدَّولة الإسلاميَّة ، ويشتدَّ بأسُها ، بحيث تستطيع الصُّمود أمام قوى الكفر في الجزيرة العربيَّة ، حتَّى لو عملت قريش على تأليبها ضدَّ المسلمين ، كما وقع فيما بعد! وحينئذٍ يأتي وجوب القتال ، في حالةٍ تكون فيها أوضاع الدَّولة الإسلاميَّة ، والجيش الإسلامي ، على أُهْبَةِ الاستعداد لمواجهة الاحتمالات كافَّةً ، هذا فيما يتَّصل بالقتال الَّذي يتعرَّض فيه المسلمون لكفَّار قريش ، جاء النَّصُّ بالإذن ، أي بالإباحة ، لا بالوجوب ، أمَّا في حالة ما لو تعرَّض المسلمون ـ وهم في دولتهم في المدينة ـ لهجوم الأعداء عليهم؛ فالقتال هنا فرضٌ ، لا مجال فيه للخيار ، وليس مجرَّد أمرٍ مأذون فيه ، وذلك تطبيقاً لبيعة الحرب ، بيعة العقبة

الثَّانية ، الَّتي أوجبت على الأنصار حرب الأحمر ، والأسود من النَّاس ، في سبيل الذَّود عن الدَّعوة الإسلاميَّة ، وصاحبها (ص) ، وأتباعها[(٦٠٠)].

ومع نزول الإذن بالقتال شرع رسولُ الله (ص) في تدريب أصحابه على فنون القتال ، والحروب ، واشترك معهم في التَّمارين ، والمناورات ، والمعارك ، وعَدَّ السَّعي في هذه الميادين من أجلِّ القربات ، وأقدس العبادات؛ التي يُتَقَرَّب بها إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقد قام النَّبيُّ (ص) بتطبيق قول الله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ *} [الأنفال: ٦٠] ، وكان منهجه (ص) في تكوين المجاهد المسلم ، يعتمد على نهجين متوازنين: التَّوجيه المعنويِّ ، والتَّدريب العمليِّ.

١ ـ التَّوجيه المعنويُّ:

كان (ص) يسعى إلى رفع معنويات المجاهدين؛ فيمنحهم أملاً يقينيّاً بالنَّصر ، أو الجنَّة ، ومنذ تلك اللَّحظات وفيما بعد ، ظلَّ هذا (الأمل) يحدو الجنديَّ المسلم في ساحات القتال ، ويدفعه إلى بذل كلِّ طاقاته النَّفسيَّة ، والجسدية ، والفنِّيَّة من أجل كسب المعارك ، أو الموت تحت ظلال السُّيوف[(٦٠١)] ، فمن أقواله (ص) في حثِّ أصحابه على الجهاد: «والَّذي نفسي بيده! لولا أنَّ رجالاً من المؤمنين لا تَطيبُ أنفسُهم أن يتخلَّفوا عنِّي ، ولا أجد ما أحملهم عليه؛ ما تخلَّفت عن سريَّةٍ تغدو في سبيل الله ، والذي نفسي بيده! لوددت أنِّي أُقتلُ في سبيل الله ، ثمَّ أُحيا ، ثم أُقتل ، ثمَّ أُحْيا ، ثمَّ أُقتل ، ثمَّ أُحيا ، ثمَّ أقتلُ» [البخاري (٢٧٩٧) والنسائي (٨/٦)] ، وقوله (ص) : «ما أحدٌ يدخلُ الجنةَ ، يُحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء ، إلا الشهيدُ؛ يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل عشر مراتٍ؛ لما يرى من الكرامة» [البخاري (٢٨١٧) ومسلم (١٠٩/١٨٧٧)] .

٢ ـ التَّدريب العمليُّ:

سعى النَّبيُّ (ص) إلى اعتماد كلِّ طاقات الأمَّة القادرة على البذل ، والعطاء ، رجالاً ، ونساءً ، وصبياناً ، وشباباً ، وشيوخاً ، وإلى التَّمرُّس على كلِّ مهارةٍ في القتال ، طعناً بالرُّمح ، وضرباً بالسَّيف ، ورمياً بالنَّبل ، ومناورةً على ظهور الخيل ، وكان (ص) يمزج خَطَّي التَّربية العسكريَّة المتوازنين: التَّوجيه ، والتدريب ، والأمل في النَّصر ، أو الجنة ، وتقديم الجهد في ساحات القتال ، ويحضُّ المسلمين على إتقان ما تعلَّموا من فنون الرِّماية. قال رسول الله (ص) : «من عَلِمَ الرَّمي ثمَّ تركه؛ فليس منَّا ، أو: قدْ

عَصَى» [مسلم (١٩١٩) وأحمد (٤/١٤٨) وابن ماجه (٢٨١٤)] ، فهي دعوةٌ إلى عموم الأمَّة ، وحتَّى مَنْ دخلوا في سنِّ الشيخوخة ، للتَّدريب على إصابة الهدف ،
ومهارة اليد ، ونشاط الحركة. إنَّ الإسلام يهتمُّ بطاقات الأمَّة جميعها ، ويوجِّهها نحو المعالي ، وعلوِّ الهمَّة.
وكان (ص) يهتمُّ بالأعداء على حسب كلِّ ظرفٍ وحالٍ ، ويحثُّ على كلِّ وسيلةٍ يستطيعها المسلمون ، وقد ثبت عنه (ص) : أنَّه قال: «وأعدِّوا لهم ما استطعتم من قوة: ألا إنَّ القوَّة الرَّمي! ألا إنَّ القوَّة الرَّميُ! ألا إنَّ القوَّة الرَّميُ!» [مسلم (١٩١٧) وأبو داود (١٥١٤) والترمذي (٣٠٨٣) وابن ماجه (٢٨٨٣)] .
إنَّ القران الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة يعلمان المسلمين الإعداد على الأصعدة المعنويَّة ، والمادِّيَّة كافَّةً ، وأن يأخذوا حذرهم. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا *} [النساء: ٧١] وهذا يدلُّ على وجوب العناية بالأسباب ، والحذر من مكائد الأعداء ، ويدخل في ذلك جميع أنواع الإعداد؛ المتعلِّقة بالأسلحة ، والأبدان ، وتدريب المجاهدين على أنواع الأسلحة ، وكيفيَّة استعمالها ، وتوجيههم إلى ما يعينهم على جهاد عدوهم ، والسَّلامة من مكائده ، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ أطلق الأمر بالإعداد ، وأخْذِ الحذر ، ولم يذكر نوعاً دون نوعٍ ، ولا حالاً دون حالٍ ، وما ذلك إلا لأنَّ الأوقات تختلف ، والأسلحة تتنوَّع ، والعدوَّ يقلُّ ويكثر ، ويضعف ويقوى.
كان الجهاد في فهم الصَّحابة مدرسةً عظيمةً في تزكية النَّفس ، وأيقنوا: أنَّه لكي يثمر الجهاد ثمراته المرجوَّة ، فعليهم أن يخلصوا لله سبحانه في جهادهم ، وأن يعملوا بما امنوا به ، ودعوا النَّاس إليه ، فقد بيَّن لهم الرَّسول (ص) خطورة الرِّياء في الأعمال. فقد قال (ص) : «إنَّ أوَّل النَّاس يُقْضى يوم القيامة عليه رجلٌ استُشهدَ ، فأُتي به ، فعرَّفه نِعَمَهُ ، فعَرَفَها ، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتَّى استُشْهِدتُ ، قال: كَذبت! ولكنَّك قاتلت؛ لأن يُقال: جَرِيءٌ ، فقد قيل ، ثُمَّ أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه؛ حتَّى أُلقي في النَّار ، ورجلٌ تعلَّمَ العلمَ ، وعلَّمه ، وقرأ القران ، فأُتي به ، فعرَّفه نِعَمَهُ ، فَعَرَفها ، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلمَ ، وعلَّمتُه ، وقرأتُ فيك القران ، قال: كذبتَ! ولكنَّك تعلَّمت العلمَ؛ ليقال: عالمٌ ، وقرأتَ القران؛ ليقال: هو قارىءٌ ، فقد قيل ، ثمَّ أُمر به ، فسُحب على وجهه ، حتَّى أُلقي في النَّار ، ورجلٌ وسَّع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كلِّه ، فأُتي به ، فعرَّفه نِعَمَهُ ، فَعَرَفَها ، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيلٍ تحبُّ أن يُنْفَقَ فيه إلا أنفقت فيها

لك. قال: كذبتَ! ولكنَّك فعلت؛ ليقال: هو جَوَادٌ ، فقد قيل ، ثمَّ أُمر به ، فسُحب على وجهه ، ثمَّ أُلقي في النَّار» [مسلم (١٩٠٥) وأحمد (٢/٣٢٢) والنسائي (٦/٢٣)] .

ولذلك أخلص الصَّحابة في جهادهم لله تعالى؛ طمعاً في ثوابه ، وخوفاً من عقابه ، فكان كلامهم لله ، وأنفقوا أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وقدَّموا أنفسهم دفاعاً عن دين الله ، ومن أجل

إعلاء كلمة الله تعالى ، وكان لجهاد الصَّحابة في سبيل الله تعالى اثارُه العظيمة في تزكية نفوسهم ، والَّتي تتجلَّى في الجوانب التَّالية:

(أ) تحرير النَّفس من حبِّ الحياة ، والتَّعلُّق بها:

الجهاد في سبيل الله تدريبٌ عمليٌّ على الزُّهد في الدُّنيا ، والتَّطلُّع إلى الاخرة ، والتَّشوُّق لما أعدَّه الله لعباده في الجنَّة ، وهذا من أعظم ما يهدف إليه المنهج الإسلاميُّ في تزكية النَّفس؛ فالمجاهد يبيع نفسه لله تعالى ابتغاء مرضاته ، والله سبحانه واهب الأنفس ، والأموال ، ومالكُها ، يكرم عباده المجاهدين بأن يشتري منهم ما وهبهم؛ إذا بذلوها في سبيله[(٦٠٢)].

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ *} [التوبة: ١١١ ـ ١١٢] .

(ب) تمحيص النَّفس ، وتدريبها على الصَّبر ، والفداء:

أيقن الصَّحابة الكرام من تربية النَّبيِّ (ص) لهم: أنَّ الجنَّة محفوفةٌ بالمكاره ، ولا تُنال براحة البدن ، ولابدَّ من تعويد النَّفس على المشاقِّ ، والصِّعاب؛ ليقوى بنيانها ، وتصمد في وجه الشَّدائد ، والأهوال ، وتدع الخمول ، والكسل ، والتَّواني ، وتعلَّمُوا من القران الكريم: أنَّ حكمة الله سبحانه اقتضت أن تتعرَّض النُّفوس للتَّمحيص؛ ليظهر ثباتها ، ويستقيم حالها ، وأنَّ ميدان الجهاد من أكبر الميادين لهذا التمحيص[(٦٠٣)].

قال تعالى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ *وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ *أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ *وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ *} [آل عمران: ١٤٠ ـ ١٤٣] .

(ج) الجهاد عزَّةٌ للنَّفس ، وقوَّةٌ لها:

وتعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم من الهدي النَّبويِّ الكريم: أنَّ الجهاد في سبيل الله تعالى وسيلةٌ عظيمةٌ لتنمية العزَّة في نفس المسلم ، وتقوية كيانها ، وتطهيرها من الذِّلَّة ، والمهانة ، والخمول ، وغير ذلك من الصِّفات المهلكة للفرد ، والمجتمع ، فقد بيَّن لهم سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أنَّ المؤمن عزيز الجانب؛ لأنَّه يستمدُّ العزَّة من إيمانه بربه ، وتمسُّكه بدينه؛ قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ *} [المنافقون: ٨] .

فإذا تخلَّى المسلم عن الجهاد ، وشُغل بالدُّنيا عن الاخرة؛ تعوَّدت نفسه الذِّلَّة ، والهوان ، والاستكانة ، والخُنُوع (أي: الذُّلَّ ، والخضوع) قال (ص) : «إذا تبايعتم بالعينة[(٦٠٤)] ، وأخذتم أذناب البقر[(٦٠٥)] ، ورضيتم بالزَّرع ، وتركتُم الجهاد ، سلَّط الله عليكم ذلاً ، لا ينزعه حتَّى ترجعوا إلى دينكم» [أبو داود (٣٤٦٢) وأحمد (٤٢/٢ و٨٤)] .

ويُخشى على منْ جعل الدُّنيا أكبر همِّه ، ومبلغ علمه ، ولا يعمل إلا لها ، ولا يفكر إلا من أجلها أن يكون ممَّن قال الله تعالى فيهم: {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ *أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *} [يونس: ٧ ـ ٨] .

وقد قال (ص) : «مَنْ مات؛ ولم يَغْزُ ، ولم يُحَدِّث به نَفْسَه؛ مات على شعبةٍ من نفاقٍ» [مسلم (١٩١٠) وأحمد (٣٧٤/٢) وأبو داود (٢٥٠٢) والنسائي (٨/٦)] .

إنَّ الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم ، سلكوا طريق الجهاد بأنواعه ، وبذلك حظوا بالبشارة العظمى ، وهي قوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ *} [العنكبوت: ٦٩] .

ثانياً: من أهداف الجهاد في سبيل الله تعالى:

١ ـ حماية حرية العقيدة:

قال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ *} [الأنفال: ٣٩ ـ ٤٠] .

قال صاحب الظِّلال: «هناك واجبٌ اخر على الجماعة المسلمة ، وهو أن تُحطِّم كلَّ قوَّةٍ تعترض طريق الدَّعوة ، وإبلاغها للنَّاس في حرِّيَّةٍ ، أو تهدِّد حرية اعتناق العقيدة ، وتفتن النَّاس عنها ، وأن تظلَّ تجاهد حتَّى تصبح الفتنة للمؤمنين بالله غير ممكنةٍ لقوَّةٍ في الأرض ، ويكون الدِّين لله؛ لا بمعنى إكراه

الناس على الإيمان ، ولكن بمعنى استعلاء دين الله في الأرض ، بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدُّخول ، ولا يخاف قوَّةً في الأرض تصدُّه عن دين الله أن
يبلغه ، وأن يستجيب له ، وأن يبقى عليه ، وبحيث لا يكون في الأرض وضعٌ ، أو نظامٌ يحجب نور الله وهداه عن أهله ، ويضلَّهم عن سبيل الله بأيَّة وسيلةٍ ، وبأيَّة أداةٍ ، وفي حدود هذه المبادأى العامَّة كان الجهاد في الإسلام. إنَّه الجهاد للعقيدة ، لحمايتها من الحصار ، وحمايتها من الفتنة ، وحماية منهجها ، وشريعتها في الحياة ، وإقرار رايتها في الأرض؛ بحيث يَرْهَبُها من يهمُّ بالاعتداء عليها ، وبحيث يلجأ إليها كلُّ راغبٍ فيها ، لا يخشى قوَّةً أخرى في الأرض تتعرَّض له ، أو تمنعه ، أو تفتنه.
وهذا هو الجهاد الوحيد الَّذي يأمر به الإسلام ، ويقرُّه ، ويثبت عليه ، ويَعْتَبِر الَّذين يقاتلون فيه شهداء ، والَّذين يَحْتَمِلون أعباءه أولياء»[(٦٠٦)].
٢ ـ حماية الشَّعائر ، والعبادات:
قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ *أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ *الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ *الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ *} [الحج: ٣٨ ـ ٤١] .
قال النَّسفي ـ رحمه الله! ـ: «أي: لولا إظهاره ، وتسليطه المسلمين على الكافرين بالمجاهدة؛ لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم ، وعلى متعبَّداتهم ، فهدموها ، ولم يتركوا للنَّصارى بيعاً ، ولا لرهبانهم صوامع ، ولا لليهود صلواتٍ؛ أي: كنائس ، ولا للمسلمين مساجد ، أو لغلب المشركون في أمَّة محمَّدٍ (ص) على المسلمين، وعلى أهل الكتاب الَّذين في ذمَّتهم، وهدموا متعبَّدات الفريقين ، وقدَّم غير المساجد عليها؛ لتقدُّمها وجوداً ، أو لقربها من التَّهديم»[(٦٠٧)].
٣ ـ دفع الفساد عن الأرض:
قال تعالى: {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ *فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ *تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ *} [البقرة: ٢٥٠ ـ ٢٥٢] .

قال ابن كثيرٍ في تفسير قوله تعالى: {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ} «أي: لولا الله يدفع عن قومٍ باخرين ، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت ، وشجاعة داود؛ لهلكوا»[(٦٠٨)].

وقال صاحب الكشَّاف في تفسير هذه الاية: «ولولا أنَّ الله يدفع بعض النَّاس ببعض ، ويكفَّ بهم فسادهم؛ لغلب المفسدون ، وفسدت الأرض ، وبطلت منافعها ، وتعطَّلت مصالحها؛ من الحرث ، والنَّسل ، وسائر ما يعمر الأرض»[(٦٠٩)].

وقال الشَّيخ عبد الرَّحمن السَّعدي في تفسيره: «إنَّ في هذه الاية عبراً كثيرةً للأمَّة؛ منها: فضيلة الجهاد في سبيله ، وفوائده ، وثمراته ، وأنَّه السَّبب الوحيد في حفظ الدِّين ، وحفظ الأوطان ، وحفظ الأبدان ، والأموال ، وأنَّ المجاهدين ولو شقَّت عليهم الأمور؛ فإنَّ عواقبهم حميدةٌ ، كما أنَّ النَّاكلين ولو استراحوا قليلاً؛ فإنَّهم سيتعبون طويلاً»[(٦١٠)].

٤ ـ الابتلاء ، والتَّربية ، والإصلاح:

قال تعالى: {فَإِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ *سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ *وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ *} [محمد: ٤ ـ ٦] .

قال ابن كثيرٍ في تفسير قوله تعالى: أي: ولكن شرع لكم {وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ} ، وقتال الأعداء ، ليختبركم ، وليبلو أخباركم ، كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي ال عمران ، وبراءة ، في قوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ *} [آل عمران: ١٤٢][(٦١١)] .

قال صاحب الظِّلال: «إنَّما يتَّخذ الله المؤمنين ـ حين يأمرهم بضرب رقاب الكفار ، وشدِّ وثاقهم بعد إثخانهم إنَّما يتَّخذهم سبحانه ـ ستاراً لقدرته ، ولو شاء لانتصر من الكافرين جهرةً ، كما انتصر منهم من غير هذه الأسباب كلِّها؛ ولكنَّه إنَّما يريد لعباده المؤمنين الخير. قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ *} [البقرة: ٢١٦] ، وهو يبتليهم ، ويربِّيهم ، ويصلحهم ، وييسر لهم أسباب الحسنات الكبار:

أ . يريد ليبتليهم: وفي هذا الابتلاء يستجيش في نفوس المؤمنين أكرم ما في النَّفس البشرية من طاقاتٍ ، واتِّجاهات ، فليس أكرم في النفس من أن يعزَّ عليها الحقُّ؛ الَّذي تؤمن به ، حتَّى تجاهد في سبيله ، فتقتُل ، وتُقتل ، ولا تسلِّم في هذا الحق الذي تعيش له ، وبه ، ولا تستطيع الحياة بدونه ، ولا تحبُّ هذه الحياة في غير ظلِّه.

ب . ويريد ليربيهم: فيظلُّ يُخرج من نفوسهم كلَّ هوىً ، وكلَّ رغبةٍ في أعراض هذه الأرض الفانية ممَّا يعزُّ عليهم أن يتخلَّوا عنه ، ويظلُّ يقوِّي في نفوسهم كلَّ ضعفٍ ، ويكمل كلَّ نقصٍ ، وينفي كلَّ زَغلٍ[(٦١٢)] ، ودَخل ، حتَّى تصبح رغائبهم كلُّها في كفَّةٍ ، وفي الكفة الأخرى تلبية دعوة الله للجهاد ، والتَّطلُّع إلى وجه الله ، ورضاه ، وتشيل تلك[(٦١٣)] ، ويعلم الله من هذه النُّفوس: أنَّها خُيِّرت ، فاختارت ، وأنَّها تربَّت ، فعرفت ، وأنَّها لا تندفع بلا وعيٍ؛ ولكنَّها تقدِّر ، وتختار.

ج . ويريد ليصلحهم: ففي معاناة الجهاد في سبيل الله ، والتَّعرُّض للموت في كلِّ جولةٍ ما يعوِّد النَّفس الاستهانة بخطر المخوِّف ، الَّذي يكلف النَّاس الكثير من نفوسهم ، وأخلاقهم ، وموازينهم ، وقيمهم ، ليتَّقوه ، وهو هيِّنٌ ، هيِّنٌ عند من يعتاد ملاقاته ، سواءٌ سَلِمَ منه ، أو لاقاه ، والتَّوجُّه به لله في كلِّ مرَّةٍ ، يفعل في النفس في لحظات الخطر شيئاً يقرِّبه للتَّصوُّر فعل الكهرباء بالأجسام ، وكأنَّه صياغةٌ جديدةٌ للقلوب والأرواح ، على صفاءٍ ، ونقاءٍ ، وصلاح.

ثمَّ هي الأسباب الظَّاهرة لإصلاح الجماعة البشرية كلِّها عن طريق قياداتها بأيدي المجاهدين؛ الَّذين فرغت نفوسهم من كلِّ أعراض الدُّنيا ، وكلِّ زخارفها ، وهانت عليهم الحياة؛ وهم يخوضون غِمار الموت في سبيل الله ، ولم يعد في قلوبهم ما يشغلهم عن الله ، والتَّطلُّع إلى رضاه. وحين تكون القيادة في مثل هذه الأيدي تصلح الأرض كلُّها ، ويصلح العباد ، ويصبح عزيزاً على هذه الأيدي أن تسلِّم راية القيادة للكفر ، والضَّلال ، والفساد ، وهي قد اشترتها بالدِّماء ، والأرواح، وكلُّ عزيزٍ، وغالٍ أرخصته لتتسلَّم هذه الراية، لا لنفسها ، ولكن لله»[(٦١٤)].

٥ . إرهاب الكفَّار ، وإخزاؤهم ، وإذلالهم ، وتوهين كيدهم:

قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ *} [الأنفال: ٦٠] ، وقال تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *} [التوبة: ١٤ . ١٥]

، وقال تعالى: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ *} [الأنفال: ١٧ ـ ١٨] .

٦ ـ كشف المنافقين:

قال تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ *} [آل عمران: ١٧٩] .

قال ابن كثير: «أي: لابدَّ أن يعقد سبباً من المحنة يظهر فيه وليُّه ، ويفتضح فيه عدوُّه ، يعرف به المؤمن الصَّابر ، والمنافق الفاجر ، يعني بذلك يوم أُحُد ، الذي امتحن الله به المؤمنين ، فظهر به إيمانُهم ، وصبرُهم ، وجلَدُهم ، وثباتُهم ، وطاعتُهم لله ، ورسولِه (ص) ، وهتك به سِتْرَ المنافقين ، فظهر مخالفتُهم ، ونكولُهم عن الجهاد ، وخيانتهم للهِ ، ولرسوله (ص) »[(٦١٥)].

٧ ـ إقامة حكم الله ، ونظام الإسلام في الأرض:

إنَّ إقامة حكم الله في الأرض هدفٌ من أهداف الجهاد ، قال الله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا *} [النساء: ١٠٥] .

٨ ـ دفع عدوان الكافرين:

إنَّ من أهداف الجهاد في الإسلام دفعَ عدوان الكافرين ، وهذا العدوان أنواعٌ؛ منها:

أ ـ أن يعتدي الكفَّار على فئةٍ مؤمنةٍ مُسْتَضْعفةٍ في أرض الكفار ، لا سيما إذا لم تستطع أن تنتقل إلى بلادٍ تأمن فيها على دينها: فإنَّ الواجب على الدَّولة الإسلاميَّة ، أن تعدَّ العدة لمجاهدة الكفار؛ الَّذين اعتدوا على تلك الطَّائفة ، حتَّى يخلِّصوها من الظُّلم ، والاعتداء الواقع عليها[(٦١٦)]. قال تعالى: {فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا *وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا *} [النساء: ٧٤ ـ ٧٥] .

قال القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ:

«حضٌّ على الجهاد ، وهو يتضمَّن تخليص المستضعفين من أيدي الكفرة المشركين؛ الذين

يسومونهم سوء العذاب ، ويفتنونهم عن الدِّين؛ فأوجب تعالى الجهاد لإعلاء كلمته ، وإظهار دينه ، واستنقاذ المؤمنين الضُّعفاء من عبادِه ، وإن كان في ذلك تلفُ النُّفوس. وتخليص الأُسارى واجبٌ على جماعة المسلمين؛ إمَّا بالقتال ، وإمَّا بالأموال ، وذلك أوجب لكونها دون النُّفوس؛ إذ هي أهون منها»[(٦١٧)].

ب ـ أن يعتدي الكفَّار على ديار المسلمين: قال تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ *فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٢] .

نصَّ الفقهاء على أنَّه إذا اعتدى الكفار على ديار المسلمين؛ يتعيَّن الجهاد للدِّفاع عن الدِّيار؛ لأنَّ العدوَّ إذا احتلَّها سام المسلمين عذاباً ، ونفَّذ فيها أحكام الكفر ، وأجبر أهلها على الخضوع له ، فتصبح دار كفرٍ بعد أن كانت دار إسلام.

قال ابن قدامة ـ رحمه الله ـ: «ويتعيَّن الجهاد في ثلاثة مواضع: ...الثاني: إذا نزل الكفار ببلدٍ معيَّنٍ على أهله قتالُهم ، ودفعُهم»[(٦١٨)].

وقال بعض علماء الحنفيَّة: «وحاصله: أنَّ كلَّ موضعٍ خيفَ هجوم العدوِّ منه ، فُرِض على الإمام ، أو على أهل ذلك الموضع ، حفظُه ، وإن لم يقدروا فُرِض على الأقرب إليهم إعانتهم إلى حصول الكفاية بمقاومة العدوِّ»[(٦١٩)].

ج ـ أن ينشر العدوُّ الظُّلم بين رعاياه ـ ولو كانوا كفاراً ـ: إنَّ الله سبحانه حرَّم على عباده الظلم ، والعدلُ في الأرض واجبٌ لكلِّ النَّاس ، وإذا لم يدفع المسلمون الظُّلم عن المظلومين؛ أثِموا؛ لأنهم مأمورون بالجهاد في الأرض؛ لإحقاق الحقِّ ، وإبطال الباطل ، ونشر العدل ، والقضاء على الظُّلم ، ولا فلاح لهم إلا بذلك ، وهو الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، وما كانوا خير أمَّةٍ أخرجت للنَّاس إلا بذلك ، كما قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: ١١٠] ، وقال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *} [المائدة: ٨] .

ومن العدل كفُّ الظُّلم عن المظلوم الكافر ، الَّذي يبغضه المسلم لكفره. قال السَّرخسيُّ ـ رحمه الله! ـ: «وإن كان ـ يقصد أحد ملوك أهل الحرب ـ طلب الذِّمَّة على أن يُتْرَك يحكم في أهل مملكته بما شاء؛ من قتلٍ ، أو صَلْبٍ ، أو غيره بما لا يصلح في دار الإسلام؛ لم يُجَبْ إلى ذلك؛ لأنَّ التقرير على الظُّلم مع إمكان المنع منه حرامٌ»[(٦٢٠)].

د ـ الوقوف ضدَّ الدُّعاة إلى الله ، ومنعهم من تبليغ دعوة الله: إنَّ المسلمين مفروضٌ عليهم من قِبَل المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يبلِّغوا رسالات الله للنَّاس كافَّةً. قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [آل عمران: ١٠٤] .

وأعداء الله يصدُّون أولياءه عن تبليغ عباده دعوته ، ولا يتركون لهم سبيلاً إلى النَّاس ، كما لا يأذنون للدُّعاة أن يُسْمِعوا النَّاس دعوة الله ، ويضعون العراقيل ، والعوائق ، والحواجز ، بين الدَّعوة ، ودعاتها ، والناس ، ولذلك أوجب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على عباده المؤمنين ، قتال كلِّ مَنْ يَصُدُّ عن سبيل الله تعالى[(٦٢١)].

قال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ *وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ *ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ *فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ *} [محمد: ١ ـ ٤] .

وممَّا تقدَّم يتَّضح لنا أنَّ للجهاد أهدافاً سامية ، ومصالح كريمةً ، وفوائدَ عظيمةً تتحقَّق للمسلمين وغيرهم ، وأنَّ الجهاد من اثار الهجرة ، ونتائجها المهمَّة ، وأنَّه من الدَّعائم؛ الَّتي أقامها الرَّسول (ص) لبناء الدَّولة الإسلاميَّة ، وتوطيد أركان الإسلام[(٦٢٢)]؛ وذلك «لأنَّ الأمَّة بغير جيشٍ قويٍّ عرضةٌ للضَّياع؛ إذ يطمع فيها أعداؤها ، ولا يهابون قوَّتها ، فإذا كان لها جيشٌ قويٌّ احترم العدوُّ إرادتها ، فلا تحدِّثه نفسه باعتداءٍ عليها؛ فيسود عند ذلك السَّلام»[(٦٢٣)].

ثالثاً: أهم السَّرايا ، والبعوث الَّتي سبقت غزوة بدرٍ الكبرى:

بمجرَّد الاستقرار الَّذي حصل للمسلمين بقيادة الرَّسول (ص) في المدينة ، وقيام الجماعة المؤمنة في المجتمع الجديد كان لابدَّ أن يتنبَّه المسلمون ، وقيادتهم إلى الوضع حولهم ،

وما ينتظرهم من جهة أعدائهم أعداء الدَّعوة ، وكان لابدَّ أن تنطلق الدَّعوة الإسلاميَّة إلى غايتها الَّتي أرسل الله محمَّداً (ص) بها ، وتحمَّل هو وأصحابه في سبيلها المشاقَّ الكثيرة.

إنَّ موقف قريشٍ في مكَّة من أهم الأمور الَّتي يجب أن تعالجها قيادة المدينة؛ لأنَّ أهل مكة لن يرضوا بأن يقوم للإسلام كيانٌ . ولو كان في المدينة . لأنَّ ذلك يهدِّد كيانهم ، ويُقَوِّض[(٦٢٤)] بنيانهم ، فهم يعلمون أنَّ قيام الإسلام معناه انتهاء الجاهليَّة ، وعادات الاباء ، والأجداد ، فلابدَّ من الوقوف في وجهه.

وقد بذلت مكةُ ، وأهلُها المحاولات الكثيرة؛ لعدم وصول النَّبيِّ (ص) إلى المدينة ، واتَّخذت مواقف عدائيَّةً لضرب الإسلام ، والقضاء على المسلمين[(٦٢٥)] ، واستمرَّ هذا العداء بعد هجرة النَّبيِّ (ص) ، ومن أهم المواقف الدَّالة على ذلك: أنَّ عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه حدَّثَ عن سعد بن معاذ: أنَّه قال: كان صديقاً لأُمية بن خَلف ، وكان أُمَيةُ إذا مرَّ بالمدينة نزل على سعدٍ ، وكان سعدٌ إذا مرَّ بمكَّة نزل على أميَّةَ ، فلمَّا قدم رسولُ الله (ص) المدينةَ ، انطلق سعد معتمراً ، فنزل على أُميةَ بمكَّةَ ، فقال لأُميةَ: انظر لي ساعةَ خَلوةٍ ، لعلِّي أن أطوف بالبيت ، فخرج به قريباً من نصف النَّهار ، فلقيهما أبو جهل ، فقال: يا أبا صفوان! من هذا معك؟ فقال: هذا سعدٌ. فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكَّة امناً ، وقد أويتم الصُّبَأة[(٦٢٦)] ، وزعمتم: أنَّكم تنصرونهم ، وتعينونهم ، أما والله! لولا أنك مع أبي صفوان؛ ما رجَعْتَ إلى أهلك سالماً. فقال له سعد . ورفع صوته عليه .: أما والله! لئن منعتني هذا ، لأمنعنَّك ما هو أشدُّ عليك منه ، طريقَك على المدينة ...» [البخاري (٣٩٥٠)] وفي روايةٍ عند البيهقيِّ [دلائل النبوة (٢٥/٣)] : «والله! لئن منعتني أن أطوف بالبيت ، لأقطعنَّ عليك متجرَك إلى الشَّام».

تدلُّ هذه الواقعة على أنَّ (أبا جهلٍ) ، يَعْتَبِرُ (سعد بن معاذ) من أهل الحرب بالنَّسبة إلى قريش ، ولولا أنَّه دخل مكة في أمان زعيمٍ من زعمائها؛ لأهدر دمه ، وهذا تصرُّف جديدٍ من رؤساء مكَّة حيال أهل المدينة ، لم يكن قبل الدَّولة الإسلاميَّة فيها؛ فلم يكن أحدٌ من أهل المدينة يحتاج إلى عقد أمانٍ؛ لكي يُسْمَحَ له بالدُّخول إلى مكَّة! بل إن قريشاً كانت تكره أن تفكِّر في حدوث حالة حرب بينها وبين أهل المدينة قبل هذا الوضع الجديد ، وقالوا في هذا الصَّدد ، يخاطبون أهل المدينة ما نصُّه: «والله! ما مِنْ حيٍّ من العرب أبغضَ إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم»[(٦٢٧)] ، كما تدلُّ هذه القصَّة ، على أنَّ قوافل تجارة قريش في طريقها إلى الشَّام كانت

في أمانٍ حتَّى حدوث هذه الواقعة ، لم تتعرَّض لها الدَّولة الإسلاميَّة بمكروهٍ؛ أي: أنَّ الدَّولة الإسلاميَّة حتَّى هذا الوقت لم تعامل أهل مكَّة معاملة أهل الحرب ، فلم تضرب عليهم الحصار الاقتصاديَّ ، ولم تصادر لهم أيَّة قافلةٍ ، أو تقصدها بسوءٍ! ومعنى هذا أنَّ الأيدي الممسكة بزمام الأمور في مكَّة هي الَّتي بادرت ، وأعلنت الحرب على الدَّولة الإسلاميَّة في المدينة ، واعتبرت المسلمين أهلَ حرب ، لا يُسْمح لهم بدخول مكَّة إلا بصفة مُسْتأمَنين[(٦٢٨)].

ودليلٌ اخر على مبادرة رؤساء مكَّة إلى إعلان الحرب ، على الدَّولة الإسلاميَّة في المدينة ما جاء في سنن أبي داود: عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن رجلٍ من أصحاب النَّبيِّ (ص) : أنَّ كفار قريش كتبوا إلى (ابن أُبيٍّ) ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج؛ ورسولُ الله (ص) يومئذٍ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم اويتم صاحبنا ، وإنَّا نقسم بالله! لتُقاتِلنَّه ، ولتُخرجُنَّه ، أو لَنسيرنَّ إليكم بأجمعنا ، حتَّى نقتل مقاتلتكم ، ونستبيح نساءكم. فلما بلغ عبد الله بن أُبيٍّ ومن كان معه من عبدة الأوثان ، اجتمعوا لقتال النبيِّ (ص) ، فلمَّا بلغ ذلك النبيَّ (ص)؛ لَقِيَهم ، فقال: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر ممَّا تريدون أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم ، وإخوانكم!» فلمَّا سمعوا ذلك من النَّبيِّ (ص) ؛ تفرَّقوا. [أبو داود (٣٠٠٤) وعبد الرزاق في المصنف (٩٧٣٣) والبيهقي في دلائل النبوة (١٧٩/٣ ـ ١٨٠)] .

وهنا تظهر عظمة النُّبوَّة ، وعظمة القائد المربِّي (ص) ؛ حيث قضى على هذه الفتنة في مهدها ، وضرب على وتر العزَّة القبليَّة؛ فقد كان (ص) يدرك أغوار النَّفس البشريَّة الَّتي يتعامل معها؛ ولذلك كان خطابه مؤثِّراً في نفوس مشركي يثرب ، ونحن بحاجة إلى هذا الفقه العظيم ، في تفتيت محاولات المشركين للقضاء على الصفِّ الإسلاميِّ ، وزعزعة بنيانه الدَّاخلي ، وبعد أن بدأت قريش بإعلان حالة الحرب بينها وبين دولة الإسلام بالمدينة ، ونزل الإذن من الله تعالى بالقتال؛ صار من الطبيعي أن تتعامل دولة المدينة مع قريشٍ حسب ما تقتضيه حالة الحرب هذه ، فقد اتَّجه نشاط الرَّسول (ص) من أجل توطيد مكانة هذه الدَّولة ، والردِّ على قريش في إعلانها حالة الحرب على المدينة، فاتَّجه نشاطه (ص) نحو إرسال السَّرايا، والخروج في الغزوات[(٦٢٩)] ، فكانت تلك السَّرايا ، والغزوات الَّتي سبقت بدر الكبرى؛ ومن أهمها:

١ ـ غزوة الأبْوَاء:

أولى الغزوات الَّتي غزاها النَّبيُّ (ص) غزوة الأبواء[(٦٣٠)] ، وتُعْرَف بغزوة وَدَّان[(٦٣١)] أيضاً ، وهما

موقعان متجاوران بينهما ستة أميال ، أو ثمانية ، ولم يقع قتال في هذه الغزوة؛ بل تمَّت موادعة بني ضمرة (من كنانة) ، وكانت هذه الغزوة في (صفر سنة اثنتين من الهجرة) ، وكان عدد المسلمين مئتين بين راكبٍ ، وراجلٍ[(٦٣٢)].

٢ ـ سرية عُبَيْدة بن الحارث:

وهي أوَّل رايةٍ عقدها رسول الله (ص)[(٦٣٣)] ، وكان عدد السَّريَّة ستِّين من المهاجرين ، وكانت قوَّة الأعداء من قريش أكثر من مئتي راكبٍ ، وراجلٍ ، وكان قائدَ المشركين أبو سفيان بن حرب ، وحصلت مناوشاتٌ بين الطَّرفين على ماءٍ بوادي رابغ ، رمى فيها سعد بن أبي وقاص بسهمٍ ، فكان أوَّل سهمٍ رُمِيَ به في الإسلام ، وكانت بعد رجوعه من الأبواء[(٦٣٤)].

٣ ـ سريَّة حمزة بن عبد المطلب:

قال ابن إسحاق: وبعث النَّبيُّ (ص) في مقامه ذلك ـ أي لما وصل إلى المدينة بعد غزوة الأبواء ـ حمزة بن عبد المطلب إلى سيف[(٦٣٥)] البحر[(٦٣٦)] من ناحية العيص[(٦٣٧)] ، في ثلاثين راكباً من المهاجرين ، فلقي أبا جهل بن هشام بذلك السَّاحل ، في ثلاثمئة راكبٍ من أهل مكَّة ، فحجز بين الفريقين مجديُّ بن عمرو الجُهَنيُّ ، وكان موادعاً للفريقين جميعاً ، فانصرف بعضُ القوم عن بعض ، ولم يكن بينهم قتال[(٦٣٨)].

٤ ـ غزوة بُوَاط[(٦٣٩)]:

وكانت غزوة رسول الله (ص) بُواط في شهر ربيع الأوَّل ، في السَّنة الثَّانية من مُهَاجره ، وخرج في مئتين من أصحابه ، وكان مقصده أن يعترض عيراً لقريش ، كان فيها أميَّة بن خلف ، في مئة رجلٍ ، وألفين وخمسمئة بعيرٍ ، فلم يلق النَّبيُّ (ص) كيداً؛ فرجع إلى المدينة.

٥ ـ غزوة العُشَيرة[(٦٤٠)]:

وفيها غزا (ص) قريشاً ، واستعمل على المدينة أبا سَلَمة بن عبد الأسد ، وسُمِّيت هذه الغزوة بغزوة العُشَيرة ، فأقام بها جُمَادَى الأولى ، وليالي من جُمادى الاخرة ، وادع فيها بني مُدْلِج ، وحلفاءهم من بني ضَمْرة ، ثمَّ رجع إلى المدينة ، ولم يلقَ كيداً؛ وذلك: أنَّ العير الَّتي خرج لها قد مضت قبل ذلك بأيامٍ ، ذاهبةً إلى الشَّام[(٦٤١)] ، فساحلت على البحر ، وبلغ قريشاً خبرُها ، فخرجوا يمنعونها ، فلقوا رسول الله (ص) ووقعت غزوة بدر الكبرى[(٦٤٢)].

٦ ـ سرية سعد بن أبي وقاصٍ:

وبعد غزوة العُشيرة ، بعث النَّبيُّ (ص) سعد بن أبي وقَّاص ، في سريةٍ قوامها ثمانية رهط من المهاجرين ، فخرج حتَّى بلغ الخَرَّار[(٦٤٣)] من أرض الحجاز ، ثمَّ رجع ، ولم يلقَ كيداً[(٦٤٤)].

٧ ـ غزوة بدر الأولى:

سببها: أن كُرْزَ بنَ جابر الفِهريَّ ، قد أغار على سَرْحِ[(٦٤٥)] المدينة ، ونهب بعض الإبل، والمواشي، فخرج رسول الله (ص) في طلبه، حتَّى بلغ وادياً يقال له: سَفْوان ، من ناحية بدرٍ ، وفاتَه كُرْزُ بن جابرٍ ، فلم يدركه ، فرجع رسول الله (ص) إلى المدينة[(٦٤٦)].

٨ ـ سرية عبد الله بن جحش الأسديّ إلى نَخْلة[(٦٤٧)]:

وأرسل النبيُّ (ص) عبد الله بن جحش في ثمانية رَهطٍ من المهاجرين إلى نخلة جنوب مكة في اخر يومٍ من رجب؛ للاستطلاع ، والتَّعرف على أخبار قريش؛ لكنَّهم تعرضوا لقافلةٍ تجاريَّةٍ لقريش ، فظَفِرُوا بها ، وقتلوا قائدها عمرو بن الحَضْرمي ، وأسروا اثنين من رجالها ، هما: عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كَيْسان ، وعادوا بهما إلى المدينة ، وقد توقَّف النَّبيُّ (ص) في هذه الغنائم ، حتَّى نزل عليه قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة: ٢١٧].

فلمَّا نزل القران الكريم؛ قبض رسولُ الله (ص) العير ، والأسيرين ، وفي سرية عبد الله هذه غنم المسلمون أوَّل غنيمة ، وعمرو بن الحَضْرَمي أوَّل قتيلٍ قتله المسلمون ، وعثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان أوَّل من أسر المسلمون[(٦٤٨)].

رابعاً: فوائد ، ودروسٌ ، وعبرٌ:

١ ـ متى شُرِع الجهاد؟

ذهب الشَّيخ الدُّكتور محمَّد أبو شهبة إلى أنَّ تشريع الجهاد كان في أوائل السَّنة الثَّانية للهجرة ، وعلَّل ذلك بسبب انشغال المسلمين في السَّنة الأولى بتنظيم أحوالهم الدِّينيَّة ، والدُّنيويَّة؛ كبنائهم المسجد النَّبويِّ ، وأمور معايشهم ، وطرق اكتسابهم ، وتنظيم أحوالهم السِّياسيَّة؛ كعقد التاخي بينهم ، وموادعتهم اليهود المساكنين لهم في المدينة؛ كي يأمنوا شرورهم[(٦٤٩)]. وذهب الأستاذ صالح الشَّامي إلى أنَّ الإذن بالجهاد كان في أواخر السَّنة الأولى للهجرة[(٦٥٠)].

٢ ـ الفَرْق بين السَّرية ، والغزوة:

يُطلق كُتَّاب السِّيَر في الغالب على كلِّ مجموعةٍ من المسلمين؛ خرج بها النَّبيُّ (ص) ليلقى عدوَّه غزوةً ، سواءٌ حدث فيها قتالٌ ، أم لم يحدث ، وسواءٌ كان عددها كبيراً ، أم صغيراً. ويطلقون على كل مجموعة من المسلمين؛ يرسلها النَّبيُّ (ص) لاعتراض عدوٍّ كلمة: (سَرِيَّة) أو: (بعث) ، وقد يحدث فيها قتالٌ ، وقد لا يحدث، وقد تكون لرصد أخبار عدوِّه ، أو غيره ، وغالباً ما يكون عدد الَّذين يخرجون في السَّرايا قليلاً ؛ لأنَّ مهمَّتهم محدَّدةٌ في مناوشة العدوِّ ، وإخافته ، وإرباكه ، وقد قاد رسولُ الله (ص) سبعاً وعشرين غزوةً ، وأرسل ما يُقدَّر بثمانٍ

وثلاثين سريَّةً ، وبعثاً ، وقد خطَّط لها في فترةٍ وجيزةٍ في عُمْرِ الأمم ، بلغت عَشْرَ سنواتٍ من الزَّمن[(٦٥١)].

٣ ـ تعداد سكَّان المدينة ، وعلاقته بالسَّرايا:

أمر النَّبيُّ (ص) بإجراء تعدادٍ سكَّانيٍّ في السَّنة الأولى من الهجرة ، وبعد المؤاخاة مباشرةً ، وكان الإحصاء للمسلمين فقط ، أو حسب نصِّ أمر رسول الله (ص) حينما قال: «اكتبوا لي من تلفَّظ بالإسلام من الناس» فبلغ تعداد المحاربين منهم فقط (١٥٠٠) ألفاً وخمسمئة رجلٍ[(٦٥٢)] ، فأطلق المسلمون بعد إجراء هذا الإحصاء تساؤل تعجبٍ ، واستغرابٍ: «نخاف ونحن ألف وخمسمئة؟!»؛ لأنهم كانوا قبلُ لا ينامون إلا ومعهم السِّلاح؛ خوفاً على أنفسهم ، وكان رسول الله (ص) يمنع خروجهم ليلاً فرادى؛ حمايةً لهم من الغدر[(٦٥٣)] ، وبعد هذا التَّعداد مباشرةً ، بدأت السَّرايا ، والغزوات ، وهذا الإجراء الإحصائيُّ يدخل ضمن الإجراءات التَّنظيميَّة في تطوير الدَّولة النَّاشئة[(٦٥٤)].

٤ ـ حراسة الصَّحابة للنَّبيِّ (ص) الشَّخصيَّة:

كان الصَّحابة رضي الله عنهم يحرسون النَّبيَّ (ص) حراسةً شخصيَّةً ، فعن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «أَرِقَ النَّبيُّ (ص) ذاتَ ليلةٍ ، فقال: «ليتَ رجلاً صالحاً من أصحابي يَحْرُسُني اللَّيلة»؛ إذ سمعنا صوتَ السِّلاح ، قال: «مَنْ هذا؟» قال: سعدٌ يا رسولَ الله! جئتُ أحْرُسُك ، فنام النَّبيُّ (ص) حتَّى سمعنا غَطيطه» [البخاري (٢٨٨٥ و٧٢٣١) ومسلم (٢٤١٠)] ، وكان ذلك قبل غزوة بدرٍ الكبرى[(٦٥٥)]. وفي حديث عائشة رضي الله عنها: مشروعية الاحتراس من العدوِّ ، والأخذ بالحزم ، وترك الإهمال في موضع الحاجة إلى الاحتياط ، وأنَّ على النَّاس أن يحرسوا سلطانهم خشية القتل ، وفيه الثَّناء على مَنْ تبرَّع بالخير ، وتسميته ، وإنَّما عنَى النَّبيُّ (ص) ذلك مع قوَّة توكُّله؛ للاستنان به في ذلك[(٦٥٦)].

٥ . نص وثيقة المعاهدة مع بني ضَمْرَة والتعليق عليها:

«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، هذا كتابٌ من محمَّدٍ رسول الله ، لبني ضَمْرَة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، بأنَّهم امنون على أموالهم ، وأنفسهم ، وأنَّ لهم النَّصر على مَنْ رامهم؛ إلا أن

يُحارِبُوا دين الله ، ما بَلَّ بحرٌ صُوفَةً[(٦٥٧)] ، وأنَّ النَّبيَّ إذا دعاهم لنُصْرة؛ أجابوه ، عليهم بذلك ذمَّة الله ، وذمَّة رسوله ، ولهم النَّصرُ على مَنْ برَّ منهم ، واتَّقى»[(٦٥٨)].

انتهز النَّبيُّ (ص) في غزوة الأبْواء فرصةً ذهبيَّةً ، فعقد حلفاً عسكرياً مع شيخ بني ضمرة ، فقد كان موقع بلاده ذا قيمةٍ عسكريَّةٍ لا تُقدَّر بثمنٍ في الصِّراع بين الدَّولة الإسلاميَّة النَّاشئة ، وقريش؛ ولذلك عمل رسول الله (ص) على ضمان حيدتهم ، في حالة وقوع صدامٍ مسلَّحٍ بين المدينة ، وأهل مكَّة ، وكانت خطَّته (ص) حتَّى وقعة بدر أن يزعج قوافل قريش بإرسال مجموعاتٍ صغيرةٍ من المهاجرين ، وخاصَّةً أنَّ هذه القوافل كانت غير مصحوبةٍ بجيشٍ يحميها ، وهو أمرٌ لم تفكِّر فيه قريش حتَّى تلك اللَّحظة[(٦٥٩)].

كان قُرْبُ بني ضَمْرَة ، وحلفائهم من المدينة؛ الَّتي كانت سوقَهم ، ومصدرَ رزقهم قد وضعهم في موقفٍ لا يسمح لهم بأيِّ مسلكٍ غير موادعة الدَّولة الإسلاميَّة النَّاشئة ، وهو حلف عدم اعتداءٍ وفق المصطلح الحديث[(٦٦٠)].

وقد دلَّت هذه الموادعة على أنَّ مقتضيات السِّياسة الشَّرعيَّة ، قد تدفع المسلمين إلى التَّحالف العسكريِّ ، أو الاقتصاديِّ ، أو التِّجاريِّ ، مع أيٍّ من الكتل القائمة ، وأنَّ التَّحالف السِّياسيَّ له أصلٌ في الشَّريعة ، وضرورةٌ يوجبها استهدافُ رفع الضَّرر الحاصل ، أو المرتقب[(٦٦١)] ، وأنَّ التَّحالف مبنيٌّ على قاعدة رفع الضَّرر ، والمصلحة المشتركة ، وأن تكون لأصل الحلف غايةٌ شرعيَّةٌ معلومةٌ ، وأن يكون للمسلمين في الحلف قرارٌ ، ورأيٌ ، أما إذا كانوا أتباعاً ، ومنفذين ـ كما في الأحلاف الحديثة ـ فهذا لا ينطبق عليه الأصل الشَّرعيُّ ، وعلى قيادة الأمَّة أن تستوعب هدي النَّبيِّ (ص) في حركته السياسية ، وأن تفهم القاعدة الشَّرعيَّة؛ الَّتي تقول: «لا ضرر ولا ضرار» [ابن ماجه (٢٣٤١) وأحمد (٣١٣/١) والطبراني في المعجم الأوسط (٣٧٨٩)][(٦٦٢)] .

يقول الشَّيخ مصطفى الزَّرقا في معرض الحديث عن هذه القاعدة ، ما نصُّه:

«وهذه القاعدة من أركان الشَّريعة ، وتشهد لها نصوصٌ من الكتاب والسنَّة ، ويشمل الضرر المنهيُّ عنه ما كان ضرراً عامّاً ، أو خاصّاً ، ويشمل ذلك دفعه قبل الوقوع بطرق الوقاية

الممكنة ، ودفعه بعد الوقوع بما يمكن من التَّدابير الَّتي تزيل اثاره ، وتمنع تكْرَاره ، كما يدلُّ على وجوب اختيار أهون الشَّرَّين؛ لدفع أعظمهما؛ لأنَّ في ذلك تخفيفاً للضَّرر عندما لا يمكن منعه بتاتاً»[(٦٦٣)].

إنَّ هذه الموادعة توضِّح جواز عقد الدَّولة الإسلاميَّة معاهدةً دفاعيَّةً بينها وبين دولةٍ أخرى ، إذا اقتضت ذلك مصلحة المسلمين ، ولم يترتَّب أيُّ ضررٍ على مثل هذه المعاهدة ، ويجب على الدَّولة الإسلاميَّة في هذه الحال ، نصرة الدَّولة الحليفة إذا دعيت إلى هذه النُّصرة ضدَّ الكفار المعتدين ، كما يجوز للدَّولة الإسلاميَّة أن تطلب من الدَّولة الحليفة إمدادها بالسِّلاح ، والرِّجال؛ ليقاتلوا تحت راية الدَّولة الإسلاميَّة ، ضدَّ الأعداء من الكفَّار[(٦٦٤)].

وقد شرط النَّبيُّ (ص) على بني ضمرة ألا يحاربوا دين الله؛ حتَّى يكون لهم النَّصر على من اعتدى عليهم ، أو حاول الاعتداء.

وفي هذا إبعادٌ للعقبات؛ الَّتي يمكن أن تقف في طريق الدَّعوة ، فقد أوجبت هذه المعاهدة على بني ضَمرة ألا يحاربوا هذا الدِّين ، أو يقفوا في طريقه[(٦٦٥)] ، وتعتبر هذه المعاهدة كسباً سياسيَّاً وعسكريَّاً للمسلمين ، لا يستهان به[(٦٦٦)].

٦ ـ (وإنِّي لأوَّل رجلٍ رمَى بسهمٍ في سبيل الله)[(٦٦٧)]:

كانت سرية عُبَيدة بن الحارث رضي الله عنه أوَّلَ سريَّةٍ في تاريخ السَّرايا ، يلتقي فيها المسلمون مع المشركين في مواجهةٍ عسكريَّةٍ ، وقد اتَّخذ القتال بين الطَّرفين طابع المناوشة بالسِّهام ، وكان سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه «أوَّل العرب رمى بسهم في سبيل الله»[(٦٦٨)] في تلك المعركة؛ الَّتي لم تستمرَّ طويلاً؛ إذ قرَّر الفريقان الانسحاب من أرضها ، وقد كان انسحاب المسلمين قوياً ، ومنظَّماً ، وكان بطل هذا الانسحاب سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه ، فقد كان له الدَّور الأكبر في تثبيت ، وإحباط استعدادات العدوِّ ، لشنِّ أيِّ هجومٍ مضادٍّ ، وذلك بوابل من السِّهام المزعجة الَّتي قذفها نحوه ، والتي كونت ساتراً دفاعياً ، مهَّد لانسحابٍ سليمٍ منظَّمٍ بالنِّسبة للمسلمين ، وقد فرَّ عُتْبة بن غَزوان ، والمقداد بن الأسود رضي الله عنهما يومئذ إلى المسلمين ، وكانا قد أسلما قبل ذلك ، وفي هذه السَّريَّة حقَّق سعد بن أبي وقَّاص رضي الله

عنه سبقاً عسكريّاً إسلاميّاً ، يسجَّل في سجلِّه الحافل بالأعمال العظيمة لنصرة دين الله تعالى ، كما أكَّدت هذه السَّريَّة ، استمرار سياسة رسول الله (ص) التَّعبويَّة ، الخاصَّة بحشد المهاجرين فقط في الغزوات والسَّرايا الأولى حتَّى بدر؛ تنفيذاً لاتفاقية العقبة الثَّانية[(٦٦٩)].

٧ ـ نصُّ وثيقة الموادعة مع جُهَيْنة ، والتَّعليق عليها:

«إنَّهم امنون على أنفسهم ، وأموالهم ، وإنَّ لهم النَّصر على من ظلمهم ، أو حاربهم ، إلا في الدِّين ، والأهل ، ولأهل باديتهم من برَّ منهم ، واتَّقى ما لحاضرتهم»[(٦٧٠)].

ويظهر أثر هذه الموادعة عندما تدخَّل مَجْدِيُّ بن عمرو الجُهَنيُّ في التَّوسُّط بين سريَّة حمزة بن عبد المطلب ، والقافلة القرشيَّة الَّتي كان يقودها أبو جهل بن هشام ، ويحرسها ثلاثمئة راكبٍ من فُرْسان قريشٍ[(٦٧١)] ، فقد التقوا ناحية العيص ، في منطقة نفوذ جهينة، واصطفُّوا للقتال[(٦٧٢)]، وقبل أن يندلع القتال بين الفريقين ، تدخَّل مجْديُّ بن عمرو ـ زعيم من زعماء جهينة ـ في وساطة سلامٍ بينهم ، واستطاع أن ينجح في مساعيه السِّلمية بين الطَّرفين ، فقد كان مجديُّ ، وقومه حلفاء للفريقين جميعاً ، فلم يعصوه ، فرجع الفريقان كلاهما إلى بلادهما ، فلم يكن بينهما قتالٌ[(٦٧٣)].

ويظهر من هذه المعاهدة: أنَّ عقد المعاهدات بين الدَّولة الإسلامية والقبائل المجاورة ، كان سابقاً على الأعمال العسكريَّة؛ الَّتي قامت بها؛ بدليل أنَّ حركة السَّرايا الأولى الموجَّهة ضدَّ قريشٍ ، كان قد سبقها معاهدة سلامٍ بين دولة الإسلام ، وقبيلة جهينة المقيمة على ساحل البحر الأحمر ، وقد توسَّطت لمنع القتال بين المسلمين ، وكفَّار مكَّة.

ومن فقه هذه المعاهدة جوازُ عقد معاهدة سلامٍ بين دولة الإسلام ، ودولةٍ أخرى ، هي بدورها مرتبطةٌ بمعاهدة سلامٍ مع أعداء الدَّولة الإسلاميَّة؛ بشرط ألاَّ تتجاوز تلك المعاهدة الاتفاق على أن تنصر الدَّولة المعاهدة للمسلمين العدوَّ إذا ما اشتبكت مع المسلمين في قتالٍ ، ويجوز للدَّولة الإسلاميَّة ، أن تترك قتال أعدائها بعد أن تستعدَّ لذلك؛ استجابةً لوساطة دولةٍ أخرى؛ إذا لم يترتب على ذلك ضررٌ للمسلمين[(٦٧٤)].

كانت نتائج سريَّة حمزة رضي الله عنه على المعسكر الوثنيِّ سيئةً للغاية؛ حيث هزَّت كيان

قريش ، وبثَّت الرُّعب في نفوس رجالها ، وفتحت أعينهم على الخطر المحْدق بهم ، والَّذي أصبح يهدِّد طريق تجارتهم ، وقوَّتهم الاقتصاديَّة[(٦٧٥)] ، فقد قال أبو جهل حين قدم مكَّة منصرفاً عن حمزة: «يا معشر قريش! إنَّ محمداً قد نزل يثربَ ، وأرسل طلائعه ؛ وإنَّما يريد أن يصيب منكم شيئاً ، فاحذروا أن

تمرُّوا في طريقه ، وأن تقاربوه ؛ فإنَّه كالأسد الضَّاري ، إنه حَنِقٌ[(٦٧٦)] عليكم؛ نفيتموه نَفْيَ القردان[(٦٧٧)] على المناسم[(٦٧٨)] ، والله! إنَّ له لسحرةً ، ما رأيته قطُّ ولا أحداً من أصحابه ، إلا رأيتُ معهم الشَّياطين ، وإنَّكم عرفتم عداوة ابني قَيْلَة[(٦٧٩)] ، فهو عدوٌّ استعان بعدوٍّ»[(٦٨٠)].

٨ ـ سريَّة عبد الله بن جحش وما فيها من دروسٍ ، وعبر:

إنَّ سرية عبد الله بن جحشٍ ، حقَّقت نتائج مهمَّةً ، وفيها دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد عظيمةٌ؛ منها:

أ ـ جاء في خبر هذه السَّريَّة: أنَّ النَّبيَّ (ص) كتب لأمير السَّريَّة كتاباً ، وأمره ألاَّ ينظرَ فيه حتَّى يسير يومين ، وهذا مثلٌ لتطبيق مبدأ مهمٍّ من مبادأى الحرب ، وهو إخفاء الخُطط الحربيَّة ، ومنها خط السَّير ، حتَّى يكون الجيش في أمانٍ من كيد الأعداء؛ فالمدينة كانت انذاك تضمُّ اليهود، والوثنيين، ومن المتوقع أن يسارع هؤلاء إلى إخبار أهل مكَّة ، بخطِّ سير تلك السَّريَّة الموجَّهة ضدَّهم ، فلمَّا سار أفراد السَّريَّة وهم بأنفسهم لا يعلمون اتِّجاههم؛ أصبح النَّبيُّ (ص) امناً من انكشاف الهدف المقصود[(٦٨١)].

وإنَّ الباحث ليرى أثر التَّربية النَّبويَّة في هذه السَّريَّة المباركة؛ حيث سمعوا ، وأطاعوا جميعاً ، وساروا إلى منطقة أعدائهم ، وتجاوزوها حتَّى أصبحوا من ورائهم ، وهذا شاهدٌ على قوَّة إيمان الصَّحابة رضي الله عنهم ، واستهانتهم بأنفسهم في سبيل الله تعالى[(٦٨٢)].

ب ـ حاولت قريش أن تستغلَّ ما وقع من قَتْلٍ في الشَّهر الحرام مِنْ قِبلَ أفراد السَّريَّة ، فشنُّوا حرباً إعلاميَّة ، وهجوميَّة مركَّزةً ، تتخلَّلها دعاياتٌ مغرضةٌ ضدَّ المسلمين ، استغلت فيها

التعاليم الإبراهيميَّة؛ الَّتي لا زالت بعض اثارها باقيةً في المجتمع الجاهليِّ حتَّى ذلك الوقت؛ من تحريم القتال في الأشهر الحرم ، وغير ذلك ، فقد «انتهزت قريش هذه الفرصة للتَّشهير بمحمَّدٍ (ص) ، وبالمسلمين ، وإظهارهم بمظهر المعتدي الَّذي لا يراعي الحرمات»[(٦٨٣)]. «قالت قريش: قد استحلَّ محمَّدٌ ، وأصحابه الشَّهر الحرام ، وسفكوا فيه الدَّم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرِّجال» [البيهقي في السنن الكبرى (٥٩/٩) وفي الدلائل (١٩/٣) وابن هشام (٢٥٤/٢)][(٦٨٤)] .

ونجحت قريش في خُطَّتها تلك بادأى الأمر؛ حيث «كان لدعايتها صدىً كبيرٌ ، وأثرٌ ملموسٌ حتَّى في المدينة نفسها ، فقد كثر الجدل ، والنقاش بين المسلمين أنفسهم ، وأنكروا على رجال السَّريَّة محاربتهم في الشَّهر الحرام ، واشتدَّ الموقف ، ودخلت اليهود تريد إشعال الفتنة»[(٦٨٥)] ، وقالوا: إنَّ الحرب واقعةٌ لا محالة بين المسلمين وقريش؛ بل بينهم وبين العرب جميعاً؛ جزاء ما انتهكوا من حرمة الشَّهر

الحرام ، وأخذوا يردِّدون: «عمرو بن الحَضرمي قتله واقدُ بن عبد الله ، عمرو: عمرت الحرب ، والحضرمي: حضرت الحرب ، وواقد: وقدت الحرب»[(٦٨٦)] ، وهذا الكلام من اليهود يعبِّر عن حقدٍ دفينٍ في نفوسهم على الإسلام والمسلمين[(٦٨٧)].

وعندما ظنَّ أهل السَّريَّة: أنَّهم قد هلكوا ، وسُقط في أيديهم[(٦٨٨)]؛ جاء الردُّ الرَّبانيُّ المفحم؛ قطعاً لألسنة المشركين الَّذين يتترَّسون بالحرمات ، ويتَّخذونها ستاراً لجرائمهم ، ففضح القران هؤلاء المجرمين ، وأبطل احتجاجهم ، وأجاب على استنكارهم القتال في الشَّهر الحرام ، فالصدُّ عن سبيل الله ، والكفر به أكبر من القتال في الشَّهر الحرام ، والمسجد الحرام ، وإخراجُ أهله منه أكبرُ من القتال في الشَّهر الحرام ، وفتنةُ الرَّجل في دينه أكبرُ من القتل في الشَّهر الحرام. لقد فعلت قريشٌ كلَّ هذه الجرائم ، وارتكبت هذه الكبائر؛ ولكنَّها تناستها ، أو استهانت بها ، ولم تذكر إلا حُرمة الشَّهر ، واتَّخذتها وسيلةً لإثارة حربٍ شعواء على الإسلام ، ودولته؛ لتأليب القبائل الوثنيَّة عليها ، وتنفير النَّاس من الدُّخول في هذا الدِّين؛ الَّذي يستحلُّ الحرمات ، ويستبيح المقدَّسات؛ حتَّى إنَّ رسول الله (ص) قد لحقه الغمُّ ، ولام قائد السَّريَّة ، وأصحابه على

ما فعلوا[(٦٨٩)] ، فنزلت الايات البيِّنات تردُّ وبقوَّةٍ على دعايات قريشٍ المغرضة ، موضحةً: أنَّه وإن كان الشَّهر الحرام لا يحلُّ فيه القتال ، ولكن لا حرمة عند الله لمن هتك الحرمات ، وصدَّ عن سبيله[(٦٩٠)].

ج ـ حِرْصُ القائد على سلامة الجنود: عندما تخلَّف سعد بن أبي وقَّاصٍ ، وعُتْبة بن غَزْوان؛ بسبب بحثهما عن بعيرٍ لهما قد ضلَّ ، وجاءت قريش تريد أن تفدي الأسيرين ، فأبى رسول الله (ص) وقال: «أخاف أن تكونوا قد أصبتم سعد بن مالك ، وعُتبة بن غَزوان» فلم يفادهما حتَّى قدم سعدٌ ، وعُتبة ، ففوديا ، فأسلم الحكم بن كَيسان[(٦٩١)]، وأقام عند رسول الله (ص) ، ورجع عثمان بن عبد الله بن المغيرة كافراً[(٦٩٢)].

ونفهم من المنهاج النَّبويِّ ، ضرورة أن يهتمَّ القائد بسلامة جنده؛ لأنَّهم هم الَّذين يقدِّمون أنفسهم في سبيل نصرة دين الله ، وإقامة دولة الإسلام.

إنَّ المدارس العسكريَّة الحديثة تقول: إنَّ الجنديَّ حين يُحسُّ باهتمام القيادة به ، وبسلامته ، وبأمنه لا يتردَّد في أن يبذل غاية البذل ، ويعطي أقصى العطاء[(٦٩٣)].

د . ظهور التَّربيَّة الأمنيَّة في الميدان: كانت سريَّة عبد الله بن جحشٍ قد حقَّقت أهدافها ، وظهرت قدرتها على التوغُّل في المناطق الخاضعة لنفوذ قريش ، ممَّا أذهلها ، وزاد دهشتها وذهولها تلك السِّرِّيَّةُ التَّامَّةُ ، والدِّقَّةُ المتناهية؛ الَّتي تمَّت بها العمليَّة؛ حتَّى إنَّ جواسيس قريش لم تستطع رصدها ، ولا معرفة الوجهة الَّتي قصدتها ، وكان ذلك ما أراده رسول الله (ص) ، وخطَّط له بابتكاره أسلوب الرَّسائل المكتوبة؛ للمحافظة على الكتمان ، وحرمان العدوِّ من الحصول على المعلومات الَّتي تفيده عن حركات المسلمين، «والكتمان أهمُّ عاملٍ من عوامل مبدأ (المباغتة) ، وهي أهمُّ مبدأ من مبادأى الحرب»[(٦٩٤)].

وقد أثبتت هذه السَّرِيَّةُ بما لا يدع مجالاً للشك: أنَّ سرايا النَّبيِّ (ص) قويَّةٌ ، تندفع للقيام بأصعب الأعباء والمهمَّات ، وتتحلَّى بمزايا القتال ، وقدرتها على إنجاز الواجبات بكلِّ كفاءة ، واقتدارٍ ، ممَّا يدلُّ على رُوحها المعنويَّة العالية.

وتظهر اثار التَّربية النَّبويَّة في الضَّبط العسكريِّ الرَّفيع ، الَّذي تميَّز به قائد السَّريَّة ، وطاعته

للأوامر النَّبويَّة العليا؛ دون تردُّدٍ ، أو تخاذلٍ ، فما إن قرأ الكتاب ، حتَّى امتثل فوراً للأمر بحذافيره ، معطياً من نفسه القدوة الحسنة ، وباثّاً في نفوس جنوده الحماس ، وهو يقول لهم: «من كان منكم يريد الشَّهادة ، ويرغب فيها؛ فلينطلق ، ومن كره ذلك؛ فليرجع ، فأمَّا أنا فماضٍ لأمر رسول الله (ص) »[(٦٩٥)].

٩ . من أهداف السَّرايا:

عندما ندرس حركة السَّرايا، والغزوات؛ الَّتي قادها رسول الله (ص) بدقَّةٍ، وعمقٍ، وتحليلٍ ، نستطيع أن نتلمَّس كثيراً من الأهداف ، وندرك بعض ما توحي به من دروسٍ وعبرٍ ، وفوائد؛ فإذا تأمَّلنا في حركة السَّرايا الَّتي سُيِّرت قبل بدرٍ؛ نجد أنَّ أفرادها كلَّهم من المهاجرين ، ليس فيهم واحدٌ من الأنصار. يقول ابن سعدٍ . رحمه الله! .: «والمجتمع عليه: أنَّهم كانوا جميعاً من المهاجرين ، ولم يبعث رسول الله (ص) أحداً من الأنصار مَبْعثاً حتَّى غزا بهم بدراً»[(٦٩٦)]. وهذا كان أمراً مدروساً له أهدافه؛ ومنها: إحياء قضية المهاجرين في أنفسهم أوَّلاً، وإحياؤها على المستوى الخارجيِّ ، وإنهاك الاقتصاد القرشيِّ ، ومحاصرته ، واستعادة بعض الحقوق المسلوبة ، وإضعاف قريشٍ عسكريّاً ، وتدريب الصَّحابة على إتقان فنون القتال ، ورصد تحرُّكات قريش ، وإرهاب العدوِّ الدَّاخليِّ في المدينة ، وما حولها ، واختبار قوة العدوِّ[(٦٩٧)] ، وقد حقَّقت تلك السَّرايا أهدافها ، والَّتي من أهمها:

أ ـ بسط هيبة الدَّولة في الدَّاخل ، والخارج: فقد استطاعت تلك السَّرايا والغزوات ، أن تلفت أنظار أعداء الدَّعوة ، والدَّولة الإسلاميَّة إلى قوَّة المسلمين ، وقدرتهم على ضرب أيَّة حركةٍ مناوئةٍ ، سواءٌ في الدَّاخل ، أو الخارج؛ حتَّى لا يُحَدِّث أحدٌ نفسَه بمهاجمة الدَّولة الإسلاميَّة ، الَّتي لا يتوقَّف جيشها ليلَ نهارَ ، ممَّا أرهب الأفاعي اليهوديَّة ، والقبائل الوثنيَّة المحيطة بالمدينة ، وجعل الجميع يعمل ألف حسابٍ قبل أن تحدِّثه نفسُه بغزو المدينة ، أو مناصرة أحدٍ من الأعداء عليها. والَّذي نلاحظه في حركة السَّرايا الزِّيادة المستمرَّة في أعداد قوَّة تلك الغزوات ، والسَّرايا ، ومجيئها متتابعةً ليس بينها فاصلٌ زمنيٌّ على الإطلاق ، فلا تكاد السَّريَّة ، أو الغزوة تعود؛ حتَّى تكون الَّتي بعدها قد خرجت؛ لتحقيق الهدف نفسه ، وهو ضرب مصالح قريش الاقتصاديَّة ، وقطع طرق تجارتها ، وخصوصاً إلى بلاد الشَّام؛ ممَّا كلَّفها زيادة عدد حرَّاس قوافلها ، وارتفاع قيمة بضائعها ، هذا غير الرُّعب ، والخوف الَّذي شعر به رجال القوافل القرشيَّة ، وأصحاب الأموال في مكَّة على حدٍّ سواءٍ[(٦٩٨)].

ب ـ كسب بعض القبائل ، وتحجيم دَور الأعراب: لقد وادع رسولُ الله (ص) قبيلة جُهَيْنة ، وحالفها ، وكذلك بعض القبائل الضَّاربة في تلك المنطقة من أجل تحييدها في الصِّراع الدَّائر بين مكَّة ، والمدينة ، والعمل على كسبها في هذا الصِّراع؛ وذلك «لأنَّ الأصل: أنَّ هذه القبائل تميل إلى قريشٍ ، وتتعاون معها؛ إذ بينهما مُحالفاتٌ تاريخيَّةٌ ، سمَّاها القران الكريم بالإيلاف[(٦٩٩)] ، سَعَت قريش من خلالها لتأمين تجارتها مع الشَّام ، واليمن»[(٧٠٠)].

وبعد أن اتَّفقت بعض القبائل مع رسول الله (ص) ، وعقدت معه معاهداتٍ ، أصبحت تشكِّل خطراً على تجارة قريش ، وصار المسلمون هم السَّادة في المنطقة[(٧٠١)].

وقام النَّبيُّ (ص) بتحجيم دور الأعراب؛ كي لا يكون لهم وجودٌ في طرق التِّجارة، فقد كان الأعراب يُشَكِّلون قوَّة تهديدٍ للقوافل التِّجارية ، وكان المارُّ في مناطق نفوذهم ، لا يمرُّ إلا بإتاوة تُدْفع إليهم ، وحينما قامت الدَّولة الإسلاميَّة؛ لم يجدوا شيئاً منها؛ فجرَّبوا مهاجمتها ، وتولَّى هذا كُرْزُ الفهريُّ؛ ولكنَّه وجد رسول الله (ص) يطارده إلى سفوان «بالقرب من بدرٍ مسافةً تبعد عن المدينة حوالي ١٥٠ كيلو متراً» ، وقد سمَّى أهلُ السِّير هذه المطاردة: غزوة بدر الصُّغرى ، وتُعدُّ هذه الغزوة درساً لكلِّ الأعراب ، فلم يحصل: أنَّ أعرابيَّاً سوَّلت له نفسه أن يهاجم المدينة بعد هذه المطاردة ، ومِنْ ثمَّ لم تدفع الأمَّة الإسلاميَّة إتاواتٍ لقُطَّاع الطُّرق؛ بل أجبرتهم على الانسحاب، والدُّخول في اتِّفاقاتٍ مع المسلمين؛ فأمنوا شرَّهم[(٧٠٢)].

ج ـ علاقة هذه السَّرايا بحركة الفتوح الإسلاميَّة: وقد استمرَّت حركة السَّرايا ، والبعوث ، وكانت بمثابة تمريناتٍ عسكريَّةٍ تعبويَّةٍ ، ومناوراتٍ حيَّةٍ لجند الإسلام ، وكان هذا النَّشاط المتدفِّق على شكل موجاتٍ متعاقبةٍ من جند الإسلام الأوائل ، دلالةً قاطعةً على أنَّ دولة الإسلام في المدينة ـ وبقيادة النَّبيِّ القائد (ص) ـ كانت مثل خلية النَّحل ، لا تهدأ ، ولا تَكِلُّ ، وإنَّ الباحث ليلحظ في حركة السَّرايا ، والبعوث ، والغزوات الكبرى في زمن النَّبيِّ (ص) ، حرص الصَّحابة على المشاركة كقادة ، وجنود ، فكان (ص) يعدُّهم لتثبيت دعائم الدَّولة ، والاستعداد للفتوحات المرتقبة ، والَّتي ما فتأى (ص) يبشِّر بها أصحابه بين الفَيْنَة والأخرى في أوقات الحرب، والسِّلم ، والخوف ، والأمن.

إنَّه بنظرةٍ فاحصةٍ في قوَّاد وجنود تلك السَّرايا ، والبعوث ، تطالعنا أسماء لمعت كثيراً في تاريخ الفتح الإسلاميِّ فيما بعد؛ مثل: قائد فتوحات الشَّام ـ أمين الأمَّة ـ أبي عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص صاحب القادسيَّة ، وفاتح المدائن ، وخالد بن الوليد سيف الله المسلول هازم الرُّوم في اليرموك ، وعمرو بن العاص فاتح مصر ، وليبيا ، وغيرهم رضي الله عنهم. لقد التحق خالدٌ ، وعمرٌو فيما بعد بحركة السَّرايا ، وقادا بعضها بعد إسلامهم. لقد كانت السَّرايا والغزوات الَّتي أشرف عليها الحبيب المصطفى (ص) في حياته ، بمثابة تدريبٍ حيٍّ نابضٍ؛ بل يمكن اعتبارها دورات أركانٍ للقادة الَّذين فتحوا مشارق الأرض ، ومغاربها فيما بعد.

إنَّ حياة الصَّحابة رضي الله عنهم ، خلال الأربع والعشرين ساعةً اليوميَّة ، عبارةٌ عن تدريبٍ مستمرٍّ؛ فالبرنامج اليوميُّ المنتظم ، يبدأ مبكِّراً من صلاة الفجر ، الَّتي تُؤَدَّى في جماعةٍ مع قائدهم الأعلى (ص) ؛ الَّذي كان يحثُّهم على أداء هذه الصَّلاة جماعة وفي وقتها ، موضحاً لهم ، ولأمَّته أنَّها المِفْتاح العجيب ليوم مليءٍ بالنَّشاط والحيويَّة. قال (ص) : «يَعْقِدُ الشيطانُ على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاثَ عُقَدٍ ، يضربُ مكان كلِّ عقدةٍ: عليك ليلٌ طويلٌ ، فارقدْ ، فإن استيقظ ، فذكر الله؛ انحلَّت عقدةٌ ، فإن توضَّأ؛ انحلَّت عُقْدَةٌ ، فإن صلَّى؛ انحلت عُقَدُهُ كلُّها ، فأصبح نشيطاً طيِّبَ النَّفس ، وإلا أصبحَ خبيثَ النَّفس كسلان » [البخاري (١١٤٢) ومسلم (٧٧٦)] .

ثمَّ ينطلق كلٌّ منهم إلى عمله الَّذي تتخلَّله فترات الصَّلوات الباقية؛ حتَّى إذا ما صلَّوا الصَّلاة الاخرة (صلاة العشاء) ناموا ، حتى إذا ما أخذوا قسطاً وافراً من النَّوم أوَّل الليل إلى الثلث الأخير منه؛ قام معظمهم لأداء صلاة التَّهجُّد الَّتي تملأ قلوبهم روحانيَّةً ، وتكسبهم مزيداً من النَّشاط لأدائها في وقتٍ يكون الجسم فيه مرتاحاً.

هذا بالإضافة إلى الاستعداد الدَّائم ، واليقظة التامَّة لمتطلبات دولة الإسلام ، فكانوا يقومون بنشاطاتٍ تدريبيَّةٍ مركَّزةٍ ، تتمثَّل في ركوب الخيل ، والسَّبق ، والرِّماية ، وكان النَّبيُّ (ص) يحثُّهم على فعل ذلك؛ بل ويشاركهم فيه ، معطياً من نفسه القدوة ، وكان (ص) يركِّز على تعلُّم الرِّماية كثيراً ، موضِّحاً أنَّها خير ما يعدُّ من قوَّةٍ استعداداً للكفَّار.

وكان (ص) يشجِّعهم على الصِّناعة الحربيَّة ، المتمثِّلة في ذلك الوقت في صناعة الأسهم ، ويخبرهم: أنَّ الأجر الذي غايته الجنَّة ينسحب على صانعها ، والمتنبِّل بها ، والرَّامي بها ، فيروي لنا عقبة عن رسول الله (ص) قوله: «إنَّ الله يُدخل بالسَّهم الواحد ثلاثة نفرٍ الجنَّة: صانعُه؛ الَّذي احتسب في صنعته الخير ، ومتنبِّله[(٧٠٣)] ، والرَّامي ، ارموا ، واركبوا ، وأنْ ترموا أحبُّ إليَّ

من أن تركبوا ، وليس من اللَّهو إلاَّ ثلاثة: تأديب الرَّجل فرسَه ، وملاعبته زوجتَه ، ورميه بنبله عن قوسه ، ومن عُلِّم الرَّمي ثُمَّ تركه ، فهي نعمةٌ كفرها» [أبو داود (٢٥١٣) والترمذي (١٦٣٧) والنسائي (٦/٢٢٢ ـ ٢٢٣) والحاكم (٢/٩٥) والبيهقي في الشعب (٤٣٠١)].

فيا لَهُ من عصرٍ تمسَّك فيه الصَّحابة رضي الله عنهم بالتعاليم القرانيَّة الرَّبَّانيَّة ، وعضُّوا عليها بالنَّواجذ ، وقاموا بتطبيقها حرفيّاً في شتَّى شؤون حياتهم ، فغزوا ، واستعلوا على أمم الأرض شرقاً ، وغرباً رغم قلَّتهم ، وبساطتهم! وحين ابتعد المسلمون عن تلك التَّعاليم ، وألقوا بها وراء ظهورهم؛ ركبهم الذُّلُّ ، والصَّغار ، وتداعت عليهم الأمم من أقطارها؛ بعد أن أصبحوا غثاءً كغثاء السَّيل.

إنَّ المهمَّات ، والأهداف الَّتي سعت لتحقيقها السَّرايا ، والبعوث كانت تتفاوت تَبعاً لاختلاف الظُّروف المحيطة والحادثة ، فكانت السَّرايا الأولى في معظمها عبارةً عن دورياتٍ استطلاعيَّة ، واستكشافيَّة ، وجسِّ نبضٍ ، ثمَّ تطوَّرت إلى سرايا اعتراضيَّةٍ، تُوقع الرُّعب، والفزع في القوافل القرشيَّة ، وذلك قبل غزوة بدرٍ الفاصلة، وعندما قويت شوكة المسلمين بعدها؛ أصبحت مهمَّة بعض السَّرايا ، والبعوث تنصبُّ في تصفية الأفراد من أعداء الدَّولة الإسلاميَّة ، الَّذين يحاولون النَّيل من مسيرتها؛ مثل كعب بن الأشرف ، والعصماء بنت مَرْوَان ، وأبي عفك ، فكان في قَتْل كعب ردعٌ لليهود ، وقتل العَصْماء ، وأبي عفك ردعٌ للمشركين ، والمنافقين في المدينة.

وعندما انقلبت الأمور لغير صالح المسلمين بعد أُحدٍ؛ طمع الأعراب في خيرات المدينة ، واستهانوا بالمسلمين لدرجة أنَّهم غدروا ببعض البعوث التَّعليميَّة ـ كما في الرَّجيع ، وبئر معونة ـ غيَّر تبعاً لذلك رسول الله (ص) (استراتيجيَّته) العسكريَّة ، فانتقل بالسَّرايا من قريشٍ إلى الأعراب؛ لتأديبهم بطريقةٍ

صارمةٍ ، وسريعةٍ ، ومباغتةٍ ، وكان أهمَّ ما يمِّيز تلك السرايا ، هجومُها التَّعرضيُّ للأعراب قبل تحشُّدهم ، وجمع أمرهم بالهجوم على المسلمين.

وظلَّت السَّرايا ، والبعوث النَّبويَّة تؤدِّي دورها ، وتقوم بمهامِّها الخاصَّة لخدمة أهداف الدَّعوة ، فمن دورياتٍ قتاليَّةٍ ، إلى سرايا تعقُّبيَّةٍ ، وأخرى تمويهيَّةٍ ، حتَّى إذا ما توطَّد الأمر للمسلمين بعد فتح مكَّة ، اهتمَّ النَّبيُّ (ص) بإزالة كلِّ ما يمتُّ للوثنيَّة بصلةٍ ، فبعث السَّرايا ، والبعوث من مكَّة لتحطيم بقيَّة رموز الشِّرك ، والوثنيَّة ، فانطلقت السَّرايا لتحطيم العُزَّى ،

ومناة ، واللاَّت ، وسُواع ، وذي الخَلصة[(٧٠٤)] ، وغيرها من الأصنام ، والطَّواغيت الوثنيَّة[(٧٠٥)].

وبعد ذلك انطلقت دعوة الإسلام في أرجاء الجزيرة ، ودخل النَّاس في دين الله أفواجاً ، ثمَّ تحرَّكت الجيوش الرَّاشديَّة بعد وفاة الرَّسول (ص) ؛ لنشر دين الله في المعمورة ، وإزالة كلِّ العوائق ، والقوى الَّتي تقف في وجه الدَّعوة.

لقد أدهشت النتائج السَّريعة الإيجابيَّة لحركة الفتوح الإسلاميَّة جميع المحلِّلين على اختلاف دياناتهم ، وأفكارهم ، ومشاربهم؛ ولكن ستزول دهشة المحلِّلين المنصفين ، عندما يقرؤون تلك التَّعاليم ، والوصايا النَّبويَّة لقوَّاد ، وجنود السَّرايا ، والبعوث ، والَّتي هي نواة حركة الفتوح الإسلاميَّة ، والَّتي صارت تتكرَّر على ألسنة الخلفاء ، وقادة جيوش الفتوح ، وتظهر في أعمالهم فيما بعد[(٧٠٦)].

عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله (ص) إذا بعث جيشاً؛ قال: «انطلقوا باسم الله ، لا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلاً صغيراً ، ولا امرأةً ، ولا تغلُّوا ، وضمُّوا غنائمكم ، وأصلحوا ، وأحسنوا ، إنَّ الله يحبُّ المحسنين» [أبو داود (٢٦١٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٩٠) وعبد الرزاق في المصنف (٩٤٣٠)] .

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان رسول الله (ص) إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره؛ قال: «بَشِّروا ، ولا تُنَفِّروا ، ويَسِّرُوا ، ولا تُعَسِّرُوا» [مسلم (١٧٣٢) وأبو داود (٤٨٣٥) وأحمد (٤/٣٩٩)].

* * *

المبحث الخامس

استمرارية البناء التَّربويِّ والعلميِّ

كان من أوائل ما نزل من القران الكريم في العهد المدنيّ مقدِّماتُ سورة البقرة ، الَّتي تحدَّثت عن صفات أهل الإيمان ، وأهل الكفر ، وأهل النِّفاق ، ثمَّ إشارة لأهل الكتاب ـ اليهود والنَّصارى ـ وكان التَّركيز على بيان حقيقة اليهود؛ لأنَّهم الذين تصدَّوا للدَّعوة الإسلاميَّة من أوَّل يومٍ دخلت فيه المدينة ، وتتضمَّن سورة البقرة جانباً طويلاً منها لشرح صفة يهود ، وطباعهم[(٧٠٧)].

والملاحظ: أنَّ سورة البقرة ـ وهي من أوائل ما نزل في العهد المدنيّ ـ كانت توجِّه الدَّعوة للنَّاس أجمعين أن يدخلوا في دين الله ، وأن يتوجَّهوا له بالعبادة. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ *} [البقرة: ٢١ ـ ٢٢] .

وكانت الايات القرانيَّة في العهد المدنيّ تحذِّر المسلمين من الاتِّصاف بصفات المنافقين ، وتوضِّح خطورة المنافقين على المجتمع النَّاشأى والدَّولة الجديدة ، ولم تظهر حركة النِّفاق ضدَّ المجتمع ، والدَّولة المسلمة إلا في العهد المدنيّ؛ لأنَّ المسلمين في مكَّة «لم يكونوا من القوَّة ، والنُّفوذ في حالةٍ تستدعي وجود فئةٍ من النَّاس ترهبهم ، أو ترجو خيرهم ، فتتملَّقهم ، وتَتَزَلَّف إليهم في الظَّاهر ، وتتامر عليهم ، وتكيد لهم ، وتمكر بهم في الخفاء ، كما كان شأن المنافقين بوجهٍ عام.. والايات تتضمَّن أوصاف ، وأخبار ، ومواقف المنافقين. والحملات عليهم كثيرةٌ جداً ، حتَّى لا تكاد تخلو سورةٌ مدنيَّةٌ منها ، وخاصَّةً الطَّويلة ، والمتوسطة ، وهذا يعني: أنَّ هذه الحركة ظلَّت طِيلَةَ العهد المدنيّ تقريباً ، وإن كانت أخذت تضعف من بعد نصفه الأوَّل»[(٧٠٨)].

واستمرَّ القران المدنيُّ يتحدَّث عن عظمة الله ، وحقيقة الكون ، والتَّرغيب في الجنة ، والتَّرهيب من النَّار ، ويشرّع الأحكام لتربية الأمَّة ، ودعم مقومات الدَّولة ، الَّتي ستحمل نشر
دعوة الله بين النَّاس قاطبةً[(٧٠٩)] ، وتجاهد في سبيل الله.

وكانت مسيرة الأمَّة العلميَّة تتطوَّر مع تطور مراحل الدَّعوة ، وبناء المجتمع وتأسيس الدولة ، وقد أشاد القران الكريم بالعلم ، والَّذين يتعلَّمون ، ورُويت أحاديث عن تقدير الرَّسول (ص) للعلم ، وتضمَّنت كتبُ الحديث أبواباً عن العلم.

لقد أيقنت الأمَّة: أنَّ العلم من أهم مقوّمات التَّمكين؛ لأنَّه من المستحيل أن يمكّن الله تعالى لأمَّةٍ جاهلةٍ ، متخلِّفةٍ عن ركاب العلم. وإنَّ النَّاظر للقران الكريم؛ ليتراءى له في وضوحٍ: أنَّه زاخرٌ بالايات الَّتي ترفع من شأن العلم ، وتحثُّ على طلبه وتحصيله ، فقد جعل القرانُ الكريم العلم مقابلاً للكفر[(٧١٠)]؛ الذي هو الجهل ، والضَّلال. قال تعالى: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ *} [الزمر: ٩].

وإنَّ الشَّيء الوحيد؛ الَّذي أمر الله تعالى رسوله (ص) أن يطلب منه الزِّيادة هو العلمُ. قال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا *} [طه: ١١٤] كما أنَّ أوَّل خاصّيَّةٍ ميَّز الله تعالى بها ادم عليه السلام هي العلم. قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *} [البقرة: ٣١] .

واستمرَّ النَّبيُّ (ص) في منهجه التَّربويِّ يعلِّم أصحابه ، ويذكّرهم بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ويحثُّهم على مكارم الأخلاق ، ويوضِّح لهم دقائق الشَّريعة ، وأحكامها ، وكان توجيهه (ص) لأصحابه أحياناً فرديّاً ، ومرَّةً جماعيّاً، وترك لنا الحبيب المصطفى (ص) ، ثروةً هائلةً في وسائله التَّربويَّة في التَّعليم ، وإلقاء الدُّروس ، فقد راعى (ص) الوسائل التَّربويَّة؛ الَّتي تعين على الحفظ ، وحسن التلقِّي ، وتؤدِّي إلى استقرار الحديث في نفوس وأفئدة الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم؛ فمن هذه الوسائل والمبادأى العظيمة النَّافعة[(٧١١)] في العهد المكيِّ ، والمدنيّ:

أولاً: أهم هذه الوسائل والمبادأى التَّربوية:

١ ـ تكرار الحديث ، وإعادته:

فذلك أسهل في حفظه ، وأعون على فهمه ، وأدعى لاستيعابه ، ووعي معانيه؛ ولذلك حَرَص النبي (ص) على تكرير الحديث في غالب أحيانه ، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه ، عن
النَّبيِّ (ص) : أنَّه كان إذا تكلَّم بكلمةٍ أعَادَها ثلاثاً؛ حتَّى تُفْهَمَ عنه ، وإذا أتى على قومٍ ، فسَلَّمَ عليهم؛ سَلَّمَ عليهم ثَلاثاً [البخاري (٩٥)] .

٢ ـ التأنِّي في الكلام والفصل بين الكلمات:

كان (ص) يتأنَّى ولا يستعجل في كلامه ، بل يفصل بين كلمةٍ ، وأخرى ، حتَّى يسهل الحفظ ، ولا يقع التَّحريف والتَّغيير عند النَّقل ، وبلغ من حرص النَّبيِّ (ص) على ذلك: أنَّه كان يَسْهُل على السَّامع أن يَعُدَّ كلماته (ص) ؛ لو شاء[(٧١٢)] ، فقد روى عروة بن الزُّبير ـ رحمه الله! ـ أنَّ عائشة رضي الله عنها قالت: «ألا يُعجبُك أبو فلان «أبو هريرة»؟ جاء ، فجلس إلى جانب حجرتي يُحَدِّث عن رسول الله (ص) ، يُسْمِعُني ذلك ، وكنت أُسبِّحُ[(٧١٣)] ، فقام قبل أن أقضي سُبْحتي ، ولو أدركتُهُ؛ لرددت عليه ، إنَّ رسول الله (ص) لم يكن يَسْرُدُ الحديث كسَرْدِكم» [البخاري (٣٥٦٨)] .

٣ ـ الاعتدال ، وعدم الإملال ، واختيار الوقت المناسب:

كان (ص) يقتصد في تعليمه؛ في مقدار ما يلقيه ، وفي نوعه ، وفي زمانه؛ حتَّى لا يملَّ الصَّحابة ، وحتَّى ينشطوا لحفظه ، ويسهل عليهم عَقْلُهُ ، وفهمه ، فعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: كان النَّبيُّ (ص) يَتخوَّلُنا[(٧١٤)] بالموعظة في الأيام؛ كراهةَ السَّامةِ علينا [البخاري (٦٨)] .

٤ ـ ضرب الأمثال:

للمثل أثرٌ بالغٌ في إيصال المعنى إلى العقل ، والقلب؛ ذلك: أنَّه يقدِّم المعنويَّ في صورةٍ حسِّيَّةٍ ، فيربطه بالواقع ، ويقرِّبه إلى الذِّهن؛ فضلاً عن أنَّ للمثل بمختلف صوره بلاغةً تأخذ بمجامع القلوب ، وتستهوي العقول ، وبخاصَّةٍ عقول البلغاء؛ ولذلك استكثر القران من ضرب الأمثال ، وذكر حكمة ذلك في اياتٍ كثيرة ، فقال تعالى: {وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ *} [العنكبوت: ٤٣] ، وقال تعالى: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ *} [الحشر: ٢١] .

إلى غير ذلك من الايات ، وعلى هذا المنهج الكريم سار النَّبيُّ (ص) ، فاستكثر من ضرب الأمثال ، فقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «حفظت عن رسول الله (ص) ألف مثلٍ»[(٧١٥)].

وقد أُلِّفت كتبٌ متعدِّدةٌ في الأمثال في الحديث النَّبويِّ؛ من أقدمها كتاب: (أمثال الحديث)، للقاضي أبي محمَّد الحسن بن عبد الرَّحمن بن خلاَّد الرَّامَهُرْمُزِيِّ ، (ت ٣٦٠هـ)[(٧١٦)].

٥ . طرح المسائل:

إنَّ طرح السُّؤال من الوسائل التربويَّة المهمَّة في ربط التَّواصل القويِّ بين السَّائل والمسؤول ، وفتح ذهن المسؤول ، وتركيز اهتمامه على الإجابة ، وإحداث حالة من النَّشاط الذِّهنيِّ الكامل؛ ولذلك استخدم النَّبيُّ (ص) السُّؤال في صورٍ متعدِّدةٍ لتعليم الصَّحابة؛ ممَّا كان له كبير الأثر في حسن فهمهم ، وتمام حفظهم ، فأحياناً يوجِّه النَّبيُّ (ص) السُّؤال لمجرد الإثارة ، والتَّشويق ، ولفت الانتباه ، ويكون السُّؤال عندئذٍ بصيغة التَّنبيه (ألا) غالباً ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ (ص) قال: «ألا أدلُّكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدَّرجات؟» قالوا: بلى يا رسولَ الله! قال: «إسباغُ الوضوء على المكاره ، وكَثْرَةُ الخُطَا إلى المساجد ، وانتظارُ الصَّلاة بعد الصَّلاة ، فذلكم الرِّباط» [مسلم (٢٥١) ومالك في الموطأ (١/١٦١) والترمذي (٥١) والنسائي (١/٨٩) وابن ماجه (٤٢٨)] .

وأحياناً يسألهم النَّبيُّ (ص) عمَّا يعلم: أنَّهم لا علم لهم به ، وأنَّهم سيكلُون علمه إلى الله ، ورسوله؛ وإنَّما يقصد إثارة انتباههم للموضوع ، ولفت أنظارهم إليه[(٧١٧)] ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله (ص) قال: «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلسُ فينا من لا درهم له ، ولا متاعَ. فقال: «إنَّ المفلس من أمَّتي ، من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ ، وصيامٍ ، وزكاةٍ ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دَمَ هذا ، وضرب هذا ، فيُعطَى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناتُه قبل أن يُقضى ما عليه؛ أُخِذَ من خطاياهم ، فطُرِحَتْ عليه ، ثمَّ طُرِح في النار» [مسلم (٢٥٨١) والترمذي (٢٤١٨)] .

وأحياناً يسأل ، فيحسن أحد الصَّحابة الإجابة ، فيثني عليه ، ويمدحه تشجيعاً له ، وتحفيزاً لغيره ، كما فعل مع أُبَيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله (ص) : «يا أبا الْمُنْذِرِ! أتدري أيُّ اية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله ورسولُه أعلم! قال: «يا أبا الْمُنْذر! أتدري أيُّ ايةٍ من كتاب الله معك أعظمُ؟» قال: قلت: {اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥] ، قال: فضرب في صدري ، وقال: «والله! ليَهْنِك العِلْمُ[(٧١٨)] أبا المْنْذِرِ!» [مسلم (٨١٠) وأبو داود (١٤٦٠) وأحمد (٥/١٤٢)].

فهذا الاستحسان ، والتَّشجيع يبعث المتعلِّم على الشُّعور بالارتياح ، والثِّقة بالنَّفس ، ويدعوه إلى طلب ، وحفظ المزيد من العلم ، وتحصيله[(٧١٩)] .

٦ ـ إلقاء المعاني الغريبة المثيرة للاهتمام ، والدَّاعية إلى الاستفسار ، والسُّؤال:

ومن ألطف ذلك ، وأجمله ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله (ص) مرَّ بالسُّوق ، داخلاً من بعض العَالية ، والنَّاس كُنَفَتَهُ[(٧٢٠)] ، فمرَّ بجَدْيٍ أسَكَّ[(٧٢١)] ميتٍ ، فتناوله ، فأخذ بأذنه ، ثمَّ قال: «أيكم يحبُّ: أنَّ هذا له بدرهم؟» ، فقالوا: ما نحبُّ: أنَّه لنا بشيءٍ ، وما نصنع به؟ قال: «أتحبُّون: أنَّه لكم؟» قالوا: والله لو كان حيّاً كان عيباً فيه؛ لأنه أسَكُّ ، فكيف ، وهو ميتٌ؟! فقال: «فو الله! للدُّنيا أهونُ على الله من هذا عليكم» [مسلم (٢٩٥٧)] .

٧ ـ استخدام الوسائل التوضيحيَّة:

كان النَّبيُّ (ص) يستخدم ما يسمَّى اليوم بالوسائل التَّوضيحية؛ لتقرير ، وتأكيد المعنى في نفوس وعقول السَّامعين ، وشغل كلِّ حواسِّهم بالموضوع ، وتركيز انتباههم فيه ، ممَّا يساعد على تمام وعيه ، وحسن حفظه بكلِّ ملابساته؛ ومن هذه الوسائل:

أ ـ التعبير بحركة اليد: كتشبيكه (ص) بين أصابعه ، وهو يبيِّن طبيعة العلاقة بين المؤمن وأخيه ، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ (ص) قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان؛ يشدُّ بعضه بعضاً» ، وشبَّك بين أصابعه [البخاري (٢٤٤٦) ومسلم (٢٥٨٥)] .

ب ـ التعبير بالرَّسم: فكان (ص) يخطُّ على الأرض خطوطاً توضيحيَّة، تسترعي نظر الصَّحابة، ثمَّ يأخذ في شرح مفردات ذلك التَّخطيط ، وبيان المقصود منه ، فعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: خطَّ رسول الله (ص) خطّاً بيده ، ثمَّ قال: «هذا سبيلُ الله مستقيماً»، ثمَّ خطَّ خطوطاً عن يمينه، وعن شماله، ثمَّ قال: «وهذه سُبُلٌ ـ قال يزيد: متفرِّقةٌ ـ على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه»، ثمَّ قرأ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *} [الأنعام: ١٥٣] [أحمد (١/٤٣٥) والطيالسي (٢٤٤) والدارمي (٢٠٨) وابن حبان (٦ و٧)] .

ج ـ التَّعبير برفع ، وإظهار الشَّيء موضع الحديث ، كما فعل (ص) عند الحديث عن حكم لبس الحرير ، والذَّهب ، فعن عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: إنَّ نبيَّ الله (ص) أخذ حريراً ، فجعله في يمينه ، وأخذ ذهباً ، فجعله في شماله ، ثمَّ قال: «إنَّ هذين حرامٌ على ذكور أمَّتي»

[أبو داود (٤٠٥٧) والنسائي (١٦٠/٨)] ، وزاد في رواية: «حلٌّ لإناثهم» [المصدران السابقان] ، فجمع النَّبيُّ (ص) بين القول ، وبين رفع الذَّهب ، والحرير ، وإظهارهما ، حتَّى يجمع لهم السَّماع ، والمشاهدة ، فيكون ذلك أوضحَ ، وأعونَ على الحفظ.

د . التَّعليم العمليُّ بفعل الشَّيء أمام النَّاس ، كما فعل عندما صَعِدَ (ص) المنبرَ ، فصلَّى بحيث يراه النَّاس أجمعون ، فعن سهل بن سعدٍ السَّاعديِّ رضي الله عنه قال: رأيت رسولَ الله (ص) قام على المنبر ، فاستقبل القبلة ، وكبَّر ، وقام النَّاس خلفه ، فقرأ وركع ، وركع النَّاس خلفه ، ثمَّ رفع رأسه ، ثمَّ رجع القَهْقَرى[(٧٢٢)] ، فسجد على الأرض ، ثمَّ عاد إلى المنبر ، ثمَّ قرأ ، ثمَّ ركع ، ثمَّ رفع رأسه ، ثمَّ رجع القَهْقَرى ، فسجد على الأرض ، ثمَّ عاد إلى المنبر ، ثمَّ قرأ ، ثمَّ ركع ، ثمَّ رفع رأسه ، ثمَّ رجع القَهْقَرَى ، حتَّى سجد بالأرض ، فلمَّا فرغ؛ أقبل على الناس ، فقال: «أيُّها النَّاسُ! إنَّما صنعت هذا لِتَأْتَمُّوا بي ، ولَتَعلَّموا[(٧٢٣)] صلاتي» [البخاري (٣٧٧)] .

٨ . استعمال العبارات اللَّطيفة ، والرَّقيقة:

إنَّ استعمال لطيف الخطاب ، ورقيق العبارات يؤلِّف القلوب ، ويستميلها إلى الحقِّ ، ويدفع المستمعين إلى الوعي ، والحفظ ، فقد كان (ص) يمهِّد لكلامه وتوجيهه بعبارةٍ لطيفةٍ رقيقةٍ ، وبخاصَّةٍ إذا كان بصدد تعليمهم ما قد يُسْتَحيا من ذكره ، كما فعل عند تعليمهم اداب الجلوس لقضاء الحاجة؛ إذ قدَّم لذلك بأنه مثل الوالد للمؤمنين ، يُعلِّمهم؛ شفقةً بهم[(٧٢٤)] ، فقد قال (ص) : «إنَّما أنا لكم بمنزلة الوالد أُعَلِّمكم ، فإذا أتى أحدكم الغائط؛ فلا يستقبل القبلة ، ولا يستدبرها ، ولا يَسْتَطِبْ بيمينه» [أبو داود (٨)] .

لقد راعى المعلِّم الأوَّل (ص) جملةً من المبادأى التَّربويَّة الكريمة؛ كانت غايةً في السُّموِّ الخُلُقيِّ ، والكمال العقليِّ ، وذلك في تعليقه على ما صدر من بعض الصَّحابة، جعلت التوجيه يستقرُّ في قلوبهم ، وبقي ماثلاً أمام بصائرهم؛ لما ارتبط به من معانٍ تربويةٍ كريمةٍ[(٧٢٥)] ، وهذه بعض المبادأى الرَّفيعة الَّتي استعملها النَّبيُّ (ص) :

أ . تشجيع المحسن ، والثناء عليه:

ليزداد نشاطاً وإقبالاً على العلم ، والعمل؛ مثلما فعل مع أبي موسى الأشعريِّ . رضي الله عنه . حين أثنى على قراءته ، وحسن صوته بالقران الكريم. فعن أبي موسى . رضي الله عنه .:

أن النبي (ص) قال له: «لو رَأَيْتَني وأنا أستمع لقراءتك البارحة! لقد أُوتيتَ مِزْماراً من مَزَامِيرِ ال داود» [البخاري (٥٠٤٨) ومسلم (٧٩٣)] .

ب ـ الإشفاق على المخطأى ، وعدم تعنيفه:

كان صلوات الله وسلامه عليه يقدِّر ظروف النَّاس ، ويراعي أحوالهم ، ويعذرهم بجهلهم ، ويتلطَّف في تصحيح أخطائهم ، ويترفَّق في تعليمهم الصَّواب ، ولا شكَّ أنَّ ذلك يملأ قلب المنصوح حبّاً للرِّسالة ، وصاحبها ، وحرصاً على حفظ الواقعة ، والتَّوجيه ، وتبليغهما ، كما يجعل قلوب الحاضرين المعجبة بهذا التَّصرُّف ، والتَّوجيه الرَّقيق مهيَّأةً لحفظ الواقعة بملابساتها كافَّةً[(٧٢٦)]؛ ومن ذلك ما رواه معاوية بن الحكم السُّلميُّ رضي الله عنه قال: «بَيْنَا أنا أصلي مع رسول الله (ص) ؛ إذ عَطَس رجلٌ من القوم ، فقلت: يرحمُك الله! فرماني القومُ بأبصارهم ، فقلتُ: واثُكْلَ أُمِّيَاهْ![(٧٢٧)] ما شأنُكم تنظرون إليَّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلمَّا رأيتهم يُصَمِّتُونَني ، لكنِّي سكتُّ ، فلما صلَّى رسول الله (ص) ، فبأبي هو ، وأمِّي! ما رأيتُ معلِّماً قبله ، ولا بعده أحسنَ تعليماً منه ، فو الله! ما كَهَرَني[(٧٢٨)] ، ولا ضربني ، ولا شتمني ، قال: «إن هذه الصَّلاة لا يَصْلُح فيها شيءٌ من كلام النَّاس؛ إنَّما هو التَّسبيح ، والتَّكبير ، وقراءة القران» [مسلم (٥٣٧) وأبو داود (٩٣٠ و٩٣١) والنسائي (١٤/٣ ـ ١٨) وأحمد (٤٤٧/٥)] .

فانظر ـ رحمك الله! ـ إلى هذا الرِّفق البالغ في التَّعليم! وانظر أثر هذا الرِّفق في نفس معاوية بن الحكم السُّلَمي رضي الله عنه ، وتأثُّره بحسن تعليمه (ص) !.

ج ـ عدم التَّصريح ، والاكتفاء بالتَّعريض فيما يُذمُّ:

لما في ذلك من مراعاة شعور المخطأى ، والتَّأكيد على عموم التَّوجيه؛ ومن ذلك ما حَدَثَ مع عبد الله بن اللُّتْبيَّة رضي الله عنه حين استعمله النَّبيُّ (ص) على صدقات بني سُلَيْم ، فقبل الهدايا من المتصدِّقين ، فعن أبي حُمَيْد السَّاعديِّ رضي الله عنه قال: استعمل رسولُ الله (ص) رجلاً على صدقات بني سُلَيْم ، يُدعى ابن اللُّتْبِيَّة ، فلمَّا جاء حاسبه (ص) ، فقال: هذا مالُكم ، وهذا هديةٌ. فقال رسول الله (ص) : «فَهَلاَّ جلستَ في بيت أبيك وأمِّك حتَّى تأتيك هديَّتُك؛ إن كنت صادقاً؟» ثمَّ خطبنا ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثمَّ قال: «أمَّا بعدُ ، فإنِّي أستعمل الرَّجل منكم على العمل ممَّا ولاَّني الله ، فيأتي ، فيقول: هذا مالُكم ، وهذا هديةٌ أُهديت لي ، أفلا جلس في بيت أبيه وأمِّه حتَّى تأتيه هديَّتُه؟ والله! لا يأخذ أحدٌ منكم شيئاً بغير حقِّه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة ، فلأعرفنَّ

أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً له رُغَاءٌ ، أو بقرةً لها خُوارٌ ، أو شاةً تَيْعَرُ»[(٧٢٩)] ثُمَّ رفع يديه؛ حتَّى رُئِيَ بياض إبطيه يقول: «اللَّهمَّ! هل بلَّغتُ؟ بَصْرَ عيني ، وسَمْعَ أذني» [البخاري (٦٩٧٩) ومسلم (٢٧/١٨٣٢)] .

د ـ الغضب ، والتَّعنيف؛ متى كان لذلك دواعٍ مهمَّة:

وذلك كأن يحدث خطأٌ شرعيٌّ من أشخاصٍ لهم حيثيَّةٌ خاصَّةٌ ، أو تَجَاوَزَ الخطأُ حدود الفَرديَّة ، والجزئيَّة ، وأخذ يمثِّل بداية فتنةٍ ، أو انحرافٍ عن المنهج؛ على أنَّ هذا الغضب يكون غضباً توجيهيّاً ، من غير إسفافٍ ، ولا إسرافٍ؛ بل على قدر الحاجة؛ ومن ذلك غضبه (ص) حين أتاه عمر؛ ومعه نسخةٌ من التَّوراة؛ ليقرأها عليه (ص) ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أتى رسول الله (ص) بنسخةٍ من التَّوراة ، فقال: يا رسولَ الله! هذه نسخةٌ من التَّوراة. فسكت ، فجعل يقرأ ووجهُ رسول الله (ص) يتغيَّر ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ثكلتك الثَّواكلُ! ما ترى بوجه رسول الله (ص) ؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله (ص) ، فقال: أعوذ بالله من غضب الله ، وغضب رسوله ، رضينا بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمَّدٍ نبيّاً. فقال رسول الله (ص) : «والذي نفس محمَّدٍ بيده! لو بدا لكم موسى ، فاتبعتموه ، وتركتموني؛ لضَلَلْتُم عن سواء السَّبيل ، ولو كان حيّاً ، وأدرك نبوَّتي؛ لاتَّبعني» [أحمد (٣/٣٣٨ و٣٨٧) والبزار (١٢٤)] .

ومن ذلك غضبه (ص) من تطويل بعض أصحابه الصَّلاة ، وهم أئمَّةٌ بعد أن كان (ص) قد نهى عن ذلك؛ لما فيه من تعسيرٍ ، ومشقَّةٍ ، ولما يؤدِّي إليه من فتنةٍ لبعض الضُّعفاء ، والمعذورين ، وذوي الأشغال ، فعن أبي مسعودٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه ، قال: قال رجلٌ: يا رسولَ الله! لا أكاد أُدركُ الصَّلاةَ ممَّا يُطولُ بنا فلانٌ. فما رأيت النَّبيَّ (ص) في موعظةٍ أشدَّ غضباً من يومئذٍ ، فقال: «أيُّها النَّاسُ! إنَّكم مُنَفِّرون ، فمن صلَّى بالنَّاس فلْيُخفِّف؛ فإنَّ فيهمُ المريض ، والضَّعيفَ ، وذا الحاجة» [البخاري (٩٠) ومسلم (٤٦٦)] .

ومن ذلك غضبه من اختصام الصَّحابة ، وتجادلهم في القَدرِ ، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله (ص) على أصحابه؛ وهم يختصمون في القدر ، فكأنما يُفقأُ في وجهه حبُّ الرُّمَّان من الغضب ، فقال: «بهذا أُمرتم؟ أو لهذا خلقتم؟ تضربون القران بعضه ببعضٍ؟ بهذا هلكت الأمم قبلكم» [ابن ماجه (٨٥)] .

ومن ذلك غضبه (ص) حين يخالف الصَّحابة أمرَه ، ويُصرُّون على المغالاة في الدِّين ، والتَّشديد على أنفسهم ، ظناً منهم: أنَّ ذلك أفضلُ ممَّا أُمروا به ، وأقرب إلى الله ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله (ص) إذا أمرهم؛ أمرهم من الأعمال بما يُطِيقون ، قالوا: إنَّا
لسنا كهيئتك يا رسولَ الله! إنَّ الله قد غفر لك ما تقدَّم من ذنبك ، وما تأخَّر ، فيغضبُ ، حتَّى يُعْرفَ في وجهه الغضبُ ، ثمَّ يقول: «إنَّ أتقاكُم وأعلمُكم بالله أنا» [البخاري (٢٠)] .

ولم يكن غضب النَّبيِّ (ص) في تلك المواقف إلا عملاً توجيهيّاً ، وتعليميّاً؛ تحريضاً للصَّحابة على التَّيقُّظ ، وتحذيراً لهم من الوقوع في هذه الأخطاء ، فالواعظ «من شأنه أن يكون في صورة الغضبان؛ لأنَّ مقامه يقتضي تكلُّف الانزعاج؛ لأنَّه في صورة المنْذِر ، وكذا المعلِّم إذا أنكر على مَنْ يتعلَّم منه سوءَ فهمٍ ونحوه؛ لأنَّه قد يكون أدعى للقبول منه ، وليس ذلك لازماً في حقِّ كلِّ أحدٍ؛ بل يختلف باختلاف أحوال المتعلِّمين»[(٧٣٠)].

هـ انتهاز بعض الوقائع لبيان وتعليم معانٍ مناسبة:

كان (ص) تحدث أمامه أحداثٌ معيَّنةٌ ، فينتهز مشابهة ما يرى لمعنًى معينٍ يريد تعليمه للصَّحابة ، ومشاكلته لتوجيهٍ مناسبٍ يريد بثَّه لأصحابه ، وعندئذٍ يكون هذا المعنى ، وذلك التَّوجيه أوضح ما يكون في نفوسهم رضي الله عنهم؛ ومن ذلك ما رواه عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه قال: قَدِمَ على النَّبيِّ (ص) سَبْيٌ[(٧٣١)] ، فإذا امرأةٌ من السَّبي تَحْلُبُ ثَدْيَها[(٧٣٢)] تسقي[(٧٣٣)] ، إذا وجدت صبيّاً في السَّبي؛ أخذته فألصقته ببطنها ، وأرضعته ، فقال النَّبيُّ (ص) : «أَتُرَوْن[(٧٣٤)] هذه طارحةً ولدها في النَّار؟» قلنا: لا؛ وهي تقدر على ألا تَطرَحَهُ[(٧٣٥)] ، فقال: «للهُ أرحمُ بعباده من هذه بولدها!» [البخاري (٥٩٩٩) ومسلم (٢٧٥٤)] .

«فانتهز (ص) المناسبة القائمة بين يديه مع أصحابه ، والمشهود فيها حنان الأمِّ الفاقدة رضيعها؛ إذ وجدته ، وضرب بها المشاكلةَ والمشابهةَ برحمة الله تعالى؛ ليُعرِّف النَّاسَ رحمةَ ربِّ النَّاس بعباده»[(٧٣٦)].

ثانياً: من أخلاق الصَّحابة رضي الله عنهم عند سماعهم للنَّبيِّ (ص):

حَرَصَ الصَّحابة رضي الله عنهم على الالتزام باداب ومبادأى مهمَّة ، كان لها عظيمُ الأثر في
حسن الحفظ ، وتمام الضَّبط ، وقدرتهم في تبليغ دعوة الله للنَّاس؛ ومن هذه الاداب ، والأخلاق:

١ . الإنصات التَّامُّ ، وحسن الاستماع:

فقد كان رسولُ الله (ص) أجلَّ في نفوس الصَّحابة ، وأعظم من أن يَلْغَوْا إذا تحدَّث ، أو ينشغلوا عنه إذا تكلَّم ، أو يرفعوا أصواتهم بحضرته؛ وإنَّما كانوا يلقون إليه أسماعهم ، ويشهدون عقولهم ، وقلوبهم ، ويحفزون ذاكرتهم ، فعن عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه في الحديث عن سيرته (ص) في جلسائه ، قال: «... وإذا تكلَّم؛ أطْرَقَ جلساؤه ، كأنَّما على رؤوسهم الطَّير ، فإذا سكت؛ تكلَّموا....» [الشمائل للترمذي (٣٥٢)] .

قال الشَّيخ عبد الفتاح أبو غدَّة ـ رحمه الله ـ: «أصله: أنَّ الغراب يقع على رأس البعير ، فيلقط منه القُراد ، فلا يتحرَّك البعير حينئذٍ؛ لئلا ينفر عنه الغراب ويبقى القُراد في رأس البعير فيؤلمه ، فقيل منه: كأن على رؤوسهم الطير»[(٧٣٧)].

وأيّاً ما كان أصل المثل ، فهو يدلُّ على السُّكون التَّامِّ ، والإنصات الكامل ، هيبةً لرسول الله (ص) ، وتعظيماً له ، وإجلالاً لحديثه[(٧٣٨)].

٢ ـ ترك التَّنازع وعدم مقاطعة المتحدِّث حتَّى يفرغ:

وهذا من تمام الأدب ، المفضي إلى ارتياح جميع الجالسين ، وإقبال بعضهم على بعضٍ ، والمعين على سهولة الفهم ، والتَّعلم؛ ففي حديث عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه السَّابق في سيرته (ص) في جلسائه ، قال: «لا يتنازعون عنده الحديث ، من تكلَّم عنده أنصتوا له حتَّى يفرغ ، حديثهم عنده حديث أوَّلهم...» [سبق تخريجه] ، أي: أنَّ من بدأ منهم الحديث والكلام ، سكتوا حتَّى يفرغ أوَّلاً من حديثه ، ولم يقاطعوه ، أو ينازعوه ، وبذلك يبقى المجلس على وقاره ، وهيبته ، ولا تختلط فيه الأصوات ، ولا يحصل أدنى تشويش[(٧٣٩)].

٣ ـ مراجعته (ص) فيما أشكل عليهم حتَّى يتبيَّن لهم:

فمع كمال هيبتهم لرسول الله (ص) ، وشدَّة تعظيمهم له ، لم يكونوا يتردَّدون في مراجعته (ص) ؛ لاستيضاح ما أشكل عليهم فهمُه ، حتَّى يسهل حفظه بعد ذلك ، ولاشك أنَّ هذه المراجعة تعين على تمام الفهم ، وحضور الوعي؛ فمن ذلك حديث حفصة رضي الله عنها قالت: قال النَّبيُّ (ص) : «إنِّي لأرجو ألا يدخلَ النَّار أحدٌ إن شاء الله ـ ممَّن شهد بدراً، والحديبية»، قالت:

قلت: يا رسول الله! أليس قد قال الله: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا *} [مريم: ٧١] ، قال: «ألم تسمعيه يقول: {ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا *} [مريم: ٧٢]» [أحمد (٦/٢٨٥) وابن ماجه (٢٨١)] .

ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله ، عن عبد الله بن أُنَيْسَ رضي الله عنهم؛ الَّذي رحل جابرٌ إليه فيه ، قال ابن أنيس: سمعت رسول الله (ص) يقول: «يحشر الله العباد ـ أو قال: النَّاس ـ عُراةً غُرْلاً[(٧٤٠)] بُهْماً» قال: قلنا: ما بُهماً؟ قال: «ليس معهم شيءٌ ، ثمَّ يناديهم بصوتٍ يسمعه مَنْ بَعُد ، كما يسمعه مَنْ قَرُب: أنا الملك ، أنا الدَّيَّان ، لا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنَّة أن يدخل الجنَّة ، ولا ينبغي لأحدٍ من أهل النار أن يدخل النَّار ، وعنده مظلمةٌ ، حتَّى أُقِصَّه[(٧٤١)] منه ، حتى اللَّطمة» ، قال: قلنا: كيف ذا ، وإنَّما نأتي الله غُرْلاً بُهماً؟ قال: «بالحسنات والسَّيِّئات» قال: وتلا رسولُ الله (ص) : {الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ *} [غافر: ١٧] [البخاري في الأدب المفرد (٩٧٠) وأحمد (٣/٤٩٥) والحاكم (٢/٤٣٧ ـ ٤٣٨) ومجمع الزوائد (١/١٣٣)] .

وهكذا استفهم الصَّحابة عمَّا خفي عليهم ، واستوضحوا ما أشكل عليهم فهمه ، وهذه المناقشة والمراجعة كان لها أثرٌ كبيرٌ في الفهم ، والوعي ، والحفظ[(٧٤٢)].

٤ ـ مذاكرة الحديث:

كان الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ إذا سمعوا شيئاً من النَّبيِّ (ص) ، وحملوا عنه علماً؛ جلسوا ، فتذاكروه فيما بينهم ، وتراجعوه على ألسنتهم؛ تأكيداً لحفظه ، وتقويةً لاستيعابه ، وضبطه ، والعمل به ، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: «كنَّا نكون عند النَّبي (ص) ، فنسمع منه الحديث ، فإذا قمنا؛ تذاكرناه فيما بيننا ، حتى نحفظه»[(٧٤٣)]. وقد بقي مبدأ المذاكرة قائماً بين الصَّحابة حتَّى بعد وفاته (ص) ؛ فعن أبي نضرة المنذر بن مالك بن قطعة ـ رحمه الله ـ! قال: «كان أصحاب رسول الله (ص) إذا اجتمعوا؛ تذاكروا العلم ، وقرؤوا سُوَرَهُ»[(٧٤٤)].

٥ ـ السُّؤال بقصد العلم ، والعمل[(٧٤٥)]:

كانت أسئلة الصَّحابة بقصد العلم ، والعمل ، لا للعبث ، واللعب ، فكانت أسئلتهم مشفوعةً بهذا القصد؛ لِمَا علموا من كراهة النَّبيِّ (ص) للمسائل العبثيَّة الَّتي لا يُحتاج إليها ، ولِمَا سمعوا من تحذيره (ص) من كثرة السُّؤال ، فعن سهل بن سعدٍ السَّاعديِّ رضي الله عنه قال: «كَرِه رسولُ الله (ص) المسائلَ ، وعابَها»[(٧٤٦)].

قال النَّوويُّ: «المراد: كراهة المسائل الَّتي لا يُحْتاج إليها ، لاسيَّما ما كان فيه هتك ستر مسلمٍ ، أو إشاعةُ فاحشةٍ ، أو شناعةٍ على مسلمٍ ، أو مسلمةٍ ، قال العلماء: أمَّا إذا كانت المسائل ممَّا يُحتاج إليه في أمور الدِّين ، وقد وقع ، فلا كراهة فيها»[(٧٤٧)].

٦ ـ ترك التنطُّع ، وعدم السُّؤال عن المتشابه:

وذلك تطبيقاً لتحذير النَّبيِّ (ص) من ذلك ، وتشديده على المتنطِّعين ، ونهيه عن مجالستهم؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله (ص) هذه الاية: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ *} [آل عمران: ٧] ، قالت: قال رسول الله (ص) : «فإذا رأيت الَّذين يَتَّبِعون ما تشابه منه؛ فأولئك الَّذين سَمَّى الله؛ فاحذروهم!» [البخاري (٤٥٤٧) ومسلم (٢٦٦٥)] .

٧ ـ ترك السُّؤال عمَّا سكت عنه الشَّارع:

فقد التزموا ـ رضوان الله عليهم ـ بهذا الأدب ، فلم يتكلَّفوا السُّؤال عمَّا سكت عنه الشَّارع؛ حتَّى لا يؤدِّي السُّؤال عن ذلك إلى إيجاب ما لم يوجبه الشَّرع ، أو تحريم ما لم يحرِّمه؛ فيكون السُّؤال قد أفضى إلى التَّضييق على المسلمين ، كما قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ *قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ *} [المائدة: ١٠١ ـ ١٠٢] .

وحذَّر الرَّسول (ص) من مثل ذلك؛ فعن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «إنَّ أعظم المسلمين جُرْماً من سأل عن شيءٍ لم يُحَرَّمْ ، فحُرِّمَ من أجل مسألته» [البخاري (٧٢٨٩) ومسلم (٢٣٥٨)] .

٨ ـ اغتنام خلوة رسول الله (ص) ، ومراعاة وقت سؤاله:

كان الصَّحابة رضي الله عنهم يراعون الوقت المناسب للسُّؤال؛ ومن ذلك اغتنام ساعة خلوته (ص) ؛ حتَّى لا يكون في السؤال إثقالٌ ، أو إرهاقٌ أو نحو ذلك؛ فعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: «كان النَّبيُّ (ص) إذا صلَّى الفجر؛ انحرفنا إليه ، فمنَّا من يسأله عن القران ، ومنَّا من يسأله عن الفرائض ، ومنَّا من يسأله عن الرُّؤيا» [مجمع الزوائد: (١/١٥٩)] .

٩ ـ مراعاة أحواله (ص) وعدم الإلحاح عليه بالسُّؤال:

وبخاصَّةٍ ، بعد أن نُهُوا عن السُّؤال؛ ولذلك كانوا يدفعون الأعراب لسؤاله (ص) ، ويتحيَّنون ، وينتظرون مجأي العقلاء منهم؛ ليسألوا رسول الله (ص) ، وهم يسمعون؛ فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: نُهِينا أن نسأل رسول الله (ص) عن شيءٍ ، فكان يُعجِبنا أن يجيء الرَّجلُ من أهل البادية

العاقلُ ، فيسأله ، ونحن نسمع ، فجاء رجلٌ من أهل البادية ، فقال: يا محمد! أتانا رسولك ، فزعم لنا أنَّك تزعم: أنَّ الله أرسلك. قال: «صدق».... الحديث [مسلم (٩٢) وأبو داود (٤٨٦) والترمذي (٦١٩) والنسائي (١٢١/٤ ـ ١٢٢) وأحمد (١٤٣/٣ و١٩٣)] .

وهكذا استمرَّ البناء التَّربويُّ في المجتمع الجديد من خلال المواقف العمليَّة الواضحة ، منسجماً مع غرس فريضة التعلُّم ، والتَّعليم بين أفراد المجتمع المسلم ، فكانت تلك التَّوجيهات تساهم في إعداد الفرد المسلم ، والأمَّة المسلمة ، والدَّولة المسلمة الَّتي أسَّسها رسولُ الله (ص) ، وهذا جزءٌ من كلٍّ، وغَيْضٌ من فَيْضٍ، وتذكيرٌ ، وتنبيهٌ لأهميَّة استمرار البناء التَّربويِّ ، والعلميِّ في الأمَّة ، حتَّى بعد قيام الدَّولة.

* * *

المبحث السَّادس

أحداثٌ وتشريعات

أولاً: معالجة الأزمة الاقتصاديَّة:

أدَّت هجرة المسلمين إلى المدينة ، إلى زيادة الأعباء الاقتصاديَّة الملقاة على عاتق الدَّولة النَّاشئة ، وشرع القائد الأعلى (ص) يَحُلُّ هذه الأزمة بطرقٍ عديدةٍ ، وأساليب متنوعةٍ ، فكان نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وبناء الصُّفَّة التَّابعة للمسجد النَّبويِّ؛ لاستيعاب أكبر عددٍ ممكنٍ من فقراء المهاجرين ، واهتمَّ (ص) بدراسة الأوضاع الاقتصاديَّة في المدينة؛ فرأى: أنَّ القُوَّة الاقتصاديَّة بيد اليهود ، وأنَّهم يملكون السُّوق التِّجاريَّة في المدينة ، وأموالها ، ويتحكَّمون في الأسعار والسِّلع ، ويحتكرونها ، ويستغلُّون حاجة النَّاس ، فكان لابدَّ من بناء سوقٍ للمسلمين؛ لينافسوا اليهود على مصادر الثَّروة ، والاقتصاد في المدينة ، وتظهر فيها اداب الإسلام ، وأخلاقه الرَّفيعة في عالم التِّجارة ، فحدَّد (ص)

مكاناً للسُّوق في غرب المسجد النَّبوي ، وخَطَّه برجله ، وقال: «هذا سوقُكم ، فلا ينتقصنَّ ، ولا يضربنَّ عليه خراجٌ» [ابن ماجه (٢٢٣٣)] .

وقد قامت السُّوق في عهده (ص) رَحْبَةً واسعةً ، وقد حظي السُّوق باهتمام النَّبيِّ (ص) ، ورعايته ، فتعهَّده بالإشراف ، والمراقبة ، ووضع له ضوابطَ ، وسنَّ له اداباً ، وطهَّره من كثيرٍ من بُيُوع الجاهليَّة؛ المشتملة على الغَبْنِ ، والغَرَرِ[(٧٤٨)] ، والغشِّ ، والخداع ، كما عُنِي (ص) بحرِّيته ، وإتاحة الفرص المتكافئة فيها للبيع والشِّراء ، بين الجميع على السَّواء[(٧٤٩)].

وقد أرسى (ص) اداباً كثيرة ، وحرماتٍ عديدةً لسوق المدينة؛ لكي تُصان ولا تنتهك ، وتحفظ فلا تخدش ، ولا يستهان بها ، ولكي يصبح قدوةً لأسواق الأمَّة على مَرِّ الدُّهور ، وكَرِّ العصور ، وتوالي الأزمان ، فمن سيرته يمكننا أن نستنبط جملةً من الاداب الَّتي كان يأمر بها ،

أو ينهى عنها أثناء دخوله إلى السُّوق ، وإشرافه عليه ، ومتابعته سير المعاملات فيه ، فقد كان (ص) لا يرى منكراً إلا غيَّره ، وأزاله ، ولا معروفاً إلا أقرَّه ، ورغب في المواظبة عليه ، والالتزام به ، مستمدّاً كلَّ ذلك من توجيهات ، وتعليمات ربِّه سبحانه وتعالى ، قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى *} [النجم: ٣ ـ ٤] .

ومن هذه الاداب:

١ ـ يُسَنُّ في حقِّ الدَّاخل إلى السُّوق أن يذكر الله ـ تعالى ـ ابتداءً ، ويحمده ، ويثني عليه؛ وذلك لما ورد عنه (ص) : أنَّه قال: «مَنْ دخل السُّوق، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك، وله الحمد ، يحيي، ويميت ، وهو حيٌّ لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ؛ كتب الله له ألف حسنةٍ ، ومحا عنه ألف سيئةٍ ، ورفع له ألف درجةٍ ، وبنى له بيتاً في الجنة» [الترمذي (٣٤٢٨) وابن ماجه (٢٢٣٥) والحاكم (١/٥٣٨)] .

«وإنَّما خصَّ السُّوق بالذِّكر؛ لأنَّه مكان الغفلة عن ذكر الله ، والاشتغال بالتِّجارة ، فهو في موضع سلطنة الشَّيطان ، ومجمع جنوده ، فالذِّكر هنا يحارب الشَّيطان ، ويهزم جنوده ؛ فمن قال ذلك فهو خليقٌ بما ذُكر من الثَّواب»[(٧٥٠)].

٢ ـ يُكره لمن دخل السُّوق أن يرفع صوته بالخصام واللَّجاج؛ فقد ورد في صفته (ص) : أنَّه: «ليس بفظٍّ ، ولا غليظٍ ، ولا سَخَّابٍ[(٧٥١)] في الأسواق ، ولا يدفع بالسَّيئةِ السَّيئةَ ، ولكن يعفو ، ويغفرُ»

[البخاري (٢١٢٥)] . فالصَّخَب مذمومٌ بذاته ، فكيف إذا كان في الأسواق؛ الَّتي هي مجمع النَّاس من كلِّ جنسٍ؟![(٧٥٢)].

٣ . ينبغي المحافظة على نظافة الأسواق ، والابتعاد عن تلويثها بالأقذار ، والأوساخ؛ لكي لا يُؤْذَى المسلمون في حركة سيرهم ، ولا بالرَّوائح الكريهة ، وقد حثَّ (ص) على النَّظافة ، ونهى عن عدمها؛ وخاصَّةً في طرقات النَّاس ، وأسواقهم؛ وذلك لما فيها من الضَّرر ، قال (ص) : «اتَّقوا اللَّعَّانَيْنِ»[(٧٥٣)] قالوا: وما اللَّعَّانَانِ يا رسولَ الله؟! قال: «الَّذي يَتَخَلَّى في طريق النَّاس ، أو في ظِلِّهم» [مسلم (٢٦٩) وأبو داود (٢٥)] .

٤ . الاحتراز في حمل السِّلاح لمن دخل السُّوق، ومعه سلاحٌ؛ فقد ثبت عنه (ص) : أنَّه قال: «إذا مرَّ أحدكم في مسجدنا ، أو في سوقنا ، ومعه نَبْلٌ[(٧٥٤)] فَلْيُمْسِكْ على نِصَالها[(٧٥٥)] . أو قال: فليقبضْ بكفِّه . أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيءٍ» [البخاري (٧٠٧٥) ومسلم (٢٦١٥)] ويقاس عليه الأسلحة ، مع ما فيها من خطرٍ محقَّقٍ عند أدنى ملامسةٍ لها[(٧٥٦)].

٥ . الأمر بالوفاء بالعقود ، والعهود ، وسائر الالتزامات ، والتَّحذير من نقضهما ، أو الغدر فيهما، قال تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ *} [النحل: ٩١] .

٦ . السُّهولة ، واليسر ، والمسامحة في البيع ، والشِّراء ، ونحوهما من صنوف التِّجارة ، قال (ص) : «رَحِمَ اللهُ عبداً سَمْحاً إذا باع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا اقتضى» [البخاري (٢٠٧٦) والترمذي (١٣٢٠) وابن ماجه (٢٢٠٣)] .

٧ . الصِّدقُ ، والبيانُ ، وعدم الكتمانِ من أهمِّ الاداب الَّتي يجب أن تسري بين النَّاس في معاملاتهم؛ فقد أثنى (ص) على التَّاجر الصَّادق في معاملته ، الأمين في أخذه ، وعطائه ، وبيَّن: أنَّه يُحْشر يوم القيامة مع النَّبيِّين ، والصِّديقين ، والشُّهداء ، وحَسُنَ أولئك رفيقاً ، قال (ص) : «التَّاجر الصَّدوق الأمين ، مع النَّبيِّين ، والصِّدِّيقين ، والشُّهداء» [الترمذي (١٢٠٩)] وفي لفظٍ: «يوم القيامة» [ابن ماجه (٢١٣٩)] .

٨ . وجوب الابتعاد عن الأَيْمان الكاذبة ، فقد قال (ص) : «الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ[(٧٥٧)] للسِّلْعَةِ ، مَمْحَقَةٌ للرِّبْحِ» [البخاري (٢٠٨٧) ومسلم (١٦٠٦)] ، وقال (ص) : «إيَّاكم وكَثرةَ الحَلِفِ في البيع! فإنَّه يُنْفِقُ ، ثمَّ يَمْحَقُ» [مسلم (١٦٠٧) والنسائي (٢٤٦/٧) وابن ماجه (٢٢٠٩)] . «فالحالف يروِّج

سلعته ، وينفقها ، لكن هذا الرَّواج ، وذلك الإنفاق موضعٌ لنقصان البركة ، ومظنَّةٌ له في المال ، بأن يسلط الله عليه وجوهاً يتلف فيها؛ إمَّا سرقاً ، أو حرقاً ، أو غرقاً ، أو غصباً ، أو نهباً ، أو عوارض يُنفَق فيها من أمراضٍ وغيرها»[(٧٥٨)].

هذه بعض الاداب والتَّوجيهات النَّبويَّة ، تتعلَّق باداب التَّعامل في السُّوق الإسلاميّ؛ ممَّا كان لها الأثر في تعمير أسواق المسلمين ، وضعف أسواق اليهود؛ وبذلك استطاع المسلمون أن

يسيطروا على الاقتصاد في المدينة ، ويتحكَّموا فيه ، وهكذا قهروا اليهود في أدقِّ اختصاصاتهم[(٧٥٩)].

ولقد تطوَّرت تلك التعاليم ، والاداب مع توسُّع الدَّولة ، ونزول التَّشريعات ، وأصبح للتِّجارة علمٌ ، وفقهٌ ، ومبادأى ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: «لا يبيعُ في سوقنا إلا مَنْ تفقَّه في الدِّين»[(٧٦٠)].

إنَّ للأسواق في الإسلام مكانةً عاليةً ، ومنزلةً ساميةً؛ وذلك نظراً لأهمِّيتها الماليَّة والاقتصاديَّة في حياة النَّاس؛ حيث إنَّها موضع التَّعامل ، والمبادلات فيما بينهم ، وعن طريقه يحصل كلُّ فردٍ على أموره المعيشية ، وحاجته الضَّروريَّة ، ومستلزماته الخاصَّة والعامَّة ، ولذلك حظي السُّوق الإسلاميُّ بالتَّوجيهات النَّبويَّة[(٧٦١)].

ولقد تحدَّث القران الكريم عن افةٍ اقتصاديةٍ ، واجتماعيَّةٍ خطيرةٍ ، أثَّرت على دين النَّاس ، ودنياهم ، ألا وهي نقص الميزان ، والمكيال ، فقد كان هذا العمل يخالف ، ويناقض النَّهج الَّذي أنزله الله من عنده؛ ليتعامل الناس بمقتضاه ، ذلك النَّهج هو العدل في كلِّ شيءٍ. قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ *} [الشورى: ١٧] والميزان: هو العدل[(٧٦٢)] ، والموازين ، والمكاييل الاتٌ لإقامة العدل؛ ولذا أمر الله بإيفائها ، ونهى عن نقصها.

قال تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *} [الأنعام: ١٥٢] ، وقال تعالى: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً *} [الإسراء: ٣٥] .

وتوعَّد اللهُ المطفِّفين بالويل ، فقال تعالى: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ *الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ *وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ *أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ *لِيَوِمٍ عَظِيمٍ *} [المطففين: ١ ـ ٥] .

فتعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم من قصَّة شعيبٍ: أنَّ نقص الميزان ، والمكيال تعطيلٌ للمنهج الإلهيِّ ، ومخالفةٌ للأوامر الرَّبَّانيَّة ، وتعرُّضٌ لسخط الجبَّار ، وعذابه في الدُّنيا ، والاخرة.

إنَّ هذا العمل له ضَرَرهُ على دنيا النَّاس؛ لأنَّه يجلب الشِّدَّة بدل الرَّخاء ، وغلاء الأسعار بدل رخصها ، ويؤدِّي إلى إضرارٍ بمعايش النَّاس؛ ولذلك حاربته الدَّولة الإسلاميَّة في المدينة[(٧٦٣)].

إنَّ نقص المكيال ، والميزان ، كان من الأسباب التي أدَّت إلى هلاك قوم شعيبٍ ، قال تعالى: {كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ *} [هود: ٩٥] .

كانت قصَّة شعيبٍ مع قومه من ضمن المنهاج النَّبويِّ في تربية النَّبيِّ (ص) لأصحابه؛ ولذلك فهموا: أنَّ الانحراف عن المنهج الرَّبانيِّ معناه الدَّمار ، والهلاك ، وأنَّ شموليَّة هذا الدِّين تدخل في شؤون حياتهم كافَّةً.

إنَّ المنهج الرَّبانيَّ ، عالج المشكلة الاقتصاديَّة عن طريق القصص القرانيِّ ، لكي يتَّعظ النَّاس، ويعتبروا بِمَنْ مضى من الأقوام ، ولم يترك الجانب التَّشريعيَّ التَّعبديَّ، الَّذي له أثرٌ في البناء التَّنظيميِّ التَّربويِّ ، فقد كان المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ يرعى هذه الأمَّة ، وينقل خطاها؛ لكي تكون مؤهَّلةً لحمل الأمانة ، وتبليغ الرِّسالة ، ولا فرق في وسط هذه الدَّولة بين الأمور الصَّغيرة ، والأمور الكبيرة؛ لأنَّها كلَّها تعمل لرفع بنائها ، ووقوفها شامخةً أمام الأعاصير الَّتي تحتمل مواجهتها؛ ومن هذه الشعائر التعبُّديَّة التي فُرِضت في السَّنتين الأوليين من الهجرة: الزَّكاة ، وزكاة الفطر ، والصِّيام ، ونلاحظ سنَّة التَّدرُّج في بناء المجتمع المسلم ، ومراعاته لواقع النَّاس ، والانتقال بهم نحو الأفضل؛ دون اعتسافٍ ، أو تعجيلٍ ، بل كلُّ شيءٍ في وقته[(٧٦٤)].

ثانياً: بعض التَّشريعات:

١ ـ تشريع فريضة الصِّيام:

في شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة فرض الله تعالى الصِّيامَ ، وجعله ركناً من أركان الإسلام ، كما فرضه على الأمم السَّابقة ، وفي ذلك تأكيدٌ على أهمِّيَّة هذه العبادة الجليلة ، ومكانتها. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *} [البقرة: ١٨٣] .

وامتدح الله سبحانه شهر الصِّيام ، واختصَّه من بين سائر الشُّهور؛ لإنزال القران العظيم ، فقال ـ عزَّ وجل ـ: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ

الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *} [البقرة: ١٨٥] .

وقد وضَّحت الاية الكريمة الأولى الثَّمرة العظمى الَّتي يحظى بها الصَّائمون المخلصون؛ ألاَ وهي بلوغ درجة التَّقوى: فالصِّيام بالنِّسبة للأمَّة {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *} ، مدرسةٌ فريدةٌ ، ودورةٌ تدريبيَّةٌ على طهارة النُّفوس؛ لكي تنخلع من افاتها ، وتتحلَّى بالفضائل ، وترتقي في مدارج التَّقوى ، والصَّلاح[(٧٦٥)].

ولأهمِّية الصِّيام في تربية المجتمع المسلم ، فقد رغَّب النَّبيُّ (ص) في أيَّامٍ للصِّيام، وحثَّ على صيامها ، ورغَّب في الأجر ، والمثوبة من الله تعالى؛ وبذلك أصبحت مدرسة الصيام مفتوحةً أبوابُها طِيلَةَ السَّنة؛ لكي يبادر المسلم إليها كلَّما أحسَّ بقسوةٍ في قلبه ، وحاجةٍ لترويض نفسه ، ورغبةٍ في المزيد من الأجر ، والفضل عند الله سبحانه ، وقد جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه: أنَّه قال: قال رسول الله (ص) : «من صَامَ يوماً في سبيل الله؛ بَعَّدَ اللهُ وَجْهَهُ عن النَّارِ سبعين خريفاً» [البخاري (٢٨٤٠) ومسلم (١١٥٣)] .

٢ ـ تشريع زكاة الفطر:

وفي رمضان من العام نفسه ، شرع الله ـ سبحانه وتعالى ـ زكاة الفطر ، وهي على كلِّ حُرٍّ أو عبدٍ ، ذكرٍ أو أنثى ، صغيرٍ أو كبيرٍ من المسلمين ، والحكمة من فرضية هذه الزَّكاة ، وإلزام المسلمين بها ظاهرةٌ وجليَّةٌ ، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «فرض رسول الله (ص) زكاة الفطر طُهْرَةً للصَّائم من اللَّغو والرَّفث ، وطُعْمةً للمساكين ، من أدَّاها قبل الصَّلاة فهي زكاةٌ مقبولةٌ ، ومن أداها بعد الصَّلاة فهي صدقةٌ من الصَّدقات» [أبو داود (١٦٠٩) وابن ماجه (١٨٢٧) والحاكم (١/٤٠٩)] ، ففي هذا الحديث النَّصُّ على أنَّ الحكمة مركَّبةٌ من أمرين[(٧٦٦)]:

أ ـ يتعلَّق بالصَّوم في شهر رمضان ، فإنَّ النُّفوس مجبولةٌ على الخطأ ، والتَّقصير ، والوقوع في لغو القول؛ الَّذي لا فائدة فيه ، أو فيه ضررٌ من الكلام الباطل ، ونحو ذلك ، ممَّا لا يسلم الإنسان منه غالباً ، فجاءت هذه الزَّكاة في ختام الشَّهر تطهيراً للصَّائم ممَّا خالط صومَه من ذلك.

ب ـ إغناء المحتاج في يوم العيد؛ الذي يعقب الفطر من رمضان ، فهذا يومٌ يسعد فيه المجتمع المسلم كلُّه ، فينبغي أن يعمَّ هذا السُّرور على الجميع ، فشُرِعت هذه الزَّكاة؛ لكفِّ هؤلاء عن ذُلِّ السُّؤال ، واستجداء النَّاس ، لذلك كانت خاصَّةً بالفقراء ، والمساكين ، لا تُعْطَى

لغيرهم ، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما المتقدِّم: «طعمةً للمساكين»؛ ولذلك نرى: أنَّ رسول الله (ص) لم يجعلها شيئاً كثيراً يعجز كثيرٌ من النَّاس عنه؛ بل جعل الواجب شيئاً قليلاً ، ممَّا يسهل على النَّاس ، ولا يشقُّ عليهم من غالب قوت البلد ، حتَّى يتمكَّن من أدائها كثيرٌ من المسلمين ، فيحصل الغَنَاءُ بذلك لهؤلاء المحتاجين ، فما أعظم هذا الدِّين![(٧٦٧)] ولهذه الزَّكاة أحكامٌ وتفصيلاتٌ تُطْلَب من كتب الفقه[(٧٦٨)].

٣ ـ صلاة العيد:

وفي هذه السَّنَةِ صلَّى النَّبيُّ (ص) صلاة العيد ، فكانت أوَّل صلاةٍ صلاَّها ، وخرج بالنَّاس إلى المصَلَّى؛ يهلِّلون الله ، ويكبِّرونه ، ويعظِّمونه؛ شكراً على ما أفاء عليهم من النِّعم المتتالية.

إنَّ العيد موسمٌ من مواسم الخير ، والتَّعاطف ، والتَّحابب ، وكان من دأب رسول الله (ص) : أنَّه إذا صلَّى العيد ، ذكَّر ، وأنذر ، ورغَّب ، ورهَّب ، فيتسابق في مِضْمَار البذل ، والعطاء الرِّجالُ ، والنِّساء ، والصِّغار ، والكبار[(٧٦٩)].

٤ ـ تشريع الزَّكاة:

وفي السَّنة الثانية للهجرة شرع الله الزَّكاة؛ الَّتي هي ركنٌ من أركان الإسلام ، وكان ذلك بعد شهر رمضان؛ لأنَّ تشريع الزَّكاة العامَّة كان بعد زكاة الفطر ، وزكاة الفطر كانت بعد فرض صيام رمضان قطعاً؛ يدلُّ على هذا ما رواه الأئمَّة: أحمد ، وابن خزيمة ، والنَّسائيُّ ، وابن ماجه ، والحاكم من حديث قَيْس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما قال: «أمَرَنا رسول الله (ص) بصدقة الفطر قبل أن تَنْزِل الزَّكاةُ ، ثمَّ نزلت الزَّكاةُ ، فلم يأمرنا ، ولم ينهنا ونحن نفعله»[(٧٧٠)] ، قال الحافظ ابن حجر: «إسناده صحيحٌ»[(٧٧١)] ، «وجمهور العلماء سلفاً ، وخلفاً على أنَّ مشروعية الزَّكاة إنما كانت بالمدينة في السَّنة الثَّانية»[(٧٧٢)].

فالزَّكاة في العهد المكيِّ كانت مطلقةً من القيود ، والحدود ، وكانت موكولةً إلى إيمان الأفراد ، وأرْيَحِيَّتِهِم ، وشعورهم بواجب الأخوَّة نحو إخوانهم من المؤمنين ، فقد يكفي في

ذلك القليل من المال ، وقد تقتضي الحاجة بذلَ الكثيرِ ، أو الأكثر[(٧٧٣)].

فكانت الايات المكِّيَّة تهتمُّ بجانب التَّربية ، والتَّوجيه ، وتحثُّ على رعاية الفقراء والمساكين بأساليب متنوعةٍ ، منها: أنَّ إطعام المساكين من لوازم الإيمان ، ففي سورة المدَّثر ـ وهي من أوائل ما نزل من القران ـ يعرض القران الكريم مشهداً من مشاهد الاخرة ، مشهد أصحاب اليمين من المؤمنين ، في

جنَّاتهم يتساءلون عن المجرمين من الكفرة ، وقد أُطبقت عليهم النِّيران ، فيسألونهم عمَّا أحلَّ بهم هذا العذاب ، فكان من أسبابه ، وموجباته: إهمال حقِّ المسكين ، وتركه لأنياب الجوع والعُري تنهشه ، وهم عنه معرضون[(٧٧٤)] ، قال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ *إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ *فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ *عَنِ الْمُجْرِمِينَ *مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ *قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ *وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ *وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ *وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ *} [المدثر: ٣٨ ـ ٤٦] .

وقصَّ الله على عباده قصَّة أصحاب الجنَّة ، الَّذين تواعدوا أن يقطفوا ثمارها بِلَيْلٍ؛ ليحرموا منها المساكين ـ الَّذين اعتادوا أن يصيبوا شيئاً من خيرها يوم الحصاد ـ فحلَّت بهم عقوبة الله العاجلة: {فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ *فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ *فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ *أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ *فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ *أَنْ لاَ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ *وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ *فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ *بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ *قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ *فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ *قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ *عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ *كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *} [القلم: ١٩ ـ ٣٣] .

ولم تقف عناية القران المكِّيِّ عند الدَّعوة إلى الرَّحمة بالمسكين ، والتَّرغيب ، في إطعامه ، ورعايته ، والتَّرهيب من إهماله والقسوة عليه؛ بل تجاوز ذلك ، فجعل في عنق كلِّ مؤمنٍ حقاً للمسكين، أن يحضَّ غيره على إطعامه ، ورعايته ، وجعل تَرْكَ هذا الحضِّ قرينَ الكفر بالله العظيم ، وموجباً لسُخْطه ـ سبحانه ـ وعذابه في الاخرة.

قال تعالى في شأن أصحاب (الشِّمال): {خُذُوهُ فَغُلُّوهُ *ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ *ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ *} [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢] .

وَلِمَ كلُّ هذا العذاب ، والهوان ، والخزي على رؤوس الأشهاد؟: {إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ *وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ *} [الحاقة: ٣٣ ـ ٣٤] .

وهذه الايات المزلزِلة للقلوب ، المنذرة بالعذاب ، هي الَّتي جعلت مثلَ أبي الدَّرداء رضي

الله عنه يقول لامرأته: «يا أمَّ الدرداء! إنَّ لله سلسلةٌ ولم تزل تغلي بها مرَاجِلُ النَّار منذ خَلقَ الله جهنَّم ، إلى يوم تُلقى في أعناق الناس ، وقد نجَّانا الله من نصفها بإيماننا بالله العظيم ، فحُضِّي على طعام المسكين يا أمَّ الدَّرداء»[(٧٧٥)].

أمَّا القرانُ المدني ، فقد نزل بعد أن أصبح للمسلمين جماعةٌ ، لها أرضٌ ، وكيانٌ وسلطان؛ فلهذا اتَّخذت التَّكاليف الإسلاميَّة صورةً جديدةً ملائمةً لهذا الطَّور: صورة التحديد ، والتَّخصيص ، بعد الإطلاق والتَّعميم ، صورة قوانين إلزاميَّة ، بعد أن كانت وصايا توجيهيةً فحسب ، وأصبحت تعتمد في تنفيذها على القوَّة والسُّلطان ، مع اعتمادها على الضَّمير ، والإيمان ، وظهر هذا الاتِّجاه المدنيُّ في الزَّكاة؛ فحدَّد الشَّارع الأموال التي تجب فيها ، وشروط وجوبها ، والمقادير الواجبة ، والجهات التي تُصرف لها ، وفيها ، والجهاز الذي يقوم على تنظيمها وإدارتها[(٧٧٦)] ، وأكَّد النَّبيُّ (ص) في المدينة فريضة الزَّكاة ، وبيَّن مكانتها في دين الله ، وأنَّها أحد الأركان الأساسية لهذا الدِّين ، ورغَّب في أدائها ، ورهَّب من منعها بأحاديث شتَّى ، وأساليب متنوعةٍ.

وأعلن الرَّسول (ص) في أحاديثه: أنَّ أركان الإسلام خمسةٌ ، بدأها بالشَّهادتين ، وثنَّاها بالصَّلاة ، وثلَّثها بالزَّكاة ، فالزَّكاة في السُّنَّة ـ كما هي في القران ـ ثالثةُ دعائم الإسلام: الَّتي لا يقوم بناؤه إلا بها ، ولا يرتكز إلا عليها[(٧٧٧)] ، وعندما طبَّق المسلمون هذا الرُّكن كما أمر الله تعالى ، وكما شرع رسولُه (ص) ، تحقَّقت أهدافٌ عظيمة في المجتمع ، وبرزت اثارها في حياة الفرد ، والمجتمع.

فمن اثار الزَّكاة على الفرد:

أ ـ الوقاية من الشُّحِّ:

قال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [الحشر: ٩] .

ب ـ تنمية المال وزيادته:

قال تعالى: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ *} [سبأ: ٣٩] ، وقال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ *} [إبراهيم: ٧] ، وقال تعالى: {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ *} [البقرة: ٢٧٦] .

وقال (ص) : «ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ من مالٍ» [مسلم (٢٥٨٨) والترمذي (٢٠٢٩) ومالك في الموطأ (١٠٠٠/٢)].

وقال (ص) : «ما من يومٍ يُصبحُ العبادُ فيه إلا مَلَكانِ يَنزلان ، فيقول أحدُهما: اللَّهمَّ أعطِ منفقاً خَلَفاً، ويقول الاخر : اللَّهُمَّ أعطِ مُمْسِكاً تَلَفاً» [البخاري (١٤٤٢) ومسلم (١٠١٠)].

وهكذا يتمُّ تطهير نفس المسلم من افة الشُّحِّ ، والبُخل ، ويسارع إلى الإنفاق ، موقناً بفضل الله ، ووعده الذي لا يتخلَّف بالرِّزق الواسع[(٧٧٨)].

ج ـ حصول الأمن في الدُّنيا والاخرة:

قال تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *} [البقرة: ٢٧٤] .

فهم في أمنٍ ، وسعادةٍ ، وراحةِ بالٍ؛ لأنَّهم أدَّوا ما أمرهم الله تعالى به ، وانتهوا عمَّا نهاهم الله عنه.

ومن اثار الزَّكاة على المجتمع: حصولُ المحبَّة بين الأغنياء والفقراء ، وشيوع الأمن والطُّمَأْنِينَة في أوساطه ، وشعور الأفراد فيما بينهم: أنَّهم كالجسد الواحد ، قال (ص) : «مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم ، مثَلُ الجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضوٌ ، تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى» [مسلم (٢٥٨٦) وأحمد (٤/٢٧٠)] ، ومن الاثار أيضاً حفظ التوازن الاجتماعي[(٧٧٩)].

عندما كانت الزَّكاة تُجْمَع من كلِّ من تجب عليه ، وتُنفَق في سبلها المشروعة في صدر الإسلام؛ كان المجتمع الإسلاميُّ يعيش في رخاءٍ ، ورغدٍ ، وتمتُّعٍ بالطَّيبات ، وتالفٍ ، وتاخٍ ، وتحاببٍ؛ فقد روى الرُّواة: أنَّه في عهد خامس الخلفاء الرَّاشدين ، عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أخصب النَّاس ، واغتنوا ، حتَّى إنَّهم بحثوا عن مستحقٍّ للصَّدقة ، فلم يجدوا ، فما كان منهم إلا أن اشترَوا بها عبيداً ، وأعتقوهم لوجه الله ، وهكذا بلغ الإسلام في عصوره الأولى ، بمستوى حياة المسلمين ومعيشتهم حدّاً لم تبلغه إلا أممٌ قليلةٌ اليوم ، وذلك بفضل تشريع الزَّكاة[(٧٨٠)].

٥ ـ زواجه (ص) بعائشة رضي الله عنها:

عقد رسول الله (ص) على عائشة في مكَّة قبل الهجرة ، وهي ابنة ستِّ سنين ، بعد وفاة خديجة رضي الله عنها ، وبنى بها في المدينة وهي ابنة تسع سنين ، وذلك في شهر شوَّال من السَّنة الأولى للهجرة[(٧٨١)].

وكانت حركة الدَّعوة والجهاد ، والتَّربية ، وبناء الدَّولة مستمرةً ، ولم تتعطَّل حالات الزَّواج في حياة الرَّسول (ص) وأصحابه؛ بل الزَّواج ، والإكثار منه كان عاديّاً جدّاً ، في حياتهم ، كالطَّعام ، والشَّراب ،

وذلك من مظاهر: أنَّ الإسلام دين الفطرة ، والواقع؛ بل إنَّ الزَّواج جزءٌ مهمٌّ في بناء المجتمع المسلم[(٧٨٢)].

كان رسول الله (ص) قد بنى بعائشة رضي الله عنها وهو في الرَّابعة والخمسين من عمره ، وحيثما يُذكر هذا الرَّقم؛ يتبادر للذِّهن الشَّيب ، والضَّعف ، ونفسيةٍ أصابتها الشَّيخوخة ، ولاشكَّ أنَّ مرور الأعوام هو مقياس أعمار النَّاس كقاعدةٍ عامَّةٍ؛ ولكنَّ المقياس الحقيقي هو حيوية الإنسان ، ونشاطه ، وقدرته على المبادرة والعمل؛ فقد نجد إنساناً في الثَّلاثين يحمل في جسمه ، ونفسيته أعباء الخمسين ، وقد نجد في بعض الأحيان إنسان الخمسين ، فلا نحكم عليه بأكثر من الثَّلاثين ، وشخصية رسول الله (ص) فذَّةٌ في هذا الميدان ، فهو ـ وهو في الخمسين ـ كان رجلاً في عنفوان شبابه؛ همَّةً ، وعزماً ، ومَضَاءً وفحولةً؛ إنَّه في هذا لا يساويه أيُّ إنسان ، والأدلة تؤيِّد ما ذهبت إليه؛ ومنها:

أ ـ لما عرض رسولُ الله (ص) نفسَه على القبائل ، مرَّ على بني عامر بن صعصعة ، وعرض عليهم أمره ، فقال بَيْحَرَةُ بن فِرَاس: «والله! لو أنِّي أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب»[(٧٨٣)] ، ونلحظ في قول بَيْحَرَة:

ـ عبَّر عنه بـ (الفتى) ، والفتى هو الشَّابُّ في مُقْتَبَلِ العمر ، الممتلأى حيويةً ، ونشاطاً.

ـ وفي قوله: «لأكلت به العرب» يعبِّر عمَّا لاحظه في شخصية الرَّسول الكريم (ص) من حيويَّةٍ ، وهمَّةٍ لا تقف في وجهها جموع العرب قاطبةً ، كانت هذه نظرة بَيْحَرَة ، والرَّسول (ص) في الخمسين من العمر يومئذٍ؛ إنَّه الشباب شكلاً ، ومضموناً ، مظهراً ونفسيَّةً ، همَّةً ، وروحاً[(٧٨٤)].

ب ـ وفي خبر الهجرة ، روى البخاريُّ عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «أقبل نبيُّ الله (ص) إلى المدينة ، وهو مُرْدِفٌ أبا بكرٍ ، وأبو بكرٍ شيخٌ يُعْرَف ، ونبيُّ الله (ص) شابٌّ لا يُعْرَفُ ، قال: فيلقى الرَّجلُ أبا بكرٍ ، فيقول: يا أبا بكر! من هذا الرَّجلُ الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرَّجل يهديني السبيل ، قال: فيحسِب الحاسِبُ: أنَّه إنَّما يعني الطَّريقَ ، وإنَّما يعني سبيلَ الخير» [البخاري (٣٩١١) وأحمد (٢/٢١١)] ، وكان (ص) لم يَشِبْ ، وكان أسنَّ من أبي بكرٍ[(٧٨٥)].

ويلاحظ من النَّصِّ بوضوحٍ: أنَّ أبا بكرٍ كان يبدو في سنِّهِ الحقيقي شيخاً[(٧٨٦)]؛ بينما كان (ص) يبدو شابّاً؛ لعدم ظهور الشَّيب فيه ، كما أوضح ذلك القسطلاَّنيُّ بقوله: وكان (ص) لم يَشبْ ، وكان أسنَّ من أبي بكرٍ[(٧٨٧)].

وبذلك نستطيع أن نقول: إنَّ الفارقَ في العمر بينه (ص) وبين عائشة ، لم يكن ذلك الفارقَ الكبير من وجهة النَّظر العمليَّة ، فها هو (ص) يسابق السَّيدة عائشة ، فتسبقه مرَّةً ، ويسبقها أخرى ، فيقول: «هذه بتلك» [أحمد (٦/٢٦٤) وأبو داود (٢٥٧٨) وابن ماجه (١٩٧٩) وابن حبان (٤٦٩١)] ، والأمثلة في حياته (ص) كثيرةٌ[(٧٨٨)].

ويستطيع كلُّ ذي نظرٍ أن يدرك الحكمة الجليلة الَّتي كانت وراء زواج رسول الله (ص) من عائشة رضي الله عنها ، فقد تمَّ هذا الزَّواج الميمون في مَطْلِع الحياة في المدينة ، ومع بداية المرحلة التشريعية من حياته (ص) ، وممَّا لاشك فيه: أنَّ الإنسان يقضي جزءاً كبيراً من حياته في بيته ، ومع أسرته ، وكان لابدَّ من نقل سلوك الرَّسول الكريم (ص) ، في هذا الجانب من حياته إلى النَّاس؛ حتَّى يستطيعوا التأسِّيَ به ، وكانت تلك مهمَّةُ السِّيِّدة عائشة رضي الله عنها ـ على الخصوص ـ وبقيَّة أمَّهات المؤمنين رضي الله عنهُنَّ؛ فقد استطاعت السَّيدة عائشة رضي الله عنها ، بما وهبها الله من ذكاءٍ وفهمٍ ، أن تؤدِّيَ دورها على خير ما يُرام ، وإنَّ نظرةً عابرةً لأيِّ كتابٍ من كتب السِّيرة تبيِّن ، وتؤكِّد ما ذهبت إليه؛ وقد ساعدها على ذلك: أنَّ الله تعالى كتب لها الحياة ما يقرب من خمسين عاماً بعد وفاة رسول الله (ص) ، وساعدتها تلك المدَّة على أن تُبَلِّغَ ما وَعَتْهُ عن رسول الله (ص) ، فرضي الله عنها![(٧٨٩)].

* * *

الفصل الثَّامن

غزوة بدرٍ الكبرى[(٧٩٠)]

المبحث الأوَّل

مرحلة ما قبل المعركة

بلغ المسلمين تحرُّكُ قافلةٍ تجاريَّةٍ كبيرةٍ من الشَّام ، تحمل أموالاً عظيمة[(٧٩١)] لقريش ، يقودها أبو سفيان ، ويقوم على حراستها بين ثلاثين ، وأربعين رجلاً[(٧٩٢)] ، فأرسل الرَّسول (ص) بَسْبَسَ بنَ عمرو[(٧٩٣)]؛ لجمع المعلومات عن القافلة[(٧٩٤)] ، فلَّما عاد بَسْبَسُ بالخبر اليقين ، ندب رسولُ الله (ص) أصحابه للخروج ، وقال لهم: «هذه عِيرُ قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها؛ لعلَّ الله يُنْفِلُكُموها»[(٧٩٥)] ، وكان خروجه من المدينة في اليوم الثاني عشر ، من شهر رمضان المبارك ، من السَّنة الثانية للهجرة ، ومن المؤكَّد: أنَّه حين خروجه (ص) من المدينة ، لم يكن في نيَّته قتالٌ؛ وإنَّما كان قصده عِيرَ قريش ، وكانت الحالة بين المسلمين وكفار مكَّة حالة حرب ، وفي حالة الحرب تكون أموال العدوِّ ، ودماؤهم مباحةً ، فكيف إذا علمنا: أنَّ جزءاً من هذه الأموال الموجودة في القوافل القرشيَّة ، كانت للمهاجرين المسلمين من أهل مكَّة ، قد استولى عليها المشركون ظلماً ، وعدواناً[(٧٩٦)].

كلَّف رسولُ الله (ص) عبدَ الله بن أمِّ مكتومٍ بالصَّلاة بالنَّاس في المدينة ، عند خروجه إلى بدرٍ ، ثمَّ أعاد أبا لُبَابة من الرَّوحَاء إلى المدينة ، وعيَّنه أميراً عليها[(٧٩٧)].

أرسل النَّبيُّ (ص) اثنين من أصحابه[(٧٩٨)] إلى بدرٍ طليعةً ، للتَّعرُّف على أخبار القافلة فرجعا إليه بخبرها[(٧٩٩)]: وقد حصل خلاف بين المصادر الصَّحيحة حول عدد الصَّحابة ، الذين رافقوا النَّبيَّ (ص) في غزوته هذه إلى بدرٍ ، ففي حين جعلهم البخاري «بضعة عشر وثلاثمئةٍ» [البخاري (٣٩٥٧) و(٣٩٥٨)]؛ يذكر مسلمٌ: أنَّهم كانوا «ثلاثمئةٍ وتسعة عَشَرَ رجلاً» [مسلم (١٧٦٣)] ، في حين ذكرت المصادر أسماء ثلاثمئةٍ وأربعين من الصَّحابة البدريين[(٨٠٠)].

كانت قوَّات المسلمين في بدرٍ ، لا تمثِّل القدرة العسكريَّة القصوى للدَّولة الإسلاميَّة؛ ذلك: أنَّهم إنَّما خرجوا لاعتراض قافلةٍ ، واحتوائها ، ولم يكونوا يعلمون: أنَّهم سوف يواجهون قوَّات قريشٍ ، وأحلافها مجتمعةً للحرب ، والَّتي بلغ تعدادها ألفاً [مسلم (١٧٦٣)] ، معهم مئتا فرسٍ ، يقودونها إلى جانب جمالهم ، ومعهم القِيانُ[(٨٠١)] يضربن بالدُّفوف ، ويغنِّين بهجاء النَّبيِّ (ص) وأصحابه[(٨٠٢)] ، في حين لم يكن مع القوات الإسلاميَّة من الخيل إلا فَرَسَانِ ، وكان معهم سبعون بعيراً يتعاقبون ركوبَها. [الطبراني في المعجم الكبير (١٢١٠٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٦٩)] .

أولاً: بعض الحوادث في أثناء المسير إلى بدرٍ:

وقد حدثت بعض الحوادث في أثناء مسير النَّبيِّ (ص) وأصحابه؛ فيها من العِبَرِ والمواعظ الشَّيءُ الكثير:

١ ـ إرجاع البَرَاء بن عازبٍ وابن عمر لصغرهما: وبعد خروج النَّبيّ (ص) وأصحابه من المدينة في طريقهم إلى ملاقاة عِير أبي سفيان وصلوا إلى (بيوت السُّقيا) خارج المدينة ، فعسكر فيها النَّبيُّ (ص) ، واستعرض (ص) مَنْ خرج معه ، فردَّ مَنْ ليس له قدرةٌ على المضِيِّ مع جيش المسلمين ، وملاقاة مَنْ يُحتَمَل نشوبُ قتالٍ معهم ، فردَّ على هذا الأساس البَرَاء بن عازب ، وعبد الله بن عمر؛ لصغرهما ، وكانا قد خرجا مع النبي (ص) راغبين ، وعازمَيْنِ على الاشتراك في الجهاد. [البخاري (٣٩٥٥) و(٣٩٥٦)] .

٢ ـ (فارجعْ فلن أستعينَ بمشركٍ): عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: خرج رسولُ الله (ص) قِبَلَ بدرٍ ، فلمَّا كان بِحَرَّةِ الوَبَرَةِ ، أَدْرَكهُ رَجُلٌ ، قد كان يُذْكَرُ منه جُرْأَةٌ ، ونَجْدةٌ؛ ففرِحَ أصحابُ رسول الله (ص) حين رَأَوْهُ ، فلمَّا أدْرَكَهُ ، قال لرسول الله (ص) : جئتُ لأَتَّبِعَكَ ، وأُصيبَ معَكَ ، قال له رسول الله (ص) : «تؤمنُ بالله ورَسُولِهِ؟» قال: لا ، قال: «فارجعْ؛ فلن أستعينَ بمشركٍ». قالت: ثمَّ مضى ، حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل ، فقال له كما قال أول مرة ، فقال له النَّبيُّ (ص) كما قال أوَّل مرَّةٍ ، ثمَّ رجع ، فأدركه بالبَيْدَاءِ ، فقال له كما قال أوَّل مرَّة: «تؤمنُ بالله ورسوله؟» قال: نعم ، فقال له رسول الله (ص) : «فانْطَلِقْ» [مسلم (١٨١٧) وأبو داود (٢٧٣٢) والترمذي (١٥٥٨) وأحمد (١٤٨/٣ و١٤٩)].

٣ ـ مشاركة النَّبيِّ (ص) أصحابه في الصِّعاب: فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنَّا يوم بدرٍ كلُّ ثلاثة على بعيرٍ ، وكان أبو لُبَابَةَ ، وعليُّ بن أبي طالبٍ زميلَيْ رسول الله (ص) . قال: وكانت عُقبَةُ رسول الله (ص) . قال: فقالا: نحن نمشي عنك ، فقال: «ما أنتما بأقوى منّي ، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما» [أحمد (٤١١/١) وابن حبان (٤٧٣٣) وأبو يعلى (٥٣٥٩) والبزار (١٧٥٩) ومجمع الزوائد (٦٩/٦)].

ثانياً: العزم على ملاقاة المسلمين ببدر: بلغ أبا سفيان خبرُ مسير النَّبيِّ (ص) ، بأصحابه من المدينة ، بقصد اعتراض قافلته ، واحتوائها ، فبادر إلى تحويل مسارها إلى طريق السَّاحل ، في الوقت نفسه أرسل ضَمْضَمَ بن عمرو الغِفَاريَّ إلى قريشٍ يستنفرها؛ لإنقاذ قافلتها ، وأموالها[(٨٠٣)] ، فقد كان أبو سفيان يَقِظاً حَذراً ، يتلقَّط أخبار المسلمين ، ويسأل عن تحرُّكاتهم؛ بل يتحسَّس أخبارهم بنفسه ، فقد تقدَّم إلى بدرٍ بنفسه ، وسأل مَنْ كان هناك: هل رأيتم من أحدٍ؟ قالوا: لا ، إلا رجلين ، قال: أروني مُنَاخَ ركابهما ، فأروه ، فأخذ البعر فَفَتَّهُ ، فإذا هو فيه النَّوى ، فقال: هذه والله! علائفُ

يثربَ[(٨٠٤)] ، فقد استطاع أن يعرف تحرّكات عدوه ، حتَّى خبر السَّريَّة الاستطلاعيَّة عن طريق غذاء دوابِّها ، بفحصه البعر الَّذي خلَّفته الإبل؛ إذ عرف أنَّ الرَّجلين من المدينة؛ أي: من المسلمين ، وبالتَّالي فقافلته في خطرٍ ، فأرسل ضَمْضَمَ بنَ عمرٍو ، إلى قريشٍ ، وغيَّر طريق القافلة ، واتَّجه نحو ساحل البحر[(٨٠٥)].

كان وقع خبر القافلة شديداً على قريشٍ؛ التي اشتاط زعماؤها غضباً؛ لما يَرَوْنه من امتهانٍ للكرامة ، وتعريضٍ للمصالح الاقتصاديَّة للأخطار؛ إلى جانب ما ينجم عن ذلك من انحطاطٍ

لمكانة قريشٍ بين القبائل العربيَّة الأخرى؛ ولذلك فقد سعوا إلى الخروج لمجابهة الأمر بأقصى طاقاتهم القتالية[(٨٠٦)].

لقد جاءهم ضَمْضَمُ بنُ عمرو الغِفَاريُّ بصورةٍ مثيرةٍ جدّاً ، يتأثَّر بها كلُّ من راها ، أو سمع بها؛ إذ جاءهم وقد حوَّلَ رَحْلَه ، وجَدَعَ أنفَ بعيره ، وشقَّ قميصه من قُبُلٍ ، ومن دُبُرٍ ، ودخل مكَّة وهو ينادي بأعلى صوته: يا معشرَ قريش! اللَّطيمةَ اللَّطيمةَ[(٨٠٧)]! أموالكم مع أبي سفيان ، قد عرض لها محمد مع أصحابه ، لا أرى أن تُدْركوها ، الغوثَ ، الغوثَ ، الغوثَ![(٨٠٨)].

وعندما أمن أبو سفيان على سلامة القافلة ، أرسل إلى زعماء قريش وهو بالجُحْفَة ، برسالةٍ أخبرهم فيها بنجاته ، والقافلة ، وطلب منهم العودة إلى مكَّة ، وذلك أدَّى إلى حصول انقسامٍ حادٍّ في اراء زعماء قريش ، فقد أصرَّ أغلبهم على التَّقدُّم نحو بدرٍ؛ من أجل تأديب المسلمين ، وتأمين سلامة طريق التِّجارة القرشيَّة ، وإشعار القبائل العربيَّة الأخرى بمدى قوَّة قريشٍ ، وسلطانها ، وقد انشق بنو زُهْرَة[(٨٠٩)] ، وتخلَّف في الأصل بنو عديٍّ ، فعاد بنو زُهْرَةَ إلى مكَّة ، أمَّا غالبية قوَّات قريشٍ ، وأحلافهم؛ فقد تقدَّمت؛ حتَّى وصلت بدراً[(٨١٠)].

ثالثاً: مشاورة النَّبيِّ (ص) لأصحابه:

لما بلغ النَّبيَّ (ص) نجاةُ القافلة ، وإصرارُ زعماء مكَّة على قتال النَّبيِّ (ص) ، استشار رسولُ الله (ص) أصحابه في الأمر[(٨١١)] ، وأبدى بعضُ الصَّحابة عدم ارتياحهم لمسألة المواجهة الحربيَّة مع قريشٍ؛ حيث إنَّهم لم يتوقَّعوا المواجهة ، ولم يستعدُّوا لها ، وحاولوا إقناع الرَّسول (ص) بوجهة نظرهم ، وقد صوَّر القرانُ الكريم موقفَهم ، وأحوال الفئة المؤمنة عموماً ، في قوله تعالى: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ *يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ *وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ

أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ *لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ *} [الأنفال٥ ـ ٨] .

وقد أجمع قادة المهاجرين ، على تأييد فكرة التَّقُّدم لملاقاة العدوِّ[(٨١٢)] ، وكان للمقداد بن الأسود موقفٌ متميِّزٌ ، فقد قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: شهدت من الْمِقْدَاد بن الأسود مشهداً ، لأن أكونَ صاحِبَهُ أحبُّ إليَّ ممَّا عُدِلَ به[(٨١٣)]: أتى النَّبيَّ (ص) وهو يدعو على المشركين ، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ} ، ولكنَّا نقاتل عن يمينك ، وعن شمالك ، وبين يديك ، وخَلْفك ، فرأيت النَّبيَّ (ص) أشرق وَجْهُهُ وسَرَّه؛ يعني: قوله. [البخاري (٣٩٥٢)].
وفي روايةٍ: قال المقداد: يا رسولَ الله! إنَّا لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ولكن: امضِ ونحن {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ *} ، فكأنه سُرِّي عن رسول الله (ص) . [البخاري (٤٦٠٩)] .
وبعد ذلك عاد رسول الله (ص) فقال: «أشيروا عليَّ أيها النَّاس!» وكان إنَّما يقصد الأنصار؛ لأنَّهم غالبيةُ جنده ، ولأنَّ بيعة العقبة الثَّانية ، لم تكن في ظاهرها ملزمةً لهم بحماية الرَّسول (ص) خارج المدينة ، وقد أدرك الصَّحابيُّ سعدُ بن معاذ ، ـ وهو حامل لواء الأنصار ـ مقصد النَّبيِّ (ص) من ذلك ؛ فنهض قائلاً: (والله! لكأنَّك تريدنا يا رسول الله؟ قال (ص) : «أجل» ، فقال: لقد امنَّا بك ، وصدَّقناك ، وشهدنا أنَّ ما جئتَ به هو الحقُّ ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ، ومواثيقنا على السَّمع ، والطَّاعة ، فامضِ يا رسول الله! لما أردت ، فنحن معك ، فوالَّذي بعثك بالحقِّ! لو استعرضت بنا هذا البحر ، فخُضْتَه لخُضْنَاه معك ، ما تخلَّف منا رجلٌ واحدٌ ، وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا غداً ، إنَّا لصُبُرٌ في الحرب ، صُدُقٌ عند اللِّقاء ، ولعلَّ اللهَ يريك منا ما تَقَرُّ به عينك ، فَسِرْ على بركة الله. [ابن هشام (٢/٢٦٧) وبنحوه مسلم (١١٧٩)].
وسُرَّ النَّبيُّ (ص) من مقالة سعد بن معاذٍ ، ونشَّطه ذلك ، فقال (ص) : «سِيرُوا وأبشروا؛ فإنَّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطَّائفتين ، والله! لكأنِّي الان أنظر إلى مصارع القوم» [البيهقي في دلائل النبوة (٣/٣٤) وابن هشام (٢/٢٦٧)] .
كانت كلمات سعدٍ مشجِّعةً لرسول الله (ص) وملهبةً لمشاعر الصَّحابة؛ فقد رفعت معنويات الصَّحابة ، وشجَّعتهم على القتال ، إنَّ حرص النَّبيِّ (ص) على استشارة أصحابه في الغزوات ، يدلُّ على تأكيد

أهمِّية الشُّورى في الحروب بالذَّات؛ ذلك لأنَّ الحروب تقرِّر مصير الأمم ، فإمَّا إلى العلياء ، وإمَّا تحت الغبراء[(٨١٤)].

رابعاً: المسير إلى لقاء العدوِّ ، وجمع المعلومات عنه:

نظَّم النَّبيُّ (ص) جنده ، بعد أن رأى طاعة الصَّحابة ، وشجاعتهم ، واجتماعهم على القتال ، وعقد اللواء الأبيض ، وسَلَّمه إلى مصعب بن عمير ، وأعطى رايتين سَوْدَاوَيْن إلى سعد بن معاذٍ ، وعليِّ بن أبي طالبٍ ، وجعل على السَّاقة قيس بن أبي صَعْصَعَة[(٨١٥)].

وقام (ص) ومعه أبو بكرٍ يستكشف أحوال جيش المشركين ، وبينما هما يتجوَّلان في تلك المنطقة ، لقيا شيخاً من العرب ، فسأله رسولُ الله (ص) عن جيش قريش ، وعن محمَّدٍ وأصحابه ، وما بلغه من أخبارهم؛ فقال الشَّيخ: لا أخبركما حتى تخبراني مِمَّن أنتما؟ فقال له رسول الله (ص) : «إذا أخبرتنا؛ أخبرناك» فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: «نعم» ، فقال الشَّيخ: فإنَّه بلغني: أنَّ محمَّداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الَّذي أخبرني؛ فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي به جيش المسلمين ـ وبلغني أنَّ قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني؛ فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي فيه جيش المشركين فعلاً ـ ثمَّ قال الشيخ: لقد أخبرتكما عمَّا أردتما ، فأخبراني ممَّن أنتما؟ فقال رسول الله (ص) : «نحن من ماءٍ» ، ثمَّ انصرف النَّبيُّ (ص) وأبو بكر عن الشَّيخ ، وبقي هذا الشَّيخ يقول: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟ [ابن هشام (٢/٢٦٧ ـ ٢٦٨)] .

وفي مساء ذلك اليوم الَّذي خرج فيه رسولُ الله (ص) ، وأبو بكرٍ ، أرسل (ص) عليَّ بن أبي طالبٍ ، والزُّبيرَ بن العوَّام ، وسعدَ بن أبي وقَّاصٍ ، في نفرٍ من أصحابه إلى ماء بدرٍ؛ يتسقَّطون له الأخبار عن جيش قريشٍ ، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش المشركين ، فأتوا بهما إلى رسول الله (ص) ، فقال لهما: «أخبراني عن جيش قريشٍ» فقالا: هم ـ والله! ـ وراء هذا الكثيب الَّذي ترى بالعُدوة القصوى ، فقال لهما: «كم القوم؟» قالا: كثيرٌ ، قال: «ما عدَّتُهم؟» قالا: لا ندْرِي ، قال الرَّسول (ص) : «كم ينحرون كلَّ يومٍ؟» قالا: يوماً تسعاً ، ويوماً عشراً ، فقال رسول الله (ص) : «القوم ما بين التِّسعمئة والألف» ثمَّ قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش؟» فذكرا عتبة ، وشيبة ابني ربيعة ، وأبا جهل ، وأميَّة بن خلفٍ ، في اخرين من صناديد قريش ، فأقبل رسول الله (ص) إلى أصحابه قائلاً: «هذه مكَّةُ قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها» [ابن هشام (٢/٢٦٩)] .

كان من هدي النَّبيِّ (ص) ، حرصه على معرفة جيش العدوِّ ، والوقوف على أهدافه ، ومقاصده؛ لأنَّ ذلك يعينه على رسم الخطط الحربيَّة المناسبة لمجابهته ، وصدِّ عدوانه ، فقد كانت أساليبه في غزوة بدرٍ في جمع المعلومات؛ تارةً بنفسه ، وأخرى بغيره ، وكان (ص) يطبِّق مبدأ الكتمان في حروبه، فقد أرشد القرآن الكريم المسلمين إلى أهمية هذا المبدأ. قال تعالى: {وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً} [النساء: ٨٣].

وقد تحلَّى رسول (ص) بصفة الكتمان في غزواته عامَّةً، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه، قال: «ولم يكن رسول الله (ص) يريدُ غزوةً إلا ورَّى بغيرها» [البخاري (٢٩٤٧)]، وفي غزوة بدرٍ ظهر هذا الخلق الكريم في الآتي:

١ . سؤاله (ص) الشَّيخ الَّذي لقيه في بدرٍ عن محمَّدٍ وجيشه، وعن قريش وجيشها.

٢ . تورية الرَّسول (ص) في إجابته على سؤال الشَّيخ: ممَّن أنتما؟ بقوله (ص): «نحن من ماءٍ»، وهو جواب يقتضيه المقام، فقد أراد به الرَّسولُ (ص) كتمانَ أخبار جيش المسلمين عن قريشٍ.

٣ . وفي انصرافه فور استجوابه كتمانٌ . أيضاً . وهو دليلٌ على ما يتمتَّع به رسول الله (ص) من الحكمة، فلو أنَّه أجاب هذا الشَّيخ ثمَّ وقف عنده، لكان هذا سبباً في طلب الشَّيخ بيان المقصود من قوله (ص): «من ماءٍ»[(٨١٦)].

٤ . أمره (ص) بقطع الأجراس من الإبل يوم بدرٍ، فعن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله (ص) أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدرٍ. [أحمد (٦/١٥٠) وابن حبان (٤٦٩٩) و(٤٧٠٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٥/١٧٤)].

٥ .كتمانه (ص) خبر الجهة الَّتي يقصدها عندما أراد الخروج إلى بدر، حيث قال (ص): «إنَّ لنا طَلِبَةً؛ فمن كان ظَهْرُهُ حاضراً؛ فيركبْ معنا» [مسلم (١٩٠١)].

قال الإمامُ النَّوويُّ: «في هذا: استحباب التَّورية في الحرب، وألاَّ يُبين الإمام جهة إغارته، وإغارة سراياه؛ لئلا يشيع ذلك؛ فيحذرهم العدوُّ»[(٨١٧)].

ونلحظ: أنَّ التَّربية الأمنيَّة في المنهاج النَّبويِّ مستمرةٌ منذ الفترة السِّرِّيَّة والجهريَّة بمكَّة، ولم تنقطع مع بناء الدَّولة، وأصبحت تنمو مع تطوّرها، وخصوصاً في غزوات الرَّسول (ص).

خامساً: مشورة الحُباب بن المُنْذِر في بدرٍ:

بعد أن جمع (ص) معلوماتٍ دقيقةًعن قوَّات قريشٍ، سار مسرعاً ومعه أصحابه إلى بدرٍ؛ ليسبقوا المشركين إلى ماء بدرٍ، وليحولوا بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل عند أدنى ماءٍ من مياه بدرٍ، وهنا قام الحُبَاب بن المنذر، وقال: يا رسول الله! أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه اللهُ ، ليس لنا أن نتقدَّمه ، ولا نتأخَّر عنه؟ أم هو الرَّأي ، والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرَّأي ، والحرب ، والمكيدة» قال: يا رسولَ الله! فإن هذا ليس بمنزلٍ ، فانهضْ يا رسول الله بالنَّاس ! حتَّى تأتي أدنى ماءٍ من القوم . أي: جيش المشركين . فننزله ، ونغوِّر . نخرِّب . ما وراءه من الابار ، ثمَّ نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً ، ثمَّ نقاتل القوم ، فنشرب ، ولا يشربون. فأخذ النَّبيُّ (ص) برأيه ، ونهض بالجيش حتَّى أقرب ماءٍ من العدوِّ ، فنزل عليه ، ثمَّ صنعوا الحِيَاضَ ، وغوَّروا ما عداها من الابار [ابن هشام (٢/٢٧٢) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/٣٥)].

وهذا يصوِّر مثلاً من حياة الرَّسول (ص) مع أصحابه ، حيث كان أيُّ فرد من أفراد ذلك المجتمع يُدْلي برأيه ، حتَّى في أخطر القضايا ، ولا يكون في شعوره احتمال غضب القائد الأعلى (ص) ، ثمَّ حصول ما يترتَّب على ذلك الغضب من تدنِّي سمعة ذلك المشير بخلاف رأي القائد ، وتأخُّره في الرتبة ، وتضرُّره في نفسه أو ماله.

إنَّ هذه الحرِّيَّة؛ الَّتي ربَّى عليها رسول الله (ص) أصحابه ، مكَّنت مجتمعهم من الاستفادة من عقول جميع أهل الرَّأي السَّديد ، والمنطق الرَّشيد ، فالقائد فيهم ينجح نجاحاً باهراً ، وإن كان حديثَ السِّنِّ؛ لأنَّه لم يكن يفكِّر برأيه المجرَّد ، أو اراء عصبةٍ مهيمنةٍ عليه ، قد تنظر لمصالحها الخاصَّة ، قبل أن تنظر لمصلحة المسلمين العامَّة؛ وإنَّما يفكِّر باراء جميع أفراد جنده ، وقد يحصل له الرَّأي السَّديد من أقلِّهم سمعةً ، وأبعدهم منزلةً من ذلك القائد؛ لأنَّه ليس هناك ما يحول بين أيِّ فردٍ منهم ، والوصول برأيه إلى قائد جيشه[(٨١٦)].

ونلحظ عظمة التَّربية النَّبويَّة؛ الَّتي سرَتْ في شخص الحُبَاب بن المنذر ، فجعلته يتأدَّب أمام رسول الله (ص) ، فتقدَّم دون أن يُطلب رأيه؛ ليعرض الخطة الَّتي لديه؛ لكن هذا تمَّ بعد السُّؤال العظيم ، الَّذي قدَّمه بين يدي الرَّسول (ص) : «يا رسولَ الله! أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدَّمه ، ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرَّأي ، والحرب ، والمكيدة؟».

إنَّ هذا السُّؤال يوضِّح عظمة هذا الجوهر القياديَّ الفذَّ؛ الَّذي يعرف أين يتكلَّم ، ومتى يتكلَّم بين يدي قائده ، فإن كان الوحي هو الَّذي اختار هذا المنزل ، فلأن يقدم ، فتقطع عنقه أحبُّ إليه من أن يلفظ بكلمةٍ واحدةٍ ، وإن كان الرأي البشريُّ؛ فلديه خطَّةٌ جديدةٌ كاملةٌ باستراتيجيَّةٍ جديدةٍ.
إنَّ هذه النَّفسيَّة الرَّفيعة ، عرفت أصول المشورة ، وأصول إبداء الرَّأي ، وأدركت مفهوم السَّمع والطَّاعة ، ومفهوم المناقشة ، ومفهوم عرض الرَّأي المعارض لرأي سيِّد ولد ادم (ص) .

وتبدو عظمة القيادة النَّبويَّة في استماعها للخطَّة الجديدة ، وتبنِّي الخطَّة الجديدة المطروحة من جنديٍّ من جنودها ، أو قائدٍ من قوَّادها[(٨١٧)].
سادساً: الوصف القرانيُّ لخروج المشركين:
قال تعالى: {وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ *} [الأنفال: ٤٧] .
ينهى المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ المؤمنين عن التشبُّه بالكافرين؛ الَّذين خرجوا من ديارهم بطراً ، ورئاء النَّاس ، وتفسير الاية الكريمة:
١ ـ {بَطَرًا}: قال القرطبيُّ: «والبطر في اللغة: ، أي: التَّقوية بنعم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وما ألبسه من العافية على المعاصي»[(٨١٨)].
٢ ـ {وَرِئَاءَ}: ومعناه: ، أو الفعل الَّذي لا يقصد معه الإخلاص؛ وإنَّما يُقصد به التَّظاهر ، وحبُّ الثناء.
٣ ـ { وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}: معطوفاً على { بَطَرًا } ، والسَّبيل: الطَّريق الَّذي فيه سهولةٌ ، والمراد بسبيل الله: دينه؛ لأنَّه يوصل النَّاس إلى الخير ، والصَّلاح.
فقد وصف ـ سبحانه ـ الكافرين في هذه الاية بثلاثة أشياء:
الأول: البطر ، والثَّاني: الرِّياء ، والثالث: الصَّدُّ عن سبيل الله.
ونلحظ: أنَّ الله تعالى عبَّر عن بطرهم ، بصيغة الاسم الدَّالِّ على التَّمكين ، والثُّبوت ، وعن صدِّهم بصيغة الفعل الدَّالِّ على التجدُّد والحدوث[(٨١٩)].
قال الإمام الرَّازي: «إنَّ أبا جهلٍ ورَهْطَه ، وشيعتَه ، كانوا مجبولين على البطر ، والمفاخرة ، والعُجْب[(٨٢٠)] ، وأمَّا صدُّهم عن سبيل الله ، فإنَّما حصل في الزَّمان؛ الَّذي أكرم فيه النَّبيَّ (ص)

بالنُّبوَّة ، ولهذا السَّبب ذُكِر البطر ، والرئاء بصيغة الاسم ، وذُكِر الصَّدُّ عن سبيل الله بصيغة الفعل ، والله أعلم»[(٨٢١)].

وقد جاء في تفسير هذه الاية عند القرطبيّ: أنَّ المقصود بالاية: «يعني: أبا جهلٍ وأصحابه الخارجين يوم بدرٍ لنُصرة العِير ، خرجوا بالقِيَان ، والمغنّيات والمعازف ، فلمَّا وردوا الجُحفة ، بعث خُفافُ الكنانيُّ ـ وكان صديقاً لأبي جهلٍ ـ بهدايا إليه مع ابنٍ له ، وقال: إن شئتَ؛ أمددتك بالرِّجال ، وإن شئتَ؛ أمددتك بنفسي مع مَنْ خفَّ من قومي ، فقال أبو جهل: إن كنا نقاتل اللهَ كما يزعم محمَّد؛ فوالله ما لنا بالله من طاقةٍ ، وإن كنَّا نقاتل النَّاس؛ فوالله إنَّ بنا على النَّاس لقوةً ، والله! لا نرجع عن قتال محمَّد حتَّى نرد بدراً ، فنشربَ فيها الخمور ، وتعزف علينا القِيانُ ، فإن بدراً موسمٌ من مواسم العرب ، وسوقٌ من أسواقهم ، حتَّى تسمع العرب بمخرجنا ، فتهابنا اخر الأبد ، فوردوا بدراً ، ولكن جرى ما جرى من هلاكهم»[(٨٢٢)].

سابعاً: موقف المشركين لما قدموا إلى بدرٍ:

بيّن سبحانه وتعالى موقف المشركين لما قدموا إلى بدرٍ ، قال تعالى: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ *} [الأنفال: ١٩] .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثعلبة: أنَّ أبا جهل قال حين التقى القومُ ـ في بدرٍ ـ اللَّهم! أقطعُنا للرَّحم ، واتانا ممَّا لا يُعرف ، فأَحِنْهُ ـ أي: أهلكه ـ الغداةَ.

فكان المستَفْتِح. [أحمد (٥/٤٣١) وابن هشام (٢/٢٨٠) والبيهقي في الدلائل (٣/٧٤)] .

ومعنى الاية: إن تستنصروا اللهَ على محمَّد ، فقد جاءكم النَّصر ، وقد كانوا عند خروجهم من مكَّة سألوا الله أن ينصر أحقَّ الطَّائفتين بالنَّصر، فتهكَّم الله بهم، وسمَّى ما حلَّ بهم من الهلاك نصراً ، ومعنى بقيَّة الاية على هذا القول: {وَإِنْ تَنْتَهُوا} عمَّا كنتم عليه من الكفر ، والعداوة لرسول الله (ص) ، أي: الانتهاء إلى {فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا} كنتم عليه من الكفر والعداوة بتسليط المؤمنين {نَعُدْ} ، ونصرهم كما سلَّطناهم ، ونصرناهم في يوم بدرٍ أي: {وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا} ، أي: {وَلَوْ كَثُرَتْ} تغني عنكم في حالٍ من الأحوال ، ولو في حال كثرتها ، ثمَّ قال: ومن كان معه فهو {وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ *} ، ومن كان الله عليه فهو المخذول[(٨٢٣)].

ولما وصل جيش مكَّة إلى بدرٍ ، دبَّ فيهم الخلاف ، وتزعزعت صفوفهم الدَّاخلية ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزل المسلمون ، وأقبل المشركون؛ نظر رسولُ الله (ص) إلى عُتْبَةَ بنِ ربيعةَ وهو على جملٍ أحمر ، فقال: «إن يكن عند أحدٍ من القوم خيرٌ ، فهو عند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه؛ يَرْشُدُوا» ، وهو يقول: يا قوم! أطيعوني في هؤلاء القوم ، فإنَّكم

إن فعلتم لن يزال ذلك في قلوبكم ، ينظر كلُّ رجلٍ إلى قاتل أخيه ، وقاتل أبيه ، فاجعلوا حقَّها برأسي ، وارجعوا ، فقال أبو جهل: انتفخ والله! سَحْرُهُ[(٨٢٤)] حين رأى محمَّداً وأصحابه ، إنَّما محمدٌ وأصحابه أكلة جزورٍ لو قد التقينا.

فقال عتبة: ستعلم من الجبان المفسد لقومه ، أما والله! إنِّي لأرى قوماً يضربونكم ضرباً ، أما ترون كأن رؤوسهم الأفاعي ، وكأن وجههم السُّيوف. [البزار (١٧٦٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٧٦)] .

وهذا حكيم بن حزام ، يحدِّثنا عن يوم بدرٍ ـ وكان في صفوف المشركين قبل إسلامه ـ قال: خرجنا؛ حتَّى نزلنا العُدْوة الَّتي ذكرها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فجئتُ عُتبةَ بن ربيعة ، فقلت: يا أبا الوليد! هل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت؟ قال: أفعل؛ ماذا؟ قلت: إنَّكم لا تطلبون من محمَّد إلا دم ابن الحَضْرَمِي[(٨٢٥)] وهو حليفُك ، فتحمل ديته ، وترجع بالنَّاس ، فقال: أنت وذاك ، وأنا أتحمَّل ديته ، واذْهبْ إلى ابن الحَنْظَلِيَّة[(٨٢٦)] ـ يعني: أبا جهل ـ فقل له: هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن ابن عمِّك؟ فجئته ، فإذا هو في جماعةٍ من بين يديه ، ومن ورائه ، وإذا ابن الحَضْرَميّ[(٨٢٧)] واقف على رأسه وهو يقول: قد فسخت عقدي من عبد شمس، وعقدي إلى بني مخزومٍ ، فقلت له: يقول لك عُتْبةُ بن ربيعة: هل لك أن ترجع اليوم عن ابن عمِّك بمن معك؟ قال: أما وجد رسولاً غَيْرَك؟ قلت: لا ، ولم أكن لأكون رسولاً لغيره! قال حكيم: فخرجت مبادراً إلى عتبة؛ لئلا يفوتني من الخبر شيءٌ. [ابن هشام (٢/٢٧٤ ـ ٢٧٥) والبيهقي في الدلائل (٣/٦٥ ـ ٦٦)] .

فهذا عتبة بن ربيعة وهو في القيادة من قريشٍ لا يرى داعياً لقتال محمَّد (ص) ، وقد دعا قريشاً إلى ترك محمَّدٍ؛ فإن كان صادقاً فيما يدعو إليه فعِزُّهُ عِزُّ قريش ، ومُلْكُهُ مُلْكُهَا ، وستكون أسعد النَّاس به ، وإن كان كاذباً فسيذوب في العرب ، وينتهي.

ولكنَّ كبرياء الجاهليَّة دائماً في كلِّ زمانٍ ، ومكانٍ لا يمكن أن يترك الحقَّ يتحرَّك؛ لأنَّها تعلم أنَّ انتصارَه معناه: زوالُها من الوجود ، وبقاؤه مكانها[(٨٢٨)].

وهذا عُمَيْر بن وَهْب الجُمَحِي، ترسله قريش ، ليحزر لهم أصحاب محمَّد (ص) ، فَاسْتَجَال حول العسكر ثمَّ رجع إليهم ، فقال: ثلاثمئة رجلٍ ، يزيدون قليلاً ، أو ينقصون ، ولكن

أمهلوني أنظرْ أَلِلْقَوْمِ كمينٌ ، أو مددٌ؟ قال فضرب في الوادي حتَّى أَبْعد ، فلم يرَ شيئاً ، فرجع إليهم ، فقال: ما وجدت شيئاً ، ولكنِّي قد رأيت يا معشرَ قريش ، البلايا[(٨٢٩)] تحمل المنايا[(٨٣٠)] ، نواضح[(٨٣١)] يثرب تحمل الموت النَّاقع[(٨٣٢)] ، قومٌ ليس معهم منعةٌ ، ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله! ما أرى أن يُقتل رجلٌ منهم حتَّى يَقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خيرُ العيش بعد ذلك؟ فَرَوْا رأيَكم![(٨٣٣)].

وهذا أميَّة بن خلف ، رفض الخروج من مكَّة ابتداءً؛ خوفاً من الموت ، «فأتاه أبو جهلٍ ، فقال: يا أبا صفوان! إنَّك متى يراك النَّاسُ قد تخلَّفتَ؛ وأنت سيد أهل الوادي؛ تخلفوا معك ، فلم يزل به أبو جهل حتَّى قال: أما إذْ غلبتني ، فوالله! لأشترينَّ أجود بعيرٍ بمكَّة ، ثمَّ قال أميَّة: يا أمَّ صفوان! جَهِّزيني. فقالت له: يا أبا صفوان! وقد نسيتَ ما قال لك أخوك اليثربيُّ؟ تقصد سعد بن معاذ عندما قال له: سمعت رسول الله (ص) يقول: «إنَّهم قاتلوك» ؟ قال: لا ، ما أريدُ أن أجوزَ معهم إلا قريباً ، فلمَّا خرج أُميَّةُ أخذ لا يتركُ منزلاً إلا عَقَلَ بعيرَه ، فلم يزل بذلك حتَّى قتله اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ ببدرٍ» [البخاري (٣٩٥٠) والبيهقي في الدلائل (٣/٢٥ ـ ٢٧)] .

ومن دهاء أبي جهل ـ لعنه الله ـ أن سلَّط عُقبةَ بن أبي مُعَيْط ، على أميَّةَ بن خلف ، فأتاه عقبةُ بمَجْمَرةٍ يحملها ، فيها نارٌ ومِجْمَر (العود يتبخَّر به) ، حتَّى وضعها بين يديه ، ثمَّ قال: استجمرْ؛ فإنَّما أنت من النِّساء ، قال: قبَّحك الله ، وقبَّح ما جئت به! ثمَّ تجهَّز ، وخرج من النَّاس[(٨٣٤)].

لقد كانت القوَّة المعنويَّة لجيش مكَّة ، متزعزعةً في النُّفوس ، وإن كان مظهره القوَّة ، والعزم ، والثبات ، إلا أنَّ في مخبره الخوفُ ، والجبنُ ، والتردُّد[(٨٣٥)].

وكان لرؤيا عاتكة بنت عبد المطلب أثرٌ على معنويات أهل مكَّة؛ فقد رأت في المنام: أنَّ رجلاً استنفر قريشاً ، وألقى بصخرةٍ من رأس جبل أبي قُبَيْس بمكَّة ، فتفتَّتت ، ودخلت سائر دُورِ قريش ، وقد أثارت الرُّؤيا خصومةً بين العبَّاس ، وأبي جهلٍ ، حتَّى قدم ضَمْضَمُ ،

وأعلمهم بخبر القافلة ، فسكنت مكَّة ، وتأوَّلت الرُّؤيا[(٨٣٦)] ، كما أن جُهَيم بن الصَّلْت بن المطلب بن عبد مناف رأى رؤيا عندما نزلت قريش الجُحْفة ، فقد رأى رجلاً أقبل على فرسٍ حتَّى وقف ، ومعه بعيرٌ له ، ثمَّ قال: قُتل عتبةُ بن ربيعة ، وشيبةُ بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأميَّة بن خلف

، وفلان ، وفلانٌ ، فعدَّد رجالاً ممَّن قُتِلَ يوم بدر من أشراف قريش ، ثمَّ رأيته ضرب في لَبَّة بعيره ، ثمَّ أرسله في العسكر ، فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نَضْحٌ[(٨٣٧)] من دمه ، فلمَّا بلغت أَبا جهل هذه الرُّؤيا ، قال: وهذا أيضاً نبيٌّ اخر من بني المطلب ، سيعلم غداً من المقتول إن نحن التقينا[(٨٣٨)]. كانت تلك الرُّؤَى قد ساهمت بتوفيق الله تعالى ، في إضعاف النَّفسيَّة القرشيَّة المشركة.

ثامناً: الوصف القرانيُّ لمواقع المسلمين والمشركين في أرض المعركة:

قال تعالى: {إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ *} [الأنفال: ٤٢] .

هذه الاية الكريمة توضِّح الأماكن في غزوة بدرٍ ، وصوَّر لنا ـ سبحانه وتعالى ـ الحالة التي كان عليها الجيشان يوم اللقاء ، فقد كان المسلمون بجانب الوادي وحافته الأقرب إلى المدينة ، وكانت أرضه رخوةً ، تغوص فيها الأقدام ، ولم يكن هناك ماءٌ ، وكان الكفَّار بالجانب الاخر من الوادي ـ الأبعد من المدينة ـ وكانت أرضه ثابتةً ، وكان فيها ماءٌ ، وكان ركب العير الَّذي يقوده أبو سفيان بالقرب من ساحل البحر

فقد ذكَّر المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ المؤمنين بنعمته عليهم ، قال: {إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا} أي: اذكروا أيها المؤمنون وقت أن خرجتم من المدينة ، فسرتم حتَّى كنتم أي: بجانب {بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا} ، وحافَّته الأقرب إلى المدينة المنوَّرة أي: والكفار بالجانب الأبعد الأقصى {وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى} الَّذي هو بعيد بالنِّسبة للمدينة ـ أي: وعِيرُ {وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ} سفيان ومن فيها كانت أسفل منكم من ناحية ساحل البحر الأحمر على بُعْدِ ثلاثة أميالٍ منكم.

وفي الاية تصوير ما دبَّر ـ سبحانه ـ من أمر غزوة بدرٍ؛ ليقضي أمراً كان مفعولاً؛ من إعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، حين وعد المسلمين إحدى الطَّائفتين؛ مبهمةً غير مبينةٍ ، حتَّى خرجوا؛

ليأخذوا العير راغبين في الخروج ، وأقلق قريشاً ما بلغهم من تعرُّض المسلمين لأموالهم ، فنفروا؛ ليمنعوا عِيرَهم ، وسبَّب الأسباب حتَّى أناخ هؤلاء بالعدوة الدُّنيا ، وهؤلاء بالعدوة القصوى ، وراءهم العير يحامون عليها ، حتى قامت الحرب على ساقٍ ، وكان ما كان[(٨٣٩)].

وقوله تعالى: بيان لتدبير الله {وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً} ، وإرادته النافذة؛ أي: ولو تواعدتم أنتم وهم على التلاقي للقتال هناك؛ لاختلفتم في الميعاد؛ لكراهتكم

للحرب على قلَّتكم ، وعدم إعدادكم شيئاً من العدَّة لها ، وانحصار همِّكم في أخذ العير ، ولأنَّ غرض الأكثرين منهم كان إنقاذ العير دون القتال أيضاً؛ لأنَّهم كانوا يهابون قتال رسول الله (ص) ، ولا يأمنون نصر الله له؛ لأنَّ كفر أكثرهم به كان عناداً ، أو استكباراً ، لا اعتقاداً أي: ولكن تلاقيتم هنالك على غير {وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً} ، ولا رغبة في القتال؛ ليقضي الله أمراً كان ثابتاً في علمه ، وحكمته: أنَّه واقعٌ لابدَّ منه ، وهو القتال المفضي إلى خزيهم ، ونصركم عليهم ، وإظهار دينه ، وصدق وعده لرسوله (ص) كما تقدَّم[(٨٤٠)].

وقوله تعالى: {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ *}

قال الالوسي: أي: ليموت من يموت عن حجَّةٍ عاينها ، ويعيش من يعيش عن حجَّةٍ شاهدها ، فلا يبقى محلٌّ لتعليلٍ بالأعداد؛ فإنَّ وقعة بدرٍ من الايات الواضحة ، والحجج الغُرِّ المحجَّلة[(٨٤١)].

وقوله: تذييلٌ قُصِدَ به التَّرغيب في {وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ *} ، والتَّرهيب من الكفر ، أي: لا يخفى عليه شيءٌ من أقوال أهل الإيمان ، عليمٌ بما تنطوي عليه قلوبهم ، وضمائرهم . وسيجازي . سبحانه . كلَّ إنسانٍ بما يستحقُّه مِنْ ثوابٍ ، أو عقابٍ على حسب ما يعلم ، وما يسمع عنه[(٨٤٢)].

* * *

المبحث الثَّاني

النَّبيُّ (ص) والمسلمون في ساحة المعركة

أولاً: بناء عريش القيادة:

بعد نزول النَّبيِّ (ص) والمسلمين معه ، على أدنى ماء بدرٍ من المشركين؛ اقترح سعد بن معاذ على رسول الله (ص) بناء عريشٍ له؛ يكون مقرّاً لقيادته ، ويأمن فيه من العدوِّ ، وكان ممَّا قاله سعدٌ في اقتراحه: «يا نبيَّ الله! ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونُعِدُّ عندك ركائبك ، ثم نَلْقَى عدوَّنا ، فإن أعزَّنا الله ، وأظهرنا على عدوِّنا؛ كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى؛ جلستَ على ركائبك ، فلحِقْتَ بمن وراءنا ، فقد تخلَّف عنك أقوامٌ ، يا نبيَّ الله! ما نحن بأشدَّ لك حبّاً منهم ، ولو ظنُّوا أنَّك تلقى حرباً ، ما تخلَّفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ، ويجاهدون معك» فأثنى عليه النَّبيُّ (ص) خيراً ، ودعا

له بخيرٍ ، ثمَّ بنى المسلمون العريش لرسول الله (ص) ، على تلٍّ مشرفٍ على ساحة القتال ، وكان معه فيه أبو بكر رضي الله عنه ، وكانت ثُلَّةٌ من شباب الأنصار ، بقيادة سعد بن معاذٍ ، يحرسون عريش رسول الله (ص) . [ابن هشام (٢/٢٧٢ ـ ٢٧٣) والبيهقي في الدلائل (٣/٤٤)] .

ويُستفاد من بناء العريش أمورٌ؛ منها:

١ ـ لابدَّ أن يكون مكان القادة مشرفاً على أرض المعركة ، يتمكَّن القائد فيه من متابعة المعركة ، وإدارتها.

٢ ـ ينبغي أن يكون مقرُّ القيادة امناً بتوافر الحراسة الكافية له.

٣ ـ ينبغي الاهتمام بحياة القائد ، وصونها من التعرُّض لأيِّ خطرٍ.

٤ ـ ينبغي أن يكون للقائد قوَّةٌ احتياطيَّةٌ أخرى ، تعوِّض الخسائر الَّتي قد تحدث في المعركة[(٨٤٣)].

ثانياً: من نعم الله على المسلمين قبل القتال:

من المِنَنِ[(٨٤٤)] الَّتي منَّ الله بها على عباده المؤمنين يوم بدرٍ: أنَّه أنزل عليهم النُّعَاسَ ، والمطر ، وذلك قبل أن يلتحموا مع أعدائهم ، قال تعالى: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ *} [الأنفال: ١١] .

قال القرطبيُّ: «وكان هذا النُّعاس في الليلة الَّتي كان القتال من غدها ، فكان النَّوم عجيباً مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهمِّ ، ولكنَّ الله ربط جأشهم.

وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارسٌ يوم بدرٍ غير المِقْدَاد على فرسٍ أَبْلَقَ ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائمٌ ، إلا رسول الله (ص) تحت شجرةٍ يُصلِّي ، ويبكي حتَّى أصبح. وفي امتنان الله عليهم بالنَّوم في هذه الليلة وجهانِ:

أحدهما: أنْ قوَّاهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثَّاني: أنْ أمَّنهم بزوال الرُّعب من قلوبهم ، كما يقال: الأمن مُنِيمٌ ، والخوفُ مُسْهِرٌ»[(٨٤٥)].

وبيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّه أكرم المؤمنين بإنزال المطر عليهم ، في وقتٍ لم يكن المعتاد فيه نزول الأمطار ، وذلك فضلاً منه ، وكرماً ، وإسناد هذا الإنزال إلى الله للتَّنبيه على أنَّه أكرمهم به.

قال الإمام الرَّازي: «وقد عُلِم بالعادة: أنَّ المؤمن يكاد يستقذر نفسه إذا كان جنباً ، ويغتمُّ إذا لم يتمكَّن من الاغتسال ، ويضطرب قلبه لأجل هذا السَّبب ، فلا جَرَمَ عدَّ ـ تعالى وتقدَّس ـ تمكينهم من الطَّهارة من جملة نعمه»[(٨٤٦)].

وقوله تعالى: فقد روى {وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ} جريرٍ عن ابن عباس قال: «نزل النَّبي (ص) ـ يعني حين سار إلى بدرٍ ـ والمسلمون بينهم وبين الماء رملةٌ دِعْصَةٌ ـ أي كثيرةٌ مجتمعةٌ ـ فأصاب المسلمين ضعفٌ شديدٌ ، وألقى الشَّيطان في قلوبهم الغيظ ، فوسوس بينهم: (تزعمون: أنَّكم أولياء الله ، وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلون مُجْنِبينَ) ، فأمطر الله عليهم مطراً شديداً ، فشرب المسلمون ، وتطهَّروا ، وأذهب الله عنهم

رجز الشَّيطان ، وثبت الرَّمل حين أصابه المطر ، ومشى النَّاس عليه ، والدَّواب ، فساروا إلى القوم»[(٨٤٧)].

فقد بيَّن ـ سبحانه ـ: أنَّه أنزل على عباده المؤمنين المطر قبل المعركة ، فتطهَّروا به حسِّيّاً ، ومعنويّاً؛ إذ ربط الله به على قلوبهم ، وثبَّت به أقدامهم؛ وذلك: أنَّ النَّاظر في منطقة بدر يجد في المنطقة رمالاً متحرِّكةً لا زالت حتَّى اليوم ، ومن العسير المشي عليها ، ولها غبارٌ كبيرٌ ، فلمَّا نزلت الأمطار تماسكت تلك الرِّمال ، وسَهُل السَّير عليها ، وانطفأ غبارها ، وكلُّ ذلك كان نعمةً من الله على عباده[(٨٤٨)].

ثالثاً: خطَّة الرَّسول (ص) في المعركة[(٨٤٩)]:

ابتكر الرَّسول (ص) في قتاله مع المشركين يوم بدرٍ أسلوباً جديداً في مقاتلة أعداء الله تعالى ، لم يكن معروفاً من قبل؛ حيث قاتل (ص) بنظام الصُّفوف[(٨٥٠)] ، وهذا الأسلوب أشار إليه القران الكريم في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ *} [الصف: ٤] .

وصفة هذا الأسلوب: أن يكون المقاتلون على هيئة صفوف الصَّلاة ، وتقلُّ هذه الصُّفوف ، أو تكثر تَبَعاً لقلة المقاتلين ، أو كثرتهم ، وتكون الصُّفوف الأولى من أصحاب الرِّماح؛ لصدِّ هجمات الفُرْسان ، وتكون الصُّفوف الَّتي خلفها من أصحاب النِّبال؛ لتسديدها من المهاجمين على الأعداء ، وكان من فوائد هذا الأسلوب في غزوة بدرٍ:

١ ـ إرهاب الأعداء ، ودلالةٌ على حسن وترتيب النِّظام عند المسلمين.

٢ ـ جعل في يد القائد الأعلى (ص) قوَّة احتياطيَّة ، عالج بها المواقف المفاجئة في صدِّ هجومٍ معاكس ، أو ضرب كمينٍ غير متوقَّعٍ ، واستفاد منه في حماية الأجنحة من خطر المشاة ، والفُرْسان ، ويعد تطبيق

هذا الأسلوب لأوَّل مرَّةٍ في غزوة بدرٍ سبقاً عسكريّاً ، تميَّزت به المدرسة العسكريَّة الإسلاميَّة على غيرها منذ أربعةَ عَشَرَ قرناً من الزَّمان[(٨٥١)].

ويظهر للباحث في السِّيرة النَّبويَّة: أنَّ النَّبيَّ (ص) كان يباغت خصومه ببعض الأساليب القتالية الجديدة ، وخاصَّةً تلك الَّتي لم يعهدْها العرب من قبل ، على نحو ما قام به النَّبيُّ (ص) في يوم بدرٍ ، وأُحدٍ ، وغيرهما.

فقد كانت العرب تقاتل بأسلوب الكَرِّ والفَرِّ ، وقد علَّق اللواء محمود شيت خطَّاب على كلا الأسلوبين القتاليين بقوله: «إنَّ القتال بأسلوب الكرِّ ، والفرِّ ، هو أن يهجم المقاتلون بكلِّ قوَّتهم على العدوِّ؛ النَّشابة منهم ، والَّذين يقاتلون بالسُّيوف ، ويطعنون بالرِّماح ، مشاةً ، وفُرْساناً ، فإن ثبت لهم العدوُّ ، أو أحسُّوا بالضَّعف؛ نكصوا ، ثمَّ أعادوا تنظيمهم ، وكَرُّوا من جديدٍ ، وهكذا يكرُّون ، ويفرُّون حتَّى يكتب لهم النَّصر ، أو الاندحار.

والقتال بأسلوب الصَّفِّ يكون بترتيب المقاتلين صفَّين ، أو ثلاثة صفوفٍ ، أو أكثر ، على حسب عددهم ، وتكون الصُّفوف الأماميَّة من المسلمين مسلحةً بالرِّماح؛ لصدِّ هجمات الفُرْسان ، وتكون الصُّفوف المتعاقبة الأخرى مزوَّدةً بالنِّبال؛ لرمي المهاجمين من الأعداء.

وتبقى الصُّفوف بقيادة قائدها ، وسيطرته إلى أن يفتقد هجوم أصحاب الكرِّ ، والفرِّ زخمه وشدَّته ، عند ذاك تتقدَّم الصُّفوف متعاقبةً متساندةً للزَّحف على العدوِّ ، ومطاردته عند هزيمته.

ويرى اللِّواء (خطاب) أنَّ أسلوب الصَّفِّ يتميَّز عن أسلوب الكرِّ ، والفرِّ ، بأنَّه يؤمن التَّرتيب (بالعمق) ، فتبقى دائماً بيد القائد قوَّةٌ احتياطيَّة يعالج بها المواقف التي ليست بالحسبان؛ كأن يصدَّ هجوماً مقابلاً للعدو ، أو يضرب كميناً لم يتوقعه ، أو يحمي الأجنحة الَّتي يهددها العدوُّ بفُرْسانه ، أو مشاته ، ثمَّ يستثمر الفوز بهذا الاحتياط عند الحاجة»[(٨٥٢)].

وقد تحدَّث ابن خلدون عن الأساليب القتاليَّة الجديدة؛ الَّتي استحدثها النَّبيُّ (ص) في معاركه ، والَّتي لم يكن للعرب عهدٌ بها ، فقال مشيراً إلى ذلك: «وكان أسلوب الحرب أوَّل الإسلام كلُّه زحفاً ، وكان العرب إنَّما يعرفون الكرَّ ، والفرَّ...»[(٨٥٣)].

وبيَّن أفضلية الأساليب الَّتي استحدثها النَّبيُّ (ص) بقوله: «وقتال الزَّحف أوثق وأشدُّ من قتال الكرِّ ، والفرِّ؛ وذلك لأنَّ قتال الزَّحف ترتب فيه الصُّفوف ، وتسوَّى كما تسوى القداح ، أو صفوف الصَّلاة ،

ويمشون بصفوفهم إلى العدوِّ قُدُماً؛ فلذلك تكون أثبت عند المصارع ، وأصدق في القتال ، وأرهب للعدوِّ؛ لأنَّه كالحائط الممتدِّ ، والقصر المشيد لا يطمع في إزالته»[(٨٥٤)].

ومن جهة النَّظرة العسكرية فإنَّ هذه الأساليب تدعو إلى الإعجاب بشخصيَّة النَّبيِّ (ص) ،

وبراعته العسكريَّة؛ لأنَّ التَّعليمات العسكريَّة الَّتي كان يصدرها خلال تطبيقه لها ، تطابق تماماً الأصول الحديثة في استخدام الأسلحة[(٨٥٥)].

وتفصيل ذلك: فقد اتَّبع (ص) أسلوب الدِّفاع ولم يهاجم قوَّة قريشٍ ، وكانت توجيهاته التَّكتيكيَّة الَّتي نفَّذها جنودُه بكلِّ دقَّةٍ سبباً في زعزعة مركز العدوِّ ، وإضعاف نفسيته؛ وبذلك تحقَّق النَّصر الحاسم . بتوفيق الله . على العدوِّ برغم تفوُّقه[(٨٥٦)] (بنسبة ٣ إلى ١) ، فقد كان (ص) يتصرَّف في كلِّ موقف حسب ما تدعو إليه المصلحة؛ وذلك لاختلاف مقتضيات الأحوال ، والظروف ، وقد طبَّق الرَّسول (ص) في الجانب العسكريِّ أسلوب القيادة التَّوجيهيَّة في مكانها الصَّحيح ، أمَّا أخذه بالأسلوب الإقناعيِّ في غزوة بدرٍ؛ فقد تجلَّى في ممارسة فقه الاستشارة في مواضعَ متعدِّدةٍ؛ لأنَّه (ص) لا يقود جنده بمقتضى السُّلطة؛ بل بالكفاءة ، والثِّقة ، وهو (ص) أيضاً لا يستبدُّ برأيه ، بل يتَّبع مبدأ الشُّورى ، وينزل على الرَّأي الَّذي يبدو صوابه ، ومارس (ص) في غزوة بدرٍ أسلوب القيادة التَّوجيهيَّة ، فقد تجلَّى في أمورٍ؛ منها[(٨٥٧)]:

الأمر الأوَّل: أمره (ص) الصَّحابة برمي الأعداء؛ إذا اقتربوا منهم؛ لأنَّ الرَّمي يكون أقربَ إلى الإصابة في هذه الحالة: «إن دنا القوم منكم؛ فانضحُوهم[(٨٥٨)] بالنَّبْل» [ابن هشام (٢/٢٧٨) والبيهقي في الدلائل (٣/٨١)] .

الأمر الثاني: نهيه (ص) عن سلِّ السيوف إلى أن تتداخل الصُّفوف[(٨٥٩)]: «ولا تسلُّوا السُّيوف حتَّى يغشوكم» [أبو داود (٢٦٦٤)] .

الأمر الثالث: أمره (ص) الصَّحابة بالاقتصاد في الرَّمي[(٨٦٠)]: «واسْتَبْقُوا نَبْلَكم» [البخاري (٣٩٨٤/٢) و٣٩٨٥) وأبو داود (٢٦٦٣)].

وعندما تقارن هذه التَّعليمات الحربيَّة بالمبادأى الحديثة في الدِّفاع؛ تجد أنَّ رسول الله (ص) كان سباقاً إليها ، من غير عكوفٍ على الدَّرس ، ولا التحاقٍ بالكلِّيات الحربيَّة ، فالنَّبيُّ (ص) يرمي

مِنْ وراء تعليماته الَّتي استعرضناها انفاً إلى تحقيق ما يُعرف حديثاً بكبت النِّيران إلى اللحظة الَّتي يصبح فيها العدوُّ في المدى المؤثِّر لهذه الأسلحة ، وهذا ما قصده (ص) في قوله: «واسْتَبْقوا نَبْلكم» [سبق تخريجه] .

فرصة الاستفادة من الظُّروف الطَّبيعية أثناء قتال الأعداء:

ولم يهملْ (ص) فرصةَ الاستفادة من الظروف الطَّبيعية أثناء قتال العدوِّ ، فقد كان يستفيد من كلِّ الظُّروف في ميدان المعركة لمصلحة جيشه ، ومن الأمثلة على ذلك ما فعله (ص) قبل بدء القتال يوم بدرٍ ، يقول المقريزي: «وأصبح (ص) ببدرٍ قبل أن تنزل قريش ، فطلعت الشَّمس وهو يصفُّهم ، فاستقبل المغرب ، وجعل الشَّمس خلفه ، فاستقبلوا الشَّمس»[(٨٦١)].

وهذا التَّصرُّف يدلُّ على حسن تدبيره (ص) ، واستفادته حتَّى من الظُّروف الطَّبيعية ، لما يحقِّق المصلحة لجيشه؛ وإنَّما فعل ذلك لأنَّ الشَّمس إذا كانت في وجه المقاتل ، تسبِّب له عَشَا[(٨٦٢)] البصر؛ فتقلُّ مقاومته ، ومجابهته لعدوِّه[(٨٦٣)]. وفيما فعله رسول الله (ص) يوم بدرٍ إشارةٌ إلى أنَّ الظروف الطَّبيعيَّة كالشَّمس ، والرِّيح ، والتَّضاريس الجغرافيَّة ، وغيرها لها تأثيرٌ عظيمٌ على موازين القوى في المعارك ، وهي من الأسباب الَّتي طلب الله منَّا الأخذ بها؛ لتحقيق النَّصر ، والصُّعود إلى المعالي[(٨٦٤)].

سَوَّاد بن غَزِيَّة في الصفوف:

كان (ص) في بدرٍ يعدِّل الصُّفوف ، ويقوم بتسويتها؛ لكي تكون مستقيمةً ، متراصةً؛ وبيده سَهْمٌ لا ريش له ، يُعَدِّل به الصَّف ، فرأى رجلاً اسمه سَوَّاد بن غَزِيَّة وقد خرج من الصَّفِّ ، فطعنه (ص) في بطنه ، وقال له: «استوِ يا سَوَّاد!» فقال: يا رسولَ الله! أَوْجَعْتَنِي! وقد بعثك الله بالحقِّ ، والعدل ، فأَقِدْني[(٨٦٥)] ، فكشف رسول الله (ص) عن بطنه ، وقال: «استَقِدْ» ، فاعتنقه ، فقبَّل بطنه ، فقال: «ما حملك على هذا يا سَوَّاد!» قال: يا رسولَ الله! حضر ما ترى؛ فأردت أن يكون اخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلْدَك. فدعا له رسول الله بخير. [ابن هشام (٢/٢٧٨ ـ ٢٧٩)].

ويُستفاد من قصَّة سَوَّاد رضي الله عنه أمورٌ؛ منها:

١ ـ حرص الإسلام على النِّظام.

٢ ـ العدل المطلق: فقد أعطى رسول الله (ص) القَوَد من نفسه.

٣ ـ حب الجندي لقائده.

٤ ـ تذكُّر الموت ، والشَّهادة.

٥ . جسد رسول الله (ص) مباركٌ ، ومسُّه فيه بركةٌ؛ ولهذا حرص عليها سَوَّاد.

٦ . بطن الرَّجل ليس بعورةٍ؛ بدليل: أنَّ النبي (ص) كشف عنه ، ولو كان عورةً؛ لما كشف عنه[(٨٦٦)].

تحريض النَّبيِّ (ص) أصحابه على القتال:

كان رسولُ الله (ص) يربِّي أصحابَه على أن يكونوا أصحاب إراداتٍ قويَّةٍ ، راسخةٍ، ثابتةٍ ، ثبات الشُّمِّ[(٨٦٧)] الرَّواسي ، فيملأ قلوبهم شجاعةً ، وجرأةً ، وأملاً في النَّصر على الأعداء ، وكان يسلك في سبيل تكوين هذه الإرادة القويَّة أسلوب التَّرغيب والتَّرهيب؛ التَّرغيب في أجر المجاهدين الثَّابتين ، والتَّرهيب من التولِّي يوم الزَّحف ، والفرار من ساحات الوَغَى[(٨٦٨)] ، كما كان يحدِّثهم عن عوامل النَّصر ، وأسبابه؛ ليأخذوا بها ، ويلتزموها ، ويحذِّرهم من أسباب الهزيمة؛ ليقلعوا عنها ، وينأوا بأنفسهم عن الاقتراب منها[(٨٦٩)].

وكان (ص) يحثُّ أصحابه على القتال ، ويحرِّضهم عليه؛ امتثالاً لقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ} [الأنفال: ٦٥] ، وقوله تعالى: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً *} [النساء: ٨٤] .

وفي غزوة بدرٍ الكبرى ، قال رسول الله (ص) لأصحابه: «قوموا إلى جنَّةٍ عرضها السَّموات، والأرض»، فقال عُمَيْرُ بنُ الحُمَامِ الأنصاريُّ رضي الله عنه: يا رسولَ الله! جَنَّةٌ عرضُها السَّموات والأَرضُ؟! قال: «نعم» قال: بَخٍ ، بخٍ! (كلمة تعجب) ، فقال رسول الله (ص) : «ما يحملُك على قولك: بَخٍ بَخٍ؟!» قال: لا والله! يا رسولَ الله! إلا رجاءَ أن أكون من أهلها. قال: «فإنَّك من أهلها» فأخرج تمراتٍ من قَرَنِهِ (جعْبَة النُّشَّاب) ، فجعل يأكل منهنَّ ، ثم قال: لئن أنا حَيِيتُ حتَّى

اكل تمراتي هذه ، إنَّها لحياةٌ طويلةٌ، قال: فرمى بما كان معه من التَّمر، ثمَّ قاتلهم حتَّى قُتل. [مسلم (١٩٠١)] .

وفي روايةٍ قال: قال أنسٌ رضي الله عنه: فرمى ما كان معه من التَّمر ، وقاتل؛ وهو يقول:

رَكْضاً إلى اللهِ بِغَيْرِ زَادِإلا التُّقَى وَعَمَلَ المعَادِ

والصَّبْرَ في الله على الجِهَادِوكُلُّ زادٍ عُرْضَةُ النَّفَادِ

غَيْرَ التُّقَى والبِرِّ والرَّشَادِ

فقاتل ـ رحمه الله! ـ حتَّى استُشْهِد[(٨٧٠)].

ومن صور التَّعبئة المعنويَّة: أنَّه (ص) كان يبشِّرهم بقتل صَنَادِيد[(٨٧١)] المشركين ، وزيادةً لهم في الطُّمأْنينة ، كان يحدِّد مكان قتل كلِّ واحدٍ منهم[(٨٧٢)] ، كما كان يبشِّر المؤمنين بالنَّصر قبل بدء القتال ، فيقول: «أبشرْ أبا بكر» ووقف رسول الله (ص) يقول للصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ: «والذي نفسُ محمد بيده! لا يُقاتلهم اليومَ رجلٌ ، فَيُقْتَل صابراً محتسباً ، مقبلاً غيرَ مُدْبرٍ ، إلا أدخله الله الجنَّة» [ابن هشام (٢٧٩/٢)] .

وقد أثَّرت هذه التَّعبئة المعنويَّة في نفوس أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ والَّذين جاؤوا من بعدهم بإحسانٍ[(٨٧٣)].

وكان (ص) يطلب من المسلمين ألاَّ يتقدمَ أحدٌ إلى شيءٍ حتَّى يكون دونه ، فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: .... فانطلق رسول الله (ص) ، وأصحابه حتَّى سبقوا المشركين إلى بدرٍ ، وجاء المشركون ، فقال رسول الله (ص) : «لا يَقْدُمَنَّ أحدٌ منكم إلى شيءٍ حتى أكون أنا دونه»[(٨٧٤)] ، فدنا المشركون ، فقال رسول الله (ص) : «قوموا إلى جنَّةٍ عَرْضُها السمواتُ والأرضُ» [سبق تخريجه] .

دعاؤه (ص) واستغاثته:

قال تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ *} [الأنفال: ٩] ، لما نظم (ص) صفوف جيشه ، وأصدر أوامره لهم ، وحرَّضهم على القتالِ؛ رجع

إلى العريش الَّذي بُني له ، ومعه صاحبه أبو بكرٍ رضي الله عنه ، وسعد بن معاذٍ على باب العريش لحراسته؛ وهو شاهرٌ سَيْفَه ، واتَّجه رسول الله (ص) إلى ربِّه يدعوه ، ويناشده النَّصر الَّذي وعده ، ويقول في دعائه: «اللَّهمَّ أَنْجِزْ لي ما وعدتني! اللَّهُمَّ اتِ ما وعدتني! اللَّهُمَّ إن تُهْلِكْ هذه العصابةَ من أهل الإسلام لا تُعْبدْ في الأرض!» فما زال يهتفُ بربِّه ، مادّاً يديه ، مستقبلَ القبلة ، حتَّى سقط رداؤُهُ عن مَنْكَبيه ، فأتاه أبو بكرٍ ، فأخذ ردَاءَهُ ، فألقاه على مَنْكبيه ، ثمَّ التزمه من ورائه ، وقال: يا نبيَّ الله! كفاك مناشدتُك ربَّك ، فإنَّه سينجز لكَ ما وعدك! [مسلم (١٧٦٣) وأبو داود (٢٦٩٠) والترمذي (٣٠٨١) وأحمد (٣٠/١)]. فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ}

وفي رواية ابن عباسٍ قال: قال النَّبيُّ (ص) يوم بدرٍ: «اللَّهمَّ أنشُدُكَ عَهْدَكَ، ووعدك! اللَّهُمَّ إن شئتَ لم تُعْبَدْ» فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك، فخرج (ص) ؛ وهو يقول: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ *} (٢٩١٥) وأحمد (٣٢٩/١) والبيهقي في الدلائل (٥٠/٣)].

وروى ابن إسحاق: أنَّه (ص) قال: «اللَّهُمَّ هذه قريش ، قد أقبلت بخُيَلائها[(٨٧٥)] ، وفَخْرها ، تُحَادُّك[(٨٧٦)] وتكذِّبُ رسولَك ، اللَّهُمَّ فنصرَك الَّذي وعدتني! اللَّهُم أحنهم[(٨٧٧)] الغداة!» [ابن هشام (٢٧٣/٢) والبيهقي في الدلائل (١١٠/٣)] .

وهذا درسٌ ربَّانيٌّ مهمٌّ لكلِّ قائدٍ ، أو حاكمٍ ، أو زعيمٍ ، أو فردٍ في التَّجرُّد من النَّفس. وحظِّها ، والخلوص ، واللُّجوء لله وحدَه ، والسُّجود ، والجُثُوِّ بين يدي الله سبحانه؛ لكي ينزل نصره ، ويبقى مشهد نبيِّه؛ وقد سقط رداؤه عن كتفه؛ وهو مادٌّ يديه يستغيث بالله ، يبقى هذا المشهد محفوراً بقلبه ، ووجدانه ، يحاول تنفيذه في مثل هذه السَّاعات ، وفي مثل هذه المواطن ، حيث تناط به المسؤوليَّة ، وتُلقى عليه أعباء القيادة[(٨٧٨)].

{وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى}

بعد أن دعا (ص) ربَّه في العريش ، واستغاث به ، خرج من العريش ، فأخذ قبضةً من التُّراب ، وحصب بها وجوهَ المشركين ، وقال (ص) : «شاهتِ الوجوه» [ابن هشام (٢٨٠/٢)] ثمَّ أمر (ص) أصحابه أن يَصْدُقوا الحملة إثرها ، ففعلوا ، فأوصل الله تعالى تلك الحصباء إلى أعين

المشركين ، فلم يبقَ أحدٌ منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ، ولهذا قال الله تعالى: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} [الأنفال: ١٧] ، ومعنى الاية: أنَّ الله سبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرَّمي ، ونفى عنه الإيصال الَّذي لم يحصل برميته[(٨٧٩)].

ونلحظ: أنَّ الرَّسول (ص) أخذ بالأسباب المادِّيَّة ، والمعنويَّة ، وتوكَّل على الله ، فكان النَّصر والتَّأييد من الله تعالى؛ فقد اجتمع في بدرٍ الأخذ بالأسباب بالقَدْرِ الممكن ، مع التَّوفيق الرَّبَّانِيِّ في تهيئة جميع أسباب النَّصر متعاونةً ، متكافئةً مع التأييدات الرَّبَّانيَّة الخارقة ، والغيبيَّة؛ ففي عالم الأسباب تشكِّل دراسة الأرض ، والطَّقس ، ووجود القيادة والثِّقة بها ، والرُّوح المعنويَّة لبناتٍ أساسيةً في صحَّة القرار العسكريِّ ، ولقد كانت الأرض لمصلحة المسلمين ، وكان الطَّقس مناسباً للمعركة ، والقيادة الرَّفيعة موجودةً ، والثِّقة بها كبيرة ، والرُّوح المعنويَّة مرتفعة ، وبعض هذه المعاني كان من الله بشكلٍ مباشرٍ ، وتوفيقه ، وبعضها كان من فِعْلِ رسول الله (ص) أخذاً بالأسباب المطلوبة ، فتضافر الأخذ بالأسباب مع توفيق الله ، وزيدَ على ذلك التأييدات الغيبيَّة ، والخارقة؛ فكان ما كان ، وذلك نموذجٌ على ما يُعطاه المسلمون بفضل الله ، إذا ما صلحت النِّيَّات عند الجند ، والقادة ، ووجدت الاستقامة على أمر الله ، وأخذ المسلمون بالأسباب[(٨٨٠)].

* * *

المبحث الثَّالث

نشوب القتال وهزيمة المشركين

اندلع القتال بين المسلمين والمشركين بالمبارزات الفرديَّة ، فخرج من جيش المشركين عتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبة بن ربيعة ، وابنه الوليد ، وطلبوا المبارزة ، فخرج إليهم ثلاثةٌ من الأنصار؛ ولكنَّ الرَّسول (ص) أرجعهم؛ لأنَّه أحبَّ أن يبارزهم بعض أهله ، وذوي قرباه؛ ولذلك قال (ص) : «قم يا عُبيدة بن الحارث! وقم يا حمزة! وقم يا علي!» وبارز حمزةُ شيبةَ ، فقتله ، وبارز عليٌّ الوليدَ ، وقتله ، وبارز عبيدةُ بن الحارث عتبةَ ، فضرب كلُّ واحدٍ منهما الاخر بضربةٍ موجعةٍ ، فكرَّ حمزة ، وعليٌّ على عتبة فقتلاه ، وحملا عبيدة ، وأتيا به إلى رسول الله (ص) ، ولكن ما لبث أن اسْتُشهد متأثراً بجراحه. [أبو داود (٢٦٦٥)][(٨٨١)] .

وفي هؤلاء السِّتَّة نزل قوله تعالى: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ *يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ *وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ *كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ *إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ *وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ *} [الحج: ١٩ ـ ٢٤].

ولما شاهد المشركون قَتْلَ الثلاثة الَّذين خرجوا للمبارزة؛ استشاطوا غضباً ، وهجموا على المسلمين هجوماً عاماً ، صمد ، وثبت له المسلمون ، وهم واقفون موقف الدِّفاع ، ويرمونهم بالنَّبل ، كما أمرهم النَّبيُّ (ص) ، وكان شعار المسلمين: أَحَدٌ ، أحَدٌ ، ثمَّ أمرهم النَّبيُّ (ص) بالهجوم المضادِّ ، محرِّضاً لهم على القتال ، وقائلاً لهم: «شُدُّوا» ، وواعداً مَنْ يُقتل صابراً محتسباً بأنَّ له الجنَّة ، وممَّا زاد في نشاط المسلمين ، واندفاعهم في القتال ، سماعُهم قولَ النَّبيِّ (ص) : {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ *} [القمر: ٤٥] ، وعِلْمُهم ، وإحساسُهم بإمداد الله لهم بالملائكة ، وبتقليل المشركين في أعين المسلمين ، ورؤيتهم رسولَ الله (ص) يَثبُ في الدِّرع وقد تقدَّمهم ، فلم يكن أحدٌ أقرب من المشركين منه ، وهو يقول: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ *}[(٨٨٢)]

كان (ص) قد رأى في منامه ـ ليلة اليوم الَّذي التقى فيه الجيشان ، رأى ـ المشركين قليلاً ، وقد قصَّ رؤياه على أصحابه؛ فاستبشروا خيراً ، قال تعالى: {إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ *} [الأنفال: ٤٣] .

والمعنى: أنَّ النَّبيَّ (ص) راهم ـ أي: رأى المشركين ـ في منامه قليلاً ، فقصَّ ذلك على أصحابه؛ فكان ذلك سبباً لثباتهم ، قال مجاهد: ولو راهم في منامه كثيراً؛ لفشلوا ، وجبنوا على قتالهم ، ولتنازعوا في الأمر: هل يلاقونهم أم لا؟ والمضارع في الاية بمعنى الماضي؛ لأنَّ نزول الاية كان بعد الإراءة في المنام ، أي: عصمهم من الفشل، والتنازع، فقلَّلهم في عين {وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ} الله (ص)[(٨٨٢)] ، فقصَّ رؤياه على أصحابه، فكان في ذلك تثبيتٌ لهم، وتشجيعهم، وجرأتهم على عدوِّهم، وعند لقاء جيش المسلمين مع جيش المشركين رأى كلٌّ منهم عدد الاخر قليلاً.

قال تعالى: {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ *} [الأنفال: ٤٤] .

وإنما قلَّلهم في أعين المسلمين؛ تصديقاً لرؤيا النَّبي (ص) ، وليعاينوا ما أخبرهم به ، فيزدادوا يقيناً ، ويجدُّوا في قتالهم؛ ويثبتوا ، قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مئة ، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفاً ، وقوله تعالى: حتَّى قال قائل من المشركين: إنَّما هم أكلة {وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ}

ووجه الحكمة ، واللُّطف بالمسلمين في هذا التَّقليل ، هو أنَّ إراءة المسلمين عدد الكافرين قليلاً ثبَّتهم ، ونشَّطهم ، وجرَّأهم على قتال المشركين ، ونزع الخوف من قلوب المسلمين من أعدائهم ، ووجه الحكمة في تقليل المسلمين في أعين المشركين ، هو أنَّهم إذا رأوهم قليلاً؛ أقدموا على قتالهم غيرَ خائفين ، ولا مبالين بهم ، ولا اخذين الحذر منهم ، فلا يقاتلون بجدٍّ ، واستعدادٍ ، ويقظةٍ ، وتحرُّزٍ ، ثمَّ إذا ما التحموا بالقتال فعلاً؛ تفجؤهم الكثرة ، فَيُبْهَتُوا ، ويَهَابُوا ، وتكسر شوكتُهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم ، وتقديرهم ، فيكون ذلك من أسباب خذلانهم ، وانتصار المسلمين عليهم[(٨٨٣)].

أولاً: إمداد الله للمسلمين بالملائكة:

ثبت من نصوص القران الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة ، ومرويات عددٍ من الصحابة البدريين: أنَّ الله تعالى ألقى في قلوب الذين كفروا الرُّعب.

قال تعالى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ *} ١٢] ، وقال تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُنْزَلِينَ *بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ *وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ *} [آل عمران: ١٢٣ ـ ١٢٦].

وأورد البخاريُّ ، ومسلمٌ ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهم عدداً من الأحاديث الصَّحيحة الَّتي تشير إلى مشاركة الملائكة في معركة بدرٍ ، وقيامهم بضرب المشركين ، وقتلهم[(٨٨٤)].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال: بينما رجلٌ من المسلمين يومئذٍ ، يَشْتَدُّ في أَثَرِ رجلٍ من المشركين أمامه؛ إذ سمع ضربةً بالسَّوْط فوقه ، وصوتَ الفارس يقول: أَقْدِمْ حَيْزُومُ[(٨٨٥)]! فنظر إلى المشرك أمامه فخرَّ مستلقياً ، فنظر إليه فإذا هو خُطِمَ أنفُه[(٨٨٦)]، وشُقَّ وَجْهُهُ كضربة السَّوط ، فاخْضَرَّ ذلك أَجْمَعُ، فجاء الأنصاريُّ ، فحدَّثَ بذلك رسولَ الله، فقال: «صدقتَ ، ذلك من مَدَدِ السَّماء الثالثة» ، [سبق تخريجه] ومن حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما ـ أيضاً ـ قال: إنَّ النبي (ص) قال يوم بدرٍ: «هذا جبريلُ اخِذٌ برأس فرسه ، عليه أداةُ الحرب» [البخاري (٣٩٩٥)] ، ومن حديث عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: فجاء رجلٌ من الأنصار قصيرٌ بالعباس بن عبد المطَّلب أسيراً، فقال العباس: يا رسولَ الله! إنَّ هذا والله! ما أسرني، لقد أسرني رجل أَجْلَحُ[(٨٨٧)]، من أحسن النَّاس وجهاً ، على فرسٍ أَبْلَقَ[(٨٨٨)] ، وما أراه في القوم ، فقال الأنصاريُّ: أنا أسرته يا رسولَ الله! فقال: «اسكت، فقد أيَّدك الله بملكٍ كريمٍ» ، [أحمد (١/١١٧)] ، ومن حديث أبي داود المازنيّ قال: «إنِّي لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه؛ إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنَّه قتله غيري» [أحمد (٥/٤٥٠) وابن هشام (٢/٢٨٦)] .

«إنَّ إمداد الله تعالى للمؤمنين بالملائكة أمر قطعيٌّ ثابتٌ ، لاشكَّ فيه ، وإنَّ الحكمة من هذا الإمداد تحصيل ما يكون سبباً لانتصار المسلمين ، وهذا ما حصل بنزول الملائكة ، فقد قاموا بكلِّ ما يمكن أن يكون سبباً لنصر المسلمين ، من تبشيرهم بالنَّصر ، ومن تثبيتهم بما ألقوه في

قلوبهم؛ من بواعث الأمل في نصرهم ، والنَّشاط في قتالهم ، وبما أظهروه لهم من أنَّهم مُعانون من الله تعالى ، وأيضاً بما قام به بعضهم من الاشتراك الفعليِّ في القتال ، ولاشكَّ: أنَّ هذا الاشتراك الفعليَّ في

القتال قوَّى قلوبَهم ، وثبَّتهم في القتال ، وهذا ما دلَّت عليه الايات ، وصرَّحت به الأحاديث النَّبوية»[(٨٨٩)].

وقد يسأل سائل: ما الحكمة في إمداد المسلمين بالملائكة ، مع أنَّ واحداً من الملائكة كجبريل عليه السَّلام ، قادرٌ ـ بتوفيق الله ـ على إبادة الكفَّار؟

وقد أجاب الأستاذ عبد الكريم زيدان على ذلك ، فقال: لقد مضت سنَّة الله بتدافع الحقِّ ، وأهله مع الباطل ، وأهله ، وأنَّ الغلبة تكون وَفْقاً لسنن الله في الغلبة ، والانتصار ، وأنَّ هذا التَّدافع يقع في الأصل بين أهل الجانبين: الحقِّ والباطل ، ومن ثمرات التمسُّك بالحقِّ ، والقيام بمتطلَّباته أن يحصلوا على عونٍ ، وتأييد من الله تعالى بأشكالٍ ، وأنواعٍ متعدِّدة من التأييد ، والعون ، ولكن تبقى المدافعة ، والتدافع يجريان وَفْقاً لسنن الله فيهما ، وفي نتيجة هذا التَّدافع ، فالجهة الأقوى بكلِّ معاني القوَّة اللازمة للغلبة هي الَّتي تغلب ، فالإمداد بالملائكة هو بعض ثمرات إيمان تلك العصبة المجاهدة ، ذلك الإمداد الَّذي تحقَّق به ما يستلزم الغلبة على العدوِّ ، ولكن بقيت الغلبة موقوفةً على ما قدَّمه أولئك المؤمنون في قتالٍ ، ومباشرة لأعمال القتال ، وتعرُّضهم للقتل ، وصمودهم ، وثباتهم في الحرب ، واستدامة توكُّلهم على الله ، واعتمادهم عليه ، وثقتهم به ، وهذه معانٍ جعلها الله حسب سننه في الحياة أسباباً للغلبة ، والنَّصر مع الأسباب الأخرى المادِّية؛ مثل العُدَّة ، والعَدد ، والاستعداد للحرب ، وتعلُّم فنونها ... إلخ ، ولهذا فإنَّ الإسلام يدعو المسلمين إلى أن يباشروا بأنفسهم إزهاق الباطل ، وقتال المبطلين ، وأن يهيئوا الأسباب المادِّيَّة ، والإيمانيّة للغلبة والانتصار ، وبأيديهم ـ إن شاء الله تعالى ـ ينال المبطلون ما يستحقُّونه من العقاب[(٨٩٠)] ، قال تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ *وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *} [التوبة: ١٤ ـ ١٥] .

إنَّ نزول الملائكة ـ عليهم السَّلام ـ من السَّموات العلا إلى الأرض؛ لنصر المؤمنين حدثٌ عظيمٌ؛ إنَّه قوَّةٌ عظمى ، وثباتٌ راسخٌ للمؤمنين؛ حينما يوقنون بأنهم ليسوا وحدهم في الميدان ، وأنَّهم إذا حققوا أسباب النَّصر ، واجتنبوا موانعه ، فإنَّهم أهلٌ لمدد السَّماء ، وهذا الشُّعور يعطيهم جرأةً في مقابلة الأعداء ، وإن كان ذلك على سبيل المغامرة ، لبُعد التكافؤ

المادِّيِّ بين جيش الكفار الكبيرِ عدداً ، القويِّ إعداداً ، وجيش المؤمنين القليلِ عدداً ، الضعيفِ إعداداً.

وهو في الوقت نفسه عاملٌ قويٌّ في تحطيم معنوية الكفَّارِ ، وزعزعة يقينهم ، وذلك حينما يشيع في صفوفهم احتمال تَكْرَار نزول الملائكة؛ الَّذين شاهدهم بعض الكفَّار عَيَاناً ، إنَّهم مهما قدَّروا قوَّة المسلمين ، وعددهم؛ فإنَّه سيبقى في وجدانهم رعبٌ مزلزِلٌ من احتمال مشاركة قوىً غير منظورةٍ ، لا يعلمون عددها ، ولا يقدِّرون مدى قوَّتها ، وقد رافق هذا الشُّعورُ المؤمنين في كلِّ حروبهم؛ الَّتي خاضها الصَّحابة رضي الله عنهم في العهد النَّبويِّ ، وفي عهد الخلفاء الرَّاشدين ، كما رافق بعض المؤمنين بعد ذلك ، فكان عاملاً قويّاً في انتصاراتهم المتكرِّرة الحاسمة مع أعدائهم[(٨٩١)].

ثانياً: انتصار المسلمين على المشركين ، وحديث رسول الله (ص) لأهل القَليب[(٨٩٢)]:

انتهت معركة بدرٍ بانتصار المسلمين على المشركين ، وكان قتلى المشركينَ سبعين رجلاً ، وأُسِر منهم سبعون ، وكان أكثرهم من قادة قريش ، وزعمائهم ، واسْتُشهد من المسلمين أربعةَ عَشَرَ رجلاً ، منهم ستَّةٌ من المهاجرين ، وثمانيةٌ من الأنصار، ولما تمَّ الفتحُ ، وانهزم المشركون؛ أرسل (ص) عبدَ الله بن رَوَاحة ، وزيدَ بن حارثة، ليبشِّرا المسلمين في المدينة بنصر الله للمسلمين، وهزيمة المشركين[(٨٩٣)].

ومكث (ص) ثلاثة أيَّام في بدرٍ ، فقد ذكر أنس بن مالكٍ عن أبي طلحة: «أنَّ نبيَّ الله (ص) ... وكان إذا ظَهَرَ على قومٍ: أقام بالعَرْصَة ثلاثَ ليالٍ» [البخاري (٣٩٧٦)] ولعلَّ الحكمة في ذلك:

١ ـ تصفية الموقف بالقضاء على أيَّة حركةٍ من المقاومة اليائسة؛ الَّتي يحتمل أن يقوم بها فلول المنهزمين الفارِّين.

٢ ـ دفن من استشهد من جند الله ، مما لا تكاد تخلو منه معركةٌ ، فقد دفن شهداء المسلمين في أرض المعركة ، ولم يَرِدْ ما يشير إلى الصَّلاة عليهم ، ولم يُدفن أحدٌ منهم خارج بدرٍ[(٨٩٤)].

٣ ـ جمع الغنائم ، وحفظها ، وإسناد أمرها إلى من يقوم بهذا الحفظ؛ حتى تُؤَدَّى كاملةً إلى مستحقِّيها ، وقد أُسندت أنفال ، وغنائم بدر ، إلى عبد الله بن كعبٍ الأنصاريِّ أحد بني مازنٍ[(٨٩٥)].

٤ ـ إعطاء الجيش الظَّافر فرصةً يستريح فيها ، بعد الجهد النَّفسيِّ ، والبدنيِّ الْمُضْنِي الَّذي بذله أفراده في ميدان المعركة ، ويضمِّد فيها جراح مجروحيه ، ويذكر نعم الله عليه فيما أفاء الله عليه من النَّصر المؤزَّر ، الَّذي لم يكن دانيَ القطوف ، سهلَ المنال ، ويتذاكر أفراده ، وجماعاته ما كان من أحداثٍ ومفاجات في الموقعة ، ممَّا كان له أثرٌ فعَّال في استجلاب النَّصر ، وما كان من فلانٍ في شجاعته وفدائيته ، وجرأته على اقتحام المضائق ، وتفريج الأزمات ، وما تكشَّفت عنه المعركة من دروسٍ عمليَّة في الكرِّ ، والفرِّ ،

والتَّدبير المحكم الَّذي أخذ به العدو ، وما في ذلك من عبَر ، واستذكار أوامر القيادة العليا ، وموقفها في رسم الخطط ، ومشاركتها الفعليَّة في تنفيذها؛ ليكون من كل ذلك ضياءٌ يمشون في نوره في وقائعهم المستقبلية ، ويجعلون منه دعائم لحياتهم في الجهاد الصَّبور ، المظفَّر بالنَّصر المبين.

٥ ـ مواراة جِيَفِ[(٨٩٦)] قتلى الأعداء ، الَّذين انفرجت المعركة عن قتلهم ، والتعرُّف عليهم ، وعلى مكانتهم في حشودهم ، وعلى من بقي منهم مصروعاً بجراحه لم يدركه الموت؛ للإجهاز على من ترى قيادة جيش الإسلام المصلحة في القضاء عليه؛ اتقاءَ شرِّه في المستقبل؛ كالذي كان من أمر الفاسق أبي جهل فرعون هذه الأمَّة ، والذي كان من شأن رأس الكفر أميَّة بن خلف ، وأضرابهما ، وقد أمر رسول الله (ص) بإلقاء هؤلاء الأخباث في رَكِيٍّ[(٨٩٧)] من قُلُبِ بدرٍ ، خبيثٍ مُخْبِثٍ [البخاري (٣٩٧٦)] ، ثمَّ وقف على شفة الرَّكي[(٨٩٨)] ، وقد ورد: أنَّه (ص) وقف على القتلى ، فقال: « بئس عشيرةُ النَّبيِّ كنتم لنبيِّكم ؛ كذَّبتموني ، وصدَّقني النَّاس، وخذلتموني، ونصرني النَّاس، وأخرجتموني، واواني النَّاس» [ابن هشام (٢/٢٩٢ ـ ٢٩٣)] .

ثم أمر بهم، فسُحِبوا إلى قَلِيبٍ من قُلُبِ بدر، فطُرِحوا فيه، ثم وقف عليهم فقال: «يا عتبةُ بنُ ربيعةَ! ويا شيبةُ بنُ ربيعةَ! ويا أُميَّةُ بنُ خلف! ويا أبا جهل بن هشام! ويا فلان! ويا فلان! هل وجدتم ما وعدكم ربُّكم حقّاً ، فإنِّي وجدت ما وعدني ربي حقّاً» ، فقال عمر بن الخطَّاب: يا رسولَ الله! ما تخاطب من أقوامٍ قد جيَّفوا؟ فقال: «والَّذي نفسُ محمدٍ بيده! ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم ، غيرَ أنَّهم لا يستطيعون أن يردُّوا عليَّ شيئاً» [البخاري (٣٩٧٦) ومسلم (٢٨٧٣) و(٢٨٧٤)] .

قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قولَه ، توبيخاً ، وتصغيراً ، ونقمةً ، وحسرةً ، وندماً. [البخاري في نهاية حديث (٣٩٧٦)] .

إنَّ مناداة الرسول (ص) لقتلى قريش بيَّنت أمراً عظيماً ، وهو أنَّهم بدؤوا حياةً جديدةً ، هي حياة البرزخ الخاصَّة ، وهم فيها يسمعون كلام الأحياء ، غير أنَّهم لا يجيبون ، ولا يتكلمون ، والإيمان بهذه الحياة من عقائد المسلمين ، ونعيم القبر وعذابه ثابتان في صحاح الأحاديث ، حتَّى إنَّه (ص) مرَّ بقبرين ، وقال: «إنهما لَيُعَذَّبَان ، وما يُعَذَّبَان في كبيرٍ» [البخاري (٢١٨) ومسلم (٢٩٢)] . وذكر: أنَّ سبب تعذيبهما النَّمُّ بين النَّاس ، وعدمُ الاستنزاه من البَوْلِ[(٨٩٩)]. ولابدَّ من التَّسليم بهذه الحقائق الغيبيَّة ، بعد أن تحدَّث عنها الصادق المصدوق (ص) ، وقطع بها القران الكريم في تعذيب ال فرعون ، قال

تعالى: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ *} [غافر: ٤٦] .

وأمَّا الشُّهداء فقد قال الله تعالى فيهم: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ *} [آل عمران: ١٦٩].

* * *

المبحث الرَّابع

مشاهد وأحداث من المعركة

أولاً: مصارع الطُّغاة:

أ ـ مصرع أبي جهل بن هشامٍ المخزوميّ:

قال عبد الرَّحمن بن عوفٍ رضي الله عنه: بَيْنَا أنا واقفٌ في الصَّفِّ يوم بدرٍ ، فنظرتُ عن يميني ، وشِمالي ، فإذا أنا بغُلاَمَيْنِ من الأنصار حديثة أَسْنَانُهما ، تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بين أضلَعَ[(٩٠٠)] منهما ، فغمزني[(٩٠١)] أحدُهما ، فقال: يا عمُّ ! هل تعرفُ أبا جهلٍ؟ قلتُ: نعم ، وما حاجتُك إليه يابن أخي؟! قال: أُخْبِرْتُ أنَّه يَسُبُّ رسولَ الله (ص) ، والَّذي نفسي بيده! لئن رأيتُهُ لا يُفارقُ سوادي سوادَهُ؛ حتَّى يموتَ الأعجلُ منا[(٩٠٢)] ، فتعجبتُ لذلك ، فغمزني الاخر ، فقال لي مِثْلَهَا ، فلم أَنْشَبْ[(٩٠٣)] أَنْ نظرتُ إلى أبي جهلٍ يَجُول في النَّاس ، فقلت: ألا إنَّ هذا صَاحِبُكما الَّذي سألْتُمَاني ، فابتدراه بسيفيهما ، فضرباه حتَّى قتلاه ، ثمَّ انصرفا إلى رسول الله (ص) فأخبراه ، فقال: «أيُّكما قَتَلَهُ؟» قال كلُّ واحدٍ منهما: أنا قتلتُه! فقال: «هل مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُما؟» ، قالا: لا. فنظر في السَّيفين ، فقال: «كِلاَكُما قتله ، سَلَبُه لمعاذ بن عمرو بن الجَمُوح» وكانا: مُعاذَ بن عَفْرَاء ، ومُعَاذَ بن عمروِ بن الجموح» [البخاري (٣١٤١) ومسلم (١٧٥٢)][(٩٠٤)] .

وفي حديث أنسٍ قال: قال رسول الله (ص) يوم بدرٍ: «مَنْ ينظر ما فعل أبو جهل؟» فانطلق ابن مسعود ، فوجده قد ضرَبَه ابنا عفراء حتَّى بَرَدَ[(٩٠٥)] ، فأخذ بلحيته ، فقال: أنت أبا جهل؟! قال:

وهل فوقَ رجلٍ قتله قومُه؟ أو قال: قَتَلتموه. [البخاري (٣٩٦٢) ومسلم (١١٨/١٨٠٠)] .

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «أدركتُ أبا جهل يوم بدرٍ صريعاً ، فقلت: أيْ عدوَّ الله ، قد أخزاك الله! قال: وبم أخزاني؟ هل أَعْمُدُ من رجلٍ قتله قومه[(٩٠٦)] ، ومعي سيفٌ لي ، فجعلت أضربه ، ولا يحتك فيه شيءٌ ، ومعه سيفٌ له جيِّدٌ ، فضربتُ يده ، فوقع السَّيف من يده ، فأخذته ، ثمَّ كشفتُ المِغْفَرَ عن رأسه ، فضربتُ عنقَه ، ثمَّ أتيتُ النبيَّ (ص) ، فأخبرته ، فقال: «الله الَّذي لا إله إلا هو؟!» قلت: الله الَّذي لا إله إلا هو!

قال: فانطلق فاستثبت ، فانطلقتُ؛ وأنا أسعى مثلَ الطَّائر ، ثم جئتُ ، وأنا أسعى مثل الطائر أضحك ، فأخبرته.

فقال رسول الله (ص) : «انطلق» فانطلقتُ معه فأريتُه ، فلمَّا وقف عليه (ص) قال: «هذا فرعونُ هذه الأمَّة» [أحمد (٤٠٣/١ و٤٤٤) وأبو داود (٢٧٠٩) مختصراً] .

كان الدَّافع من حرص الأنصاريَّيْنِ الشَّابَّيْنِ على قتل أبي جهلٍ ما سمعاه من أنَّه كان يسبُّ رسولَ الله (ص) ، وهكذا تبلغ محبَّة شباب الأنصار لرسول الله (ص) ، إلى بذل النَّفس في سبيل الانتقام ممَّن تعرَّض له بالأذى.

وما جرى بين عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه وأبي جهلٍ ـ وهو في الرَّمق الأخير من حياته ـ فيه عبرةٌ بليغةٌ ، فهذا الطَّاغية الذي كان شديد الأذى للمسلمين في مكَّة ، قد وقع صريعاً بين أيدي من كان يؤذيهم.

ويشاء الله تعالى أن يكون الذي يقضي على اخر رمقٍ من حياته ، هو أحد المستضعفين ، ولقد كان أبو جهل مستكبراً جباراً؛ حتى؛ وهو صريعٌ وفي اخر لحظات حياته [(٩٠٧)]، فقد جاء في روايةٍ لابن إسحاق: أنَّه قال لعبد الله بن مسعود لما أراد أن يحتزَّ رأسه: «لقد ارتقيتَ مُرتقىً صعباً يا رُوَيْعِي الغنم!» [ابن هشام (٢٨٩/٢)] .

«فالله تعالى لم يُعجِّلْ لهذا الخبيث أبي جهلٍ بضربات الأبطال من أشبال الأنصار فحسب ، ولكنَّه أبقاه مصروعاً في حالةٍ من الإدراك ، والوعي ، بعد أن أصابته ضرباتٌ أشفَتْ به على الهلاك الأبديِّ ، ليريه بعين بصره ما بلغه من المهانة ، والذُّلِّ ، والخذلان على يد من كان يستضعفه ، ويؤذيه ، ويضطهده بمكَّة من رجال الرَّعيل الأوَّل ـ السَّابقين إلى مظلَّة الإيمان ، وطُهْر العقيدة ، والتعبُّد لله بشرائعه الَّتي أنزلها رحمةً للعالمين ـ عبد الله بن مسعود رضي الله

عنه ، فيعلو على صدره ، ويدوسه بقدميه ، ويقبض على لحيته تحقيراً له ، ويقرّعه تقريعاً يبلغ من نفسه مجمع غروره ، واستكباره في الأرض ، ويستلُّ منه سيفه إمعاناً في البطش به ، فيقتله به ، ويمعن في إغاظته بإخباره: أنَّ النَّصر عقد بناصية جند الله ، وكتيبة الإسلام ، وأنَّ شَنَارَ[(٩٠٨)] الهزيمة النَّكراء ، وعارها ، وخزيها ، وخذلانها قد رُزِئَتْ[(٩٠٩)] به كتائب الغرور الأجوف ، في حشود النَّفير الَّذي قاده هذا الكفور الخبيث...»[(٩١٠)].

ب . مصرع أميَّةَ بن خلف:

قال عبد الرَّحمن بن عوفٍ رضي الله عنه: «كَاتبتُ أُميةَ بنَ خلف كتاباً ، بأن يحفظني في صَاغِيَتي[(٩١١)] بمكَّة ، وأحفظه في صَاغِيَتِهِ بالمدينة ، فلمَّا ذكرتُ (الرَّحمن) قال: لا أعرفُ الرَّحمنَ ، كَاتِبْني باسمك الَّذي كان في الجاهليَّة ، فكاتبته (عبدُ عمرٍو).

فلمَّا كان في يوم بدرٍ؛ خرجْتُ إلى جَبَلٍ لأُحْرِزَهُ[(٩١٢)] حين نام النَّاسُ ، فأبصره بلالٌ ، فخرج حتى وقف على مجلسٍ من الأنصار ، فقال: أُميةُ بن خلف! لا نجوتُ إن نجا أميَّةُ ، فخرج معه فريق من الأنصار في اثارنا ، فلمَّا خَشِيتُ أن يلحقونا خلَّفتُ لهم ابنَهُ لأشْغِلَهم ، فقتلوه ، ثمَّ أَبَوا حتَّى يَتْبَعُونا . وكان رجلاً ثقيلاً[(٩١٣)] . فلما أدركونا؛ قلتُ له: ابْرُكْ ، فَبَرَكَ ، فألقيتُ عليه نفسي لأمنعه ، فتَجَلَّلُوهُ[(٩١٤)] بالسُّيوف من تحتي حتى قتلوه ، وأصاب أحدُهم رجلي بسيفه ، وكان عبد الرَّحمن بن عوف يُرينا ذلك الأَثَرَ في ظَهْرِ قَدَمِهِ» [البخاري (٢٣٠١ و٣٩٧١)] .

وفي روايةٍ أخرى لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: كان أُمَيَّةُ بن خلفٍ لي صديقاً بمكَّة ، وكان اسمي عبدَ عمرٍو ، فتسمَّيتُ حين أسلمتُ عبدَ الرَّحمن ، ونحن بمكَّة ، فكان يلقاني؛ إذ نحن بمكَّة ، فيقول: يا عبدَ عمرو! أرغبتَ عن اسمٍ سمَّاكه أبواك؟ فأقول: نعم ، فيقول: فإنِّي لا أعرف الرَّحمن؛ فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به ، أمَّا أنت فلا تجيبني باسمك الأوَّل ، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف!

قال: فكان إذا دعاني: يا عبدَ عمرو! لم أجبْه ، قال: فقلت له: يا أبا عليٍّ! اجعلْ ما شئتَ! ، قال: فأنت عبدُ الإله ، قال: فقلت: نعم ، قال: فكنت إذا مررت به قال:

يا عبدَ الإله! فأجيبه ، فأتحدث معه ، حتَّى إذا كان يومَ بدرٍ؛ مررتُ به؛ وهو واقفٌ مع ابنه عليٍّ ، عليِّ بن أميَّة ، اخذٌ بيده ، ومعي أدراعٌ قد استلبتُها ، فأنا أحملُها ، فلمَّا راني؛ قال لي: يا عبدَ عمرو ، فلم أجبْه ، فقال: يا عبدَ الإله! فقلتُ: نعم ، قال: هل لك فيَّ؛ فأنا خيرٌ لك من هذه الأدراع الَّتي

معك؟ قال: قلت: نعم ها الله ذا[(٩١٥)]! قال: فطرحتُ الأدراع من يدي ، وأخذت بيده ، ويد ابنه ، وهو يقول: ما رأيتُ كاليوم قطُّ ، أما لكم حاجةٌ في اللَّبن؟ (قال): ثمَّ خرجت أمشي بهما ، قال ابن هشام: يريد باللَّبن: أنَّ من أسرني؛ افتديت منه بإبلٍ كثيرة اللَّبن. [ابن هشام (٢/٢٨٣ ـ ٢٨٤)] .

ونلحظ من الرِّوايات السَّابقة:

١ ـ ما جرى من بلالٍ رضي الله عنه ، حينما رأى عدوَّه اللَّدود أميَّةَ بن خلفٍ؛ الَّذي كان يسومه أقسى ، وأعنف أنواع العذاب في مكَّة في يد عبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنه أسيراً؛ صرخ بأعلى صوته: (لا نجوت؛ إن نجا!).

إنَّه موقف من مواقف التَّشفِّي من أعداء الله ، والتَّشفِّي من كبار الكفرة الفجَّار في الحياة الدُّنيا ، نعمةٌ يفرِّج الله بها عن المكروبين من المؤمنين ، الَّذين ذاقوا الذُّلَّ ، والهوان على أيدي أولئك الفجرة الطُّغاة ، قال تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ *وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *} [التوبة: ١٤ ـ ١٥] .

٢ ـ إنَّ فيما جرى لأُميَّةَ بن خلفٍ من قتلٍ مفزعٍ درساً بليغاً للطُّغاة المتجبِّرين ، وعبرةً للمعتبرين؛ الَّذين يغترُّون بقوَّتهم ، وينخدعون بجاههم ، ومكانتهم ، فيعتدون على الضُّعفاء ، ويسلبونهم حقوقهم ، فمالهم إلى عاقبةٍ سيِّئةٍ ، ووخيمةٍ في الاخرة ، وقد يمكِّن الله للضُّعفاء منهم في الدُّنيا قبل الاخرة؛ كما حدث لأُمَيةَ بن خلف ، وأضرابه من طغاة الكفر[(٩١٦)] ، قال تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ *} [القصص: ٥] .

٣ ـ وفي قول عبد الرَّحمن بن عوف: «يرحم الله بلالاً! ذهبتْ أدْراعي ، وفجعني بأسيريَّ»[(٩١٧)] ، مع ما جرى من بلالٍ من معارضةٍ وانتزاع الأسيرين من يده بقوَّة الأنصار الَّذين استنجد بهم ، دليلٌ على قوَّة الرِّباط الأخوي بين الصَّحابة الكرام[(٩١٨)].

٤ ـ موقف لأمِّ صفوان بن أميَّة (زوجة أُميَّةَ بن خَلف): قيل لأمِّ صفوان بن أميَّة بعد إسلامها ، وقد نظرت إلى الحُبَاب بن المنذر بمكَّة: هذا الذي قَطَعَ رِجْلَ عليِّ بن أميَّة يوم بدرٍ ، قالت: دَعُونا من ذكْرِ مَنْ قُتِل على الشِّرك! قد أهان الله عليّاً بضربة الحُبَاب بن المنذر ، وأكرم اللهُ الحُبَابَ بضربه عليّاً ، قد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا ، فقُتِلَ على غير ذلك[(٩١٩)] ، وهذا الموقف يدلُّ على قوَّة إيمانها ، ورسوخ يقينها؛ حيث اتَّضحت لها عقيدة الولاء والبراء ، فأصبحت تحبُّ المسلمين وإن كانوا من غير قبيلتها ، وتكره الكافرين وإن كانوا من أبنائها(١).

وقولها عن ابنها عليٍّ: «قد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا ، فقُتل على غير ذلك» تعني: أنَّه كان ممَّن عُرف عنهم الإسلام بمكَّة ، وخرجوا مع قومهم يوم بدرٍ مُكْرَهين فلمَّا التقى الصَّفَّان؛ فُتِنوا حينما رأوا قلَّة المسلمين ، فقالوا: قد غَرَّ هؤلاء دينُهم[(٩٢٠)] ، فنزل فيهم قول الله تعالى: {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *} [الأنفال: ٤٩] .

ج ـ مصرع عُبَيْدَة بن سعيد بن العاص على يد الزُّبير رضي الله عنه:

«قال الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه: لقيتُ يوم بدرٍ عُبْيدَةَ بن سعيد بن العاص ، وهو مُدَجَّجٌ[(٩٢١)] لا يُرى منه إلا عيناه ، وهو يُكْنَى أبا ذات الكَرِش ، فقال: أنا أبو ذات الكَرِش ، فحملت عليه بالْعَنَزَةِ[(٩٢٢)] ، فطعنته في عينه ، فمات ، قال هشامٌ: فأُخْبِرْتُ: أنَّ الزُّبيرَ قال: لقد وضعتُ رجلي عليه ، ثمَّ تمطَّأْتُ ، فكان الجهد أن نزعتُها وقد انثنى طرفاها[(٩٢٣)].

قال عُرْوَة: فسأله إيَّاها رسولُ الله (ص) ، فأعطاه، فلمَّا قُبض رسولُ الله (ص) أخذها، ثمَّ طلبها أبو بكر ، فأعطاه ، فلمَّا قُبض أبو بكر ، سأله إيَّاها عمر ، فأعطاه إيَّاها ، فلمَّا قُبض عمر أخذها، ثمَّ طلبها عثمان منه ، فأعطاه إيَّاها ، فلمَّا قُتل عثمان وقعت عند ال عليٍّ، فطلبها عبد الله بن الزبير، فكانت عنده حتَّى قُتل» [البخاري (٣٩٩٨)] .

«هذا الخبر يصوِّر لنا دقَّة الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه في إصابة الهدف؛ حيث استطاع أن يضع الحربة في عين ذلك الرَّجل ، مع ضيق ذلك المكان ، وكونه قد وزَّع طاقته بين الهجوم والدِّفاع ، فلقد كانت إصابة ذلك الرَّجل بعيدةً جداً؛ لكونه قد حمى جسمه بالحديد الواقي؛ لكنَّ الزُّبير استطاع إصابة إحدى عينيه ، فكانت بها نهايته ، ولقد كانت الإصابة شديدة العمق؛ ممَّا يدلُّ على قوَّة الزُّبير الجسديَّة ، إضافةً إلى دقَّته ، ومهارته في إصابة الهدف»[(٩٢٤)].

د ـ مصرع الأسْود المخْزُوميّ:

قال ابن إسحاق: وقد خرج الأَسْود المخْزُوميُّ ، وكان رجلاً شرساً سَيِّءَ الخُلق ، فقال: أعاهدُ الله لأشربنَّ من حوضهم ، أو لأهدمنَّه ، أو لأموتنَّ دونه! فلمَّا خرج ، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب ، فلمَّا التقيا ضربه حمزةُ فأَطنَّ[(٩٢٥)] قَدَمَهُ بِنصْف ساقه ، وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تَشْخُب[(٩٢٦)] رجله دماً نحو أصحابه ، ثمَّ حبا إلى الحوض حتَّى اقتحم فيه ، يريد أن يُبرَّ يمينه ، وأتبعه حمزة فضربه؛ حتَّى قتله في الحوض[(٩٢٧)].

وقد سأل أميَّةُ بن خلف عبد الرحمن بن عوف ، عن الرَّجل المعلم بريشة نعامةٍ في صدره؟ فأجابه عبد الرَّحمن: ذاك حمزة بن عبد المطلب ، قال أميَّةُ: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل[(٩٢٨)] ، وهذه شهادةٌ من أحد زعماء الكفر ، وهذا يعني: أنَّه رضي الله عنه قد أثخن في جيش الأعداء قتلاً ، وتشريداً[(٩٢٩)].

وكان هذا أوَّل من قُتل من المشركين بيد أسد الله تعالى حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فقد جاء هذا اللَّئيم الشَّرِس يتحدَّى المسلمين، فتصدَّى له بطل الإسلام حمزة ، فقضى عليه ، ولقَّن أمثاله من الحاقدين المتكبِّرين درساً في الصَّميم[(٩٣٠)].

ثانياً: من مشاهد العظمة:

أ ـ استشهاد حارثة بن سُراقة رضي الله عنه:

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: أُصيب حارثةُ يومٍ بدرٍ ، وهو غلامٌ ، فجاءت أمُّه إلى النَّبيِّ (ص) ،

فقالت: يا رسول الله! قد عرفت منزلةَ حارثةَ منِّي ، فإن يكن في الجنَّة؛ أصبرْ ، وأحتسبْ ، وإن تكن الأخرى ، ترَ ما أصنعُ؟ فقال: «ويحكِ! أَوَهَبِلْتِ! أَوجَنَّةٌ واحدةٌ هي؟ إنَّها جنانٌ كثيرةٌ ، وإنَّه في جنة الفردوس» [البخاري (٣٩٨٢)] وفي روايةٍ: «يا أمَّ حارثةَ! إنَّها جنان في الجنَّة ، وإنَّ ابنك أصاب الفردوس الأعلى»[(٩٣١)].

ب ـ استشهاد عوف بن الحارث رضي الله عنه:

قال ابن إسحاق: حدَّثني عاصم بن عمرو بن قتادة: أنَّ عوف بن الحارث ، وهو ابن عفراء[(٩٣٢)]، قال: يا رسول الله! ما يُضحِكُ الرَّبَّ من عبده؟ قال: «غمسْهُ يده في العدوِّ حاسراً[(٩٣٣)]» فنزع درعاً كانت عليه ، فقذفها ، ثمَّ أخذ سيفه ، فقاتل القوم حتَّى قُتل[(٩٣٤)].

وهذا الخبر يدلُّ على قوَّة ارتباط الصَّحابة الكرام بالاخرة ، وحرصهم على رضوان الله تعالى ، ولذلك انطلق عوف بن الحارث رضي الله عنه كالسَّهم ، وهو حاسرٌ غير متدرِّعٍ يثخن في الأعداء ، حتَّى أكرمه الله بالشهادة ، لقد تغيَّرت مفاهيم المجتمع الجديد ، وتعلَّق أفراده بالاخرة ، وأصبحوا حريصين على مرضاته ، بعد أن كان جُلَّ همِّهم أن تتحدث النساءُ عن بطولاتهم ، ويرضى سيد القبيلة عنهم ، وتُنشد الأشعار في شجاعتهم[(٩٣٥)].

ج ـ استشهاد سعد بن خيثمة ، ثمَّ أبيه رضي الله عنهما:

قال الحافظ بن حجر: قال موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب: استهم يوم بدر سعد بن خيثمة ، وأبوه ، فخرج سهم سعدٍ ، فقال له أبوه: يا بُنيَّ! اثرني اليوم ، فقال سعد: يا أبتِ! لو كان غير الجنَّة؛ فعلت ، فخرج سعدٌ إلى بدرٍ ، فقُتل بها ، وقتل أبوه خيثمة يوم أُحُدٍ[(٩٣٦)].

وهذا الخبر يُعطي صورةً مشرقةً عن بيوتات الصَّحابة في تنافسهم ، وتسابقهم على الجهاد في سبيل الله تعالى؛ فهذا سعد بن خيثمة ، ووالده لا يستطيعان الخروج معاً؛ لاحتياج أسرتهما لبقاء أحدهما ، فلم يتنازل أحدهما عن الخروج رغبةً في نيل الشَّهادة ، حتَّى اضطروا إلى الاقتراع بينهما ، فكان الخروج من نصيب سعدٍ رضي الله عنهما ، وكان الابن في غاية الأدب مع

والده؛ ولكنَّه كان مشتاقاً إلى الجنَّة ، فأجاب بهذا الجواب البليغ: «يا أبتِ! لو كان غير الجنَّة فعلتُ»[(٩٣٧)].

د ـ دعاء النَّبيِّ (ص) لأبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة:

عن عائشة رضي الله عنها في حديثها عن طرح قتلى قريش في القَلِيب بعد معركة بدرٍ ، قالت: فلمَّا أمر بهم ، فسُحبوا؛ عُرِفَ في وجه أبي حذيفة بن عتبة الكراهية ، وأبوه يُسحب إلى القَليب ، فقال له رسول الله (ص) : «يا أبا حذيفة! والله لكأنَّه ساءك ما كان في أبيك؟» فقال: والله يا رسول الله! ما شككت في الله ، وفي رسول الله ، ولكن إن كان حليماً سديداً ذا رأيٍ ، فكنت أرجو ألا يموتَ حتَّى يهديه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى الإسلام ، فلمَّا رأيت: أنَّه قد فات ذلك ، ووقع حيث وقع؛ أحزنني ذلك! قال: فدعا له رسول الله (ص) بخير. [الحاكم (٣/٢٢٤)] .

إنَّ هذا الموقف يبيِّن قوة التَّجاذب بين الإيمان في ذِرْوَةَ اليقين ، والعاطفة البشريَّة في قمَّة الوفاء النَّبويِّ؛ فالإيمان لا يُميت المشاعر البشريَّة؛ ولكنَّه يهذِّبها ، فيحوِّلها من عصبيةٍ جاهليَّةٍ ، إلى وفاءٍ لا ينكره المنهج الرَّبَّانيُّ في تطبيقه العمليِّ؛ فإيمان أبي حذيفة رضي الله عنه إيمانٌ لا تهزُّه زلازل الأحداث ، فهو إذ يرى أباه يُقتل في أشراف قريشٍ كافراً ، ويُلقى معهم في قَلِيب بدرٍ؛ يأخذه أسف العاطفة البشريَّة وفاءً لهذا الأب ، ويظلُّ أبو حذيفة مُزَمَّلاً بإيمانه الرَّاسخ رسوخ الأَطْوَاد[(٩٣٨)] الشَّامخات ، فلا يزيد على أن يعتريه الاكتئاب على ما فات أباه من خيرٍ يرجوه له بالهداية إلى الإسلام[(٩٣٩)]؛ ولهذا المقصد النَّبيل الَّذي أثار حزن أبي حذيفة ، دعا له رسول الله (ص) بخيرٍ[(٩٤٠)].

هـ عُمَيْر بن أبي وقَّاص: لما سار رسول الله (ص) إلى بدرٍ ، وعُرِض عليه جيش بدرٍ؛ ردَّ عُمَيْر ابن أبي وقَّاص ، فبكى عميرٌ ، فأجازه ، فعقد عليه حمائل سيفه ، ولقد كان عُمَيْر يتوارى حتَّى لا يراه رسولُ

الله (ص) ، فقال سعد: رأيت أخي عُمَيْر بن أبي وقَّاص قبل أن يعرضنا رسولُ الله (ص) يوم بدر يتوارى ، فقلت: ما لك يا أخي؟ ! قال: إِنِّي أخاف أن يراني رسول الله (ص) ، فيستصغرَني، ويردَّني ، وأنا أحبُّ الخروج لعلَّ الله أن يرزقني الشَّهادة[(٩٤١)]. وقد استُشهد بالفعل.
* * *

فهرس الموضوعات

الفصل السَّادس

هجرة النَّبيِّ (ص) وصاحبه الصِّدِّيق رضي الله عنه

* * *

.[١]انظر: الأنساب ، للسَّمعاني (١/٣٦).
.[٢]إمتاع الأسماع ، للمقريزي (١/٣٠ ، ٣١).

.[٣]انظر: الدُّرر ، لابن عبد البرِّ ، ص ٣٥ ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/١٨٥).
.[٤]انظر: المحنة في العهد المكِّيِّ ، ص ٥٣.
.[٥]المصدر السابق نفسه.
.[٦]انظر: المحنة في العهد المكِّيِّ ، ص ٥٣.

.[٧]تاريخ الإسلام ، للنَّجيب ابادي (١/١٢٩) ، نقلاً عن الرَّحيق المختوم.
.[٨]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢/٤٤، ٥٢)، وفي السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص ١١٦.
.[٩]البداية والنَّهاية ، لابن كثير (٣/١٤٠).
.[١٠]في السِّيرة النَّبويَّة ، قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ١١٦.
.[١١]المصدر السابق نفسه ، ص ١١٦ ، ١١٧.

.[١٢]لم يمسَّها سِبَاءٌ: لم تُسْبَ نساؤها في الحرب.
.[١٣]انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ ، ص ١٨٢.
.[١٤]المصدر السابق نفسه.

.[١٥]انظر: البداية والنِّهاية (٣/١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥) ، وفيها زياداتٌ ليست عند الصَّالحي في سُبُل الرَّشاد (٢/٥٩٦ ، ٥٩٧).

.[١٦]انظر: الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعيَّة ، لمحمَّد خير هيكل (١/٤١١).
.[١٧]انظر: وقفات تربويَّة من السِّيرة النَّبويَّة ، لعبد الحميد البلالي ، ص ٧٢.
.[١٨]انظر: صفة الصَّفوة (٤/٩٤).

.[١٩]انظر: الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعيَّة (١/٤١٢).
.[٢٠]انظر: التحالف السِّياسي في الإسلام ، لمنير الغضبان ، ص ٥٣.
.[٢١]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٤.
.[٢٢]انظر: التَّربية القياديَّة (٢/٢٠).
.[٢٣]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٣/٦٩).

.[٢٤]المجلة: الصحيفة ، وتطلق على الحكمة ، أي: حكمة لقمان.

.[٢٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/١٩٥).

.[٢٦]البداية والنِّهاية (١٤٨/٣ ، ١٤٩).

.[٢٧]انظر: شرح المواهب ، للزُّرقاني (٣٦١/١).

.[٢٨]انظر: البداية والنِّهاية (١٤٧/٣).

.[٢٩]انظر: أضواء على الهجرة ، لتوفيق محمَّد سبع ، ص ٢٧٣ ، ٢٧٤.

.[٣٠]انظر: هجرة الرَّسول (ص) وصحابته ، للجمل ، ص ١٤٣.

.[٣١]انظر: السِّيرة النبوية الصَّحيحة (١٩٧/١).

.[٣٢]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ١٨٥.

.[٣٣]المصدر السابق نفسه ، ص ١٨٦ ، ١٨٧.

.[٣٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القران والسُّنَّة (٤٤١/١).

.[٣٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٤٤٢/١).

.[٣٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٤٤٤/١) ، وصحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٩١.

.[٣٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي الحسن النَّدويِّ ، ص ١٥٤.

.[٣٨]السَّرَوات: الأشراف.

.[٣٩]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ١٨٣.

.[٤٠]الدُّر المنثور ، للسُّيوطي (٢١٦/١).

.[٤١]انظر: ابن هشام (٤٤/١).

.[٤٢]المصدر السابق نفسه ، (٣٩/١ ، ٤٤).

.[٤٣]انظر: التَّحالف السِّياسيُّ ، ص ٧١.

.[٤٤]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التَّكوين إلى التَّمكين ، ص ٣٥٦.

.[٤٥]انظر: التَّحالف السِّياسيُّ ، ص ٧١.

.[٤٦]المصدر السابق نفسه ، ص ٧٢.
.[٤٧]انظر: التَّحالف السِّياسيُّ ، ص ٣٧.

.[٤٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١٩٩/١).
.[٤٩]مسند الإمام أحمد (٣١٦/٥) بإسنادٍ صحيحٍ لغيره.

.[٥٠]الأزُر: الثِّياب ، والمقصود النِّساء أو الأنفس ، والمعنى: لنمنعنَّك ممَّا نمنع منه نساءنا ، وأنفسنا.
.[٥١]انظر: ابن هشام (٦١/١) ، بإسنادٍ حسن ، وانظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمريِّ (٢٠١/١).

.[٥٢]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٤٠٠/٢).
.[٥٣]انظر: التَّربية القياديَّة (١٠٣/٢).
.[٥٤]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، د. عبد الرحمن البر ، ص ٦١.

.[٥٥]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٦١.
.[٥٦]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٢.
.[٥٧]انظر: التَّربية القياديَّة (١٠٩/٢).
.[٥٨]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٦٢.
.[٥٩]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٥.
.[٦٠]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٧.
.[٦١]انظر: التَّحالف السِّياسي ، ص ٨٢.

.[٦٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٤٤٤/١).
.[٦٣]المصدر السابق نفسه (٤٤٥/١).
.[٦٤]انظر: معين السِّيرة النَّبويَّة ، للشَّامي ، ص ١٣٥.

.[٦٥]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٩٧/٣).

.[٦٦]انظر: التَّربية القياديَّة (٢/٦٧).
.[٦٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٢٠٩.
.[٦٨]انظر: دراسات في السِّيرة النَّبوية ، د. عماد الدين خليل ، ص ١٣٢.
.[٦٩]أذاخر: مكان قريب من مكَّة.
.[٧٠]النِّسْع: الشِّراك الَّذي يشدُّ به الرَّحل.
.[٧١]الجمَّة: مجتمع شعر الرأس.
.[٧٢]انظر: التاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٣/١٠٧).

.[٧٣]انظر: التَّربية القياديَّة (٢/١١٦).
.[٧٤]أي: أهدرت.
.[٧٥]ضُمَّرا: جمع ضامر ، والضامر من الخيل والإبل: هو الخفيف اللَّحم من التَّدريب.
.[٧٦]سيرة ابن هشام (٢/٦٥).
.[٧٧]انظر: التاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٣/١٠٤).
.[٧٨]انظر: التَّحالف السَّياسيُّ في الإسلام ، ص ٩٦.

.[٧٩]انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، دكتورة عصمة الدِّين ، ص ١٠٨.
.[٨٠]انظر: التَّحالف السِّياسيُّ ، ص ٨٧.
.[٨١]ابن هشام (٢/٨٠) ، وأسد الغابة (٥/٣٩٥) ، والبداية والنِّهاية (٣/١٥٨ ـ ١٦٦) ، والإصابة (٨/٨) رقم ٤٨ ، ٤٩ ، نقلاً عن المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص ١٠٨.
.[٨٢]انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص ١٠٨.
.[٨٣]انظر: التَّربية القياديَّة (٢/١٤٠).

.[٨٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّةٍ وبناء دولةٍ ، لصَالح الشامي ، ص ١١٨.
.[٨٥]المصدر السابق نفسه، ص ١٢٠ ، ١٢١.

.[٨٦]انظر في ذلك: صنيع محمَّد فؤاد عبد الباقي في المعجم المفهرس حيث رمز للاية بـ (م) وهو رمز الايات المدنية ، وما ذكره القرطبيُّ من خلاف العلماء في الاية (٣٢٣/١٣).

.[٨٧]انظر: معالم قرانيَّة في الصِّراع مع اليهود ، د. مصطفى مسلم ، ص ٦٢ ، ٦٣.

.[٨٨]انظر: تفسير القرطبي (٥٠٧٣/٦).

.[٨٩]انظر: تفسير ابن كثير (٣٦٠/٣).

.[٩٠]انظر: الكشاف للزَّمخشري (٣١٠/٣) ، وتفسير أبي السعود (٤٥/٧) ، وتفسير فتح القدير (٢١٠/٤).

.[٩١]انظر: الأساس في التفسير ، لسعيد حوَّى (٤٢٢٣/٨).

.[٩٢]انظر: تفسير ابن كثير (٣٥٩/٢).

.[٩٣]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٢٥.

.[٩٤]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٣٣ ، ٣٤.

.[٩٥]عَبثَ عبثاً: لعب ، فهو عابثٌ لاعبٌ لما لا يعنيه ، انظر: لسان العرب (١٦٦/٢).

.[٩٦]كلبت قريش عليهم: أي: غضبت عليهم.

.[٩٧]انظر: السِّيرة النَّبوية الصحيحة (٢٠٢/١ ، ٢٠٣).

.[٩٨]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ، د. إبراهيم علي محمَّد ، ص ١٣٠ ، ١٣١ ، تقسيم الأساليب أخذ من هذا الكتاب ، وأخذت مشاهد العظمة من كتاب (الهجرة النَّبويَّة المباركة).

.[٩٩]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٢٤.

.[١٠٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القران والسنة ، د. محمَّد أبو شهبة (٤٦١/١).

.[١٠١]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (١٢٨/٣).

.[١٠٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢٠٤/١).

.[١٠٣]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٣٢.

.[١٠٤]التناضب: جمع تنضيب ، وهو شجر ، وهو اسم موضع قريب من مكَّة.

.[١٠٥]الأضاة: على عشرة أميال من مكَّة.
.[١٠٦]سرف: وادٍ متوسط الطُّول من أودية مكَّة.
.[١٠٧]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٢٩.
.[١٠٨]الذلول: أذلَّها العمل ، فصارت سهلة الرُّكوب والانقياد.

.[١٠٩]تُعقبني: تجعلني أعقبك عليها لركوبها.
.[١١٠]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/٢٠٥).
.[١١١]ذو طوى: وادٍ من أودية مكَّة.
.[١١٢]الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٣١.
.[١١٣]انظر: التَّربية القياديَّة (٢/١٥٩).

.[١١٤]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٣٤.
.[١١٥]انظر: التَّربية القياديَّة (٢/١٦٠).
.[١١٦]انظر: التَّربية القياديَّة (٢/١٦٠).

.[١١٧]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٣٢.
.[١١٨]المصدر السابق نفسه.
.[١١٩]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٣٥.
.[١٢٠]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١١٩.
.[١٢١]المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٠.
.[١٢٢]الصعلوك: الفقير.

.[١٢٣]نثل: استخرج ما فيها من النَّبل والسِّهام.
.[١٢٤]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، د. عبد الرحمن البر ، ص ١٢١.
.[١٢٥]المصدر السابق نفسه ، ص ١٢١.
.[١٢٦]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١١٩.

.[١٢٧]المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص ١١٦.
.[١٢٨]المصدر السابق نفسه ، ص ١١٧.
.[١٢٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القران والسُّنَّة ، لأبي شهبة (٤٦٨/١ ، ٤٦٩).
.[١٣٠]انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص ١١٨.

.[١٣١]المصدر السَّابق نفسه ، ص ١٣٢.

.[١٣٢]الثَّرّ: الغزير الكثير.
.[١٣٣]انظر: التَّربية القياديَّة (١٧١/٢ ، ١٧٢).
.[١٣٤]انظر: التَّربية القياديَّة (١٧٤/٢ ، ١٧٥).

.[١٣٥]انظر: التَّربية القياديَّة (١٤٦/١ ، ١٤٧).
.[١٣٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ١٥٧.

.[١٣٧]انظر: الأساس في السُّنَّة (٣٣٣/١).
.[١٣٨]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٥٥ ، وهذا الكتاب هو المرجع الأساسي في فضائل المدينة.
.[١٣٩]ذكر السَّخاوي له في الضَّوء اللامع (٧٩/١: ٨٦) مؤلفات منها: المغانم.

.[١٤٠]أخرجه أحمد (٢٨٥/٤) ، وضعَّفه الشَّوكانيُّ في فتح القدير (٢٦٨/٤).
.[١٤١]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٥٦.
.[١٤٢]المصدر السابق نفسه: ص ١٥٧.
.[١٤٣]جُدُرات: جمع جدار ، وهو الحائط.
.[١٤٤]أَوْضَعَ راحلته: حثَّها على السرعة.

.[١٤٥]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٥٨.
.[١٤٦]المصدر السابق نفسه ، ص ١٦٠.
.[١٤٧]اللأواء: الشِّدَّة ، وضيق العيش.

.[١٤٨]انظر: الهجرة النبويَّة المباركة ، ص ١٦١.

.[١٤٩]يأرز: ينضمُّ ، ويجتمع.

.[١٥٠]في رواية: (تنفي الخبث) وفي رواية: (تنفي الدَّجال).

.[١٥١]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٦٢.

.[١٥٢]انماع: ذاب ، وسال.

.[١٥٣]الحدث: الإثم ، أو الأمر المنكر الذي ليس بمعروفٍ في السنة.

.[١٥٤]المحدث: هو مَنْ أتى الحَدث.

.[١٥٥]لا يُخْتَلى خَلاَها: لا يُجزُّ ، ولا يقطع الحشيش الرَّطب فيها.

.[١٥٦]لا ينفَّر صيدُها: لا يُزجر ، ويمنع من الرَّعي.

.[١٥٧]أشادها: أشاعها ، والإشادة: رفع الصَّوت ، والمراد: تعريف اللقطة.

.[١٥٨]ينظر الشكل (١١) في الصفحة (٧٤٧).

.[١٥٩]الوُثُق: الحبال ، والمفرد: وثاق.

.[١٦٠]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ١٣٥.

.[١٦١]انظر: البداية والنِّهاية (١٨١/٣) ، وابن حجر في الفتح ، وحسَّن إسناده ، شرح حديث رقم (٣٩٠٥).

.[١٦٢]انظر: في ظلال القران (١٥٠١/٣).

.[١٦٣]الهاجرة: هي نصف النَّهار عند اشتداد الحرِّ.

.[١٦٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير (٢٣٣/٢ ـ ٢٣٤).

.[١٦٥]متقنعاً: مغطِّياً رأسه.

.[١٦٦]كمنا فيه: أي استترا ، واستخفيا ، ومنه الكمين في الحرب ، النِّهاية (٢٠١/٤).

.[١٦٧]ثقف: ذو فطنةٍ ، وذكاء ، والمراد: ثابت المعرفة بما يحتاج إليه ، النِّهاية (٢١٦/١).

.[١٦٨]لقن: فَهِم ، حسن التَّلقِّي لما يسمعه ، النِّهاية (٢٦٦/٤).

.[١٦٩]يدلج: أدلج إذا سار أوَّل الليل ، وادَّلج ـ بالتشديد ـ: إذا سار اخره.

.[١٧٠]يُكتادان: أي: يُطلب لهما فيه المكروه ، وهو من الكيد.

.[١٧١]الرَّضيف: اللَّبن المرضوف ، وهو الذي طرح فيه الحجارة المحمَّاة بالشَّمس ، أو النَّار ، لينعقد وتزول رخاوته.

.[١٧٢]ينعق: نعق بغنمه ، أي: صاح بها ، وزجرها ، القاموس المحيط (٣/٢٩٥).

.[١٧٣]الغلس: ظلمة اخر الليل إذا اختلطت بضوء الصَّباح ، النِّهاية (٣/٣٧٧).

.[١٧٤]غمس حلفاً: أي: أخذ بنصيب من عقدهم ، وحلفهم يأمن به.

.[١٧٥]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/٢٣٤).

.[١٧٦]الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٣٤.

.[١٧٧]خاتم النَّبيِّين ، لأبي زهرة (١/٦٥٩) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/٢٣٤).

.[١٧٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/٢٣٠ ـ ٢٣٤).

.[١٧٩]لَجِبَ القَوْمُ لَجَباً: صاحوا وأجلبوا ، والبحرُ: اضطرب موجه ، فهو لَجِبٌ.

.[١٨٠]انظر: تفسير الرَّازي (٣٠/٢٠٨).

.[١٨١]انظر: تفسير أبي السُّعود (٩/٦٠).

.[١٨٢]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٧٢.

.[١٨٣]في ظلال القران (٤/٢٢٤٧).

.[١٨٤]الغار: الثقب العظيم يكون في الجبل ، وقيل: شبه البيت في الجبل.

.[١٨٥]المستفاد من قصص القران (٢/١٠٠).

.[١٨٦]انظر: في ظلال القران (٣/١٦٥٦).

.[١٨٧]انظر: المستفاد من قصص القران (٢/١٠١).

.[١٨٨]هي عاتكة بنت كعب الخزاعيَّة.

.[١٨٩]وادي قُدَيْد: موضع قرب مكَّة ، يبعد عن الطَّريق المعبَّدة حوالي ثمانية كيلو مترات.

.[١٩٠]البداية والنهاية (١٨٨/٣).
.[١٩١]برزة: كهلةٌ ، كبيرة السن ، لا تحتجب احتجاب الشَّوَابِّ.
.[١٩٢]جَلْدَة: قوَّيةً صلبة ، وقيل: عاقلة.
.[١٩٣]تحتبي: أي تجلس وتضم يديها إحداهما إلى الأخرى ، على ركبتيها ، وتلك جلسة الأعراب.
.[١٩٤]مرملين: نفد زادهم.
.[١٩٥]مسنتين: أي: داخلين في سَنَةٍ ، وهي الجدب ، والمجاعة ، والقحط.
.[١٩٦]كسر الخيمة ـ بفتح الكاف وكسرها ، وسكون المهملة ـ أي: جانبها.
.[١٩٧]تفاجَّت: فتحت ما بين رجليها للحلب.
.[١٩٨]دَرَّت: أرسلت اللَّبن.
.[١٩٩]واجترَّت: من الجِرَّة ، وهي ما تخرجها البهيمة من كرشها تمضغها.
.[٢٠٠]يربض: يرويهم حتَّى يثقلوا ، فيربضوا ، أي: يقعوا على الأرض للنَّوم والرَّاحة.

.[٢٠١]ثجّاً: السَّيلان ، ومعنى ثجَّاً: لبناً كثيراً سائلاً.
.[٢٠٢]علاه البهاء: أي: علا الإناء بهاء اللَّبن.
.[٢٠٣]أراضوا: أي: رَوَوا ، فنقعوا بالرَّي ، يريد شربوا مرَّة بعد مرَّةٍ حتى رَوَوْا.
.[٢٠٤]عجافاً: ضد السَّمن ، وهو جمع عجفاء وهي المهزولة.
.[٢٠٥]يتساوكن هُزلاً: يتمايلن من الضَّعف.
.[٢٠٦]عازب: بعيدة المرعى لا تأوي إلى البيت إلا في اللَّيل ، حيال: لم تحمل.
.[٢٠٧]ظاهر الوضاءة: ظاهر الجمال والحسن.
.[٢٠٨]أبلج الوجه: مشرق الوجه مضيئه.
.[٢٠٩]نُحلة: من النُّحول ، والدقَّة ، والضُّمور ، أي: أنَّه ليس نحيلاً.
.[٢١٠]صَعْلة: صغر الرأس ، وهي تعني الدقَّة والنُّحول في البدن.
.[٢١١]وسيم: الوسيم المشهور بالحسن ، كأنَّ الحسن صار له سمةً.
.[٢١٢]دَعَج: شدَّة سواد العين في شدَّة بياضها.
.[٢١٣]في أشفاره وَطَفٌ: في شعر أجفانه طول.
.[٢١٤]صَهَل: كالبُحَّة وهو ألا يكون حادَّ الصوت.

.[٢١٥]سطع: طول العنق.
.[٢١٦]أزج: دقيق شعر الحاجبين مع طولهما.
.[٢١٧]أقرن: متصل ما بين الحاجبين من الشَّعر ، أو مقرون الحاجبين.
.[٢١٨]سما: علا برأسه ، أو بيده وارتفع.
.[٢١٩]لا هذر ، ولا نزر: الهذر من الكلام ما لا فائدة فيه ، والنَّزر: القليل ، والمعنى: وسط ، لا قليل ، ولا كثير.

.[٢٢٠]رَبْع: ليس بالقصير ، ولا بالطويل.
.[٢٢١]لابأس من طول: لا يجاوز الناس طولاً.
.[٢٢٢]لا تقتحمه العين من قصر: لا تزدريه ، ولا تحتقره.
.[٢٢٣]محفود: مخدوم.
.[٢٢٤]محشود: يجتمع الناس حواليه.
.[٢٢٥]لا عابس ولا مفنَّد: ليس عابس الوجه ، ولا مفنَّد: ليس منسوباً إلى الجهل ، وقلَّة العقل.
.[٢٢٦]قالا: نزلا في وقت القيلولة على الخيمتين.
.[٢٢٧]وسؤدد: من السِّيادة.
.[٢٢٨]حائل: غير حامل.
.[٢٢٩]مزبد: الصريح ومعناها الخالص ، والضرة: لحم الضرع.
.[٢٣٠]انظر: الهجرة النبوية المباركة ، ص ١٠٧.

.[٢٣١]أسودة: جمع قلَّةٍ لسواد ، وهو الشَّخص يُرى من بعيد أسود ، الهجرة في القران ، ص ٣٤٤.
.[٢٣٢]الأكمة: وهي الرَّابية.
.[٢٣٣]الزج: الحديدة في أسفل الرُّمح.
.[٢٣٤]الأزلام: الأقداح التي كانت في الجاهليَّة ، مكتوب عليها الأمر ، أو النهي: افعل ، أو لا تفعل.
.[٢٣٥]ساخت يدا فرسي: أي: غاصت في الأرض.
.[٢٣٦]عُثان: أي: دخان ، وجمعه عواثن على غير قياسٍ ، النِّهاية (١٨٣/٣).
.[٢٣٧]فلم يرزاني: أي: لم يأخذا مني شيئاً.

.[٢٣٨]أدم: قطعة من جلد.

.[٢٣٩]التَّزبب في الإنسان: كثرة الشَّعر ، وطوله.
.[٢٤٠]انظر: الرَّوض الأنف (٤/٢١٨) والهجرة في القران ، ص ٣٤٦.
.[٢٤١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٤٩٥).
.[٢٤٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٤٩٤) ، وانظر أيضاً: فتح الباري ، شرح حديث رقم (٣٩٠٦).

.[٢٤٣]أطم ـ بضم أوله وثانيه ـ: الحصن.
.[٢٤٤]مُبيَّضين: عليهم ثياب بيض.
.[٢٤٥]السَّراب: أي: يزول السَّراب عن النَّظر بسبب عروضهم له.
.[٢٤٦]جدُّكم: حظُّكم وصاحب دولتكم الَّذي تتوقَّعونه.
.[٢٤٧]قال الحافظ ابن حجر: هذا هو المعتمد ، وشذَّ من قال: يوم الجمعة ، (الفتح شرح حديث رقم ٣٩٠٦).
.[٢٤٨]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٥١.
.[٢٤٩]المصدر السابق نفسه ، ص ٣٥٢.
.[٢٥٠]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٥٣.

.[٢٥١]الضَّمير هنا للنَّبيِّ (ص) فتح الباري (٧/٢٥١).
.[٢٥٢]يخترف: أي: يجتني من ثمارها ، انظر: النِّهاية (٢/٢٤).
.[٢٥٣]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٥٤.
.[٢٥٤]مقيلاً: أي: مكاناً تقع فيه القيلولة.
.[٢٥٥]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٥٥.

.[٢٥٦]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٩٩.
.[٢٥٧]المصدر السابق نفسه ، ص ٢٠٠.

.[٢٥٨]الأساس في السُّنَّة ، لسعيد حوَّى (٣٥٧/١).

.[٢٥٩]في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ١٤١.
.[٢٦٠]انظر: من معين السِّيرة ، ص ١٤٧.
.[٢٦١]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٦١.

.[٢٦٢]انظر: أضواء على الهجرة ، لتوفيق محمَّد ، ص ٣٩٣ ـ ٣٩٧.
.[٢٦٣]انظر: من معين السِّيرة ، ص ١٤٨.

.[٢٦٤]انظر: المستفاد من قصص القران (١٠٨/٢).
.[٢٦٥]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٢٠٦.
.[٢٦٦]المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٦.

.[٢٦٧]انظر: السيرة النبوية ، لابن هشام (١٠٢/٢) ، وإسناده صحيح.
.[٢٦٨]السَّفْسَافُ: الرَّديءُ الحقير من كل شيء ، والجمع: سَفَاسِف.
.[٢٦٩]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٢٨.
.[٢٧٠]انظر: فقه السِّيرة ، للدُّكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، ص ١٩٣.

.[٢٧١]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٦٤.
.[٢٧٢]انظر: من معين السِّيرة ، ص ١٤٨ ، ١٤٩.
.[٢٧٣]في البخاريِّ: «وعرضت عليهم الزاد والمتاع ، فلم يَرْزاني» رقم (٣٩٠٦).

.[٢٧٤]انظر: في ظلال الهجرة النَّبويَّة ، ص ٥٨.
.[٢٧٥]انظر: التربية القياديَّة (١٩١/٢ ، ١٩٢).
.[٢٧٦]السِّيرة النَّبويَّة دروسٌ وعبرٌ ، للسِّباعي ، ص ٧١.

.[٢٧٧]البخاريُّ ، رقم (٣٩١١).

.[٢٧٨]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٢٠٤.
.[٢٧٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٢٥٤.
.[٢٨٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للسِّباعي ، ص ٦٨.
.[٢٨١]انظر: الهجرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٥٤.
.[٢٨٢]انظر: الحركة السَّنوسيَّة في ليبيا، للصَّلابي (٧/٢) ، والشَّاعر هو: أحمد رفيق المهدوي.

.[٢٨٣]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٢٠٥.
.[٢٨٤]انظر: الهجرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٥٩ ، وشرح المواهب (٤٠٥/١).
.[٢٨٥]انظر: الإصابة (١٤٦/١).

.[٢٨٦]انظر: المستدرك على الصَّحيحين (٩٢/٤) رقم ٦٩٨١ صحيح الإسناد.
.[٢٨٧]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (١٧٨/٣).
.[٢٨٨]انظر: السِّيرة النبوية ، لأبي شهبة (٤٩٥/١).
.[٢٨٩]المصدر السَّابق نفسه (٤٩٥/١) ، وصحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ١٨١.

.[٢٩٠]انظر: الهجرة النَّبوية المباركة ، ص ٤٠٥.
.[٢٩١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للسِّباعي ، ص ٤٣ ، والهجرة في القران الكريم ، ص ٣٦٧.
.[٢٩٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٣٥٨ ، ٣٥٩.

.[٢٩٣]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٦٥.
.[٢٩٤]انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول (ص) ، لمحمَّد سيِّد الوكيل ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، بتصرُّف.
.[٢٩٥]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٢٠٢.

.[٢٩٦]انظر: بناء المجتمع الإسلامي في عصر النبوة ، لمحمد توفيق ، ص ١١٩.
.[٢٩٧]المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٢ ، ١٢٣.
.[٢٩٨]انظر: فقه السيرة ، للبوطي ، ص ١٧٢.

.[٢٩٩]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ .
.[٣٠٠]الوعك: الحمَّى.
.[٣٠١]بطوقه: بطاقته.
.[٣٠٢]بروقه: بقرنه.
.[٣٠٣]عقيرته: صوته ، قال الأصمعيُّ: إنَّ رجلاً عُقرت رجله ، فرفعها على الأخرى وجعل يصيح ، فصار كل من رفع صوته يقال له: رفع عقيرته وإن لم يرفع رجله. .[٣٠٤]الإذخر: نباتٌ طيِّب الرَّائحة.
.[٣٠٥]شامة وطفيل: جبلان مشرفان على مِجَنَّة على بريد مكة.

.[٣٠٦]انظر: التَّربية القياديَّة (٢/٣١٠).
.[٣٠٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٤٨٩ ، ٤٩٠).
.[٣٠٨]الحُبُّ: الجرَّة الضَّخمة.
.[٣٠٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/٢٢٠).

.[٣١٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٤٩٧).
.[٣١١]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمد الصَّادق عرجون (٢/٤٢١) ، ويأثر ذلك: أي: يرويه ويحكيه.
.[٣١٢]المصدر السابق نفسه (٢/٤٢٣).
.[٣١٣]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ١٧٥ .

.[٣١٤]انظر: الهجرة النَّبوية ، لمحمد أبو فارس ، ص ١٣ .
.[٣١٥]انظر: مباحث في علوم القران ، للقطَّان ، ص ٥٩ .
.[٣١٦]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٨٤.

.[٣١٧]المصدر السابق نفسه ، ص ٨٥ ، وهذا المبحث أخذته من هذا الكتاب مع التصرُّف اليسير.
.[٣١٨]المصدر السَّابق نفسه ، ص ٨٦.
.[٣١٩]انظر: تفسير البغوي (٤/٣١٨).

.[٣٢٠]جَذعاً: شاباً قوياً. انظر: شرح صحيح مسلم ، للنَّوويِّ.
.[٣٢١]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ١٠٤.
.[٣٢٢]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ١٠٦.

.[٣٢٣]في ظلال القران (٣٢٨٨/٦).
.[٣٢٤]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ١١٤ إلى ١١٧.
.[٣٢٥]الجامع لأحكام القران (٥٠/٣) ، وتفسير أبي السُّعود (٢١٨/١).

.[٣٢٦]أقفلهم: بمعنى أرجعهم سالمين.
.[٣٢٧]تفسير ابن كثير (٣٩٧/٢).
.[٣٢٨]تفسير ابن كثير ، (٤٦٦/٣).

.[٣٢٩]انظر: تفسير الرَّازي (٢٠٨/١٥).
.[٣٣٠]في ظلال القران (١٧٠٣/٣).
.[٣٣١]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ١٢٤.

.[٣٣٢]تفسير ابن كثير (٣٣٢/٢).
.[٣٣٣]تفسير أبي السُّعود (٥٣/٤).

.[٣٣٤]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ١٢٩.
.[٣٣٥]انظر: تفسير ابن كثير (٢٩٥/٤) ، وتفسير أبي السعود (٢٢٨/٨) ، وتفسير فتح القدير (٢٠٠/٥) ، والهجرة في القران الكريم ، ص ١٣٢.

.[٣٣٦]في ظلال القران (٧٤٥/٢).
.[٣٣٧]سياقة الموت: أي النَّزع ، كأنَّ روحه تساق لتخرج من بدنه.
.[٣٣٨]أطباق ثلاث: أحوال ثلاث ، واحدها طبق.
.[٣٣٩]فشنُّوا عليَّ التُّراب: أي صبُّوه متفرقاً ، انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ١٣٦.

.[٣٤٠]انظر: شرح النَّووي لصحيح مسلمٍ للحديث المذكور ، والهجرة في القران الكريم ، ص ١٣٨.
.[٣٤١]انظر: تفسير الرازي (١٣/١٦) وما بعدها بتصرف.
.[٣٤٢]تفسير المراغي (٧٨/١٠).

.[٣٤٣]تفسير الرَّازي (١٤/١٦).
.[٣٤٤]في ظلال القران (١٦١٤/٣) ، والهجرة في القران الكريم ، ص ١٤١.
.[٣٤٥]تفسير فتح القدير (٣٤٥/٢) ، والهجرة في القران الكريم ، ص ١٤٢.
.[٣٤٦]تفسير ابن كثير (٣٢٠/٢) ، وتفسير المراغي (٧٩/١٠) ، والهجرة في القران الكريم ، ص ١٤٤.

.[٣٤٧]في ظلال القران (١٧٠٥/٣).
.[٣٤٨]انظر: هجرة الرَّسول (ص) وصحابته في القران والسُّنَّة ، للجمل ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٣.
.[٣٤٩]ولا شك أنَّ سلطان الدَّولة المسلمة يحافظ على مقاصد الشَّريعة.
.[٣٥٠]تفسير سورة فصلت ، د. محمد صالح علي ، دار النفائس ، ص ٩٨ ، نقلاً عن الهجرة في القران الكريم ، ص ١٥١.
.[٣٥١]زاد المسير ، لابن الجوزي (٩٧/٢) ، وتفسير القاسمي (٣٩٩/٣).
.[٣٥٢]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ١٦١.
.[٣٥٣]في ظلال القران (٤٧٣/٢).

.[٣٥٤]روح المعاني ، للالوسي (١٢٨/٥ ، ١٢٩) ، وأسباب النزول ، للواحدي ، ص ١٨١.
.[٣٥٥]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٢٤.
.[٣٥٦]المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٥.
.[٣٥٧]المصدر السَّابق نفسه ، ص ١٢٦.
.[٣٥٨]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ١٦٧.

.[٣٥٩]ينظر الشكلان (١٢ و١٣) في الصفحتين (٧٤٨ و٧٤٩).

.[٣٦٠]انظر: فقه السِّيرة ، للغزالي ، ص ١٩١ ، وفقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ١٥١.
.[٣٦١]مربد: الموضع الذي يُجفَّف فيه التَّمر. القاموس المحيط (٣٠٤/١).

. انظر: البداية والنِّهاية (٣٠٣/٣)، وانظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري لدولة المدينة، لعلي معطي، ص ١٥٦.
. انظر: البداية والنِّهاية (٣٠٣/٣)، ومحمَّد رسول الله، لمحمَّد رضا، ص ١٤٣.
. انظر: التَّاريخ السياسيُّ والعسكريُّ لدولة المدينة، لعلي معطي، ص ١٥٧.
. انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٣٦/٢).
. انظر التَّاريخ الإسلامي، للحميدي (١٣/٤).
. انظر: تفصيل ذلك في صحيح البخاريِّ، كتاب الأذان، باب بدء الأذان، رقم (٦٠٣ ، ٦٠٤).

.[٣٦٢]انظر: نور اليقين ، للخضري ، ص (٨٧ ، ٨٨) ، وتاريخ خليفة بن خياط ، ص ٥٦ ، نقلاً عن تاريخ دولة الإسلام الأولى ، د. فايد حمَّاد عاشور ، وسليمان أبو عزب ، ص ١٠٨.
.[٣٦٣]انظر: وفاء الوفا ، للسَّمهودي (٣٢١/١).
.[٣٦٤]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢٥٨/١).
.[٣٦٥]انظر: نظام الحكومة النَّبوية المسمَّى التراتيب الإداريَّة ، لعبد الحيِّ الكتاني (٤٧٤/١).
.[٣٦٦]الفتاوى (٣٨/١١).
.[٣٦٧]انظر: فتح الباري ، في شرح حديث رقم (٣٥٨١).

.[٣٦٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّة وبناء دولة ، للشَّامي ، ص ١٧٥.
.[٣٦٩]الفتاوى (٤٠/١١ ، ٤١).
.[٣٧٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة تربيةُ أمَّة وبناء دولة ، ص ١٧٥.
.[٣٧١]انظر: وفاء الوفا ، للسَّمهودي (٣٢٣/١).
.[٣٧٢]سنن أبي داود (٣٦١/٢).
.[٣٧٣]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢٥٨/١).

.[٣٧٤]المصدر السابق نفسه (١/٢٥٩).
.[٣٧٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٢٥٩).
.[٣٧٦]المصدر السابق نفسه (١/٢٥٩).

.[٣٧٧]السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٢٦٦).
.[٣٧٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٢٦٧).

.[٣٧٩]سنن أبي داود (٢/٢٣٧) ، وابن ماجه (٢/٧٣٠).
.[٣٨٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٢٦٤).
.[٣٨١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٢٦٤).
.[٣٨٢]المصدر السابق نفسه.
.[٣٨٣]المصدر السَّابق نفسه.

.[٣٨٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّة وبناء دولة ، ص ١٨٤.
.[٣٨٥]المصدر السابق نفسه.
.[٣٨٦]انظر: المدينة النَّبوية فجر الإسلام والعصر الرَّاشديّ ، لشُرَّاب (١/٢٢٢).

.[٣٨٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٢٦٢).

.[٣٨٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٢٦٣).

.[٣٨٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّةٍ وبناء دولةٍ ، ص ١٨٦.
.[٣٩٠]المصدر السابق نفسه ، ص ١٨٨.
.[٣٩١]انظر: فقه السيرة ، للبوطي ، ص ٢٠٣.
.[٣٩٢]محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصادق عرجون (٣/٣٣).

.[٣٩٣]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/٣٤ ، ٣٥).

[٣٩٤]المَغَبَّةُ من كلِّ شيءٍ: عاقبتُه ، واخرُه.

[٣٩٥]انظر: محمَّدٌ رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣٦/٣).

[٣٩٦]انظر: محمَّدٌ رسول الله (ص) ، لمحمد الصَّادق عرجون (٣٣/٣).

[٣٩٧]انظر: التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ ، د. علي معطي ، ص ١٥٨ .

[٣٩٨]انظر: صورٌ من حياة الرَّسول (ص) ، لأمين دويدار ، ص ٢٦١ .

[٣٩٩]انظر: التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ ، د. علي معطي ، ص ١٥٨ .

[٤٠٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤٩٦/١) ، وفتح الباري ، وشرح حديث رقم (٣٩٠٦).

[٤٠١]انظر: التَّربية القياديَّة (٢٤٩/٢) ، والبخاريُّ ، حديث رقم (٣٩٠٦) وشرحه في فتح الباري.

[٤٠٢]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصادق عرجون (١٥/٣).

[٤٠٣]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصادق عرجون (١٥/٣).

[٤٠٤]انظر: التَّربية القياديَّة (٢٥٢/٢).

[٤٠٥]انظر: قراءةٌ سياسيَّةٌ للسيرة النَّبويَّة ، لمحمد قلعجي ، ص ١١٤ .

[٤٠٦]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، لكامل سلامة الدَّقس ، ص ٤٣٨ .

[٤٠٧]المصدر السابق نفسه ، ص ٤٣٩ .

[٤٠٨]انظر: فقه السِّيرة النبوية ، للبوطي ، ص ١٤٥ .

[٤٠٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٣٣/٢).

[٤١٠]انظر: محمَّدٌ رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣٩/٣).

[٤١١]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ١٤٦ .

[٤١٢]انظر: تفسير الطَّبري (٤٧٦/١٤ . ٤٧٩).

[٤١٣]انظر: الأحاديث الواردة في فضائل المدينة ، د. صالح الرِّفاعي ، ص ٣٧٢ .

[٤١٤]انظر: منهاج السُّنَّة النَّبويَّة (٧٤/٧).

.[٤١٥]انظر: مجموع الفتاوى (٢٧/٤٠٦).
.[٤١٦]فتح الباري (٧/٢٤٥).

.[٤١٧]انظر: الطَّبقات الكبرى ، لابن سعدٍ (١/٢٥٥).
.[٤١٨]انظر: تفسير الطَّبري (٥/٥٩١) ، والسِّيرة النَّبوية الصَّحيحة ، للعمري (١/٢٦٩).

.[٤١٩]انظر: الإدارة الإسلاميَّة في عصر عمر بن الخطَّاب ، د. مجدلاوي ، ص ٥٢ ، ٥٣.
.[٤٢٠]أي: لا يتركه مع مَنْ يؤذيه ، ولا فيما يؤذيه؛ بل ينصره ، ويدفع عنه.
.[٤٢١]كربة: أي: غمة.

.[٤٢٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة ، للعمري (١/٢٤٠).
.[٤٢٣]أنساب الأشراف ، للبلاذري (١/٢٧٠) ، وابن هشام في السيرة النبوية (٢/١٥٠ ـ ١٥٢).
.[٤٢٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٢٤٠).
.[٤٢٥]المصدر السابق نفسه (١/٢٤٠).
.[٤٢٦]فتح الباري (٧/٤٧١).
.[٤٢٧]يعني: المؤاخاة في المدينة.
.[٤٢٨]زاد المعاد (٢/٧٩).
.[٤٢٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير.

.[٤٣٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٢٤١).
.[٤٣١]انظر: فقه السِّيرة ، للغزاليِّ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤.
.[٤٣٢]انظر: فصولٌ في السِّيرة النَّبوية ، د. عبد المنعم السَّيِّد ، ص ٢٠٠.

.[٤٣٣]انظر: هجرة الرَّسول (ص) وصحابته في القران والسُّنَّة ، للجمل ، ص ٢٤٥.
.[٤٣٤]انظر: التَّربية القياديَّة (٢/٢٨٤).

.[٤٣٥]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/٩٤).

[٤٣٦]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/٩٥).
[٤٣٧]المصدر السابق نفسه.
[٤٣٨]المصدر السَّابق نفسه ، (٣/٩٦).
[٤٣٩]انظر: محمَّدٌ رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/٩٨).

[٤٤٠]المصدر السابق نفسه ، (٣/١٠٠).
[٤٤١]بلتعة: تبلتع الرَّجل: إذا تظرَّف.
[٤٤٢]انظر: ابن هشام (٢/١٠٩ ـ ١١١) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/٣٢٤).
[٤٤٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٢٥٢).

[٤٤٤]انظر: الهجرة في القران الكريم ، لأحزمي جزولي ، ص ٤١٧.

[٤٤٥]في ظلال القران (٢/٩١١).

[٤٤٦]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ١٥٦.
[٤٤٧]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/١٢٩).

[٤٤٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/٢٥٤).
[٤٤٩]نزلتُ لك عنها: أي: طلَّقتها لأجلك ، فإذا حلَّت: أي: انقضت عدَّتها.
[٤٥٠]قينقاع: قبيلة من اليهود نسب السُّوق إليهم.
[٤٥١]تابع الغُدُوَّ: أي: داوم الذَّهاب إلى السُّوق للتجارة.

[٤٥٢]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ (٤/٣٠).
[٤٥٣]يعني: كفونا العمل ، وأشركونا في الثَّمرة.
[٤٥٤]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (٤/٤٠٦).

.[٤٥٥]في ظلال القران (٣٥٢٦/٦).
.[٤٥٦]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص (٢١١ ، ٢١٢).

.[٤٥٧]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢٤٦/١).
.[٤٥٨]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٢٥/٤).
.[٤٥٩]هذه الجملة من رواية الطَّبري بنفس إسناد البخاريِّ (فتح الباري ٢٤٩/٨).

.[٤٦٠]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٤١١.
.[٤٦١]انظر: التربية القياديَّة (٢٨٦/٢).
.[٤٦٢]انظر: الطَّريق إلى المدينة ، لمحمد العبده ، ص ١٠ ، ١٠١.

.[٤٦٣]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (١٥٢/٣).
.[٤٦٤]انظر: فقه التَّمكين في القران الكريم للصَّلابي ، ص ٢٥٣.

.[٤٦٥]انظر: شرح رسالة التَّعاليم ، د. محمَّد عبد الله الخطيب ، ص (٢٩٦).
.[٤٦٦]انظر: الهجرة النَّبوية المباركة ، لعبد الرحمن البر ، (ص ١٣١ ـ ١٣٥).

.[٤٦٧]مُتْنَاً: يعني متفضِّلاً عليهم بذلك.
.[٤٦٨]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٤٢.
.[٤٦٩]كانت وقعة الحرَّة في سنة ثلاث وستين ، وسببها: أنَّ أهل المدينة خلعوا بيعة يزيد بن معاوية؛ لما بلغهم ما يتعمَّده من الفساد ، فأرسل إليهم يزيدُ بنُ معاوية مسلمَ بن عقبة المرّي في جيشٍ كثير ، فهزمهم ، واستباحوا المدينة ، وقُتِلَ من الأنصار شيءٌ كثير ، وكان أنسٌ يومئذ بالبصرة ، فبلغه ذلك ، فحزن على من أصيب من الأنصار ، فكتب إليه زيد بن أرقم ـ وكان يومئذٍ بالكوفة ـ يسلِّيه ، ومحصَّل ذلك: أنَّ الذي يصير إلى مغفرة الله ، لا يشتدُّ الحزن عليه ، فكان ذلك تعزيةً لأنس فيهم.
.[٤٧٠]هذه الزيادة ثابتةٌ عند مسلمٍ ، في كتاب فضائل الصَّحابة رضي الله عنهم ، باب من فضائل الأنصار رضي الله عنهم ، رقم (٢٥٠٦ ، ٢٥٠٧).

.[٤٧١]أوفى الله له بأذنه: أي: بسمعه ، وهو بضمِّ الهمزة والذَّال ، ويجوز فتحهما ، أي: أظهر صدقه فيما أعلم به.

.[٤٧٢]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٥٠.

.[٤٧٣]كرشي ، وعيبتي: أي: بطانتي ، وخاصَّتي ، يريد أنَّهم موضع سرِّه ، وأمانته.

.[٤٧٤]قال ابن حجر: «أي: أنَّ الأنصار يقلُّون ، وفيه إشارة إلى دخول قبائل العرب والعجم في الإسلام، وهم أضعاف أضعاف قبيلة الأنصار ، فمهما فُرض في الأنصار من الكثرة كالتناسل؛ فُرض في كلِّ طائفة من أولئك ، فهم أبداً بالنِّسبة إلى غيرهم قليل. ويحتمل أن يكون (ص) اطَّلع على أنَّهم يقلُّون مطلقاً ، فأخبر بذلك ، فكان كما أخبر؛ لأنَّ الموجودين الان من ذرِّية عليٍّ بن أبي طالبٍ ممَّن يتحقَّق نسبه إليه أضعاف من يوجد من قبيلتي الأوس والخزرج ممَّن يتحقق نسبه ، وقس على ذلك ، ولا التفات إلى كثرة مَنْ يدَّعي: أنَّه منهم بغير برهانٍ» فتح الباري ، شرح حديث رقم (٣٨٠١).

.[٤٧٥]قضوا الَّذي عليهم: يشير إلى ما وقع لهم ليلة العقبة من المبايعة ، فإنهم بايعوا على أن يؤووا النَّبيَّ (ص) ، وينصروه على أنَّ لهم الجنَّة ، فوفوا بذلك. فتح الباري ، شرح حديث رقم (٣٧٩٩) ، وهذا الحديث موجودٌ بنحوه في البخاريِّ ، رقم (٣٧٩٩).

.[٤٧٦]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٥١ ومن أراد المزيد؛ فليرجع إلى صحيح البخاريِّ ، كتاب مناقب الأنصار حديث رقم (٣٧٧٦ ، ٣٩٤٨) ومسلم ، كتاب فضائل الصَّحابة رضي الله عنهم ، حديث رقم (٢٥٠٥ ، ٢٥١٣).

.[٤٧٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري ، (١/٢٧٥).

.[٤٧٨]تنظيمات الرَّسول (ص) الإدارية في المدينة ، لصالح العلي ، ص ٤ ـ ٥.

.[٤٧٩]مجموعة الوثائق السِّياسية، لمحمَّد حميد الله ، ص ٤١ ـ ٤٧ ، وابن هشام (٢/١٤٧ ـ ١٥٠).

.[٤٨٠]الربعة: الحال الَّتي جاء الإسلام، وهم عليها.

.[٤٨١]العاني: الأسير.

.[٤٨٢]معاقلهم: المعاقل أي: الدِّيات ، الواحدة: معقلة.

.[٤٨٣]مُفْرَحاً: أي: المثقل بالدَّين ، والكثير العيال.

.[٤٨٤]دسيعة: عظيمة.

.[٤٨٥]يُبأى: من «البَوَاء» وهو المساواة.
.[٤٨٦]أي: قتله دون جنايةٍ ، أو سببٍ يوجب قتله.
.[٤٨٧]القود: القصاص.
.[٤٨٨]المحدث: يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول ، فمعنى الكسر: من نصر جانياً ، واواه ، وأجاره من خصمه ، وحال بينه وبين أن يقتصَّ منه ، وبالفتح: هو الأمر المبتدع نفسه ، ويكون معنى الإيواء فيه الرِّضا به ، والصَّبر عليه ، فإنَّه إذا رضي بالبدعة ، وأقرَّ فاعلها ، ولم ينكرها عليه؛ فقد اواه.
.[٤٨٩]يوتغ: يهلك ، والوتغ ـ بالتَّحريك ـ: الهلاك. والمعنى: فسد ، وهلك ، وأثم.

.[٤٩٠]انظر: مجموعة الوثائق السِّياسيَّة ، ص ٤١ ـ ٤٧.
.[٤٩١]انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، د. علي معطي ، ص ١٦٩.
.[٤٩٢]انظر: دستورٌ للأمَّة ، د. عبد النَّاصر العطَّار ، ص ٩.
.[٤٩٣]انظر: التَّاريخ السِّياسيُّ والحضاريُّ ، د. السَّيِّد عبد العزيز سالم ، ص ١٠٠.
.[٤٩٤]انظر: قيادة الرَّسول (ص) السِّياسيَّة والعسكريَّة ، لأحمد راتب ، ص ٩٣.

.[٤٩٥]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/٢٩٣).
.[٤٩٦]تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ، وسيرة ابن هشام (١/٥٥٠).
.[٤٩٧]الكَتَم: جَنْبَةٌ من الفصيلة المرسينية ، قريبة من الاس ، تنبت في المناطق الجبلية ، وكانت تُستعمل قديماً في الخِضابِ ، وَصُنْعِ المِداد.
.[٤٩٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٢٩٣).
.[٤٩٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، (١/٢٩٣).

.[٥٠٠]انظر: نظام الحكم ، لظافر القاسمي (١/٣٧).
.[٥٠١]انظر: التَّاريخ السِّياسيُّ والحضاريُّ ، للسيد عبد العزيز ، ص ١٠٢.

.[٥٠٢]انظر: تفسير المنار (٣٠٩/١٢).
.[٥٠٣]انظر: الحكم والتَّحاكم في خطاب الوحي (٤٣٣/١).

.[٥٠٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢٩١/١).
.[٥٠٥]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التَّكوين إلى التَّمكين ، ص ٤١٨.

.[٥٠٦]المصدر السابق نفسه ، ص ٤٢٠.
.[٥٠٧]انظر: نظام الحكم ، لظافر القاسمي (٣٨/١).
.[٥٠٨]قال (ص) : «المدينة حَرَمٌ ما بين عَيْرٍ إلى ثَوْر ، فمن أحدث فيها حدثاً ، أو اوى مُحْدِثاً ، فعليه لعنة الله...» البخاري (٦٧٥٥) ، ومسلمٌ ، كتاب الحجِّ ، باب فضل المدينة... وبيان حدود حرمها ، رقم (١٣٧٠).
.[٥٠٩]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، ص ٤١١.

.[٥١٠]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، ص ٤٢١.
.[٥١١]المصدر السابق نفسه ، ص ٤٢٠.
.[٥١٢]انظر: النظام السِّياسيُّ في الإسلام ، لأبي فارس ، ص ٦٥.
.[٥١٣]انظر: النِّظام السِّياسيُّ في الإسلام ، لأبي فارس ، ص ٥٨.

.[٥١٤]المصدر السابق نفسه ، ص ٥٢.
.[٥١٥]انظر: الحكومة الإسلاميَّة ، ص ٢٠٢.

.[٥١٦]يلج: يدخل.
.[٥١٧]انظر: محمد رسول الله (ص) (١٤٢/٣ ، ١٤٣ ، ١٤٤).
.[٥١٨]المصدر نفسه (١٤٤/٣ ، ١٤٥).

.[٥١٩]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، (١٤٥/٣).
.[٥٢٠]انظر: الرَّوض الأُنف (١٧/٢) ، نقلاً عن نظام الحكم ، للقاسمي (٣٨/١).

.[٥٢١]انظر: مبادأى نظام الحكم في الإسلام ، لعبد الحميد متولِّي ، ص ٣٨٥.
.[٥٢٢]انظر: الأخلاق الإسلاميَّة وأسسها ، للميداني (٦٢٤/١).
.[٥٢٣]انظر: فلسفة التَّربية الإسلاميَّة ، لماجد الكيلاني ، ص ١٧٩.
.[٥٢٤]انظر: مبادأى علم الإدارة ، لمحمَّد نور الدِّين ، ص ١١٦.

.[٥٢٥]انظر: فقه التمكين ، د. علي الصَّلابي ، ص ٤٦٣.
.[٥٢٦]انظر: فقه التَّمكين ، ص ٤٦٦.
.[٥٢٧]انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، د. محمد فوزي فيض الله، ص (٢٩، ٣٠).

.[٥٢٨]انظر: هجرة الرَّسول (ص) وصحابته ، للجمل ، ص ٢٦١.
.[٥٢٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٥١٨/١ ، ٥١٩).
.[٥٣٠]انظر: الصِّراع مع اليهود ، لمحمد أبو فارس (٣١/١).
.[٥٣١]المصدر السابق نفسه (٣١/١ . ٤٦).

.[٥٣٢]انظر: الصِّراع مع اليهود (٤٤/١).
.[٥٣٣]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٣٧/٤).
.[٥٣٤]عَسَا: كَبِرَتْ سِنُّه.
.[٥٣٥]قيلة: أمُّ الأوس والخزرج.
.[٥٣٦]جَذَعَة: أي: رددنا الحرب فتيةً قويَّةً ، أو: رددنا الاخر إلى أوله.

.[٥٣٧]انظر: سيرة ابن هشام (٢١١/٢ . ٢١٤).
.[٥٣٨]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ (٤١/٤ . ٤٢).

.[٥٣٩]المِدْراس: مكان يُتلى فيه التَّوراة.
.[٥٤٠]انظر: تفسير القرطبيِّ (٢٩٥/٤).
.[٥٤١]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٥٥٨/١ . ٥٥٩) ، وسبل الهدى والرَّشاد (٥٨٣/٣ . ٥٨٥) ، وتفسير مجاهد ، ص ١٤٠.

.[٥٤٢]انظر: الصِّراع مع اليهود (٥١/١).
.[٥٤٣]السَّام: الموت. انظر: زاد المسير (١٨٩/٨).
.[٥٤٤]زاد المسير في علم التفسير (١٨٩/٨) ، رواه ابن أبي حاتم من حديث الأعمش عن مسروقٍ ، عن عائشة ، وإسناده صحيحٌ.

.[٥٤٥]انظر: حوار الرَّسول (ص) مع اليهود ، د. محسن النَّاظر ، ص ١٠١.
.[٥٤٦]انظر: حوار الرَّسول (ص) مع اليهود ، د. محسن النَّاظر ، ص ٨٧.
.[٥٤٧]انظر: ابن هشام في السِّيرة (٥٦٧/١) ، وتفسير ابن جرير (٤٤٢/١) ، وانظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة ، لعبد الله الشَّقاري (٢٤٢/١ ـ ٢٤٣).
.[٥٤٨]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهرة (٢٤١/١) ، وتفسير ابن كثير: سورة الإسراء الاية (٨٥).

.[٥٤٩]انظر: تفسير النَّسفي (٢١/١).
.[٥٥٠]انظر: سيرة الرَّسول (ص) ، لدروزة (١٧٩/٢ ، ١٨٠).
.[٥٥١]المصدر السابق نفسه (١٨٠/٢).
.[٥٥٢]انظر: النكت والعيون ، للماوردي (٢٠٣/٤).

.[٥٥٣]قطيفة فدكية: كساءٌ غليظٌ منسوبٌ إلى فَدَك ، وهي بلدٌ مشهور على مرحلتين من المدينة.
.[٥٥٤]يتثاورون: أي: يتواثبون ، والمعنى: كادوا أن يَثِبَ بعضهم على بعضٍ فيقتتلوا ، ويقال: ثار ، إذا قام بسرعةٍ وانزعاجٍ.
.[٥٥٥]البحيرة: لفظ يطلق على القرية والبلد ، والمراد به هنا المدينة النَّبويَّة.
.[٥٥٦]يعني: يرئِّسونه عليهم ، ويسودونه.

.[٥٥٧]انظر: الصِّراع مع اليهود (٥٩/١).
.[٥٥٨]انظر: أسباب النزول ، للواحديِّ ، ص ١١٤.
.[٥٥٩]الشوكة: حُمرةٌ تعلو الوجه والجسد.
.[٥٦٠]أتَمَحَّلنَّ: أي: لأحاولنَّ له في حيلةٍ يشفى بواسطتها ، انظر: النهاية (٣٠٣/٤).

.[٥٦١]حَوْران: هي كيةٌ مُدَوَّرةٌ ، من: حار يحور إذا رجع ، وحوّره: إذا كواه هذه الكية ، وتسمى حوراء أيضاً ، انظر: النِّهاية (٤٥٩/١).

.[٥٦٢]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٢٦٥/١).

.[٥٦٣]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٢٥٨/١).

.[٥٦٤]هو بالرفع؛ عطفاً على اليهود.

.[٥٦٥]انظر الصِّراع مع اليهود (١٠٢/١).

.[٥٦٦]انظر: تفسير أبي السُّعود (١٧١/١).

.[٥٦٧]المصدر السابق نفسه (١٧٠/١).

.[٥٦٨]كانت رسالة الماجستير للمؤلف حول هذه الاية (الوسطية في القران الكريم) وتحدَّث عنها في حوالي ٧٠٠ صفحة.

.[٥٦٩]انظر تفسير ابن كثير في تفسيره لتلك الاية.

.[٥٧٠]انظر تفسير ابن كثير في تفسيره لتلك الاية ، (٤٣٠/٢).

.[٥٧١]انظر: تفسير البيضاوي ، نقلاً عن الصِّراع مع اليهود (١٠١/١).

.[٥٧٢]انظر: الصِّراع مع اليهود (١٠١/١).

.[٥٧٣]انظر: تفسير ابن كثير (٣٣٧/١).

.[٥٧٤]في ظلال القران ج ١٣١/٢ ـ ١٣٣.

ـ الخَطَلُ: الكلامُ الفاسدُ الكثيرُ المضطرب.

ـ انظر: الصِّاع مع اليهود (١٠٠/١).

ـ انظر: الأساس في السُّنَّة (٤٤٠/١).

.[٥٧٥]الصُّقْع: الناحية ، والجمع: أَصْقَاع.

.[٥٧٦]انظر: التَّربية القياديَّة (٤٣٨/٢ ـ ٤٤٢).

.[٥٧٧]المصدر السابق نفسه ، (٢/٤٤٢).

.[٥٧٨]راجع الرِّسالة القيمة: «اليهود في السُّنَّة المطهَّرة» ، د. عبد الله الشقاري.

.[٥٧٩]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٢/٥٠٧).
.[٥٨٠]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٢/٥٠٩).

.[٥٨١]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٢/٤٦٣ ـ ٤٨٢).

.[٥٨٢]انظر: الصِّراع مع اليهود (١/٧٠).
.[٥٨٣]انظر: اليهود في السنَّة المطهَّرة (٢/٤٩٥ ـ ٤٩٦).
.[٥٨٤]انظر: تفسير الطَّبريِّ (٦/١٠٥).

.[٥٨٥]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٢/٤٨٧ ـ ٤٨٨).
.[٥٨٦]انظر: دراساتٌ في السِّيرة ، ص ١٥١.
.[٥٨٧]اغْتَرَّ فلانٌ بكذا: خُدِعَ به.

.[٥٨٨]عُرْض الشَّيء: جانبه ، وناحيته. ويقال: ضربَ بالأمر عُرْض الحائط: أهمله ، ولم يُبالِ به.
.[٥٨٩]انظر: العهد والميثاق في القران الكريم ، د. ناصر العمر ، ص ١٢١.
.[٥٩٠]انظر: تفسير الطَّبري (٨/٣٠) ، والتَّحرير والتَّنوير(١٠/٤٨).
.[٥٩١]انظر: الصِّراع مع اليهود (١/٨٠).
.[٥٩٢]المصدر السابق نفسه ، (١/٧٩).

.[٥٩٣]انظر: قضايا في المنهج ، لسلمان العودة ، ص ٨٤ ـ ٨٥.
.[٥٩٤]مُنِيَ بكذا: ابْتُلِيَ به.

.[٥٩٥]انظر: قضايا في المنهج ، ص ٨٦.

.[٥٩٦]انظر: قضايا في المنهج ، ص ٨٦ ـ ٨٧.

.[٥٩٧]انظر: مفاتيح الغيب ، للفخر الرَّازي (٣/٥١٤).

.[٥٩٨]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٤٣٨.
.[٥٩٩]انظر: تفسير الالوسي (٦/١٠٨).
.[٦٠٠]انظر: القتال والجهاد ، لمحمد خير هيكل (١/٤٦٣ ، ٤٦٤).

.[٦٠١]انظر: دراساتٌ في السِّيرة ص ١٦١.

.[٦٠٢]منهج الإسلام في تزكية النَّفس ، د. أنس أحمد كرزون (١/٢٩٣).
.[٦٠٣]المصدر السابق نفسه (١/٢٩٤).

.[٦٠٤]أي: أن يبيع الرَّجل لغيره سلعةً ، ثم يشتريها منه بثمنٍ أقلَّ.
.[٦٠٥]معناه: اتخذتم الماشية للحرث والرَّي ، وعكفتم على ذلك ، فلم تنشغلوا إلا به.

.[٦٠٦]في ظلال القران (١/١٨٧).
.[٦٠٧]تفسير النَّسفي (٣/١٠٦) ، والكشَّاف (٣/١٦) ، وتفسير المراغي (٦/١١٩).

.[٦٠٨]تفسير ابن كثير (١/٢٦٢).
.[٦٠٩]تفسير الكشَّاف (١/٣٨٢) ، وتفسير أبي السُّعود (١/٢٤٥).
.[٦١٠]تفسير السَّعدي (١/٣٠٩).
.[٦١١]تفسير ابن كثير (٤/١٥٤).

.[٦١٢]الزَّغلُ: الغِشُّ.
.[٦١٣]شال الميزان: ارتفعت إحدى كفَّتيه ، انظر: لسان العرب (١١/٣٧٥).
.[٦١٤]في ظلال القران (٦/٣٢٨٦).

.[٦١٥]انظر: تفسير ابن كثير (٣٧١/١).

.[٦١٦]انظر: الجهاد في سبيل الله ، د. عبد الله القادري (١٦٢/٢).

.[٦١٧]انظر: تفسير القرطبي (٢٧٩/٥).

.[٦١٨]انظر: المغني (٢٧٩/٩).

.[٦١٩]انظر: حاشية ابن عابدين (١٢٤/٤).

.[٦٢٠]انظر: المبسوط ، للسَّرخسي (٨٥/١٠).

.[٦٢١]انظر: فقه التمكين في القران الكريم ، للصَّلابي ، ص ٤٨٨ .

.[٦٢٢]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٤٥٣ .

.[٦٢٣]الحركات العسكريَّة للرَّسول الأعظم (ص) في كفتي الميزان ، لسيف الدِّين ، ص ٦٢ .

.[٦٢٤]قَوَّض البناء: هَدَمَه ، وتَقَوَّضت الصُّفوف والمجالسُ: تفرَّقت.

.[٦٢٥]انظر: مرويات غزوة بدر ، لأحمد باوزير ، ص ٧٩.

.[٦٢٦]جمع صابأى: أي الخارج عن دينه. وكان المشركون يسمُّون من أسلم صابئاً.

.[٦٢٧]انظر: سيرة ابن هشام (الروض الأنف ١٩٢/٢).

.[٦٢٨]انظر: الجهاد والقتال (٤٧٦/١).

.[٦٢٩]انظر: الجهاد والقتال (٤٧٧/١).

.[٦٣٠]قيل: سمِّيت بذلك لما فيها من الوباء.

.[٦٣١]ودَّان: قرية قريبة من الأبواء.

.[٦٣٢]انظر: جيش النَّبي (ص) ، لمحمود شيت خطاب، ص ٥٤ ، والرَّاجل: خِلاف الفارس، والجمع: رَجَّالةٌ.

.[٦٣٣]انظر: طبقات ابن سعد (٧/٢).

.[٦٣٤]انظر: حديث القران عن غزوات الرَّسول (ص) ، د. محمد بكر ال عباد (٤٠/١).

.[٦٣٥]سيف: السِّيف ـ بالكسر ـ: الشاطأى والسَّاحل ، والجمع: أسياف.

.[٦٣٦]سيف البحر: ساحله من ناحية العيص.
.[٦٣٧]العيص ـ بالكسر ـ: مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر.
.[٦٣٨]انظر: سيرة ابن هشام (١/٥٩٥).
.[٦٣٩]بُواط ـ بفتح الموحدة وضمّها ـ: جبلٌ من جبال جهينة ، بناحية رضوى بقرب ينبع.

.[٦٤٠]العشيرة: موضع بين مكّة والمدينة من ناحية ينبع على ساحل البحر الأحمر. (مراصد الاطلاع: ٢/٩٤٣). .[٦٤١]انظر: طبقات ابن سعد (٢/١٠).
.[٦٤٢]المصدر السابق نفسه (٢/١١).
.[٦٤٣]علم لموضع بالحجاز قرب الجحفة ، انظر: (مراصد الاطلاع: ١/٤٥٥).
.[٦٤٤]انظر: سيرة ابن هشام (٢/٦٠٠).
.[٦٤٥]السَّرح: الإبل والمواشي التي تسرح للرعي بالغداة.
.[٦٤٦]انظر: سيرة ابن هشام (٢/٦٠١).
.[٦٤٧]نخلة اليمانية: وادٍ عسكرت به هوازن يوم حنين.

.[٦٤٨]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١/٤٣) ، وقد كانت هذه السَّريَّة في شهر رجب ، وهو أحد الأشهر الحُرم ، فلمَّا كانوا في اخر يومٍ من رجب وتعرضوا لهذه القافلة ، تشاوروا ، وقالوا: نحن في اخر يومٍ من رجب ، فإن قاتلناهم؛ انتهكنا الشَّهر الحرام ، وإن تركناهم الليلة؛ دخلوا الحرم ، ثمَّ اجتمعوا على اللقاء ، فقتلوا ، وأسروا ، وأنكر رسول الله (ص) ما فعلوه ، وقال: «ما أمرتكم بقتالٍ في الشَّهر الحرام» فنزلت الاية.
.[٦٤٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٧٥ ، ٧٦).
.[٦٥٠]انظر: من معين السِّيرة ، ص ١٧٥.

.[٦٥١]في ظلال السيرة ـ غزوة بدر ، لأبي فارس ، ص ١٢.
.[٦٥٢]انظر: الوثائق السِّياسيَّة ، لحميد الله ، ص ٦٥.
.[٦٥٣]انظر: الرَّوض الأُنف (٥/٤٣).
.[٦٥٤]انظر: دراسات في عهد النُّبوَّة ، للشُّجاع ، ص ١٦٣.

.[٦٥٥]انظر: تفسير القرطبيّ (٦/٢٣٠).
.[٦٥٦]انظر: ولاية الشرطة في الإسلام ، د. عمر محمد الحميداني ، ص ٦٣.

.[٦٥٧]كناية عن التأبيد والاستمرار.
.[٦٥٨]الوثائق السِّياسيَّة ، لمحمد حميد الله ، ص ٢٢٠ رقم (١٥٩).
.[٦٥٩]انظر: نشأة الدَّولة الإسلاميَّة ، د. عون الشريف ، ص ٤٣.
.[٦٦٠]انظر: الفقه السِّياسي ، لخالد سليمان الفهداوي ، ص ١١٩.
.[٦٦١]المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٤.
.[٦٦٢]هذه القاعدة أصلها حديثٌ نبويٌّ.

.[٦٦٣]انظر: المدخل الفقهي ، للشَّيخ الزرقا ، ص ٩٧٢.
.[٦٦٤]انظر: الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعية ، د. محمد خير هيكل (٤٧٩/١).
.[٦٦٥]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، ص ٥٣٠.
.[٦٦٦]انظر: الدَّعوة الإسلامية ، د. عبد الغفار عزيز ، ص ٢٩٦.
.[٦٦٧]انظر: صحيح سنن التِّرمذيّ (٢٧٧/٢).
.[٦٦٨]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، د. بريكك العُمري ، ص ٩١.

.[٦٦٩]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٩٢.
.[٦٧٠]انظر: مجموعة الوثائق السِّياسيَّة ، لمحمد حميد الله ، ص ٦٢.
.[٦٧١]انظر: المواهب اللَّدنيَّة (٧٥/١).
.[٦٧٢]انظر: طبقات ابن سعد (٦/٢) ، وانظر: السَّرايا والبعوث ، ص ٨٥.
.[٦٧٣]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٨٦.
.[٦٧٤]انظر: الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعية (٤٧٨/١ ، ٤٧٩).

.[٦٧٥]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٨٦.
.[٦٧٦]حَنق عليه حنقاً: اشتد غيظه ، فهو حنقٌ ، وحنيقٌ.

.[٦٧٧]القردان: جمع قراد وهي دويبة تعض الإبل.

.[٦٧٨]المناسم: جمع منسم ، وهو طرف خُفِّ البعير ، وقيل: هو للنَّاقة كالظُّفر للإنسان.

.[٦٧٩]كناية عن الأوس والخزرج ، فقيلة أمُّهم وكانوا يُنسبون إليها.

.[٦٨٠]انظر: سيرة ابن هشام (٢١٨/١ ، ٢١٩).

.[٦٨١]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ مواقف وعبر (٧١/٤).

.[٦٨٢]المصدر السابق نفسه.

.[٦٨٣]انظر: مكَّة والمدينة في الجاهلية وعهد الرَّسول (ص) ، للأستاذ أحمد الشريف ، ص ٤٤٥.

.[٦٨٤]انظر: السرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ١٠٠.

.[٦٨٥]انظر: مكَّة والمدينة في الجاهلية وعهد الرَّسول (ص) ، للأستاذ أحمد الشريف ، ص٤٤٥.

.[٦٨٦]انظر: سيرة ابن هشام (٦٠٣/١ ، ٦٠٤).

.[٦٨٧]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ (٧٢/٤).

.[٦٨٨]سقط في أيديهم: أي: ندموا على ما فعلوا ، وهو تعبير قرانيٌّ في سورة الأعراف ، الاية (١٤٩).

.[٦٨٩]انظر: دولة الرسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، ص ٥٣٣.

.[٦٩٠]انظر: السرايا والبعوث النبوية ، ص ١٠٠.

.[٦٩١]المصدر السابق نفسه.

.[٦٩٢]المصدر السابق نفسه.

.[٦٩٣]انظر: غزوة بدر الكبرى ، لمحمد أبو فارس ، ص ٢٣.

.[٦٩٤]انظر: الرَّسول القائد (ص) ، لخطاب ، ص ٩٤.

.[٦٩٥]انظر: سيرة ابن هشام (٦٠٢/٢) من رواية ابن إسحاق عن عروة.

.[٦٩٦]انظر: الطَّبقات الكبرى ، لابن سعدٍ (٦/٢).

.[٦٩٧]انظر: غزوة بدر الكبرى ، لأبي فارس ، (ص ١٤ ـ ٢٤).

.[٦٩٨]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، ص ٥٣٢.
.[٦٩٩]انظر: سورة قريش (١ . ٤).
.[٧٠٠]انظر: المجتمع المدني ، د. أكرم ضياء العمري ، ص ٢٧.
.[٧٠١]انظر: دراسات في السِّيرة ، لمؤنس ، ص ١٩.
.[٧٠٢]انظر: دراسات في عهد النُّبوة ، د. عبد الرحمن الشُّجاع ، ص ١٣١.

.[٧٠٣]المتَنَبِّل: هو الذي يناول السَّهم للرَّامي.

.[٧٠٤]الخلصة: بفتح الخاء المعجمة واللاَّم ، بعدها مهملةٌ ، وحكى ابن دريد فتح أوله ، وإسكان ثانيه ، وحكى ابن هشام ضمَّهما ، وقيل: بفتح أوله وضمِّ ثانيه ، والأوَّل أشهر ، وانظر: فتح الباري ، شرح حديث رقم (٤٣٥٥).
.[٧٠٥]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبوية ، (ص ٦١ . ٦٥).
.[٧٠٦]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبوية ، (ص ٦٥ . ٦٦).

.[٧٠٧]انظر: الظلال (٢٧/١) وما بعدها.
.[٧٠٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لدروزة (٧٣/٢ . ٧٦) نقلاً عن: دراسات في عهد النُّبوة، د. عبد الرحمن الشُّجاع ، ص ١٧٢.

.[٧٠٩]يقال: جاء القومُ قاطبةً: أي: جميعاً.
.[٧١٠]التمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٦٢.
.[٧١١]انظر: مناهج واداب الصَّحابة في التَّعلُّم والتَّعليم ، د. عبد الرحمن البر ، ص ٥٩ ، ٦٠.

.[٧١٢]عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ (ص) كان يُحَدِّث حديثاً لو عدَّه العادُّ؛ لأحصاه ، انظر: البخاريِّ رقم (٣٥٦٧).
.[٧١٣]أسبِّح: أصلي النَّافلة ، وهي السُّبحة ، وقيل: صلاة الضُّحى.
.[٧١٤]يتخوَّلنا: يتعهدنا.
.[٧١٥]انظر: مناهج واداب الصَّحابة ، ص ٦٥.

.[٧١٦]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٥ ، وكلُّ وسائل التَّعليم النبويَّة اختصرتها من هذا الكتاب القيِّم.
.[٧١٧]انظر: مناهج واداب الصَّحابة ، ص ٦٧.
.[٧١٨]أي: ليكن العلم هنيئاً لك.

.[٧١٩]انظر: مناهج واداب الصَّحابة ، ص ٦٩.
.[٧٢٠]كنفته: يعني: عن جانبه ، والكنف ـ بالتَّحريك ـ: النَّاحية ، والجانب.
.[٧٢١]جدي أسكَّ: أي: صغير الأذنين.

.[٧٢٢]القهقَرى: المشي إلى خلف ، من غير أن يعيد وجهه إلى جهة مشيه.
.[٧٢٣]ولتعلَّموا: أي: لتتعلموا ، فحذف إحدى التاءين.
.[٧٢٤]انظر: مناهج واداب الصَّحابة في التعلُّم والتَّعليم ، ص ٧٤.
.[٧٢٥]المصدر السابق نفسه ، ص ٨٥.

.[٧٢٦]المصدر السابق نفسه . ص ٨٦.
.[٧٢٧]وا: حرف للنُّدبة والحسرة ، والثكل: فقدان المرأة ولدها ، وأمِيَّاه ـ هو بكسر الميم ـ: أي: يا أمَّاه.
.[٧٢٨]ما كَهرني: أي: ما انتهرني.

.[٧٢٩]الرُّغاء: صوت الإبل عند رفع الأحمال عليها ، والخوار: صوت البقر ، وتيعر: يعني: تصيح.

.[٧٣٠]فتح الباري (١/١٨٧).
.[٧٣١]السَّبْيُ: الأسرى.
.[٧٣٢]تَحْلُبُ ثديَها ، وفي لفظٍ اخر: تَحَلَّبَ ثديُها ، أو ثدياها: أي: تهيأ لأن يُحْلَبَ.
.[٧٣٣]تسقي: تبتغي ولداً ترضعه؛ لأنَّ ثديها قد امتلأ ، وتضرَّرت باجتماع اللبن فيه ، وفي روايةٍ (تسعى): وهو من السَّعي ، وهو المشي بسرعة ، أي: تسعى للبحث عن ولدها الَّذي فُقِدَ منها.
.[٧٣٤]أتُرَوْنَ ـ بضم المثناة ـ: أي: أتظنُّون.

.[٧٣٥]أي: لا تطرحه ما دامت تقدر على حفظه معها ووقايته وعدم طرحه في النَّار.
.[٧٣٦]الرَّسول المعلِّم (ص) ، لعبد الفتاح أبو غدة ، ص ١٦٠ ، وهذا المبحث اختصرته من مناهج واداب الصَّحابة في التعلم والتعليم ، للدُّكتور عبد الرحمن البر.

.[٧٣٧]انظر: الرَّسول المعلم (ص) وأساليبه في التَّعليم ، ص ٣٠.
.[٧٣٨]انظر: مناهج واداب الصَّحابة ، ص ٧٧.
.[٧٣٩]المصدر السابق نفسه ، ص ٨٧.

.[٧٤٠]غُرْلاً: جمع أغرَل ، وهو الأقلف ، والغُرْلَة: القُلفة، والقُلفة: هي القطعة التي تُقطع من الذَّكر عند الختان.
.[٧٤١]أقِصَّه: أمكِّنَهُ من أخذ القصاص ممَّن ظلمه.
.[٧٤٢]انظر: مناهج واداب الصَّحابة ، ص ٨٠.
.[٧٤٣]أخرجه الخطيب في الجامع (١/٣٦٣ ـ ٣٦٤) وفيه يزيد الرقاشي وهو ضعيف.
.[٧٤٤]أخرجه الخطيب في الجامع (٢/٨٦) رقم (١٢٢٩) ، والسَّمعاني في أدب الإملاء والاستملاء، ص ٤٨.

.[٧٤٥]انظر: مناهج واداب الصَّحابة ، ص ٩٦.
.[٧٤٦]أخرجه أبو خيثمة زهير بن حرب بإسنادٍ صحيحٍ في كتاب العلم ، ص ٢٠ ، رقم (٧٧).
.[٧٤٧]شرح النَّوويِّ على مسلم (٣/٧٤١) طبعة الشَّعب.

.[٧٤٨]أي: بيع ما يجهله المتبايعان ، أو ما لا يُوثَقُ بتسلُّمه ، كبيع السَّمك في الماء.
.[٧٤٩]انظر: أحكام السُّوق في الإسلام ، لأحمد الدرويش ، ص ٣٥ ، ٣٦.

.[٧٥٠]تحفة الأحوذي ، بشرح جامع التِّرمذيِّ (٩/٣٨٦).
.[٧٥١]السَّخَب ، ويقال: الصَّخَب: رفع الصَّوت بالخصام.
.[٧٥٢]انظر: أحكام السُّوق في الإسلام ، ص ٤١.

.[٧٥٣]اللَّعَّانيْن: المراد بها الأمرين الجالبين لِلَّعن ، الحاملين النَّاس عليه ، وقد يكون اللاَّعن بمعنى الملعون ، والتَّقدير: اتقوا الأمرين الملعون فاعلُهما.

.[٧٥٤]النَّبل: السِّهام العربيَّة ، ولا واحد لها من لفظها.
.[٧٥٥]النَّصْل: حديدة السَّهم ، والرُّمح ، والسَّيف ما لم يكن له مقبض.
.[٧٥٦]انظر: أحكام السُّوق ، ص ٤٤.
.[٧٥٧]مَنْفَقَة ، ومَمْحَقة: فيه النَّهي عن الحَلِف في البيع؛ فإنَّ الحلف من غير حاجةٍ مكروهٌ ، وينضمَّ إليه ترويج السِّلعة ، وربما اغترَّ المشتري باليمين.
.[٧٥٨]شرح السُّيوطي على سنن النَّسائي (٧/٢٤٦).

.[٧٥٩]في ظلال السِّيرة النَّبويَّة ـ الهجرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٧٠.
.[٧٦٠]انظر: أحكام السُّوق في الإسلام ، ص ٥٣.
.[٧٦١]انظر: أحكام السُّوق في الإسلام ، ص ٥٨٥ ، ٥٨٦.
.[٧٦٢]انظر: زاد المسير ، لابن الجوزي (٧/٧٧).

.[٧٦٣]انظر: أسباب هلاك الأمم السَّالفة ، لسعيد محمَّد ، ص ٤٤٦.
.[٧٦٤]انظر: دراساتٌ في عصر النُّبوَّة ، للشُّجاع ، (ص ١٦٦ ـ ١٦٨).

.[٧٦٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/١٠٦) ، ومنهج الإسلام في تزكية النَّفس (١/٢٥١ ، ٢٥٢).
.[٧٦٦]انظر: منهج الإسلام في تزكية النَّفس (١/٢٦٨ ، ٢٦٩).

.[٧٦٧]انظر: المال في القران الكريم ، لسليمان الحصين ، ص ٣٣٤.
.[٧٦٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/١٠٩).
.[٧٦٩]المصدر السابق نفسه (٢/١١٠).
.[٧٧٠]صحيح سنن النَّسَائي ، للألباني ، كتاب الزَّكاة ، باب فرض صدقة الفطر قبل نزول الزَّكاة ، ورقمه (٢٥٠٦) وصححه.

.[٧٧١]فتح الباري (٣/٢٠٧).
.[٧٧٢]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٢/١١١).

.[٧٧٣]انظر: فقه الزَّكاة ، للقرضاوي (١/٧٧).
.[٧٧٤]المصدر السابق نفسه ، (١/٧٠).

.[٧٧٥]الأموال ، ص ٣٥ نقلاً عن فقه الزَّكاة (١/٧٠).
.[٧٧٦]انظر: فقه الزَّكاة (١/٧٨).
.[٧٧٧]المصدر السابق نفسه (١/٨٩).

.[٧٧٨]انظر: منهج الإسلام في تزكية النفس (١/٢٤٩).
.[٧٧٩]انظر: المال في القران الكريم ، ص٢٤٠.
.[٧٨٠]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٢/١١٥).

.[٧٨١]انظر: من معين السِّيرة ، ص ١٦٨.
.[٧٨٢]انظر: الأساس في السُّنَّة (١/٤٢٠).
.[٧٨٣]انظر: سيرة ابن هشام (١/٤٢٤).
.[٧٨٤]انظر: من معين السِّيرة ، ص ١٧١.

.[٧٨٥]انظر: شرح الزُّرقاني على المواهب (١/٣٥٥) نقلاً عن (من معين السيرة).
.[٧٨٦]انظر: من معين السيرة ، ص ١٧١.
.[٧٨٧]المصدر السابق نفسه.
.[٧٨٨]انظر: من معين السِّيرة ، ص ١٧٢.
.[٧٨٩]المصدر السابق نفسه ، ص ١٧٣.

.[٧٩٠]ينظر الشكلان (١٤ و١٥) في الصفحتين (٧٥٠ و٧٥١).

.[٧٩١]قُدِّرتْ قيمة البضائع التي تحملها القافلة بحوالي ٥٠ ألف دينار ، انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (ص) (٢٨٦/١).
.[٧٩٢]جوامع السِّيرة ، لابن حزم ص ١٠٧.
.[٧٩٣]ورد هذا الاسم في مسلمٍ هكذا: «بُسَيْسَة» في كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشَّهيد ، رقم (١٩٠١) ، قال النَّووي في شرحه على الحديث: «هكذا في جميع النسخ ، والمعروف في كتب السيرة (بَسْبَس)... قلت: يجوز أن يكون أحد اللفظين اسماً له ، والاخر لقباً».
.[٧٩٤]مسلمٌ ، رقم (١٩٠١).
.[٧٩٥]سيرة ابن هشام (٦١/٢) بسندٍ صحيح إلى ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما.
.[٧٩٦]انظر: حديث القران عن غزوات الرَّسول (ص) ، د. محمَّد ال عابد (٤٣/١).

.[٧٩٧]البداية والنِّهاية (٢٦٠/٣) ، والمستدرك للحاكم (٦٣٢/٣).
.[٧٩٨]هما عديٌّ بن أبي الزَّغْباء ، وبسبس بن عمرو ، انظر: الطَّبقات ، لابن سعد (٢٤/٢).
.[٧٩٩]الطَّبقات ، لابن سعد (٤٢/٢) بإسناد صحيح.
.[٨٠٠]البداية والنِّهاية (٣١٤/٣) وكذلك الطَّبقات ، وخليفة بن خيَّاط.
.[٨٠١]القَيْنَة: المغنِّية ، والجمع: قِيَان.
.[٨٠٢]البداية والنَّهاية (٢٦٠/٣).

.[٨٠٣]انظر: موسوعة نضرة النعيم (٢٨٧/١).
.[٨٠٤]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٢٣٠/٢).
.[٨٠٥]انظر: غزوة بدرٍ الكبرى ، لأبي فارس ، ص ٣٣ ، ٣٤.

.[٨٠٦]انظر: موسوعة نضرة النعيم (٢٨٧/١).
.[٨٠٧]اللَّطِيمة: القافلة المحمَّلة بشتَّى أنواع البضاعة غير الطعام.
.[٨٠٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢٢١/٢).
.[٨٠٩]نصحهم الأَخْنَسُ بن شريق بذلك ، انظر: ابن هشام (٢٣١/٢).
.[٨١٠]انظر: موسوعة نضرة النعيم (٢٨٧/١).

.[٨١١]البخاريُّ ، كتاب المغازي ، باب {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ} ، رقم (٣٩٥٢) ، وانظر: شرح هذا الحديث في فتح الباري.

.[٨١٢]انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (٢٨٨/١).
.[٨١٣]المقصود: المبالغة في عظمة ذلك المشهد ، وأنَّه كان لو خُيِّر بين أن يكون صاحبه وبين أن يحصل له ما يقابل ذلك ، لكان حصوله أحبَّ إليه.
.[٨١٤]انظر: غزوة بدر الكبرى ، لأبي فارس ، ص ٣٧.

.[٨١٥]انظر: زاد المعاد (١٧٢/٣).

. انظر سيرة ابن هشام (٢٢٨/٢).
. مسلمٌ، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنَّة للشَّهيد، شرح حديث رقم (١٩٠١).

.[٨١٦]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (١١٠/٤).

.[٨١٧]انظر: التَّربية القياديَّة (٢١/٣).
.[٨١٨]انظر: تفسير القرطبي (٢٥/٨).
.[٨١٩]انظر: حديث القران عن غزوات الرَّسول (ص) (٦٥/١ ، ٦٦).
.[٨٢٠]العُجْب: الكِبْرُ ، والزَّهْوُ.
.[٨٢١]انظر: تفسير الرَّازي (١٧٣/١٥) بتصرف يسير.

.[٨٢٢]انظر: تفسير القرطبي (٢٥/٨).
.[٨٢٣]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (٦٨/١).

.[٨٢٤]السَّحْرُ: الرِّئة ، وانتفاخ السَّحْر: كناية عن الجبن.
.[٨٢٥]هو عمرو بن الحَضْرمي الَّذي قتله وافد بن عبد الله في سريَّة عبد الله بن جحش في الشَّهر الحرام.

.[٨٢٦]ابن الحَنْظَلِيَّة هو أبو جهل ، وهي أسماء بنت مُخَرَّبة من بني تميم.
.[٨٢٧]المقصود هنا عامر أخو عمرو المتقدِّم.
.[٨٢٨]انظر: مرويات غزوة بدر ، ص ١٥٥ .

.[٨٢٩]البلايا: جمع بلية ، وهي النَّاقة أو الدَّابة تُربط على قبر الميت فلا تعلف ، ولا تسقى حتَّى تموت.
.[٨٣٠]مَنَايَا: جمع مَنِيَّة ، وهي الموت.
.[٨٣١]نواضح: الإبل الَّتي يُستقى عليها الماء.
.[٨٣٢]النَّاقع: الثَّابت البالغ في الإفناء ، يقال: موتٌ ناقعٌ ، أي: دائم.
.[٨٣٣]انظر: البداية والنِّهاية (٣/٢٦٩).
.[٨٣٤]سيرة ابن هشام (عقبة يتهكم بأمية لقعوده فيخرج).
.[٨٣٥]انظر: مرويات غزوة بدر ، (ص ١٣٨).

.[٨٣٦]انظر: المجتمع المدني في عصر النبوة ، للعمري ، (ص ١٣٨) وهذه القصة مروية في سيرة ابن هشام في باب (ذكر رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب).
.[٨٣٧]نَضْح: أصابه رشاشٌ من دمه.
.[٨٣٨]سيرة ابن هشام (رؤيا جُهَيْم بن الصَّلْت في مصارع قريش).
.[٨٣٩]حديث القران عن غزوات الرَّسول (ص) .

.[٨٤٠]انظر: تفسير الكشَّاف للزَّمخشريِّ (٢/١٦٠).
.[٨٤١]انظر: تفسير الطَّبري (١٠/١١).
.[٨٤٢]انظر: تفسير الالوسي (١٠/٧) بتصرف.
.[٨٤٣]انظر: تفسير الالوسي (١٠/٧) بتصرف.

.[٨٤٤]انظر: غزوة بدرٍ الكبرى ، ص ٦٦.

.[٨٤٥]الْمنَّةُ: الإحسان والإنعام ، والجمع: مِنَنٌ.

.[٨٤٦]انظر: تفسير القرطبيّ (٣٢٧/٧).
.[٨٤٧]انظر: تفسير الفخر الرَّازي (١٣٣/١٥).

.[٨٤٨]انظر: تفسير الطَّبري (١٩٥/٩).
.[٨٤٩]انظر: حديث القران عن غزوات الرَّسول (ص) (٩١/١).
.[٨٥٠]ينظر الشكل (١٦) في الصفحة (٧٥٢).
.[٨٥١]انظر: القيادة العسكريَّة ، د. محمَّد الرَّشيد ، ص ٤٠١ .
.[٨٥٢]انظر: الرَّسول القائد (ص) ، لخطَّاب ، ص ١١١ ، ١١٦ ، ١١٧ .

.[٨٥٣]انظر: غزوة بدرٍ الكبرى الحاسمة ، لمحمود خطَّاب ، ص ٢٣ ، ٢٤.
.[٨٥٤]انظر: المقدِّمة ، لابن خلدون ، ص ٢٧٣.
.[٨٥٥]المصدر السابق نفسه ، ص ٢٧١.

.[٨٥٦]المدخل إلى العقيدة والاستراتيجيَّة العسكريَّة ، لمحمَّد محفوظ ، ص ١٢١ .
.[٨٥٧]انظر: مقومات النَّصر ، د. أحمد أبو الشباب (١٥٤/٢).
.[٨٥٨]هذه الأمور الثلاثة موجودة في حديث رواه أبو داود ، قال رسول الله (ص) : «إذا أكثبوكم . يعني: اقتربوا منكم . فارموهم ، واسْتَبْقُوا نبلكم ، ولا تسلُّوا السُّيوف حتَّى يغشوكم». (أبو داود ، باب في سل السيوف عند اللقاء) وهذه المعاني المذكورة في الحديث ، وهي في صحيح البخاري ، في الحديثين رقم (٣٩٨٤ ، ٣٩٨٥).
.[٨٥٩]نَضَحَهُ بالنَّبل: إذا رماه به.
.[٨٦٠]انظر: غزوة بدرٍ الكبرى ، لأبي فارس ، ص ٦٣ ، ٦٤.
.[٨٦١]المصدر السابق نفسه.

.[٨٦٢]انظر: القيادة العسكرية ، ص ٤٥٣.
.[٨٦٣]عَشِيَ عَشاً ، وعَشَاوةً: ضعُفَ بصرُه ليلاً ، فهو أعشى.
.[٨٦٤]انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع التِّرمذيِّ (١٧٥/٧).

.[٨٦٥]انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول (ص) ، ص ٤٥٤.
.[٨٦٦]أقِدْني: اقتصَّ لي من نفسك.

.[٨٦٧]انظر: غزوة بدرٍ الكبرى ، لأبي فارس ، ص ٥٢.
.[٨٦٨]الأشَمُّ: المرتفع ، وهي شَمَّاءُ ، ويقال: جبلٌ أَشَمُّ ، والجمع: شُمٌّ.
.[٨٦٩]الوَغَى: الحَرْبُ؛ لما فيها من الصَّوت ، والجَلَبة.
.[٨٧٠]انظر: المدرسة النَّبويَّة العسكريَّة ، لأبي فارس ، ص ١٤٠.

.[٨٧١]انظر: صفة الصَّفوة (٤٨٨/١) وزاد المعاد (١٨٢/٣).
.[٨٧٢]الصِّنْدِيدُ: الشَّريفُ الشُّجاعُ ، والجمع: صَنَادِيدُ.
.[٨٧٣]قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: «إنَّ رسول الله (ص) كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس ، يقول: هذا مَصْرَعُ فلان غداً إن شاء الله ، قال عمر رضي الله عنه: فوالذي بعثه بالحق! ما أخطؤوا الحدودَ الَّتي حدَّ رسولُ الله (ص) ». رواه مسلمٌ ، كتاب الجنَّة وصفة نعيمها وأهلها ، رقم (٢٨٧٣).
.[٨٧٤]المدرسة العسكريَّة الإسلاميَّة ، لأبي فارس ، ص ١٤٣.
.[٨٧٥](لا يتقدمنَّ أحدٌ منكم إلى شيء حتَّى أكون أنا دونه): أي: قدَّامه متقدِّماً في ذلك الشَّيء؛ لئلا يفوت شيءٌ من المصالح التي لا تعلمونها.

.[٨٧٦]الخُيلاء: التكبُّر ، والعجب.
.[٨٧٧]تُحَادُّك: تعاديك.
.[٨٧٨]أحنهم: أهلكهم.
.[٨٧٩]انظر: التَّربية القياديَّة (٣٦/٣).

.[٨٨٠]انظر: المستفاد من قصص القران (١٢٥/٢).
.[٨٨١]انظر: الأساس في السنة وفقهها ، السِّيرة النَّبويَّة ، لسعيد حوى (٤٧٤/١).

.[٨٨٢]انظر: المستفاد من قصص القران (١٢٦/٢).
.[٨٨٣]انظر: الرَّحيق المختوم ، ص ١١٦ ـ ١١٨ ، والحديث رواه البخاريُّ ، رقم (٤٨٧٥).

.[٨٨٤]انظر: المستفاد من قصص القران (١٢٥/٢).
.[٨٨٥]انظر: تفسير الزَّمخشري (٢٢٥/٢) ، وتفسير ابن كثير (٣١٥/٢).

.[٨٨٦]انظر: موسوعة نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم (ص) (٢٩١/١).
.[٨٨٧]حَيْزُوم: اسم الفرس الَّذي يركبه المَلَكُ.
.[٨٨٨]خُطِم: الخطم الأثر على الأنف.
.[٨٨٩]الأَجْلَح: الَّذي انحسر شعره من جانبي رأسه ، فهو أجْلحُ ، وهي جَلْحَاءُ ، والجمع: جُلْحٌ.
.[٨٩٠]الأبلق: الَّذي ارتفع التحجيل إلى فخذيه.

.[٨٩١]انظر: المستفاد من قصص القران (١٣١/٢ ، ١٣٢).
.[٨٩٢]انظر: المستفاد من قصص القران (١٣١/٢ ، ١٣٢).

.[٨٩٣]انظر: التاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (١٤٥/٤).
.[٨٩٤]القَلِيب: البئر ، والجمع: قُلُبٌ.
.[٨٩٥]انظر: المستفاد من قصص القران (١٣٣/٢).
.[٨٩٦]انظر: موسوعة نضرة النعيم (٢٩١/١).

.[٨٩٧]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لصادق عرجون (٤٥٣/٣).
.[٨٩٨]الجِيفَةُ: جُثَّةُ الميت إذا أنْتَنَت ، والجمع: جِيَفٌ.
.[٨٩٩]الرَّكِيَّةُ: البئر لم تُطْوَ ، والجمع رَكَايَا ، ورُكِيٌّ.
.[٩٠٠]شفة الرَّكِيِّ: طرف البئر.

.[٩٠١]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، د. محمد فوزي فيض الله ، ص ٦٤.

.[٩٠٢]أضلع: أقوى ، وأعظم ، وأشدُّ.
.[٩٠٣]غمزني: قرصني.

.[٩٠٤]حتَّى يموتَ الأعجلُ منا: أي: الأقرب أجلاً.

.[٩٠٥]أنشب: ألبث.

.[٩٠٦]وإنَّما قضى (ص) بالسَّلَب لعمرو بن الجَمُوح وحده؛ لأن السَّلَب يستحقُّه من أثخن في القتل ، ولو شاركه غيره في الضَّرب ، أو الطعن ، وإنَّما قال النَّبيُّ (ص) : «كلاكما قتله» تطييباً لقلب الاخر؛ من حيث إنَّ له مشاركةً في قتله ، ومن ذلك عُلِمَ أنَّ ابن الجموح هو الَّذي أثخنه ، وأيضاً فإن مُعاذَ بن عفراء قُتِلَ في المعركة نفسها ، وأما الاخر فقد عاش إلى زمان عثمان رضي الله عنه.

.[٩٠٧]بَرَدَ: قارب على الموت ، وكان في النَّزع الأخير ، أو فَتَرَ وسَكَنَ ، والمعنيان متقاربان.

.[٩٠٨](أَعْمَدُ من رجل قتله قومه) أو (هل فوق رجل قتله قومه): أي: ليس عليَّ عارٌ؛ فلن أبعد أن أكون رجلاً قتله قومه.

.[٩٠٩]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (١٥٨/٤ ـ ١٦٠).

.[٩١٠]الشَّنَارُ: الأمر المشهور بالشُّنعَةِ والقُبْح ، ويقال: عارٌ وشَنَارٌ.

.[٩١١]رَزَأَهُ رُزْءاً: أصابه بمصيبة.

.[٩١٢]انظر: محمَّد رسول الله (ص) لصادق عرجون (٤٣١/٣ ، ٤٣٢).

.[٩١٣]الصَّاغية: صاغية الرَّجل: ما يميل إليه ، ويطلق على الأهل والمال.

.[٩١٤]أُحْرِزَهُ: أحميه.

.[٩١٥]وكان رجلاً ثقيلاً: أي: ضخم الجثَّة.

.[٩١٦]تجلَّلوه: طعنوه ، وأصابوه ، وفي رواية (فتخلَّلُوه) أي: أدخلوا أسيافَهم خلاله.

.[٩١٧]كذا في شرح السِّيرة والرَّوض ، قال السُّهيلي: «ها: تنبيه ، وذا: إشارة إلى نفسه ، وقال بعضهم: إلى القسم ، أي: هذا قسمي ، وأراها إشارة إلى المقسم ، وخفض اسم الله بحرف القسم أضمره ، وقام التَّنبيه مقامه ، كما يقوم الاستفهام مقامه ، فكأنَّه قال: ها أنذا مقسِمٌ ، وفصل بالاسم المقسم به بين (ها) و(ذا) ، فعلم أنَّه هو المقسم ، فاستغنى عن أنا ، ومثله قول أبي بكرٍ: لا ها اللهِ! في صحيح مسلمٍ (١٧٥١)».

.[٩١٨]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ للحميدي (١٥٢/٤ ، ١٥٣).

.[٩١٩]انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٤٤).
.[٩٢٠]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ للحميدي (٤/١٥٣).
.[٩٢١]المصدر السابق نفسه (٤/١٥٤).
.[٩٢٢]انظر: تفسير الطَّبري (١٠/٢١).
.[٩٢٣]مُدَجَّجٌ: بجيمين الأولى ثقيلةٌ ومفتوحةٌ ـ وقد تكسر ـ أي: مغطًّى بالسِّلاح؛ ولا يظهر منه شيء.
.[٩٢٤]العَنَزة: شبيه العُكازة لها زُجٌّ من أسفلها يُطْعَنُ به.
.[٩٢٥]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٤/١٥٤).

.[٩٢٦]المصدر السابق نفسه ، (٤/١٦٣).
.[٩٢٧]أطَنَّ: أطار.
.[٩٢٨]تَشْخُب: تسيل بصوتٍ.
.[٩٢٩]انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٣٧).
.[٩٣٠]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٤/١٥١) ، وسيرة ابن هشام (مقتل أميَّة بن خلف).
.[٩٣١]المصدر السابق نفسه ، (٤/١٥٢).
.[٩٣٢]المصدر السَّابق نفسه ، (٤/١٢١).

.[٩٣٣]الأساس في السُّنَّة وفقهها ، السِّيرة النَّبويَّة ، لسعيد حوَّى (١/٤٧٥).
.[٩٣٤]عفراء: بنت عبيد بن ثعلبة النَّجَّاريَّة ، شارك أولادها السَّبعة في غزوة بدرٍ.
.[٩٣٥]حاسراً: غير لابس الدِّرع.
.[٩٣٦]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٤٥ ، وانظر: الإصابة لابن حجر ، ترجمة عوف بن الحارث ، برقم (٦١٠٧).
.[٩٣٧]انظر: التَّربية القياديَّة (٢/٣١).
.[٩٣٨]الإصابة (٢/٢٣ ، ٢٤) رقم (٣١١٨).

.[٩٣٩]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٤/٨٧).

.[٩٤٠]الأطْوَادُ: جمع طَوْد ، وهو الجبل العظيم.

.[٩٤١]انظر: محمَّد رسول الله (ص) (٣/٤٤٦).

.[٩٤٢]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٤/١٧٤).

.[٩٤٣]السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٣١٧ ، نقلاً عن صفة الصفوة (١/٢٩٤) ، والمستدرك (٣/١٨٨) والإصابة (٣/٣٥).